مواهب الرحمن

في تفسير القرآن

تأليف

عبد الكريم محمد المدرس

دار إحياء التراث العربي
بيروت - لبنان

مواهب الرحمن

في تفسير القرآن

مواهب الرحمن
في تفسير القرآن

تأليف
عبد الكريم محمد المدرس

الجزء السابع

طبعة جديدة مصححة

دار إحياء التراث العربي
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الاولى
١٤٣٥هـ-٢٠١٤م

دار احياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع

العنوان الجديد:طريق المطار خلف اوتيل الغولدن بلازا

هاتف 009611540000 /009611455559 فاكس:009611850717

Email: darturath2012@hotmail.com

يطلب من

مكتبة القيروان العراق-كركوك شارع المتنبي -قرب سوق السراي موبايل:009647707152384

مكتبة امير كركوك عمارة خان الكبير -الطابق الأرضي موبايل:009647702304025

amirmaktaba@yahoo.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إن هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم

سورة غافر

مكية وهي خمس وثمانون آية
نزلت بعد الزمر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ
ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ٣ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ
ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٤ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ
نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۢ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ
لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ٥ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ
عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ٦﴾.

قوله: ﴿حمٓ﴾ بتفخيم الألف أي قراءتها على الاستقامة لا على وجه الإمالة وسكون الميم. والكلام فيه هو الكلام في نظيره ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ إما خبر عن حم، أو خبر مبتدأ محذوف راجع إلى القرآن الكريم المعهود المعروف بين المسلمين، والعزيز العليم نعتان، وكذلك قوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ﴾ والأوصاف لكونها مستعملة بدون قصد الحدوث بل بقصد الاستمرار كانت كالأسماء الجامدة فإضافتها معنوية مفيدة للتعريف مصححة لكونها نعوتاً لاسم الجلالة. وذكرها كذلك للترغيب والترهيب. والتوب مصدر بمعنى التوبة. وتوسيط الواو بين الأولين لإفادة الجمع بين الوصفين وأن مغفرة الذنوب ليست متوقفة على التوبة، فإن شاء عفا بدون التوبة، وإذا تاب العاصي جاز ردها وعدم قبولها. والطول الفضل بترك العقاب عن المستحق ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ فهو المعبود لأنه هو الخالق المستحق للمعبودية من حيث أنه واجب الوجود وما سواه مستفاد من إرادته وقدرته فلا يُعْبَدُ قطعاً و﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ فقط لا إلى غيره.

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي ما يجادل في آياته تعالى لغرض ردها والطعن فيها ومنع الناس عن الإيمان بها إلا الذين كفروا بها ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ﴾ ونفوذ أقاويلهم في قلوب أمثالهم من الجهلة ومشايعتهم لهم بعضهم لبعض ووصول أخبارهم أو نفوذ كلامهم ﴿فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ فإن البلاد قيمتها بأهل الرشاد لا بأهل السفه والبغي والعناد. وهم يمهلون مدة من الزمن ولكن لا يهملون فيؤخذ منهم من جانب العزيز المنتقم وهو شديد الأخذ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي وكذبت الأحزاب من بعدهم يعني الكفار المتحزبين على معاداة الرسل كعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وغيرهم فأهلكهم الله وأبادهم وكذلك من يمشي مشيتهم يغشاه من العذاب ما غشيهم ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ أي ليتمكنوا من إيقاع ما يريدون به من السوء وجادلوا بالباطل ﴿لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ أي ليزيلوا به دين الله الحق ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ بالإهلاك ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ كان عقاباً صارماً خارجاً عن الحساب ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي وكما وجب حكمه على الكفار الذين سبقوا ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي حكمه بالإهلاك ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ في عهدك ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي لأنهم أصحاب النار ومستحقون للتعذيب فيها.

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ﴾ مبتدأ يأتي خبره، والعرش في عرف الشرع جسم عظيم له وقوائم، ومعرفة حقيقته موكولة إلى الله العليم، وهو في الكبر بحيث يعد الكرسي وما فيه وما تحته من السماوات والأرض بالنسبة إليه كحلقة في فلاة ﴿وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ أي والذين من حول العرش وهم ملائكة ولا يعلم عددهم إلا الله ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي يسبحون الله ويحمدونه ويؤمنون به إيماناً كاملاً بمعناه التام وهذا التقييد للتشريف ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فإن المؤمنين إخوة ولو كان أخ

وليد عالم الخلق والآخر وليد عالم الأمر قائلين: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ يعني لا يفوت من علمك شيء ولا تقصر رحمتك عن شيء ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ أي رجعوا إليك من الكفر إلى الإيمان ومن العصيان إلى الطاعة والإحسان ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ أي واستقاموا على سلوك سبيلك وهو الصراط المستقيم ﴿وَقِهِمْ﴾ أي واحفظهم ﴿عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ﴾ أي ووعدت به من صلح ﴿مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي الغالب المطلق ﴿الْحَكِيمُ﴾ ذو الحكمة في كل تصرفاتك ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ أي واحفظهم من العذاب الوارد على السيئات، أو احفظهم من العقوبات التي هي سيئات وأمور صعبة غير مرغوبة على الإنسان ﴿وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ ومن تحفظه من العقوبات يوم القيامة فقد رحمته ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي الظفر بالسعادة ظفراً عظيماً جليل القدر عند كل مؤمن برب العالمين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ﴾ يوم القيامة عند تعذيبهم في جهنم ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ المقت البغض الشديد. يعني إنكم كنتم عندما يدعوكم الرسول إلى الإيمان بالله وحده فتكفرون به بدلاً عن الإيمان أبغضتم أنفسكم وعاديتموها أو لما دعي إنسان إلى خير فامتنع فمعناه أنه يعادي نفسه بنفسه فأبغضكم الله سبحانه جزاء لذلك، ولكن بغض الله لكم أكبر وأشد وأشق عليكم من بغضكم لأنفسكم لأن بغضكم لأنفسكم كان بمنعها عن الإيمان ولكن بغض الله لكم صار عذاباً ووبالاً ونكالاً عليكم في دار الآخرة إلى الأبد.

﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ
مِّن سَبِيلٍ ۝١١ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا
فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ۝١٢ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ
رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ۝١٣ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ
الْكَافِرُونَ ۝١٤ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ
عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ۝١٥ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ
الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۝١٦ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ
الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝١٧﴾.

﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ أي خلقتنا أمواتاً في بدء الخليقة حيث كُنّا نطفة في صلب الآباء وترائب الأمهات، وأحدثت فينا الموت مرة ثانية عند انقضاء آجالنا ﴿وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ إحياءة عند نفخ الروح فينا في بطون أمهاتنا، وإحياءة عند البعث من القبور ولَما أحييتنا للمرة الثانية للبعث والنشور وكنا قد أنكرناها في الدنيا ﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا﴾ وإجرامنا من حيث إنكار البعث الذي علمناه قطعاً ﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾؟ أي فهل هناك سبيل وطريق إلى خروجنا من هذه النار ورجوعنا إلى الحياة السابقة حتى نطيع رسولك ونؤمن بكل ما أتى به من عندك وجواب هذا الاستفهام بالنفي القطعي، أي لا سبيل لكم إليه، ويجب عليكم الاستمرار في العذاب ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ﴾ بلا ملابسة الشريك ﴿كَفَرۡتُمۡ﴾ بتوحيده ﴿وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾ وهذه الجملة إما مخرجة في مقام إظهار الأسف كما هو المعتاد أي ماذا نقول بعد أن تحقق القضاء بكفركم؟ أو معناها فما دام أنتم كفرتم بالتوحيد وآمنتم بالإشراك على خلاف ما هو المشروع فالحكم بوجوب بقائكم في النار لله العلي الكبير الجبار.

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي يجعلكم بحيث ترون آياته الدالة على شؤونه العظيمة الموجبة لتفرده بالألوهية ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ﴾ أي سبب رزق وهو المطر وبه تنبع المياه من العيون وينبت النبات والأشجار المثمرة والزراعات والفواكه ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ بتلك الآيات البينات ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ **أي يرجع إلى الله سبحانه وتعالى** ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ من الشرك ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

وقوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف أي هو رفيع الدرجات أي درجات صعود ملائكته من الأرض إلى السماوات فإلى العرش. وقيل: درجاته ثوابه لأهل طاعته من أنبيائه إلى أوليائه إلى صلحاء عباده، فهناك درجات، وكل قوم واقع على درجة، وكل شخص متصف بمقام خاص كما قالت الملائكة ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ﴾ وقيل: معناه رفيع الصفات، وقيل: معناه رفيع الدرجات أي له درجات لعباده في معرفة ذاته وصفاته، فمنهم من يعرفه بوجوه واعتبارات وضيعة حسب مستواه العلمي، ومنهم من يعرفه بشؤون أعلى من ذلك، فمثله كمثل جوهر معدني له آثار وصفاتٌ خاصة مختلفة لا يعرفها إلا المتخصصون بها. وقيل: إنه عالي الجاه ومرتفع المقام، ومن العباد إليه مقامات معنوية كثيرة لا تتناهى ولا يمكن طيها، فغاية ما يصل إليه العبد هو العرش وهو ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾ وصاحبه

وخالقه ولا يناسب مقامه لأنه موصوف بوجوب الوجود فلا علاقة له بما هو ممكن خاص يستوي في حقه العدم والوجود ﴿يُلْقِي ٱلرُّوحَ﴾ أي الوحي ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أن يكون مظهراً لتلك الروح ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ أي لينذر عباده بعذابه يوم لقائه في الآخرة ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ أي ظاهرون ذاتاً وأعمالاً ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾ أما ذواتهم فبذواتهم، وأما أعمالهم فبما كتب في سجلهم ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾؟ أي يقال من جانب العزيز الجبار: لمن الملك اليوم؟ ويجيب عنه ذاته المتعال فيقول: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ﴾ أي في هذا اليوم ﴿تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ﴾ الآزفة القريبة، أي وأنذرهم بما يقع من العذاب يومَ الساعةِ الآزفة ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ بدل من يوم الآزفة، أي زمان كون القلوب لدى الحناجر يعني أنهم من شدة خوفهم تقرب قلوبهم من حلاقيمهم ويكاد أن يموتوا. وقوله: ﴿كَٰظِمِينَ﴾ حال من القلوب بتقدير أصحابها أي حال كون أصحاب القلوب ماسكين عليها حتى لا تخرج من فزعهم ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي ليس لمن ظلم نفسه في الدنيا بالكفر والإشراك من قريب مشفق ينفعه بماله أو مقاله ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ من الله في شفاعته لهم ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ أي النظرة الخائنة كالنظر إلى وجه المرأة الأجنبية عمداً ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ أي وما تخفيه الصدور من العزم على العداء بغير حق، وإضرار شخص بلا موجب مشروع ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ لأنه يقضي على علمه بالحقائق قضاء موافقاً للعدل، فهو دائماً يقضي بالحق ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ رحم الله من قال أن السالبة لا تقتضي وجود الموضوع. فالقضاة في هذه القضية جمادات لا وجود لهم بصفة

كونهم قضاة في الحقائق حتى يقضوا بشيء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ تقرير بعلمه بخائنة الأعين.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي مآل الذين كذبوا الرسل من قبلهم ﴿كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾ أي من قريش وأشياعهم ﴿قُوَّةً﴾ في المال والعَدَدِ والعُدَد وكانوا مسيطرين على بلاد غنية بالحاجيات والكماليات ﴿وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مثل المدن المحصنة، والقلاع المستحكمة، والأرزاق المـوفـرة ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ أي حافظ يحفظهم من تلك الأخذة الشديدة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الأخذ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي بسبب أنهم ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ أي المعجزات أو الآيات الواضحات ﴿فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أعاذنا الله من سوء الحساب.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُواْ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ هي معجزاته الباهرة القاهرة لأكبر طاغ في البلاد ﴿وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي قوة قوية واضحة، إما تفسير وبيان لما قبله، وإما عبارة عن الحجج الظاهرة منه عند الكلام مع فرعون ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ﴾ وزيره ﴿وَقَـٰرُونَ﴾ وكان مقدم جنود فرعون. وخصهم بالذكر لأنهم كانوا أصحاب الأمر والرأي ﴿فَقَالُواْ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ أي هو ساحر في إبداء هذه الأمور المعجزة، وكذاب في دعوى أنه رسول الله ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾ أي فلما استمر على دعواه وبلغهم من جانب الله تعالى ما أمر بتبليغه ﴿قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ﴾ أي أعيدوا عليهم ما تعودتموه من القتل والفتك والإزعاج والإزهاق والإرهاب وحرب الأنفس والأعصاب ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ من المطلوب ولا يصل إلى جانب المقصود.

ولما رأى فرعون موسى عليه السلام قوة العزيمة وشدة الشكيمة وأنه لا تلين عريكته في هذا الميدان ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لملئه ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ لنتخلص من شره ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ لينصره أو يخلصه مني ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ الذي أنتم عليه ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ بإشاعة الهرجة بين الشباب والناس المتفرجين وتضعف به شوكة الدولة ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾ لما سمع بذلك ﴿إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ مخاطباً به قومه ومقوياً به قلوبهم حتى لا تتفسخ عزائمهم أمام الدين ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ﴾ بالله تعالى وبدين موسى - عليه السلام - وهو ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ﴾ منه وممن معه ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ يختص به ولا يتخطاه ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ من المواهب الدينية والدنيوية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ جملة جميلة ذات وجهين لكن أقرب إلى فرعون من موسى وإلا ذكرها مع الأولى.

﴿يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ يتبين من الآية الشريفة أنه كان من

الجماعة المالكة واشتهر أنه كان ابن عم فرعون وصاحب شرطته وفي محل ولي العهد، وقد هداه الله للإيمان قال يا قوم لكم الملك أي السلطان اليوم ﴿ظَٰهِرِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ عالين على الرعايا من الأقباط وبني إسرائيل ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾؟ يعني لا تفسدوا في الأرض وأطيعوا الله ورسوله حتى يرحمكم، وإن كفرتم أتاكم بأسه وعذابه ومن ذا الذي ينصركم ويحفظكم من بأس الله إن جاءنا، وهذا الكلام خاطب به فرعون وملأه ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ بعد سماع ذلك: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ أي ما أشير عليكم إلا بما أريده وأختاره وأستصوبه لنفسي ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أي طريق الصلاح ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ﴾ يعني المنادى المذكور بعد سماع كلام فرعون: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ وفسره بقوله ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ كقوم لوط كفروا بالله وكذبوا رسله فدمرهم الله شر تدمير وكل ما فعله فهو حق ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ أي فما فعله بهؤلاء كان جزاء لكفرهم وعنادهم، وإذا كفرتم أتاكم مثل ما أتاهم، وليس ذلك إلا إحقاقاً للحق وإزهاقاً للباطل ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ أي العذاب الوارد يوم ابتلاء الكفار في الآخرة ونداء بعضهم بعضاً استغاثة واستنجاداً للخلاص ولات حين مناص قطعاً. ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ أي يوم تولون عن الموقف منصرفين إلى النار ﴿مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي من عذاب الله أي حافظ يحفظكم منه ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ أي في الدنيا ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يهديه إلى الحق وإذا لم يهتد ضل ضلالاً بعيداً، وإذا ضل كذلك أذاقه الله في الآخرة عذاباً شديداً.

ثم أخذ يقص عليهم قصص الزمان السابق للاعتبار فقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ﴾ بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل مجيء موسى وهارون ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي بأعمال صالحة وأخلاق عالية تدل على صدقه في دعوى النبوة ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا كَذَٰلِكَ﴾ الإضلال ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ أي شاك في دينه حتى ولو شهدت عليه البينات. وظاهر قوله ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أن فرعون موسى كان فرعون زمان يوسف فقد ذكر بعض أصحاب التأريخ أن وفاة يوسف عليه السلام، كانت قبل ولادة موسى عليه السلام بأربع وستين سنة، واستظهر في البحر أن فرعون يوسف هو فرعون وأن عمره كان أربعمائة وأربعين سنة. ولكن الذي ذكره أغلب المؤرخين أن فرعون موسى غير فرعون يوسف، وأن اسم فرعون موسى

(الريان) وأن فرعون يوسف اسمه الوليد وأن يوسف مات في زمنه والله أعلم.
وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بدل من الموصول السابق في قوله من هو مسرف مرتاب يعني يضلل الله الذين يجادلون في آيات الله ﴿بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ﴾ أي من جهة الباري تعالى إما على أيدي الرسل ﷺ، وإما بطريق الإفاضة على عقولهم
وقوله: ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ توكيد وتقرير لما أشعر به الكلام من ذمهم، وفاعل كبر راجع إلى الجدال الذي دل عليه يجادلون، أي كبر الجدال في آيات الله بغير حجة مقتاً عند الله ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ بإضادة القلب إلى متكبر أي على كل قلب كل متكبر جبار بتقدير كل، وإلا لزم أن يكون لمتكبر واحد قلوب متعددة. وأما إذا قرىء بالتنوين فلا حاجة فيه إليه.

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا﴾ أي بناء مكشوفاً عالياً ﴿لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ﴾ أي الطرق ولما كانت مبهمة بينها بقوله ﴿أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ قيل: أمر بذلك لأنه كان منجماً فأراد أن يبني رصداً يصعد عليه فيترقب مع أعوانه أحوال

النجوم كي يعرف عاقبة ما داهمه من دعوة موسى ﷺ. وقيل: بل أراد أن يوهم الناس أنه إله الأرض فيصعد إلى برج يمكنه هناك أن يتفاهم مع إله السماء كما قال ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ هل يوجد في السماء لأنه إذا كان موجوداً فهو إما في الأرض أو في السماء، وليس في الأرض بحسب اطلاعه فلا بد أنه يكون في السماء، ولم يفهم أن من كان موجوداً قبل الأرض والسماء لا استقرار له في الأرض ولا في السماء ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ﴾ في دعواه أن ربه رب الأرض والسماء أو أنه مرسل منه إلى العباد لإرشادهم إلى الله ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ وزعم أن ذلك ينفعه ويوصله إلى الحقيقة، ولم يدر أن الله نور السماوات والأرض ولا يهتدي إلى النور إلا بالنور، وبذلك كاد قومه وأغفلهم ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ أي في انقطاع ويبس وخسار.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ﴾ بالله ورسوله في مقابلة ما يدبره فرعون من المكيدة ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ﴾ بحذف ياء المتكلم ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أي سبيل الوصول إلى الله فإنه هو العبادة لله المتعالي لا بناء الصرح العالي ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ يتمتع به فيستهلك ولا يستملك ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ لخلودها ودوام ما فيها. ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَاۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وتقدير منهم ولما رأى من قومه نوم الغفلة عن الحق ولا يريدون إلا ما أراده فرعون من الضلال قال ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي بوجوده الحقيقي أو باشتراكه مع الله علم ولا ظن ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ الذي يدل عليه كل ما تعلمون من الأنفس والآفاق والآثار ﴿لَا جَرَمَ﴾ لا شك ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ أي لا يستحق أن يدعى لاتباعه، وليس له قابلية الدعوة ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ المنصرفين من الحق إلى الباطل ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ﴾ في المستقبل القريب عند هلاك فرعون وجنوده، أو في القيام عند توقيف كل عامل على حدوده وتطلعون وتفهمون ﴿مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ﴾ الآن ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ في عدم إفادة إرشادي لكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ بأهل الإرشاد وبأهل العناد ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ﴾ من متاركتهم له أو معاندتهم له ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ

فِرْعَوْنَ﴾ أي بفرعون وآله ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ الغرق بالماء والحرق بالنار كما قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ في عالم البرزخ بعد زهوق أرواحهم وانغراق أشباحهم، ومعنى عرضهم عليها إحراقهم بها. ولو فرضنا أن العرض هو الإظهار أمامهم في مقام تذكيرهم بأنكم ستعذبون بذلك في الآخرة فهو عذاب أي عذاب. والجمهور من المسلمين على أن تعذيب الأرواح في عالم البرزخ أي مدة ما بين الموت والبعث هو على مجموع الروح والجسم البرزخي.

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ﴾ منصوب على المفعولية لأذكر المحذوف أي اذكر زمان تحاججهم واستدلالهم بعض على بعض وتخاصمهم فيها ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ في الدنيا ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أتباعاً كالخدام ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾؟ بتحمل بعض عذابها عنا ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ للضعفاء ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ أي في النار ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ فجعل الجنة لأهلها والنار لأهلها وما دام كل أخذ حقه ومستحقه من قضاء الباري تعالى فلا حق لكم علينا ولا يمكن لنا التحمل عنكم ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ﴾ عندما ضاقت بهم الحيل ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ أي للقائمين عليها المأمورين بتعذيب أهلها ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟﴾ في جوابهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ أي أتونا بالبينات فعاندهم واستكبرنا ﴿قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟﴾ أي إذا كان الأمر كذلك فلا نقدر نحن أن ندعو لكم فادعوا أنتم لأنفسكم ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي في ضياع وبطلان. وهذه الجملة إما من

المحولين للدعاء إلى أنفس الطالبين أو من كلام الباري سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ كلام مستأنف من الله سبحانه وتعالى لتأييد الرسول وأمته. فيقول: إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالحجة والتأييد ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ أي يوم القيامة الذي فيه جمع الأولين والآخرين وشهادة الأشهاد للرسل بالتبليغ وعلى الكفرة بالتكذيب. ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ أي الطرد في عالم الدنيا والآخرة من مراحمه الباطنة والظاهرة ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ أي ولهم الدار السيئة وهي دار جهنم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي ما يهتدي به هو وأتباعه من المعجزات الباهرة التي تطمئن بها نفسه وتتذلل بها أعداؤه، ومن الصحف والشرائع ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وأعطينا ذلك الهدى المتمثل في الكتاب أنبياء بني إسرائيل يسترشدون به هم وأتباعهم ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ليكون ذلك الكتاب وسيلة الرشاد والوصول إلى الحق ومذكراً بحقوق الله على عباده. وذلك إنما يستفاد لأصحاب العقول الخالصة ﴿فَٱصْبِرْ﴾ أنت أيضاً مثله على أداء رسالتك وإن ابتليت بما لا يطيقه إلا أولو العزم ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ إياك بالظفر والنجاح وإعلاء الكلمة وسعادة الدارين ﴿حَقٌّ﴾ لا شبهة فيه أبداً ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ واطلب السماح والمغفرة من الله تعالى لما صدر منك مما لا يناسب علو مقام الرسالة أو ما يكون عائقاً عن الفكر والذكر الروحي لك ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ والمراد بالعشي والإبكار إما الوقتان الخاصان أو الأوقات جميعاً بذكر

الطرفين. وعلى كل فالمراد بالتسبيح والتحميد معناهما المعروف، والمراد دوامه ﷺ على التسبيح والتحميد وأن لا يكون غافلاً عن ذكر ربه تعالى وليس المراد الصلاة المفروضة لأنها فرضت ليلة الإسراء والمعراج. ومن الناس من قال: إن المراد ركعتان مفروضتان عليه ﷺ بكرة، وركعتان عشية.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي في الآيات المنزلة من الله بقولهم إنها ليست من آياته وإنما هي قول شاعر أو كاهن مجنون، أو أنها أساطير الأولين، أو أنها أخذت من بعض الأعجمين وتلك المجادلة منهم ﴿بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾ من النقل أو العقل ﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٌ﴾ ليس في صدورهم شيء إلا كبر وتكبر وتعظم وترفع فارغ غير مبني عى موجب معقول و﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ أي بواصلين نتيجة ذلك الكبر، فإن ما يريدونه منها إمحاء الرسالة الإسلامية وإطفاء نور الله وإفناء رسول الله محمد ﷺ، وإزالة التوحيد، وإبقاء الشرك، وقد أراد الله أن لا يبقى كذلك، فقد جاء الحق وزهق الباطل ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ﴾ من شرهم وإفسادهم والوصول إلى مآربهم ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لدعائك واستعاذتك ﴿ٱلۡبَصِيرُ﴾ بحالات الطرفين وحركاتهما. ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾ فإذا كنا قادرين على خلق العلويات والسفليات وقد خلقناها فعلاً فكيف لا نقدر على بعث الموتى للحشر والحساب؟ وهذا هو أساس إنكارهم للتوحيد وبقائهم على الإشراك. أو إذا قدرنا على خلق العالم فكيف لا نقدر على إماتة أولئك المشركين وخلق أناس آخرين موحدين؟ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ هذه الحقيقة، ولذلك عموا عن إبصار طريق الحق.

﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾ أي الكافر المؤمن والمشرك والموحد ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ﴾ بتبديل الإيمان بالكفر والأعمال الصالحة بالسيئات. ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي في قليل من الأوقات تذكرون فتذكرون الحق ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ وهناك يتبين الحق ويتميز المفسد من المصلح ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ أي لا يصدقون بذلك لقصر نظرهم.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا

يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَٰتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ الْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أي اعبدوني وحدي أثبكم، وأطيعوني واطلبوا الخير مني، وكونوا مع عبادي أعطكم في الدنيا قريرة وفي الآخرة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي مُحقرين أذلّاء.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أي لتستريحوا فيه بالمنام والمقام وتستعيدوا قوتكم المعتادة وتستعدوا للعمل المشروع في النهار ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي وجعل لكم النهار مبصراً أي ذا إبصار، وهذا الإسناد مجازي والمراد مبصراً فيه، اسم مفعول لأنه في الحقيقة زمان الإبصار وظرفه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أي لمولى النعم وفياض الكرم على البر والفاجر ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ نعمته وفضله وكرمه ورحمته لجهلهم بصاحب النعمة وفياض الرحمة ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ﴾ أي ذلكم المنعوت بما ذكر ربكم ومولاكم، فتبارك الله رب العالمين ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من النعمة والمنعم عليه ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾؟ تصرفون ولأي سبب ينحرفون عن الاتجاه السليم والصراط المستقيم ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَٰتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي مثل ذلك الإفك بلا داع مبرر ولا حجة وبرهانٍ مقرر ﴿يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَٰتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ فهذه الخصلة القبيحة ماشية فيهم وفيمن سبق من الكافرين.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي محل قرار ﴿وَالسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ أي قبة مضروبة عليكم علق بها المصباح المضيء والمنور ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَٰتِ﴾ أي المستلذات المقبولة للأقتيات والتفكه والتداوي ﴿ذَٰلِكُمُ

ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ﴾ المنفرد بالحياة الذاتية ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ حق ﴿إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ﴾ أي فاعبدوه ولا تعبدوا من دونه أحداً حال كونكم ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ﴾ أي العبادة، ولا تشركوا به غيره ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي التجليات الربانية والوحي السماوي والإلهامات القدسية، والبصيرة القلبية، بحيث لم يبق لي مجال أي شبهة حيث وصلت إلى الدرجة العالية من اليقين ﴿مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وأنقاد له قلباً وقالباً، روحاً وشبحاً.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي في ضمن خلق أبيكم آدم منه ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ اسم جنس يقع على القليل والكثير وبذلك تحصل المطابقة بين الحال وصاحبها ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ أي ثم يبقيكم ويربيكم لتبلغوا أعلى درجات قوتكم ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًاۚ﴾ ثم يبقي بعضاً منكم لتكونوا شيوخاً ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُۖ﴾ أي من قبل الشيخوخة ﴿وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ متعلق بفعل مقدر أي ويفعل ذلك لتبلغوا أجلاً مسمى هو ما قرر لانتهاء أمد حياتكم ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ معطوف على قوله لتبلغوا، أي ويفعل ذلك لعلكم تعقلون ما في تلك التنقلات والأحوال من نسبة الآثار المختلفة إلى فاعل قادر مختار يفعل ما يشاء ويحكم ما

يـريـد. ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ﴾ الأمـوات ﴿وَيُمِيتُۖ﴾ الأحـيـاء ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا﴾ أي أراد حدوثه ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ من غير احتياج إلى مساعد ومعاون.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي لأجل رفعها أو إهمالها ﴿أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ﴾ على أي حال يمنعون عنها مع ظهورها وقوتها ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي بجنس الكتب السماوية ﴿وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ﴾ من سائر الشرائع ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ حقيقة ما فعلوا ومقدار ما ارتكبوا من المعاصي والآثام ﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِىٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ فيها ﴿يُسۡحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلۡحَمِيمِ﴾ أي الماء الحار ﴿ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾ أي يسحبون فيها أو يحرقون بها ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـًٔاۚ﴾ أي تبين لنا اليوم أنا لم ندع شيئاً موجوداً قائماً بذاته نافعاً لنفسه أو غيره فكأنَّا دعونا المعدومات ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي هكذا يحيرهم حتى يفزعوا بالآخرة إلى الكذب ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِى ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ﴾ أي تتوسعون في الفرح ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي فبئس مأوى ومستقر المتكبرين عن قبول الحق جهنم ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ أي بدحر أعدائك في الدنيا وبتعذيبهم في الآخرة ﴿حَقٌّۚ﴾ لا شبهة فيه ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمۡ﴾ من الخزي والنكال فتراهم بعينك ﴿أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل ذلك وإذا كان الأمر الثاني ﴿فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ يوم القيامة وتعلم أحوالهم وعذابهم هناك.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلًا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلۡحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمَ لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبۡلُغُواْ عَلَيۡهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمۡ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلۡأَرۡضِ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا

كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ أي رسلاً أولي قدر وخطر من قبل إرسالك ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ أي أنزلنا عليك أخبارهم في القرآن كآدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ وهم أكثر الرسل - عليهم الصلاة والسلام -. أخرج الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله كم عدد الأنبياء؟ قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً؛ الرسل من ذلك ثلثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً».

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي بآية من الآيات المنزلة أو بمعجزة من المعجزات إلا بإذن الله ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي بالعذاب والنكال في الدنيا أو الآخرة ﴿قُضِىَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي حكم بإثبات الحق وإزهاق الباطل ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي وخسر وقت مجيء أمر الله تعالى المتمسكون بالباطل ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا﴾ كالإبل ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ كالأنعام كلها ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ أي غير الركوب كالأكل والشرب واللباس وسائر وجوه الإطعام ﴿وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ﴾ كحمل الأثقال من محل إلى آخر ﴿وَعَلَيْهَا﴾ أي على تلك الأنعام باعتبار بعض منها أعني الإبل وهي سفن البر ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ وهي سفن البحر ﴿تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ يعني ويريكم ويظهر لكم الله آياته ودلائله الدالة على كمال حكمته في أفعاله ﴿فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ فإن وجود الآيات وظهورها بديهي غني عن الحاجة إلى الإثبات وكونها من آثار الصانع الواجب الوجود وآثاره الناشئة من العلم والإرادة والقدرة ثبت بالعقول السليمة من الآفات.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي اقعدوا في دورهم مكتفين بقلة الشعور، فلم يسيروا في الأرض العربية التي فيها آثار دمار الأمم الظالمة ﴿فَيَنظُرُوا۟﴾ بالأبصار ويتفكروا بالبصائر ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ أحوال الكافرين ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟﴾ وعاندوا الرسل الكرام ﴿كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾ عدداً ﴿وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الدور المستحكمة، والقلاع الحصينة، والمخابيء والمخازن المستورة، حتى يتوسلوا بها لدفع ما يرد عليهم من المضار؟

﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ من الآيات والمعجزات ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ المحدود الناشىء من السيطرة على العباد والحرية في الأعمال وتصديق الضعفاء والعجزة والجهال، ومن المدارس المبنية لترصد الأفلاك وإدارة الأملاك ورعاية التقاليد الجارية التي تميل إليها قلوب الناس بحيث غدوا أنفسهم من نوابغ العصر، ولم ينظروا إلى اكتساب العلوم الربانية المسيطرة على النفوس لحفظ النفوس عن الشهوات الفاسدة، وقتل الأبرياء وهتك الأعراض، واتباع الأغراض، فعاندوا الرسل واتبعوا ما عندهم من السبل، فغضب الله عليهم ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾ أي شدة عذابنا النازل من السماء أو الناشىء من الأرض ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ﴾ ولا نشرك به شيئاً ﴿وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ﴾ لخلاصهم من العذاب المحتم الوارد عليهم ﴿لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ﴾ لأن التوبة المقبولة إنما هي عند الاختبار لا الإلجاء والاضطرار ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ﴾ من أن الإنذار إعذار، فإن لم ينفع لم ينفع الرجوع إلى المقصود بالاضطرار ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾ أي زمان رؤيتهم البأس ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ المعاندون لله ولرسوله المبلغ الأمين.

❀ ❀ ❀

سورة فصلت

وتسمى حم السجدة، وهي مكية، وآياتها أربع وخمسون نزلت بعد غافر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ (١) تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (٢) كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا
عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤)
وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ
فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ (٥) قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ
فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ (٦) ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم
بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ (٧) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ
مَمْنُونٍ (٨) ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ
أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ
أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ (١٠) ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا
وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ (١١) فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ
وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ
ٱلْعَلِيمِ (١٢)﴾.

قوله تعالى: ﴿حمٓ﴾ كنظائره وإذا جعلناه اسماً للسورة فإما خبر لمبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره ﴿تَنزِيلٌ﴾ على المبالغة، أو تأويله بمتنزل، وقوله ﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ متعلق به ومؤكداً لما أفاده التنوين من العظمة وقوله: ﴿كِتَٰبٌ﴾ بدل منه وصف بقوله ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي بينت آياته بأقوال الرسول ﷺ وأفعاله، أو

أوضحت آياته، فإذا كانت آية مطلقة وجد القيد في آية أخرى وهكذا. وقوله ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ إما حال أو منصوب على المدح. وقوله ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي لانتفاع قوم يعلمون معناه ويعملون به، لأن العلم بلا عمل لا نفع له إلا الامتياز عن الجهل لو كان في نفس الامتياز فضل، وكذلك ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ منصوبان أيضاً على الحالية أو على المدح. وقوله ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ يعني به ذم الكفار المعرضين عن الخير يريد أنه مع حيازته لتلك المحاسن أعرض أكثر الناس المشركين عنه ولم يؤمنوا به، فهم لا يسمعون المواعظ والإرشاد ولا يريدون الخير لأنفسهم ولا لغيرهم من العباد.

﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ﴾ أي أغطية متكاثفة ﴿مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ من الإيمان بالله ورسوله أي بينه وبين قلوبنا حواجز تمنعه عن الوصول إليها ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ أي ثقل وصمم من سماعها لكلامك ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ يحجبنا عن رؤيتك أي لا نراك مطلقاً، أو لا نراك بعين المحبة يعني أن الأمر بيننا هو الفصل لا الوصل ﴿فَٱعْمَلْ﴾ على دينك و﴿إِنَّنَا عَـٰمِلُونَ﴾ على ديننا. وهذا الكلام إما متاركة مثل لكم دينكم ولي دين، وإما معاركة، والمقصود اعمل أنت للانتصار علينا ونحن نعمل للانتصار عليك، لنعلم أي الجانبين أقوى في عاقبة الأمر. قل في جوابهم ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ لست ملكاً ولا ملكاً ولا جنياً حتى لا يمكنكم الوصول إليّ وفهم ما أقوله والعمل به ﴿يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ وهذا الأمر ليس شيئاً غير معقول حتى يتحاشى عنه القلوب، بل أمر يدعو الناس إلى وحدة المبدأ ووحدة الطريق. وهذا الإله الواحد موصوف بصفات الكرم والرحمة الواسعة ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟﴾ على الحق سالكين ﴿إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ مما صدر منكم من الذنوب يغفر لكم ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين من صفاتهم اللؤم والبخل بما في أيديهم ومنعه عن المستحقين ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي غير مقطوع ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾؟ أي أمثالاً شركاء له من الملائكة والجن وغيرهم ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ وموجدهم من العدم إلى الوجود.

﴿و﴾ لما خلق الأرض ﴿جَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي جبالاً عالية ﴿مِن فَوْقِهَا وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ أي بين أي تعلق علمه الشامل بالمرتزقة عليها، وبكمية أرزاقها من مختلف الوجوه فقدرها لهم للمستقبل إلى نهاية الحياة الاعتيادية ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ أي في تتمة أربعة أيام وهي يومان. والخلاصة أن خلق الأرض في

يومين، وتقدير أقواتها وأرزاقها للمرتزقة فيها من النبات وسائر الأطعمة في يومين ﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ حال من أربعة أيام أي حال كونها عبارة واحدة غير مشوبة بالخلاف بالنسبة إلى كل من يسأل عن مدة زمان خلق الأرض والأقوات ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي توجه إلى خلقها ﴿وَهِىَ دُخَانٌ﴾ أي مادة ظلمانية وهي التي تركبت السماوات منها والله أعلم بحقيقتها ﴿فَقَالَ لَهَا﴾ أي للسماء ﴿وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا﴾ أي تحققا واتصفا بالهوية الشخصية أو ائتيا بما خلقت فيكما من المنافع المخزونة فيكما ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي طائعات أو مكرهات أو طائعين أو مكرهين ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ أي فخلق السماء سبع سماوات، أو جعلها سبع سماوات في يومين، والمراد باليوم في هذا الخلق والتقدير إما اليوم المعروف عندنا أي زمان وجود الشمس فوق الأفق فلا بد أن يقدر المقدار لأن الشمس لم تكن مخلوقة في ذلك الوقت وإما اليوم الذي قال تعالى في بيانه ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾. ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ أي خلق في كل منهن ما استعدت له واقتضت الحكمة وجوده فيها مما يعلمه الله سبحانه ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ من تلك السماوات السبع ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ مشرقة لماعة بالذات أو باستنارة بعضها من بعض كما يقال نور القمر مستفاد من الشمس، وكذلك سائر الكواكب ﴿وَحِفْظًا﴾ مفعول لفعل مقدر أي وجعلناها وسيلة حفظ وصيانة للسماء من الشياطين المسترقة. وظاهر الآية الكريمة أن جميع الكواكب اللماعة الموجودة التي يشاهد بعضها بالعين المجردة وبعضها بالمجاهر، والتي لم يكتشف لحد الآن بواسطة بُعد المسافة كلها في السماء الدنيا أي القربى من الأرض، وأما السماوات الست الباقية فلا يعلم ما فيها وما عليها إلا العليم الخبير. وفي ذلك الخلق هيبة ورهبة عظيمة ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ أي جميع ما ذكرناه من الأعمال المدهشة كخلق الأرض والمواد السفلية من الماء والهواء معها، وخلق السماوات والكواكب تقدير وتأثير للإله العزيز الغالب على كل شيء العليم بكل موجود ومعدوم بوجه الامتياز.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ

﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَـٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾ مرتبط بقوله السابق ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ﴾ أي فإن أعرضوا عن التدبير فيما ذكر من عظائم الأمور التي تدعو الإنسان إلى الإيمان ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَـٰعِقَةً مِّثْلَ صَـٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ صيغة الماضي في محل المضارع مجاز لإفادة التحقق الأكيد. والصاعقة في الأصل جثة وهي قطعة نار تنزل من السماء فتحرق، وبما أنه لم تنزل الصاعقة على قوم عاد وثمود، وإنما هلاك عاد بالريح وثمود بالبركان أو بصيحة جبريل عليه السلام قالوا أن المراد من الصاعقة لازمها وهي العذاب. وقال بعض: إن الصاعقة جاءت بمعنى العذاب. وعلى كل فالمراد من الآية الكريمة: فقل أنذركم أيها المعرضون بعذاب مثل ما جاء على قوم عاد وثمود فأدمركم كما دمرتها ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ﴾ أي جاءت قوم عاد وثمود الرسل ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي من الجهات الكثيرة، والمراد بالرسل هود وصالح ومن معهما من المؤمنين المعاونين لهما كل في عصره. قائلين: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟﴾ أي قوم عاد في مقابل هود، وقوم ثمود في مقابل صالح: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً﴾ إلينا فإنكم بشر لا تستحقون رتبة الرسالة من الله ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ من الشريعة ﴿كَـٰفِرُونَ﴾ لأنها لا يأتي بها البشر.

ثم أخذ في تفصيل ما لكل واحدة من الطائفتين فقال: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ إذ لا يجوز لأحد ولا يحق له أن يتكبر في مقابل الرسول ﴿وَقَالُوا۟﴾ لبيان أساس تكبرهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أي لا أشد منا قوة، فلا أحد يقاومنا وكانوا غافلين عن قدرة الله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾؟ فإنه تعالى قادر قدرة ذاتية متناهية ولا تتمثل في أناس يحاربون عاداً حتى يظنوا أنهم أقوى منهم بل له جنود كثيرة، وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي شديد الحرارة السموم، وفسره بعضهم بشديد البرد والأول أنسب بالمكان ﴿فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ مشؤومات بالنسبة إليهم. قيل: أن هذه الأيام كانت من

آخر شباط الشرقي وتسمى أيام العجوز، وكانت في ما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما آخر شوال من الأربعاء إلى الأربعاء، وإنما أرسلناها عليهم ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ فيها بأي وجه من الوجوه.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ أي فأرسلنا إليهم صالحاً فأرشدناهم بإرشاده وبينا لهم طريق الحق والسلامة والسعادة في الدارين ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ﴾ والبقاء على الضلال بدون البصيرة ﴿عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ وإضافة الصاعقة إلى العذاب بيانية، وإضافته إلى الهون لامية سببية، أي أخذهم عذاب كان سبباً لخذلهم وذلهم وحقارتهم في الدنيا ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي وذلك بسبب ما كانوا يكسبونه من اختيار الضلالة على الهدى ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وهم للأولين هودٌ ومن معه، وللآخرين صالح ومن معه من أهل الإيمان ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

وقوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ شروع في بيان عذابهم يوم القيامة، ويوم منصوب بأذكر مقدراً، أو بفعل مستفاد من قوله ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي

اذكر زمان حشر الكفار المشركين الذين عادوا ربهم الذي خلقهم إلى نار جهنم فهم يوزعون، ويحبس آخرهم إلى مجيء أولهم، أو يوقف أول جمع واصل منهم إلى مجيء آخر جمع منهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ سئلوا من جانب الزبانية عما أجرموا أو سئلوا عن جمعهم للمحاسبة عند الله ثم إرسالهم إلى النار فأنكروا تحقق الإجرام منهم وعند ذلك ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ﴾ باستماع ما لا يحل استماعه ﴿وَأَبْصَٰرُهُمْ﴾ بإبصار ما يحرم النظر إليه ﴿وَجُلُودُهُم﴾ أي جلود أبدانهم، وأيديهم وأرجلهم بمساس ما لا يحل مسه وبالمشي والحركة والبطش للمحرمات والمعاصي وللقول الحرام والفعل الحرام، وبغير ذلك ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾؟ وإنما العذاب يمسّكم ويصيبكم ﴿قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بلا مادة، فإخراج الشيء من العدم إلى الوجود أهم من إجراء الكلام على ما لا يعتاد التكلم ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للجزاء فلا بد من إثبات موجبات العقوبة حتى تجزون بما كنتم تعملون وسؤالهم من الجلود فقط يمكن أن يكون لعظم الذنوب التي تحصل من مساس الجلود أو للإشارة إلى أن الشهادة جرت مما يعذب بادىء بدء، فإن الجلود تنضج فتحرق ويتأذى صاحبها، ومع ذلك لما كان الاستشهاد من الله لم تكن لها طاقة الكتمان فشهدت بجميع ما حصلت من الإجرام الموجبة للعقاب والآلام.

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ هذا من قول الباري تعالى لهم يوم القيامة بعد شهادة الأشهاد، فيقول لهم: ما كنتم تستترون في الدنيا عند الإتيان بالفواحش مخافة أن يشهد عليكم اليوم سمعكم وأبصاركم وجلودكم ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فكنتم تستترون عن أعين الناس لبعض الاعتبارات فقط. ﴿وَذَٰلِكُمْ﴾ الظن الفاسد ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ أي أهلككم ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ على رأس مال الحواس والجوارح التي أعطاكم الله تعالى لكسب السعادة بها فصارت وسيلة لكسب الشقاوة ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟﴾ على عذابهم ﴿فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي محل ثواء وإقامة ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟﴾ أي يسألوا العتبى أي الرجوع إلى ما يحبونه ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ أي من المجابين إليها ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ﴾ في الدنيا لسوء أدبهم وجسارتهم على الله بالإشراك وعلى رسوله بقصد الإهلاك ﴿قُرَنَآءَ﴾ أخداناً وأحباء من شياطين الإنس والجن فزينوا لهم ما بين أيديهم أي ما أمام عيونهم من متاع الدنيا ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾

من الأهواء المأمولة في المستقبل ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي فتوغلوا فيها وعاندوا الحق فحقت عليهم مقتضى قولي لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴿فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ أي مع أمم كافرة خاسرة باغية طاغية قد خلت من قبلهم من الجن والإنس ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ﴾ في صرف نقد حياتهم بموجب عقوباتهم ولبئست التجارة.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي بعضهم لبعض: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ أي وأتوا بلغو الكلام عند قراءته لتشوشوا على الناس المستمعين ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ بعملكم ذلك على الطالبين له ولمنهاجه ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فوالله لنذيقن أولئك الذينن كفروا وتآمروا على القرآن بما سمعتم ﴿عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي لنحبطن أعمالهم الحسنة ظاهراً حيث لم تقترن بالإيمان بالله الكريم ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ على السيئات بأسوأ الأعمال التي كانوا يعملونها، لأنه لما قارن الكفر بالله استحق العذاب عليه ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الجزاء المذكور ﴿جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ﴾ وأعداء رسوله وهو ﴿ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ﴾ أي لهم في الساحة الواسعة الممتلئة بالنار مواقع خاصة هي دار الخلد الأبدية لهم أو لهم فيها أي في تلك الدار دار فالنار في شدتها وقوتها تجرد منها دار أخرى ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وهم منقلبون في النار: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ ندوسهما بأقدامنا ﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ ذلاً وحقارة فمن كان له القلب الواعي يعلم ما هي نتيجة البطر والغرور والخروج من استماع الحق والدين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا
تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى
ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا
تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ
وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ
ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا
يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ
ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ

وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ شروع في بيان أحسن أحوال المؤمنين فيقول إن الذين قالوا قولاً موافقاً للقلب ربنا الله ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ على ذلك ومقتضاه من ترك المحرمات وأداء الواجبات متوجهين إلى الله ومتوكلين عليه غير غافلين ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ عند الموت. وقال بعض عند البعث، وبعض عند نزول القبر ﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾ ما تقدمون عليه ﴿وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ على ما خلفتم وأن مصدرية ولا ناهية أو نافية أو مخففة من المثقلة، واسمه ضمير الشأن، والجملة تفسير له وفي محل الخبر ﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ بها على ألسنة الرسل الكرام ﷺ والمبلغين لكم منهم ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي أعوانكم في المهمات والملمات بالإعداد وإلهام الصبر والطمأنينة وتذكير التوكل على الله ﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ نمدكم بالشفاعة والشهادة لأعمالكم الحسنة ونتلقاكم بالإكرام عند تلقي الكافرين بالإهانة ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ﴾ من الملاذ والمشتهيات الطيبة في الطباع السليمة ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أي تطلبون لأنفسكم من الرحمة والرضوان ولقاء ذات المنان حال كون ذلك كله ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ ستار للعيوب غفار للذنوب. ثم أخذ في الثناء على أهل الإيمان والدعوة إلى الله المنان والتزام الإسلام وأداء الواجبات وترك العصيان فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي إلى الاعتراف بوجوده ووحدته ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي عملاً صالحاً ﴿وَقَالَ﴾ متحدثاً بنعمة ربه ﴿إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

ثم استأنف لبيان الفرق بين أحوال الناس واختلاف درجاتهم فقال: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ وكلمة لا الثانية زائدة للتأكيد والتحسين أي لا تستوي الأعمال الحسنة والسيئة فهما أمران متباينان يتباين الموصوفون بهما وللموصوف

بالحسنات درجات كما أن للموصوف سيئات دركات ﴿ٱدْفَعْ﴾ أيها المؤمن المحسن ادفع ﴿بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي وإذا اعترضتك من أحد الناس أو من أحد أعاديك الخصلة السيئة من أي باب كانت بالخصلة التي ﴿هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي أحسن الوجوه وأحسن الطرق في دفعها فإذا قابلك بالشتام فقابله بالسكوت أو بالسلام أو بالإكرام ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ﴾ انقلب عن حاله وغرق في انفعاله ويواجهك بوجهه ﴿كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ أي قريب أو صديق حار الصداقة ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي هذه الخصلة الجميلة المباركة في دفع السيئة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ على مكابدة المحن والإحن بحيث صار الصبر من غرائزهم ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ ونصيب جسيم من الله الكريم ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ وهو في الأصل المس بطرف أصبع أو قضيب بعنف مؤلم، والمقصود به هنا وسوسة فاسدة مؤثرة في القلب حاملة له على ارتكاب أمر غير محمود العاقبة ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ الحافظ من شره ولا تطعه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي السميع لاستعاذتك إذا كانت لفظية، والعليم بها إذا كانت نفسية.

ثم شرع في عظمة ذات الخالق البارىء المصور الواحد القهار، فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾ أي آيات عظمته وأدلة توحيده ﴿ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ تعاقبهما بطول الزمان ودخول الليل في النهار والنهار في الليل ﴿وَٱلشَّمْسُ﴾ التي هي آية النهار ﴿وَٱلْقَمَرُ﴾ الذي هو آية الليل فكلها مخلوق لله تعالى ومن آثار قدرته ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ فإنهما لا يستحقان أن تسجد لهما ﴿وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فإن الخالقية هي المبدأ للمعبودية ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ أي أولئك الكفار المشركون عن السجود له فلا تهتم بهم ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ ومقربون من حضرة قدسه كالأنبياء والرسل وسائر الخلائق في العالم من جنه وإنسه ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ لا يملون من إدامة التسبيح والذكر والحمد له والقنوت والركوع والسجود ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ أي يابسة متطامنة ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي فإذا أنزلنا المطر تحركت بالنبات وانتفخت ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا﴾ بإنزال المطر عليها لمحيي الموتى بالبعث ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

﴿بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ٤٢ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ ٤٣ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ٤٤ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۗ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ٤٥ مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦ ۞ إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ ٤٧ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ مِن قَبۡلُۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ٤٨﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي ينحرفون في تأويل آيات القرآن عن جهة الصحة والاستقامة ﴿لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ﴾ فنجازيهم على إلحادهم، أي نجعلهم في نار جهنم ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ والأمر للتهديد، وهذه الآية للوعيد على الملحدين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ﴾ أي بالقرآن ﴿لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ﴾ أي والحال أنه لكتاب ﴿عَزِيزٞ﴾ نادر الوجود وليس له مثيل ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ وخبرُ أن محذوف أي معاندون متعنتون. وقوله تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾ تسلية للرسول ﷺ عما أصابه من كلمات الكفرة المشركين وتعنتهم وعنادهم فيقول ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ﴾ من الكلام الذي لا واقع له، كما صبروا عليها ينبغي أن تصبر عليها ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ﴾.

﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ﴾ أي هذا الكتاب المنزل ﴿قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا﴾ أي قرآناً مكتوباً بلغة العجم ﴿لَّقَالُواْ﴾ أي أولئك المتمردون ﴿لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ﴾ أي لولا بينت وأوضحت لنا. أي ولم لم ينزل بعبارة عربية واضحة ﴿ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ﴾؟ أي أكلام أعجمي ورسول عربي ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى﴾ يهدي إلى الحق ﴿وَشِفَآءٞۚ﴾ لما في الصدور ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ﴾ أي ثقل ﴿وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ﴾ أي

القرآن واسطة العمى لهم. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ أي أولئك الذين في آذانهم وقر من استماع القرآن الكريم كأنهم ينادون من مكان بعيد لا يبلغ إليهم صوت الدعاةِ، فلا تبتئس أيها الرسول الكريم بما يعاملونك في شأن الكلام المنزل عليك، فإن لك سلفاً فيه.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي التوراة ﴿فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۗ﴾ من جانب الإسرائيليين فمنهم من يصدق بأنه كتاب الله ومنهم من لا يصدق ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ في حق أمتك وهي الوعد بتأخير عذابها ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ بإبادة المكذبين ﴿وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾ أي وأن كفار قومك لفي شك من كونه كلام الله مريب موجب للقلق ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ﴾ ضره لا يتجاوز إلى غيره ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ﴾ أي بذي ظلم ﴿لِّلۡعَبِيدِ﴾ لا من القديم ولا من الجديد.

﴿إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ﴾ أي إذا سئلت عن الساعة فقل: علمها عند ربي. وفيه وعيد للكافرين أي أن الساعة التي فيها عذابهم معلومة لله وهي قريبة فينالون عذابهم الموعود ﴿وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا﴾ أي وإليه يرد علم ما يخرج من الثمرات من أوعيتها، ومن عنده ذلك العلم، فعنده العلم بأعمال المعاندين للرسول ولكتابه ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ﴾ أي حمل ﴿وَلَا تَضَعُ﴾ من الرحم إلى الأرض ﴿إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ﴾ أي ملابساً بعلمه ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي﴾؟ أي شركائي المزعومون ﴿قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ﴾ أي قال الذين نودوا: أعلمناك يا ربنا ما منا من أحد يشهد لهم بالشركة معك. والمراد بالإعلام الإخبار، فإن الله تعالى يعلم كل شيء بلا إعلام أحد ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ مِن قَبۡلُۖ﴾ أي وغاب عنهم أو ضاع شركاؤهم الذين كانوا يدعونهم من قبل ويرجون نفعهم لهم ﴿وَظَنُّواْ﴾ أي وأيقنوا أنه ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ﴾ أي مهرب يهربون إليه فيخلصون من العذاب والعقاب.

﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ ﴿٥١﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ

مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ أي لا يمل ولا يفتر من طلب الخير ووسعة العيش ورغده ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ أي فهو يؤس قنوط من رحمة الله. وهذا صفة الكافر والآية نزلت في الوليد بن المغيرة. وقيل في عتبة بن ربيعة. وإلا فالمؤمن على رجاء من رحمته وفضله في كلتا الحالتين.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ أي لئن وسعنا عليه بصحة بعد مرض أو بغنى بعد فقر أو بعز بعد ذل ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ أي هذا الأمر العارض هو استحقاقي ولا بد أن يحصل لي ولا ينسبه إلى فضل الله ورحمته ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ﴾ أي يوم القيامة ﴿قَآئِمَةً﴾ حاصلة في المستقبل ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ على فرض مجيء يوم القيامة ﴿إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أن لي عنده للعاقبة الحسنى من النعمة والكرامة وإنما يقول ذلك للبطر وعدم اعترافه بالدين وأصوله ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ أي لنخبرنهم في المستقبل بحقيقة أعمالهم ولنفهمنهم أن الأمر على عكس ما اعتقدوا ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي شديد لا يمكنهم الهرب منه ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ﴾ عن ربه وطاعته وشكره ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ وابتعد عن الحق بجانبه أي إذا دعي إلى عمل خير يعمله يعطف وينقلب على جانبه الآخر معرضاً عن الحق ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ وإذا مسته نقمة ونكبة فله دعاء كثير مستمر جداً.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ﴾ أي القرآن الكريم ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ مع قوة جانب الإيمان به ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ وخلاف مع القرآن ومن بلغه ومن أنزله. أي أن ذلك الكافر بالقرآن ضال بل أضل الضالين. فإذا استمروا في هذا الضلال فقل لهم ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي آيات عظمتنا وقدرتنا، وأن القرآن كلامنا، وأنه أنزل على رسولنا ﴿فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ فنريهم أن الله مقتدر، وأن الإسلام ينتصر، ورسوله يفتح البلاد، ويؤمن به العباد، ويكون القرآن نبراس الهدى والرشاد ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ فيرون بالعيون انهزامهم أمام الحق وأن كثيراً منهم يتراجعون ويؤمنون ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ أي القرآن ﴿ٱلْحَقُّ﴾ لا كلامهم

وأقاويلهم. والشاهد على تحقق هذه الإراءة هو الله وهو خير شاهد. ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ومن الشيء المشهود عليه خذلانهم وخزيهم، وعلو الإسلام وانتصاره ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ﴾ أي أن أولئك الكافرين المارقين ﴿فِي مِرْيَةٍ﴾ وشبهة ﴿مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ يوم الدين ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ﴾ أي الباري تعالى ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ فيعلم كفر الكافرين وإيمان المؤمنين.

❀ ❀ ❀

سورة الشورى

مكية وآياتها ثلاث وخمسون
نزلت بعد فصلت

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ① عٓسٓقٓ ② كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ ③ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ④ تَكَادُ
ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى
ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ⑤ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ
حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ⑥ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ
ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ
⑦ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا
لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ⑧ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ
ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ⑨﴾.

قوله تعالى: ﴿حمٓ ① عٓسٓقٓ﴾ الكلام في أنهما اسمان للسورة أو اسم واحد لها، وفي المراد بهما.. مفوض إلى الله العليم بالأسرار. وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ جملة مستأنفة وارد لتحقيق أن مضمون السورة موافق لما في تضاعيف الكتب المنزلة على سائر الرسل، إذ معناها مثل ذلك الإيحاء يوحي إليك وإلى الذين مضوا من قبلك من الرسل إلهكم وإله العالمين المعلم بالاسم المقدس الله الواجب الوجود العزيز الغالب على كل شيء الحكيم في صنعته ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ④ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ أي يتشققن تشققاً بادئاً ﴿مِن﴾ جهة ﴿فَوْقِهِنَّ﴾ أي يتشقق الأعلى فالأعلى

إلى أن تتشقق الأرض فتصير العوالم أجزاء متفرقة بل ذرات منتشرة في الجوّ من هيبة ذات الباري وعظمته ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تسبيحهم لله على وسعته في الرحمة والإحسان واستغفارهم لمن في الأرض على ابتلائهم وعصيانهم وزيادتهم في النقصان ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ إذ ما من مكلف إلا وله نوع من الذنب الداعي للمغفرة بمعناهما الواسع، وحفظ من رحمته تعالى، فهو المبالغ في المغفرة وإفاضة الرحمة.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ وجعلوهم شركاء وأنداداً ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ ورقيب على أعمالهم وعقائدهم وسيجزيهم جزاء وفاقاً ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي بموكول إليك أمرهم ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي أهل أم القرى ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي جميع أهل الأرض لأنا إذا جعلنا مكة نقطة انطلاق الدين ومركز الدائرة الإسلامية فجميع أهل الأرض يقع تحت مدار من المدارات الدائرة حولها، سواء كانت مكة سرة الأرض أو لا، لأنا جعلناها نقطة القطب بالنسبة إلى كرة الإسلام لا بالنسبة إلى كرة الأرض وفهم هذا يحتاج إلى تأمل صادق ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ أي ولتنذر الناس من هول يوم الجمع وهو يوم القيامة إذ فيه تجمع الخلائق كلها ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي في يوم الجمع ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ أي فريق من أولئك الناس المجموعين في يوم القيامة في الجنة وفريق منهم في السعير ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ مهتدين أو ضالين ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ فيجعلهم من المهتدين لعلمه بحسن توجيه استعدادهم إلى السعادة ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الذين شاء أن يدخلهم في نقمته وعذابه لعلمه الأزلي بسوء توجيهاتهم وسوء تصرفهم أولئك ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ﴾ أي صديق يتولى أمورهم ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينصرهم ويدفع عنهم العذاب. وإنما غير الباري أسلوب المقابلة للدلالة على أن العلة هي ظلمهم على أنفسهم في توجيهاتهم السيئة. ومن المفسرين من قال أن المراد ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة مهتدية على غرار قوله تعالى: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩] وأمثاله لأنه قادر على كل شيء ممكن من الممكنات، ولكن لم يشأ ذلك بل شاء أن يدخل بعض الناس في رحمته وهم المطيعون، وبعض الناس في نقمته وهم العاصون الظالمون.

وقوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾؟ جملة مستأنفة مقررة لما قبلها من انتفاء وجود الولي والنصير للظالمين من حيث أنهم اكتسبوا أفظع الجرائم وهي أنهم

اتخذوا من دونه أولياء شركاء وأنداداً مع أن عملهم ذلك عمل باطل عاطل فاسد ﴿فَ﴾ الحق أن ﴿اللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ الحميد والمحصي المبدىء المعيد كما قال ﴿وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾ يوم البعث ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا معنى ولا وجه لاعتبار الأولياء من دونه، وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ﴾ حكاية لقول رسول الله ﷺ للمؤمنين، أو خطاب من الله سبحانه وتعالى لرسوله وأمته، أي وما خالفكم الكفار فيه من أمور الدين فحكمه إلى الله، أي فاتبعوا فيه ما جاءكم من الله ولا تميلوا إلى ما يعتقدونه، أو المعنى فحكمه وفصل الحق من الباطل فيه إلى الله، أو المعنى فجزاؤه موكول إلى الله يجزي كلاً من الطرفين جزاءً وِفاقاً ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في كافة أموري لا على غيره ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي ارجع لا إلى من سواه ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خبر آخر لقوله ذلكم ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أي يكثركم بسبب هذا الجعل والتأثير على طريق التوالد والتناسل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ لا ذاتاً ولا صفة ولا فعلاً ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ المحيط سمعه بكل المسموعات وبصره بكل المبصرات لا يخرج منها شيء ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي خزائنها ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾ بسطه له ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي ويضيق الرزق على من يشاء ضيقه عليه ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وهو في كل ما يفعله من البسط والقبض حكيم.

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ

مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ
(١٤) فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ
اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ
أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥) وَالَّذِينَ
يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ
وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (١٦)﴾.

قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ﴾ لما قرر أن الله له مقاليد السماوات والأرض، بين أن خلقه لها لم يكن عبثاً بل كان حسب علمه وإرادته الأزليين لتشريع الأحكام وإرسال الرسل لإرشاد الأنام حتى يكونوا على معرفة بالخالق وعبادة له على الوجه اللائق فقال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ وقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ أن فيه مصدرية على أنه مفعول شرع وما عطف عليه أو مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي وهو إقامة الدين وقوله: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ الخطاب شامل للنبي ﷺ وأصحابه وسائر الأنبياء والمرسلين، أي ولا تتفرقوا في الدين الذي هو الاعتقاد بالله وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، فإن الأصول عبارة عن ذلك وأما الفروع فهي أحكام عملية تختلف بحسب الزمان وأحوال الأمم، وأساس هذا الدين هو التوحيد لرب العالمين، ويؤيده قوله تعالى ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ على الاستمرار من التوحيد لرب العالمين، وإذا كبر عليهم ذلك وعاندوك فلا تهتم بذلك ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ﴾ ويختاره لأعباء الرسالة ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ إليه ويريد طاعته ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا﴾ أي أمم الأنبياء بعد وفاة أنبيائهم ﴿إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ من أنبيائهم بأن الفرقة ضلال وفساد وكان ذلك ﴿بَغْيًا﴾ وعداء ﴿بَيْنَهُمْ﴾ فهذا الفريق لم يقبل دأب فريق آخر، وتجسمت العداوة واستفحلت حتى كفرت الأمم السابقة بالرسل اللاحقين ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ من تأخيرهم إلى أجل مسمى ﴿لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ باستئصال كل مبطل ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ﴾ أي من بعد القدامى منهم، وهم أهل الكتاب الذين كانوا في عهده ﷺ ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾.

﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ التفرق وعدم الثبات على الهدى ﴿فَادْعُ﴾ إلى الألفة والاعتصام

﴿وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ أي اثبت على الدعاء إلى الله كما أوحى إليك ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ الباطلة ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ أي من جنس الكتاب أي بجميع ما أنزله الله ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ أي أمرني ربي لأعدل بينكم في تبليغ الشرائع فلا أخص جمعاً بشيء أبداً ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي خالق الكل ومعبود الكل ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ لا يعاقب أحد بمعصية أحد ولا يثاب أحد بحسنة أحد ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي لا يحتج بعض على آخر على وجه الخصومة والتفرق لأن الحق قد ظهر فلم يبق للاحتجاج ثمر ﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ﴾ أي يخاصمون في دينه ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ﴾ أي من بعد ما قبل الناس دينه وخلوا فيه ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ عظيم من الله لمكابرتهم ولهم ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لا يقادر قدره.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي أنزل جنس الكتاب بالحق إذ لا ينزل من الحق إلا الحق ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ أي العدل أعني رعاية الحقوق على الإطلاق، أو الميزان بين الله وعباده وبين الرسول وأمته وبين أولي الأمر

والمؤتمرين بأوامرهم، وكذلك كل من عليه حق الإطاعة لغيره كالعبد بالنسبة إلى مولاه، والمتعلم بالنسبة إلى معلمه، والأولاد بالنسبة إلى آبائهم. ويفسر هذا المفهوم الحديث الشريف: «**إن لنفسك عليك حقاً، ولربك عليك حقاً. . .**» الحديث أو الآلة المعروفة المستعملة لمعرفة التساوي والاختلاف في الموازين. وإنزال الكتاب وما بعده لشعور العاقل بالمسؤولية، والجزاء يتبين في الآخرة، ولذلك عقبة بقوله ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ أي لعل حلولها قريب وهناك يتبين الناس كل ما يحكم الله رب العالمين ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ استعجال استهزاء واستنكار ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ﴾ أي خائفون ﴿مِنْهَا﴾ لإيمانهم بوجودها ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ من ربهم بلا ارتياب ومراء ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ﴾ أي يجادلون في مجيئها وزمانه ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ﴾ عن الصراط المستقيم ﴿بَعِيدٍ﴾ جداً، لا يرجعون إلى الصراط السوي إلا بلطف رب العالمين وقوته.

﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ بكافة الوجوه المادية والمعنوية، وأفضل الأرزاق المعنوية العقل فالعلم، وأهمه الإيمان بالله إيماناً كاملاً فالصحة في القلب وطاقة إرادة الناس وتوجيههم إلى السعادة، وأفضل الأرزاق المادية الصحة في الجسم، والكفاف، وموافقة الأهل والأولاد، والجار العاقل الأمين ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ﴾ ذو القوة المتين القادر على تنفيذ ما أراده ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالب أبداً.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ والحرث في الأصل إلقاء البذر في الأرض، يطلق على الزرع الحاصل منه، ويستعمل في ثمرات الأعمال ونتائجها. وحاصل معنى الآية: من كان يريد ثمرات الأعمال الحسنة في الآخرة أي يعمل في الدنيا بأمل حصول ثوابها في الآخرة نَزِدْ له في ثمرات أعماله ونعطه جزاء فوق ما تقتضيه أعماله ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي اللذة الحاصلة من مكاسبها الدنيوية التي ليس فيها ابتغاء مرضات الله وإنما المقصود العيش حسب الهوى في الدنيا ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ أي شيئاً منها يتمتع بها في دنياه ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ يتمتع به في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ كلمة أم منقطعة بمعنى الهمزة وبل للإضراب عن مضمون شرع لكم من الدين الآية. . . يقول: أضرب عن ذلك فإن الراعي لتلك الآية من رافقته العناية الربانية من الموحدين وأما أولئك الكفار

المشركون فقد قرروا بلا أصل وأساس شركاء لله تعالى وأقروها لهم و﴿شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ وهو دين الهوى ودين الكفر ودين الضلالة والجهالة بحيث استجلب مقت الله عليهم ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾ أي القضاء من الله في سابق الزمان بتأجيل عذاب الكافرين إلى الأوقات المحدودة ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي بين الكافرين في الدنيا واستعجل عذابهم فيها، ولكن القضاء جرى بأن يكون عذابهم في وقت محدود وهو يوم القيامة الذي هو يوم الفصل بين العباد في كافة الأعمال. ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ الذين ذكرناهم ومن حذا حذوهم من المشركين أو مطلق الظالمين بالمعاصي ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة. ويحتمل أن يكون العذاب منتشراً في دنياهم وأخراهم بقدر ما قرر الله لهم ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ أي خائفين خوفاً شديداً ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ أي من السيئات ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾أي والعذاب وارد عليهم وواقع لهم بلا ريب ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي أنه هو المقرر لهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ الجزاء الطيب ذلك الجزاء ﴿هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي بِهِ.

﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي لا أسألكم على ما أعمله وأتكلفه لكم أجراً يصل إليّ إلا المودة في القربى، أي إلا مودتكم في من لهم معكم صلة القرابة، فودادكم لهم هو أجري أو المودة في ذوي قرباكم ومعاونتهم وأنا من ذوي قرباكم أي لا أطلب منكم أجراً إلا مودتي. فإن لم تعرفوا حقي لنبوتي وكوني رحمة عامة ونعمة تامة فلا أقل من مودتي لأجل حق القرابة وصلة الرحم التي تعتنون بحفظها ورعايتها. والخطاب لقريش وذلك أنهم جمعوا له وأرادوا أن يرشوه على أن يمسك عن سب آلهتهم فلم يفعل ونزلت. وله ﷺ في جميعهم قرابة. أخرج أحمد والشيخان والترمذي وغيرهم عن ابن عباس أنه سئل عن قوله تعالى إلا المودة في القربى، فقال سعيد بن جبير: قربى آل محمد ﷺ.

فقال ابن عباس: عجلت، إن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيه قرابة أو للأنصار بناء على ما قيل أنهم أتوه بمال ليستعين به على ما ينويه، فنزلت فرده. وله ﷺ قرابة منهم لأنهم أخواله فإن أم عبد المطلب وهي سلمى بنت زيد النجارية منهم وكذا أخوال آمنة أمه ﷺ كانوا على ما في بعض التواريخ من الأنصار أيضاً.

وفي روح المعاني: وذهب جماعة إلى أن المعنى لا أطلب منكم أجراً إلا محبتكم أهل بيتي وقرابتي. وفي البحر أنه قول ابن جبير والسدي وعمرو بن شعيب و(في) على هذا المعنى للظرفية المجازية، والقربى بمعنى الأقرباء، والجار والمجرور في موضع الحال. أي إلا المودة ثابتة في أقربائي متمكنة فيهم. ولمكانة هذا المعنى لم يقل إلا مودة القربى. وذكر أنه على الأول كذلك وأمر اتصال الاستثناء وانقطاعه على ما سبق.

والمراد بقرابته ﷺ في هذا القول قيل: ولد عبد المطلب وقيل علي وفاطمة وولدها ـ رضي الله تعالى عنهم ـ، وروي ذلك مرفوعاً.

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه من طريق ابن جبير عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية قل لا أسئلكم، قالوا: يا رسول الله من قرابتك الذين وجبت مودتهم؟ قال: «علي وفاطمة وولدها ـ صلى الله تعالى على النبي وعليهم ـ» وسند هذا الخبر على ما قال السيوطي في الدر المنثور ضعيف، ونص على ضعفه في تخريج أحاديث الكشاف ابن حجر. وأيضاً لو صح لم يقل ابن عباس ما حكي عنه في الصحيحين وغيرهما. وقد تقدم إلا أنه روي عن جماعة من أهل البيت ما يؤيد ذلك.

ثم قال: والحق وجوب محبة قرابته ﷺ من حيث أنهم قرابته ﷺ كيف كانوا، وما أحسن ما قيل:

داريت أهلك في هواك وهم عِدا ... ولأجل عين ألف عين تكرم

وكلما كانت جهة القربى أقوى كان طلب المودة أشد فمودة العلويين الفاطميين ألزم من محبة العباسيين على القول بعموم القربى، وهي على القول بالخصوص قد تتفاوت أيضاً باعتبار تفاوت الجهات والاعتبارات. وآثار تلك المودة التعظيم والاحترام والقيام بأداء الحقوق أتم قيام. انتهى باختصار.

﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ أي ومن يكتسب أيَّ حسنة كانت نزد له فيها حسناً بمضاعفة الثواب عليها. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ يستر الذنوب ويغفرها و﴿شَكُورٌ﴾ يجزي من أطاع منهم بمزيد الثواب.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ

ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ
عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ
ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾
وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾
وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا
يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن
كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا
نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ﴾ أي بل أيقولون افترى محمد ﷺ على الله كذباً بدعوى الرسالة منه وإنزال القرآن عليه؟! والاستفهام للاستنكار ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ فكيف يوسع لك المجال ويعطي القوة والقابلية حتى تفتري على الله، أو أنك إنسان ذو بصيرة فائقة وذو سريرة لائقة والافتراء لا يناسب إنساناً مثلك فإن يشأ الله أن تفتري عليه يختم على قلبك يجعلك مختوماً على القلب غير منشرح الصدر حتى تكون مثل أولئك الناس الفاسدين المنقبضين في العقل والمشاعر وتقدر أن تفتري على الله، فإن هذا العمل الفاسد لا يحصل إلا من الفاسدين. وقوله تعالى: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ﴾ تسلية للرسول ﷺ أي لا تهتم بقولهم أن محمداً افترى على الله الكذب، وهو ليس برسول منه، وليس القرآن كلامه، فإن الله يمحو كل قول باطل مثل أقوال أولئك المشركين الطاعنين فيك ﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ﴾ ويثبت الحق ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ وهو أنك رسوله الأمين، وأن القرآن كلام نزل به جبريل الأمين لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين، والمراد بكلماته قضاؤه وتأييده للرسول من كل الجهات حتى يستقر أمره ويتحقق نصره ويجوز أن يراد بالكلمات الآيات التي نزلت بعد ذلك وأيدت رسالته ﷺ ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ يعني أن الله عليم بالخيالات الجارية في القلوب التي في الصدور فيؤيدها إن كانت متوجهة إلى الخير ويمحيها إذا كانت متوجهة إلى الشر.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ صغائرها وكبائرها ﴿وَيَعْلَمُ مَا

﴿نَفۡعَلُونَ﴾ فيجازي التائب ويتجاوز عن غيره إذا شاء ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي يجيبهم ويقبل دعاءهم وينصرهم ويقهر أعداءهم ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ﴾ الواسع جل شأنه ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾.

﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي لتكبروا وتعاظموا على الفقراء، أو طغوا وبغوا وتجاوزوا الحدود المقررة ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ﴾ أي بتقديره ﴿مَّا يَشَآءُۚ﴾ أي ما اقتضته حكمته ورحمته ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ خبير بالخفيات بصير للجليات ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ﴾ أي المطر الذي يغيثهم من الجدب ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ﴾ أي يئسوا منه ﴿وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ﴾ أي مطره على أكناف البلاد وأطرافها حتى تصبح الأرض مخضرة، أو ينشر ما نتج من المطر وهو الحبوب ﴿وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ الذي يتولى عباده باللطف والإحسان.

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي ومن دلائل رحمته وقدرته ﴿خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ﴾ وظاهر الآية الكريمة أن ما يسمى بالدابة في اللغة أو العرف موجود في كل من السماوات والأرض ولا داعي إلى تفسير الآية بوجود الملائكة في السماوات والإنسان والحيوان في الأرض لأن الملائكة لا تسمى بالدابة لا في اللغة ولا في العرف. وكذلك لا يسمى الإنسان بالدابة عرفاً ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ﴾ أي والله تعالى قادر على حشرهم بعد البعث للمحاسبة أينما كانت ويحتمل أن يكون المعنى والله تعالى قادر على جمع ما في السماوات والأرض في صعيد واحدٍ لأن العلوم الكونية أخذت تتطور فيمكن أن يصل الإنسان إلى بعض الكواكب السماوية المعمورة بالدواب وينزلها من السماء إلى الأرض في المستقبل.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ﴾ مما عرضت عليكم في الدنيا من الأشياء الخارجة عن المعتاد كالسيل والجدب والآفات الواردة على المزارع والأشجار والأمراض الفاسدة والحروب الحاصدة ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي بسبب معاصيكم التي اكتسبتموها، ونسبتها إلى الأيدي لأنها آلة البطش والأخذ. ومن أهم تلك المعاصي الجالبة للمآسي انتشار فساد الاعتقاد بالمعتقدات الأساسية وكثرة القتل وارتكاب الفواحش ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ من الذنوب الجالبة للكروب ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أي ولستم بقادرين على تعجيز الباري سبحانه وتعالى ومنعه من أن يصيبكم بالمصائب فهو قادر عليكم أينما كنتم ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ﴾ يتولى أموركم باللطف والرحمة ﴿وَلَا نَصِيرٖ﴾ يدفع عنكم المصائب بالقوة.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ
رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟
وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم
مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ
﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ
ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ
أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى
ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ
﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ﴾ أي ومن آيات علمه وحكمته وقدرته إلهام عباده صنع السفن الشراعية التي تستعمل للسير في البحار الجارية فيها حال كونها مرتفعات ﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ﴾ الله ﴿يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ التي تجري بقوتها السفن ﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ أي فتصير تلك السفن المتحركة واقفة ثابتة على ظهر البحر ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الأمر المأخوذ مما ذكر من إلهام صنع السفن، وركوب الناس عليها، وسلوكها على البحر، وجريانها بالرياح الموافقة للمقصد أو إيقافها على ظهر البحر. ﴿لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ لكل إنسان وقف على أحوال السفن الشراعية وركبها فتوقفت بسكون الريح، وصبر حتى تحركت، أو ركبها فتحركت نحو المقصد وشكر الله على ذلك ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ عطف على يسكن أي أو يهلكهن ويغمسهن في أعماق البحر ﴿بِ﴾ سبب شؤم ﴿مَا كَسَبُوا۟﴾ أي ركابها ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ عطف على مقدر مقرون بلام العلة أي لينتقم منهم ويعلم الذين أو ليظهر عظيم قدرته تعالى ويعلم الذين ﴿يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي مهرب ومخلص من العذاب ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي فهو متاعها وتتمتعون بها مدة محدودة فقط ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من ثواب العقيدة السليمة والأعمال الصالحة ﴿خَيْرٌ﴾ في ذاته لأنه لا يشوبه ألم روحي أو مادي ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ زماناً حيث لا يفنى ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ لا على غيره تعالى أصلاً. وعن

علي ـ كرم الله وجهه ـ أنه اجتمع لأبي بكر مال فتصدق به كله في سبيل الله، فلامه المسلمون وخطأه الكافرون فنزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ﴾. أي على شخص ﴿هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾.

وفي الكبائر آراء فمنهم من قال: هي ما ترتب عليه الوعيد. ومنهم من قال: ما يوجب الحد. ومنهم من قال: كل ما دل على عدم مبالاة مرتكبه بالدين. وقيل: كل ما نهى الله عنه كبيرة بالنسبة إلى عظم من نهى عنه؛ فيشمل الذنوب كلها. وظاهر قوله تعالى: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ يدل على أن بعض ما نهى عنه من الصغائر. وقيل: المراد بالكبائر ما يتعلق بالبدع، وبالفواحش ما يتعلق بالشهوات. وبقوله ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ﴾ ما يتعلق بالقوة الغضبية. وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ﴾ نزلت في الأنصار دعاهم الله تعالى على لسان رسوله ﷺ للإيمان به وطاعته فاستجابوا له، فأثنى عليهم جل وعلا بما أثنى به. والآية إن كانت مدنية فالأمر ظاهر، وإن كانت مكية فالمراد بالأنصار من آمن بالمدينة قبل الهجرة، أو المراد بهم أصحاب العقبة ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي ذو شورى لأنها مصدر كالبشرى. والأمر ما تشاوروا فيه. قال الراغب: والمشورة استخراج الرأي بمراجعة البعض إلى البعض، من قولهم شُرْتُ العَسَلَ وأشرته استخرجته. والشورى الأمر الذي يتشاور فيه. إنتهى. فعليه لا يحتاج إلى تقدير المضاف لأنه ليس بمصدر حينئذ. ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ أي في سبيل الخير، وقد يستأنس به على أن أهل الشورى هم الأغنياء من أهل الحل والعقد.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾ أي ينتقمون ممن بغى عليهم على ما جعله الله لهم ولكن لا يعتدون. يدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ والجزاء على المماثلة انتصار، وعلى الزيادة ظلم. والأحسن ما أفاده بقوله ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ فيجزيه أحسن الجزاء وأعظمه ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تأكيد على اعتبار المماثلة ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ﴾ أي بعد أن ظلموه فصار مظلوماً ثم انتصر عليهم فلا سبيل عليه كما قال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ لأي أحد لذكرهم بسوء أو أخذهم بعمل سيىء لأنهم حازوا حقهم، ومن حاز حقه فقد فاز. ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ﴾ أي يتكبرون فيها ويتجبرون ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ جزاء وفاقاً ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ في ما أوذي ﴿وَغَفَرَ﴾ عند قدرته على الانتقام والانتصار ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ أي لمن

أصحاب عزائم الأمور وله أجر موفور. أو أن عمله وحالته من الصبر والمغفرة لمن عزم الأمور، ومن كان له ذلك فهو على أوفى الأجور. قالوا: النجاة في الصدق، قلنا والصدق في الصبر، وتحقق بعد تجاريب الأمور أن من صبر ظفر، والعاقبة للصابرين.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي ما له من ناصر يتولاه من بعد أن خذله الله ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ يوم القيامة ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾؟ أي هل لنا من وسيلة لرجوعنا إلى الدنيا حتى نؤمن ونعمل صالحاً يرضاه الباري تعالى؟ ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي على النار ﴿خَٰشِعِينَ﴾ متنكسين ﴿مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ والهوان ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ إلى من يأخذهم للتعذيب ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾ للحمل على الكفر ومعاندة الرسول حتى يلحقهم العذاب ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ أما من تتمة قول الذين آمنوا، أو إعلان من الله سبحانه وتعالى ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم﴾ برفع العذاب عنهم ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ والله سبحانه وتعالى لا يرفع عنهم العذاب لأنه لا يغفر أن يشرك به ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ إلى الهدى في الدنيا أو النجاة في الآخرة.

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم﴾ إذا دعاكم على لسان رسوله ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ أي لذاته ولا لما يقع فيه من العذاب والعقاب ﴿مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ﴾ يومئذ تلتجئون إليه ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ أي إنكار ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ وقد بلغت كاملاً ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ﴾ على مقتضى فطرته الإنسانية ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من السيئات ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ مبالغ في الكفر بنعمة ربه ونسيانها.

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ﴾ على حسب اختياره وإرادته ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ من الأولاد ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ﴾ بنين وبنات ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ﴾ لا تلد أبداً ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ مبالغ في العلم والقدرة.

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ أي وما صح لفرد من أفراد البشر أن يتكلم معه ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ أي تكلماً متحققاً في ضمن الوحي، وهو إلقاء المقصود في قلب من يتكلم معه بصورة خفية عن الناس، ويختص به كليمه سواء كان في المنام كما كان مع الرسول سيدنا محمد ﷺ في أوائل النبوة ستة أشهر، وكما كان مع سيدنا إبراهيم عليه السلام في قضية ذبح سيدنا إسماعيل عليه السلام، أو في اليقظة كإيحائه تعالى إلى أم موسى عليه السلام ﴿أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ أي أو كلاماً باللفظ المسموع من وراء حجاب كما وقع مع سيدنا موسى في الطور، ولسيدنا محمد ﷺ ليلة المعراج عند فرض الصلوات الخمس ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ أي أو إلا وحياً بأن يرسل رسولاً وهو جبريل عليه السلام ﴿فَيُوحِىَ﴾ أي فيلقي ذلك الرسول ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي بإذن الله ﴿مَا يَشَآءُ﴾ أي ما يشاء الله تعالى أن يلقيه إليه كجميع ما أوحى إلى سيدنا محمد ﷺ في ما عدا الأشهر الستة الابتدائية التي كان الوحي بالرؤيا الصادقة.

فوصول القرآن إليه ﷺ وحي بالمعنى الثالث أي تكلم الله مع رسوله، بتوسط جبريل بعين الألفاظ الواصلة بأمره تعالى إليه بدون تغيير وتبديل، وبدون تصرف من جبريل عليه. وكذلك الأحاديث القدسية. وأن القرآن متعبد بتلاوته دونها، وأن القرآن أحكام وقصص وغيرها دون الأحاديث القدسية. ومن الناس من قال: إن الأحاديث القدسية لم ترد عليه ﷺ بالألفاظ وإنما ألهم معناه. وأما اللفظ فمن الرسول وهذا الرأي مرجوح لا قيمة له، والحق هو الأول. وصرح به أحمد بن حجر الهيتمي رحمه الله في الفتح المبين ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ﴾ متعال عن صفات المخلوقين ﴿حَكِيمٌ﴾ تجري أفعاله على سنن الحكمة.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي ومثل ذلك الإيحاء المذكور أوحينا وأرسلنا إليك ﴿رُوحًا﴾ أي ملكاً مقرباً وهو جبريل ﴿مِّنْ أَمْرِنَا﴾ من إرادتنا لتأخذ حقائق الشريعة الإلهية في ضمن الآيات البينات حال كونك ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى﴾ سابقاً قبل الإيحاء ﴿مَا ٱلْكِتَٰبُ﴾ المنزل من الله ﴿وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ برب العالمين وبسائر ما يؤمن به ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ﴾ أي ذلك الروح أو ما معه وهو القرآن الكريم الذي نزل به ﴿نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ﴾ بهذا الروح وذلك النور الباهر عبادنا ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو الإسلام وشرائع الأحكام من الأصول الاعتقادية والفروع العملية ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾. أي أمور من فيهما إبداعاً ورعاية وحفظاً وإبقاء. سواء كان ذلك في الدنيا أو في الآخرة وإلى الله تعالى العلم بتفاصيل الأمور التي ترجع إليه.

❀ ❀ ❀

سورة الزخرف

مكية وهي تسع وثمانون آية
نزلت بعد الشورى

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ (١) وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ
تَعۡقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (٤) أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ
ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ (٥) وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ
(٦) وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ (٧) فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا
وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ (٨) وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ
خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ (٩) ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا
سُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ (١٠) وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ
مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ (١١) وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ
وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ (١٢) لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ
وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ (١٣) وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا
لَمُنقَلِبُونَ (١٤)﴾.

قوله: ﴿حمٓ﴾ الكلام فيه كما في نظيره ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ أي القرآن الواضح لمن أنزل عليهم لكونهم بلغتهم ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ جواب للقسم بالكتاب. ومعنى كونه عربياً عربية مفرداته وتراكيبه وأسلوب تنسيقه بنوع عجز عنه البلغاء ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ أي لكي تفهموه بسهولة ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي اللوح المحفوظ الثابت ﴿لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ﴾ رفيع الشأن ﴿حَكِيمٌ﴾ ذو حكمة بالغة. ووجه كونه علياً إعجازه ببلاغته وسائر وجوه الإعجازُ ووجه كونه حكيماً أنه ثابت لا ينسخ.

وأما أحكام غيره فمنها ما نسخ ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾ مفعول مطلق لقوله نضرب على غير لفظه. أي فنعرض عنه إعراضاً بتبعيده عنكم ﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ أي لكونكم منهمكين في الإسراف وتجاوز الحدود يعني أن الحكمة تقتضي إنزال القرآن فيكم وتذكيركم بهُ ولو كنتم مسرفين غاية الإسراف مصرين عليه.

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي في الأمم المتقدمة ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم﴾ أي من القوم المسرفين الذين أرسلناك إليهم ﴿بَطْشًا﴾ أي قوةً وهجمةً ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي سلف وسبق في القرآن الكريم مراراً كثيرة قصة الظالمين الأولين والكافرين السابقين ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي محل استقرار ونموّ ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ للعبور والمراد يسلكونها بسهولة ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ بسلوكها إلى غاياتكم ومقاصدكم ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ أي بمقدار تقتضيه الحكمة فأحيينا به ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ خالية من النماء. وتذكير ميتاً لأن البلدة في معنى البلد، أو باعتبار المكان و﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أي مثل ذلك الإنشاء والإخراج للنبات تخرجون أي تبعثون من قبوركم ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ أي أصناف المخلوقات ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أي تركبونه ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ وتستريحوا عند مروره ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ وذلله لنا ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ أي مطيقين ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ أي راجعون أي تذكروا عند علوكم واستوائكم على ظهوره نزولكم وانحطاط منزلكم في القبر.

﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ

مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَـٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ مرتبط بقوله السابق ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ يقول سبحانه وتعالى انظروا إلى هؤلاء الكافرين المعاندين كيف يناقضون أنفسهم بأنفسهم، فهم إذا سألتهم عن خلق الكائنات أجابوا بأن الله هو الخالق وهو المسيطر على السماوات والأرض، ومعنى ذلك أنه غني عن العالم وأجزائه، وخالق للكل مع أنهم جعلوا الله تعالى من عباده المخلوقين له جزء أي ولداً وهو لوالده كالجزء من وجوده كما اشتهر أن أولادنا أكبادنا ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ بالله الحق كفراناً واضحاً لا يحتاج إلى البيان. ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ أي واختاركم ﴿بِٱلْبَنِينَ﴾؟. ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَـٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي والحال أنهم بحيث إذا بشر أحدهم بإحدى البنات التي ذكروها للباري تعالى ونسبوها إليه صار وجهه مسوداً من شدة ما أخبر به عنده ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي ممتلىء غضباً وحزناً وألماً ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ استفهام آخر استنكاري تقريراً وتأكيداً للأول، يعني أو جعلوا من تنمو وتتربى في كسوة الحلية من القلادة والسوار والخلخال وغيرها مبتعدة عن أعمال الرجال ﴿وَهُوَ﴾ مع ما ذكر من النقص ﴿فِى ٱلْخِصَامِ﴾ والجدال الدائر بين الناس عادةً ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أي غير موضح جعلوه جزءَ الله ومن بناته مع القصورين في الفعل والقول؟ ثم قرر ما استنكره عليهم بقوله الكريم ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا﴾ أي اعتبروها بناتٍ لله تعالى عن ذلك علواً كبيراً. وجعلهم ذلك مما يوجب العجب لكل عاقل ﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ﴾؟ أي أحضروا خلق الله تعالى لهم ذلك والجواب: لا.

ولما كانت دعواهم لها كذباً وافتراء على الله فـ﴿سَتُكْتَبُ﴾ في ديوان أعمالهم ﴿شَهَـٰدَتُهُمْ﴾ التي شهدوا بها على الملائكة من كونهم إناثاً وبنات لله تعالى ﴿وَيُسْـَٔلُونَ﴾ عنها يوم القيامة.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم﴾ أي وقالوا: نحن نعبد الملائكة وعبادتنا لهم

أمرٌ حسن اعتيادي داخل تحت المشيئة ولو شاء الرحمن أن لا نعبدهم ما عبدناهم. وقولهم ذلك باطل عاطل ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ ويخمنون ويقولون ذلك رجماً بالغيب. وقوله تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ﴾ إضراب عن نفي العلم بذلك، أي لا تبحثوا عن عدم علمهم وانظروا هل آتيناهم كتاباً من قبل بعث الرسول ﷺ أو من قبل القرآن، وفي ذلك الكتاب أمرناهم بعبادة الملائكة ﴿فَهُم بِهِۦ﴾ أي بذلك الكتاب ﴿مُسْتَمْسِكُونَ﴾؟ ويعتصمون به ويجعلونه عمدة وسنداً لعقيدتهم ﴿بَلْ﴾ اضربوا عن ذلك أيضاً فإنه ليس لهم علم بذلك ولا نزل عليهم كتاب يتمسكون به وإنما نهاية أمرهم أن ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ أي على دين وملة ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ أي حاصل قولهم أنهم وجدوا آباءهم على تلك العقيدة، وهم يهتدون بهم ويقتدون بهم، أي أنهم أناس مقلدون على العمى بآبائهم الضالين، ولا حجة لهم أبداً ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي والأمر كما ذكر من عجزهم عن الحجة ﴿مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ أي متنعموها ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ أي ملة ودين ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ بهم ﴿قَٰلَ﴾ حكاية لما جرى بين الرسل المنذرين وبين أممهم المقلدين ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾؟ من الأمور المفتعلة المزعومة ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي ولما آل الأمر إلى هذه الدرجة من الوقاحة وسوء المقال انتقمنا منهم شر انتقام وجعلناهم عبرة للأيام ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾؟ من الاستئصال وإبادة الناس من النساء والرجال.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾ أي واذكر لهم وقت قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأبيه آزر وقومه المتهالكين على عبادة الأصنام كيف تبرأ من عقائدهم وأعمالهم وقال: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ وبراء صفة مشبهة أي بريء، أو مصدر كالطلاق والعتاق وصار خبراً بطريق المبالغة. ولذلك يستوي فيه الواحد والمتعدد والمذكر والمؤنث ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ استثناء متصل إن كانت ما عامة لذوي العقول

وغيرهم، وإن كانت مختصة بغير ذوي العقول فمنقطع، ويجوز أن تكون إلا صفة بمعنى غير على أن ما في وما تعبدون نكرة موصوفة، والتقدير: إنني براء من آلهة تعبدونها غير الذي فطرني وخلقني ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ﴾ يثبتني على الهداية، فالسين للتأكيد لا للاستقبال لأنه جاء في الشعراء يهدين بدونها ﴿وَجَعَلَهَا﴾ أي كلمة الاستثناء باعتبار ما يستفاد منها، أو جعل جملة إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني أو كلمة التوحيد المستفادة من الآية ﴿كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ﴾ أي في ذريته وفي من تبعه ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ إلى التوحيد وهو تعليل للجعل أي جعلها باقية في عقبه كي يرجع من أشرك منهم بدعاء من وحد منهم ﴿بَلۡ مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الكفار المعاصرين للرسول ﷺ ﴿وَءَابَآءَهُمۡ﴾ السابقين بطول العمر ومزيد النعمة ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ أي دعوة الحق أو القرآن أو الموت والكل سائغ في المعاصرين ﴿وَرَسُولٞ مُّبِينٞ﴾ ظاهر الرسالة بما له من الآيات البينات ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ فزادوا كفراً على كفر.

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمۡ أَبۡوَٰبٗا وَسُرُرًا عَلَيۡهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخۡرُفٗاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ﴾ بيان لبعض آخر من أقاويلهم الباطلة المبنية على الهوى فقالوا: كيف نزل القرآن على هذا الرجل الذي ليس له مال وثروة؟ ولم لم ينزل على رجل عظيم الشأن عليّ المقام نافذ الأمر من إحدى القريتين الكبيرتين: مكة أم المدينة؟ ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ﴾؟ فيرد عليهم الباري سبحانه وتعالى ويستنكر كلامهم، ويقول: أهم يقسمون رحمة ربك حتى يعطوا المقام لمن يريدونه أم نحن ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ﴾ أي أسباب معيشتهم وكذلك أسباب عزهم وكرامتهم وشرفهم ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ﴾ في الرزق وسائر ما يتفاوت فيه الناس من المكارم والمعالي وغيرها، وذلك ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا

سُخْرِيًّا﴾ ليستعمل بعضهم بعضاً في مصالحهم ويستخدموهم في مهمات أمورهم ليحصل بينهم ترابط وتحابب وتآلف فينتظم بذلك نظام الحياة الاجتماعية. وفي بعض التفاسير ليتخذ بعضهم بعضاً محل هزء ومسخرة فتتفكك عرى المحبة وينتقم الله منهم. وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ معناه أن نظرهم إلى أهل القرى الكبيرة وعظمة مقام رجالها أمر دنيوي لا قيمة لها في سعادة البشر عند ربه، ورحمة ربك وإعزازه للناس في الآخرة وشرف لقائه فيها خير مما يجمعونه في الدنيا.

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي ولولا كراهة أن يكون الناس كلهم أمة واحدة كافرة بها بواسطة النظر إلى تنعم الكافرين ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾ أي مصاعد منها ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أي يعلون على السطوح ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا﴾ نفيسة ثمينة ﴿وَسُرُرًا﴾ من قوائم عالية غالية ﴿عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا﴾ وزينة في أجزائها وفرشها ونواعمها وغيرها ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي إلا متاع الحياة، وإن نافية أو أنه لمتاع الحياة الدنيا واللام فارقة، وما زائدة على تخفيفها ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ومعنى العندية الاعتبار، أي والآخرة المعتبرة المرضية عند ربك للمتقين.

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ يعني أن من يتعام ويعرض عن ذكر الرحمن، أي عن هذا القرآن الذي هو ذكر الله تعالى حيث نزل بتسبيحه وتحميده وتوحيده ودعوة الناس إلى طاعته وعبادته في ركاب رسوله الذي أرسله رحمة

للعالمين ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ أي نهيىء له شيطاناً مارداً ليستولي على قلبه ويجعله وكره لإلقاء مكره وفكره الفاسد حتى يحركه للاعتقاد الباطل والعمل العاطل ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ أي فذلك الشيطان قرين لذلك الشخص المعرض عن ذكر الله ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي وأن تلك الشياطين لا شك أنهم يمنعون أولئك الناس عن السبيل أي عن سلوك سبيل الحق ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي أن أولئك الشياطين مهتدون لطريق الحق ولذلك يتبعونهم، أو الضمير عائد إلى العاشين أي ويحسب أولئك الناس المتعامون عن ذكر الرحمن أنهم باتباعهم للشياطين مهتدون لطريق الخير ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن أولئك الشياطين غربان.

إذا كان الغراب دليل قوم سيهديهم طريق الهالكينا

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ أي فيستمر مقارنة ذلك الشيطان لذلك الإنسان العاشي حتى إذا جاءنا ذلك العاشي أي مات وتحول إلى الله، ورأى يوم القيامة بأمّ عينه واطلع على حقيقة الحال وأن نفع الشياطين له محال ﴿قَالَ﴾ ذلك الإنسان العاشي لذلك الشيطان ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ في الدنيا ﴿بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ والمراد بهما المشرق والمغرب على التغليب أو بعد مشرق الصيف عن مغربه وبعد مشرق الشتاء عن مغربه ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ أنت وقد ملكتني وأهلكتني. ويقول الله سبحانه وتعالى لذلك الإنسان المتندم عما ارتضاه في دنياه ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ هذا التمني فإن وقت الندم قد فات وقوله تعالى: ﴿إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ بدل من اليوم بتقدير مضاف إليه أي إذ صح أنكم ظلمتم أو تبين أنكم ظلمتم في الدنيا، وقوله: ﴿أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ بفتح الهمزة مقدر بلام العلة لعدم النفع أي لن ينفعكم الندم والتمني في هذا اليوم يوم القيامة زمان تبين ظلمكم في الدنيا لتقرر أنكم في العذاب مشتركون مع الشياطين. وقرىء بكسر الهمزة فتكون جملة مستأنفة مقررة لعدم النفع. وقوله إذ ظلمتم يكون علة لعدم النفع، أي لن ينفعكم التمني اليوم لأنكم ظلمتم أنفسكم بالإشراك في الدنيا والاشتراك مع الشياطين فيه إنكم اليوم أنتم وقرناؤكم الشياطين في العذاب مشتركون كما كنتم في الدنيا في الظلم مشتركين. وقوله: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ مصدر بهمزة الإستفهام الإنكاري ليستريح الرسول ﷺ عن إتعاب النفس في إرشادهم فيقول: أبعد ما جرى من الكفار المشركين في مكة أنت تقدر أن تسمع القوم الصم عن سماع الحق، أو تهدي القوم العمي عن إبصاره ﴿و﴾ تهدي ﴿مَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ واضح بعلم اليقين؟! أي فلا تبال بهم

ولا تهتم.

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ ونتوفينك إلينا ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ بعدك ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِى وَعَدْنَاهُمْ﴾ وننصرك عليهم ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِى أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ من القرآن نزل عليك ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أي وأن ما أوحي إليك لذكر وبيان حال وكمال ونضال في سبيل الحق وشرف عند الله وعند الناس العقلاء لك ولقومك الذين أجابوا دعوتك من المهاجرين والأنصار وسائر الصحابة الأخيار ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ يوم القيامة أنت وقومك المجيبون عن مدى القيام بأعباء الرسالة وكفاح أهل الضلالة ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا﴾ أي أمم من أرسلنا ﴿مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾؟ أي هل حكمنا بعبادة غير الله رب العالمين.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَٰٓأَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ الْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي متلبساً بآياتنا أي معها معية استعدادية قريبة ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي أشراف قومه الذين يملأون ديوانه ﴿فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ﴾ إليكم لإطاعة الله الجليل وإطلاق الحرية المعقولة لبني إسرائيل ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ أي استهزؤوا به وبالآيات التي أتى بها استهزاء عميقاً بحيث جاءهم الضحك الناشىء من التعجب عن مجيئه وقوله ذلك، وهو أضعف إنسان عندهم ولم يصدقوا بأن معه آيات ربانية ومعجزات خارقة وتعاليم موافقة للعادات التي مشوا عليها ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ

أُخْتِهَا﴾ يعني وقد أريناهم آياتنا الدالة على كمال قدرتنا بتتابع تكون الثانية منها أكبر وأوقع في النفوس من الأولى، بحيث تدهش العقول وتأخذ بالألباب فلم تفدهم ﴿وَأَخَذْنَهُم بِالْعَذَابِ﴾ أي بالقحط سنين وبالجراد والقمل وغيرها ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى رشدهم ويأخذون طريق رشادهم في الدين واعتقدوا به أنه ساحر.

﴿وَقَالُواْ يَتَأَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أي بعهده الموجود عندك وهو عهد النبوة والرسالة منه إلى عباده، ومعناه أن من كان ثقة مأموناً مختاراً عند صاحبه لمهمة عالية عالمية فله وجه عنده، وإذا دعاه وترجاه لمهمة تقبل دعاءه وأجابه، فإن دعوته وأجابك فـ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ إلى سلوك سبيل الإيمان والطاعة لربك ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ أي فدعانا موسى لكشفه فأجبناه ولما كشفنا العذاب كان الحق أن يؤمنوا فلم يؤمنوا وإذا هم ينكثون ذلك القرار الجاري بينهم وبين موسى ونقضوه.

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ﴾ أي جمعهم، ونادى فيهم كمن يطلب تصويت الأمة للانتخابات: ﴿يَقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَرُ﴾ أي الجداول والفروع المأخوذة من النيل في كل جانب وأراد بملك مصر كل البلاد من أسكندرية شمالاً إلى أسوان جنوباً مع ما يليهما شرقاً وغرباً، وكان ملك مصر عندهم كملك الدنيا وقوله: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾؟ إما المقصود تجري تحت مستقره وعرشه وساحة جلوسه، أو المراد من تحت تصرفي للاستثمار والاستغلال ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؟ كل ذلك. وأراد من وراء ذلك أن يشتهر خضوع الأمة له واعترافها بأن الملك ملكه وتخويف الناس من الإيمان بموسى وأتباعه في أهدافه التي كان يتزلزل بها عرشه وقوله: ﴿أَمْ أَنَاْ خَيْرٌ﴾ أم فيه منقطعة أي بل أنا خير وأفضل وأشرف ﴿مِّنْ هَذَا﴾ الرجل الذي ﴿هُوَ مَهِينٌ﴾ أي ذليل حقير ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أي ولا استعداد له أن يأتي بعبارة فصيحة يظهر منها مقصوده بسهولة وراحة ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ الْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ قال مجاهد: كانوا إذا سودوا رجلاً سوروه بسوارين، وطوقوه بطوق من ذهب علامة لسؤدده. فيقول فرعون للناس في إغفالهم عن الحق: إن كان موسى أميراً وملكاً دنيوياً فلم لم يسور بأسورة من ذهب كما هو العادة؟ وإن كان ملكاً دينياً ربانياً فلم لم يجيء معه الملائكة مقترنين له ومحيطين به؟ ولم يدر هو وأتباعه الفاسدون أنه رسول من رب العالمين فلا حاجة له إلى اقتران الملائكة كما

أنه لا يدعي الملكية الفرعونية حتى يلبس الأسورة وشعائر السلطنة. ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ أي فطلب فرعون من قومه الخفة في إطاعته بهذه الكلمات الاحتيالية فأطاعوه واعترفوا بأن ملك مصر له وأن موسى لا يعتمد عليه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ أي خارجين عن إطاعة الله وبذلك دخلوا في طاعة الكافر الذي لا شرف له عند الله.

﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ أي أسخطونا وجعلونا في ما لا نستحبه من الاعتقادات الفاسدة والأقوال الفارغة والأعمال الكاسدة ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي من فرعون وملئه ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ في نهر النيل ﴿أَجْمَعِينَ ۝٥٥ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا﴾ أي إماماً للكفار الذين يتمردون بعدهم ﴿وَمَثَلًا﴾ أي قصة ذات شأن وعظة ذات قيمة ﴿لِّلْـَٔاخِرِينَ﴾ بأن يقال لمن يتمرد بعده مثلك مثل فرعون يأتي عليك ما أتى عليه.

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝٥٧ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ۝٦٠ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٢ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝٦٣ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦٤ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ۝٦٥﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ أي ولما ذكر عيسى ابن مريم مثلاً وشبيهاً لآلهة الكفار، أي قيل أنه يعبد من طرف النصارى كآلهتنا فإذا كان حَصَباً لجهنم فلتكن آلهتنا أيضاً حَصَباً لها. وجواب لما قوله تعالى: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ أي يضجون ويفرحون ويبطرون. ﴿وَقَالُوٓا۟﴾ للرسول ﷺ ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ﴾ من عيسى ﴿أَمْ هُوَ﴾ أي عيسى خير من آلهتنا. وفي واقع الحال تقول يا محمد أنه خير من آلهتنا فإذا صار هو حصب جهنم فلتكن آلهتنا حصبها ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا﴾ أي ما جاؤوا بذكر عيسى ﷺ إلا للجدال وإلزامك وإسكاتك ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ إبطال لأقوالهم إجمالاً، وانتقال إلى بيان أنهم قوم مبالغون في الخصومة

والعداوة مع الحق. ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي عيسى ﴿إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ وشرفناه بشرف النبوة والرسالة ﴿وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا﴾ أي عبرة ﴿لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾. ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي لخلقنا ملائكة في الأرض ﴿يَخْلُفُونَ﴾ لكم كما يخلفكم أولادكم، أو يكونون خلفاً ونسلاً لكم؛ ليعرف تميزنا بالقدرة الباهرة وليعلم أن الملائكة ذوات ممكنة تخلق توليداً كما تخلق إبداعاً، فمن أين لهم استحقاق الألوهية والانتساب إليه سبحانه وتعالى بالبنوة له؟ تعالى عن ذلك علواً كبيراً ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ أي وإن نزول عيسى من السماء إلى الأرض لعلامة تكون سبباً للعلم بقرب حلول الساعة فلا تشكن في الساعة وحلولها، أو أن وجود عيسى من الأم بلا أب له علامة لقدرة الله تعالى على خلق الإنسان بلا والد ولا والدة وبلا والد كعيسى، وبلا والدة كحواء، وعلى خلق الإنسان وإعادة حياته وبعثه من القبور يوم الساعة فلا تشكن بها. أو أن وجود عيسى وإحياءه للموتى بإذننا علامة لتحقق الساعة لأنا إذا أقدرنا عبداً على إحياء الموتى فنحن أقدر منه على إحيائهم عند البعث وحلول الساعة فلا تشكن فيها ﴿وَٱتَّبِعُونِ﴾ فيما أبلغه إليكم من أن الله واحد لا شريك له وأنه لا يعبد سواه، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن كل مكلف له دفتر حساب يحاسب على مقتضاه ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ موصل إلى الحق القويم ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي ولا يمنعنكم الشيطان عن اتباعي ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي بالمعجزات الواضحات أو بالإنجيل ﴿قَالَ﴾ أي لبني إسرائيل: ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ من أمر الدين والشريعة وحساب الموتى بعد البعث والنشور ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ يا بني إسرائيل ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أقول لكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ لا غيره ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي هذا التوحيد والتزام الحق صراط مستقيم لا يضل من سلك فيه ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ في أن عيسى ورسالته وعبوديته لله ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ من المختلفين بالإنكار لرسالته أو بالقول بأنه ابن الله ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ هو يوم القيامة.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ

ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟
ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ
وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ
ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا
تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ الضمير عائد إلى قريش وقوله: ﴿أَن تَأْتِيَهُم﴾ بدل من (الساعة) و(ينظرون) بمعنى ينتظرون. أي هل تنتظر قريش شيئاً إلا حلول الساعة وإتيانها عليها مفاجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؟ بإتيانها وغشيانها عليها كما تغشى سائر الناس. وحاصل الآية: أن أولئك الكفار لا يقبلون أية نصيحة ولا يخافون من أي إنذار ولا يرفع رؤوسهم إلا حلول الساعة في حال لا يشعرونها فيه كما روى أبو سعيد قال قال رسول الله ﷺ: «**تقوم الساعة والرجلان يحلبان النعجة، والرجلان يطويان الثوب**» ثم قرأ ـ عليه الصلاة والسلام ـ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؟

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ والآية نزلت في أبي بن خلف وعقبة بن أبي معيط، ومعناها أن المحبات تنقطع يوم إذ تأتيهم الساعة، ولا تبقى إلا محبة المتقين، وهم المتصادقون في الله عز وجل لما أنهم يرون ثواب التحابب في الله عز وجل ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ أي ويناديهم الباري سبحانه وتعالى بقوله: يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إما صفة للمنادى، أو بدل، أو مفعول لمقدر أي أمدح ونحوه. وأفاد بقوله آمنوا اتصافهم بالعلم بما جاء به الرسول من الله تعالى وبقوله: ﴿وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ اتصافهم بالإذعان الفعلي وهو الانقياد النفسي لما جاء به ﷺ ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ أي تسرون سروراً ظاهراً يعرفه الناس ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾ بعد دخولهم الجنة ﴿بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ﴾ والصحاف جمع صحفة قيل هي كالقصعة ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ جمع كوب بمعنى المشربة الصغيرة التي ليس فيها عرى ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ أي تستلذ وتقر بمشاهدته وتستطيبه العقول السليمة ﴿وَأَنتُمْ﴾ يا عبادي ﴿فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا﴾ أي أوتيتموها إيتاء قسرياً كإيتاء المواريث، وذلك ﴿بِـ﴾ سبب ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وكثرة الفواكه بحسب تعدد الأنواع. وقوله منها يعني لا تأكلون إلا بعضاً منها وذلك لكثرتها.

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَـٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ﴾ أي أن الراسخين في الإجرام وهم الكفار ﴿فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ أي لا يخفف العذاب عنهم ﴿وَهُمْ فِيهِ﴾ أي في العذاب ﴿مُبْلِسُونَ﴾ حزينون ﴿وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ﴾ بذلك ﴿وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أنفسهم لسوء اختيارهم ﴿وَنَادَوْا۟﴾ أي المعذبون في جهنم خازنها وقالوا: ﴿يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ أي ليمتنا ﴿إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ﴾ أي مقيمون في العذاب لا بد لكم من ذلك ﴿لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟﴾ أي الكفار ﴿أَمْرًا﴾؟ أي أم أبرموا أمراً وجعلوه مقطوعاً في الإضرار بالرسول ﷺ ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ أي كدنا حقيقة نحن لا هم ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾؟ المراد بالسر حديث النفس، وبالنجوى ما يتناجون به بينهم بالإخفاء عن غيرهم ﴿بَلَىٰ﴾ نسمع ونعلم ونطلع على كل ذلك وغيره ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ ما أمروا بكتابته لا لعلمنا فإننا لا نحتاج إلى كتابتهم بل للاحتجاج به عليهم يوم القيامة عند الميزان والحساب. وظاهر الآية الشريفة أن حديث النفس مسموع للباري تعالى، كما أنه يدل على أن الكتبة مطلعون أيضاً على حديث النفس، والكلام السري في النجوى، ولا مانع من أن يكشف الله ذلك لهم حتى يحيطوا بما في باطنهم وظاهرهم.

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ﴾ كما تدعون أن الملائكة بنات الله ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾

لذلك الولد، فإن تعظيم الوالد يوجب تعظيم الولد. وحاصل الكلام أنه إن صح وثبت وجاز أن يكون للرحمن ولد فأنا أول وأقدم العابدين، وكانت عبادة الولد أنسب بحالي لأني أعلمكم بالله وبما يناسب مقامه من تعظيمه وتنظيم علاقته، ولكن ليس له ولد ولا يصح له، فإنه واجب الوجود وغيره ممكن الوجود، ولا يتناسبان في الحقيقة والماهية بأي حال. وقد ظهر أن وجه الملازمة كونه ﷺ أعلم الناس بشؤون الباري وتعظيمه. ومما يجب أن يعلم أن صحة الشرطية لا تتوقف على إمكان الشرط والجزاء لجواز تركيبها من محالين؛ كما تقول: لو كانت الثلاثة زوجاً لانقسمت بمتساويين بلا كسر. ولو كانت النار باردة ما أحرقت اليد الماسة لها، ولو كان زيد أسداً كان مفترساً ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي عن الذي يصفونه به من تحقق الوالِد له ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟﴾ في دنياهم غافلين عما يحتاجون إليه في عقابهم ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ وهو يوم القيامة. وقال جمع أنه يوم بدر ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ الظرفان متعلقان بما في إله من معنى المعبودية ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في تأجيل العقاب وتعجيله ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأعمال كل عامل وما يستحقه.

﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي السلطنة والتصرف في كل ذلك، لأنه الخالق له والخالق حقه التصرف المطلق ﴿وَعِندَهُۥ﴾ لا عند غيره ﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ ووقت تبدل عالم الدنيا بعالم الآخرة ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للجزاء ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ كما زعم المشركون أنهم شفعاؤهم عند الله ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ وهو التوحيد فهم لاعترافهم بالتوحيد والتزامهم الطاعة لله تعالى يستحقون الشفاعة ممن أذن له الرحمن. وقوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ دليل على أن اعتبار الشهادة بالحق والتوحيد إنما ينفع إذا كانت من علم وتصديق ذاتي، وإن كان بدليل مجمل لا من تقليد صرفٍ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ لتعذر المكابرة في ذلك ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾؟ أي وما دام هم معترفون بأن الله

خلقهم وأخرجهم من العدم إلى الوجود فأنى يؤفكون، أي فكيف يصرفون عن طاعته الخالصة وتوحيده ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ معطوف على الساعة، أي وعند الله علم قيله أي قول الرسول محمد ﷺ ونداته بـ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المشركين ﴿قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ فما دام الله يعلم بذلك القول وذلك النداء فلا تهتم ولا تحزن. ﴿فَٱصْفَحْ﴾ وأعرض ﴿عَنْهُمْ﴾ لتستريح ولا تطمع في إيمانهم ﴿وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ أي أمري معكم سلام ومتاركة ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ جزاءهم جزاء وفاقاً.

❁ ❁ ❁

سورة الدخان

مكية وآياتها تسع وخمسون آية، نزلت بعد الزخرف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا
مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾
رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن
كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ
﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾
يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ
لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟
ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى ﴿حمٓ﴾ الكلام فيه كما سبق ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ أي أقسم بالكتاب المبين الواضح الموضح للحقائق والمقسم به قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي ذلك الكتاب المبين ﴿فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ هي ليلة القدر بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ إذ يتركب من هاتين الآيتين الكريمتين قياس من الشكل الثالث تقريره: القرآن الكريم أنزل في ليلة مباركة، والقرآن الكريم أنزل في ليلة القدر، والنتيجة أن تلك الليلة المباركة هي ليلة القدر. وهذه النتيجة إذا لوحظت مع قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ يظهر بحق أن ليلة القدر ليلة من ليالي شهر رمضان فطوبى لمن أحياها بطاعة الرحمن ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ أي ومبشرين بذلك الكتاب جميع المكلفين ﴿فِيهَا﴾ أي في تلك الليلة المباركة ﴿يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ ويفرق

بمعنى يفصل ويلخص والحكيم بمعنى المحكم لأنه لا يبدل ولا يغير بعد إبرازه للملائكة عليهم السلام بخلافه قبله وهو في اللوح المحفوظ، فإن الله تعالى يمحو منه ما يشاء ويثبت.

وأخرج محمد بن نصر وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال في ذلك: يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من رزق، أو موت أو حياة أو مطر حتى يكتب: يحج فلان... وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن ربيعة بن كلثوم قال: كنت عند الحسن فقال له رجل: يا أبا سعيد ليلة القدر في كل رمضان هي؟ قال: أي والله أنها لفي كل رمضان، وإنها لليلة يفرق فيها كل أمر حكيم فيها يقضي الله تعالى كل أجل وعمل ورزق إلى مثلها. وأخرج البيهقي عن أبي الجوزاء ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ هي ليلة القدر يجاء بالديوان الأعظم السنة إلى السنة فيغفر الله تعالى شأنه لمن يشاء.

وفي كثير من الأحاديث الشريفة أن الليلة المباركة هي ليلة النصف من شعبان بحيث لا يمكن إنكارها. فقال بعض الأجلة: كون التقدير في هذه الليلة يشكل عليه قول كثير أنه ليلة النصف من شعبان وهي المراد بالليلة المباركة التي قال الله تعالى فيها يفرق كل أمر حكيم. وأجاب بأن ههنا ثلاثة أشياء: الأول نفس تقدير الأمور، أي تعيين مقاديرها وأوقاتها وذلك في الأزل. والثاني إظهار تلك المقادير للملائكة عليهم السلام بأن تكتب في اللوح المحفوظ، وذلك في ليلة النصف من شعبان. والثالث: إثبات تلك المقادير في نُسَخ وتسليمها إلى أربابها من المدبرات، فتدفع نسخة الأرزاق والنباتات والأمطار إلى ميكائيل عليه السلام ونسخة الحروب والرياح والجنود والزلازل والصواعق والخسف إلى جبريل عليه السلام ـ ونسخة الأعمال إلى إسرافيل عليه السلام. ونسخة المصائب إلى ملك الموت وذلك في ليلة القدر. هذا وسيأتي إن شاء الله تعالى في تفسير سورة القدر مزيد تفصيل للموضوع.

وقوله تعالى: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ منصوب على الاختصاص وتنكيره للتفخيم، والجار والمجرور في موضع الصفة له ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ وقوله: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ تعليل ليفرق أو لقوله تعالى أمراً من عندنا، ورحمة مفعول به لمرسلين وتنوينها للتفخيم، والجار والمجرور في موضوع الصفة لها ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لكل مسموع ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ لكل معلوم ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي من

أهل الإيقان ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا إله حق إلا هو ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أو بدل من رب السماوات.

﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ﴾ اضراب إبطالي حال كونهم ﴿يَلْعَبُونَ﴾ ما يقولون بشيء مطابق للواقع ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي يوم تأتي بجدب ومجاعة فإن الجائع يرى ما أمامه إلى السماء كهيئة الدخان. أو يوم ظهور الدخان المعدود في أشراط الساعة، لما روي أنه ﷺ قال: «**أول الآيات الدخان، ونزول عيسى، ونار تخرج من قعر عَدَنٍ أبين تسوق الناس إلى المحشر**» قيل: وما الدخان؟ فتلا رسول الله ﷺ الآية وقال: «**يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوماً وليلة، أما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكام، وأما الكافر فهو كالسكران يخرج من منخره وأذنيه ودبره**». ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يحيط بهم وقوله ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ١١ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ مقدر بقول وقع حالاً، وإنا مؤمنون وعد بالإيمان إن كشف العذاب أو اعتراف به وتضرع وتشفع به عند الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾؟ بين لهم واجبهم وثوابهم على تقدير الإجابة وعقابهم على تقدير العناد، وذلك الرسول هو محمد ﷺ ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ أي قال بعضهم: إنه معلم من أعجمي، وقال بعضهم: إنه مجنون. وقوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ﴾ أي إنا كاشفوه ورافعوه عنكم بدعاء الرسول، فإنه لما دعا رفع القحط ﴿قَلِيلًا﴾ كشفاً قليلاً أو في زمان قليل ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ هذا جواب من جانب الباري سبحانه وتعالى عن قولهم وإخبارهم بالعود على تقدير الكشف. وقوله: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ ظرف لقوله: ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ١٧ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٨ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ١٩ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ٢٠ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ٢١ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ٢٢ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ٢٣ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًاۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ٢٤﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ﴾ تذكير للكافرين المشركين بما جرى قبلهم على فرعون وقومه على أثر عنادهم مع موسى ﵇ لعلهم يتعظون ويعتبرون فقال

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾) وامتحنا وابتلينا ﴿قَبْلَهُمْ﴾ أي قبل أولئك المشركين المعاصرين لك ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ أي فرعون وقومه لكن لما كان قوامه بقومه قد اكتفى بهم ﴿وَجَآءَهُمْ﴾ أي قوم فرعون ﴿رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ مكرم محترم عند الله وهو موسى عليه السلام ﴿أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ أي قائلاً أن أدوا إلي وسلموا إلي عباد الله أي بني إسرائيل المعذبين لأنهم اشتهروا بأنهم عباد الله أي يعبدونه ويوحدونه ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي لا تستكبروا على الله باستكباركم على رسوله ﴿إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي بحجة ظاهرة تدل على سلطنة الباري وقدرته على الممكنات، يتصرف فيها كيف يشاء فيقلب العصا حية مثلاً. ولما أدرك موسى عليه السلام سوء نيتهم قال: ﴿وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ أي التجأت وتحصنت به من أن تؤذوني بالضرب أو القتل ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ﴾ أي فكونوا بمعزل مني لا لي ولا عليّ ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ﴾ أي فلما علم بقصدهم السيىء دعا ربه ﴿أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ مصرون على العداء والعناد. وقوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى﴾ أي فأوحى إلي ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ ليلاً أي بقطع من الليل ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ أي ولما وصلت البحر انفتح لك وانفرج فيكون طريقاً لعبورك بسلامة، ولما عبرت فلا تضرب البحر بالعصا حتى يعود إلى حاله القديم، واتركه رهواً أي منفتحاً منفرجاً ليطمع فرعون وجنوده في عبوره، فإذا خاضوه انطبق عليهم وهلكوا ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ في علمي، ولا بد أن يغرقوا في هذا السفر. فسرى موسى بقومه، ولما وصل النيل وجده على ما ذكرنا فعبروا منه، وتركه على حاله رهواً، ولما وصله فرعون وجنوده على تلك الحالة اقتحموه، ولما وصلوا كلهم إلى ما بين حافتيه انطبق عليهم فصاروا مغرقين. وعلى هذا تكون جملة أنهم جند مغرقون علة لتركه رهواً.

﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟﴾ كم منصوب محلاً على المفعولية لما بعده، أي تركوا كثيراً في مصر ﴿مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ أي مواقع حسنة

للبقاء فيها ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا﴾ أي فرعون وأتباعه ﴿فِيهَا﴾ أي في تلك النعم ﴿فَكِهِينَ﴾ أي أصحاب فاكهة أو طيبي الأنفس ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي الأمر كذلك ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ وهم بقايا بني إسرائيل من الذين كانوا موالين لفرعون وما أمكنهم أن يخرجوا مع موسى عليه السلام أو المراد قوماً آخرين ممن ملك مصر بعد هلاك فرعون وقومه. وتفسيره ببني إسرائيل الخارجين مع موسى عليه السلام لا يوافق الواقع لأنهم لم يرجعوا إلى مصر ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ كناية عن عدم الاكتراث بهم، فإنه اشتهر بين العامة أن كل قوم شريف إذا هلكوا تبكي عليهم السماء والأرض بنزول نوع من الندى من السماء أو بظهور بعض الصعيق على سطح الأرض، فيقول أنه بعد هلاك فرعون وقومه لم يتحقق ذلك. والمقصود الإهانة كما ذكرنا. ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ ممهلين مؤجلين إلى وقت آخر يهلكون فيه.

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ بتلك الحادثة ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا﴾ متكبراً جباراً ﴿مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ في الشر والإضرار بالناس ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾ أي بني إسرائيل ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ باستعدادهم واستحقاقهم أو مع علمنا بعواقبهم ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي من الموجودين في زمانهم فلا يلزم تفضيلهم على أمة محمد ﷺ لنص قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ وأدلة أخرى ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾ كفلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى وغيرها... ﴿مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ أي اختبار ظاهر لننظر كيف يعملون.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾
فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ
إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا
خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن
رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ
﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ
ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ

أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾
كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا
يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا
مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾
فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ﴾ أي أن كفار قريش ﴿لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ أي ما العاقبة إلا موتتنا الأولى القريبة منا وهي الموتة بعد الحياة الدنيوية، أي ليست القصة التي نتلقاها من الرسول من الموت ثم البقاء في البرزخ إلى الساعة، ثم البعث والحشر والميزان والحساب، ثم السوق إلى النار أو إلى الجنة متحققة في المستقبل إلا جزء منها وهو الموت وهو انمحاء كلي بلا أثر ولا خبر ولا حشر ولا نشر ولا مسؤولية في الآخرة، ولا ثواب ولا عقاب، فإذا كفرت أو آمنت أو صدقت أو كذبت، وعدلت أو ظلمت، وقتلت أو أبقيت، وزنيت أو تعففت، وأصلحت أو أفسدت فالكل لا جزاء وراءه، وهذا تفصيل قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ أي بمبعوثين بعدها، فانظروا أيها العقلاء هل يستوي الخير والشر؟ والنور والظلمة؟ والعدل والجور؟ وسائر المتقابلات؟ والذي خلق العقل والشعور لا يقول بالاستواء من له مستوى في العقل والشعور ومن في عين قلبه نور. وكانوا يقولون في مقابل من وعدهم بالنشور من الرسول ﷺ والمؤمنين: ﴿فَأْتُوا بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في قولكم وانظروا أيضاً إلى هذا الكلام الفارغ الغير الموجه في مقابل الرسول القائل بأن الله الذي خلقكم يميتكم ثم يحييكم لمحاسبة أعمالكم فهو كما قدر على خلقكم وإماتتكم قادر على بعثكم ومحاسبتكم، ولم يقل أنا قادر على إحياء الموتى حتى يتوجه طلبهم في فأتوا بآبائكم إن كنتم صادقين؟ فلم يكن كلامهم ذلك إلا ناشئاً عن عناد للحق واستكبار على الخلق.

ولما كان المنشأ تلك العظمة رد عليهم الباري وقال: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾ أي في الحال والمال والعدد والعدة التي تكون داعية إلى التكبر ﴿أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ هو تبع الأكبر الحميري، واسمه أسعد بهمزة، وكنيته أبو كوب، وكان باليمن وسار بالجيوش، وحير الحيرة، وبنى سمرقند وقيل: هدمها وكان مؤمناً وقومه كافرين. وقيل لملوك اليمن: التبابعة لأنهم يتبعون كما قيل لهم الأقيال لأنهم يتقيلون (بصيغة

المجهول) أي يقتدى بهم. وعن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تسبوا تبعاً فإنه كان قد أسلم**» ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي قبل قوم تبع كعاد وثمود، أو قبل قريش ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ فليحذر كفار قريش من الإهلاك إذا بقوا متمردين مجرمين، وكيف نتركهم كذلك بلا نصيب في الدنيا ولا عذاب في الآخرة.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ أي عابثين والعابث هو الذي يعمل بدون حكمة في عمله وغاية في تصرفه ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي ما خلقنا في حال من الأحوال إلا في حال رعاية الحق والعدل وتشريع للنظام ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أي أكثر قريش أو أكثر الناس ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك، وأقلهم وهم المؤمنون يعلمون. ولذا قال المؤمنون: ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار. ثم هددهم بقوله المبين: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي يوم فصل الحق عن الباطل وهو يوم القيامة ميقاتهم للحساب ونيل الجزاء بلا استثناء ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى﴾ والمولى الصاحب الذي من شأنه أن يتولى معونة صاحبه على أموره، فيدخل في ذلك السيد والخادم وابن العم والصديق والمعاهد. ويغني من الإغناء بمعنى الإجزاء، وشيئاً مفعول به، أي لا يجزي مولى عن مولى شيئاً قليلاً أو كثيراً ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ من أي ناصرٍ ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ وهو الذي كان مؤمناً وترحم عليه ربه وعفا عنه بذاته أو بشفاعة من يقبل شفاعته ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بمن أراد أن يرحمه.

ثم ذكر الباري ما لأهل النار من الفجار، وما لأهل الجنة من المتقين الأبرار فقال: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ أي الكثير الآثام ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ وهو خلط الزيت ﴿يَغْلِى﴾ من حرارته ﴿فِى ٱلْبُطُونِ﴾ فيقطع الأمعاء ﴿كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ﴾ أي الماء الحار الشديد الحرارة فيقول مالك النار ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ﴾ أي وجروه واسحبوه ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي وسطه ﴿ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ أي من الحميم المورث للعذاب ﴿ذُقْ﴾ بجميع أجزاء جسدك ما يصب عليك ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ فيما كان والآن أنت الذليل المهان، أو يقال له ذلك باعتبار حال الآخرة إهانة له وتحقيراً ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي هذا العذاب ﴿مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾ تشكون وتمارون وتجادلون المسلمين فيه ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ من المكاره ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ محيطة به من الجوانب ﴿وَعُيُونٍ﴾ لكل منها تلك لمناظرهم ومآكلهم

﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ من ناعم الحرير وغليظ يختارون ما يختارون ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ في مجالسهم يستأنس بعضهم ببعض وذلك إذا أرادوا ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي الأمر ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ والحور جمع الحوراء وهي البيضاء، وقيل شديد سواد العين وبياضها، وقيل الحور سواد المقلة كلها كما في الظباء. والعين جمع العيناء وهي عظيمة العينين. ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ يريدونها ﴿ءَامِنِينَ﴾ من الضرر الناتج من أكلها ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا﴾ أي في الجنة ﴿ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ وهي الموتة عقب الحياة في الدنيا والاستثناء مقيد أي إن كانت الموتة الأولى يستقيم ذوقها هناك وليس فليس ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٦ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ قيد للوقاية والرعاية أي أن ما أعطوا في الجنة كان فضلاً ووقايتهم عن الجحيم كانت فضلاً ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الرعاية والوقاية ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ ولا ينال الفوز العظيم إلا من الرب العظيم لعبده الكريم ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ﴾ أي القرآن ﴿بِلِسَانِكَ﴾ الموافق للسانهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي فإن لم يتذكروا فانتظر ما يحل بهم من الجزاء ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ ما يحل بك ولا يحل بهم إلا ما أعد الله لهم من العذاب ولا يحل بك إلا ما آتاك الله من حسن الثواب.

❁ ❁ ❁

سورة الجاثية

مكية وآياتها سبع وثلاثون، نزلت بعد الدخان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾.

قوله تعالى: ﴿حمٓ﴾ أن جعل اسماً للسورة فمحله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي هذه السورة مسماة بحم، أو مبتدأ خبره تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ﴾ استئناف للتنبيه على الآيات الكونية التي تدل دلالة ظاهرة على وجود صانع قادر، وتلك الآيات فيها دلالة على المقصود ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأن المؤمن هو الذي يتفكر بالبصيرة السليمة وأما الكافر فليس له بصر يحس بما لا يشتهيه وبصيرة ترشده إلى حقيقة ما يبتغيه ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ﴾ على بسيط الأرض مع القوة العقلية والحواس والمشاعر الدقيقة ﴿وَ﴾ في ﴿مَا يَبُثُّ﴾ أي وفي خلق ما ينتشر عليها ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ تدب على الأرض على أحوال مختلفة وأوجه متنوعة ﴿ءَايَٰتٌ﴾ على عظمة الله ﴿لِّلْمُوقِنِينَ﴾ أي لأناس من شأنهم النظر في النسب العقلية حتى يحصل لهم الإيقان بها، والتوسل بمعرفتها إلى أمور هامة يجب إدراكها والتوسل بمعرفتها إلى سعادة الدارين ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي وفي اختلافهما ومجيء الواحد تلو الواحد، أو في اختلاف مقدار أوقاتهما بحسب المدارات المختلفة ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ﴾ أي من مطر يحصل منه الرزق للإنسان وغيره مما يعيش على الأرض ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي بعد جمودها وعدم

إنباتها نباتاً ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ أي وفي تصريفها من جهة إلى جهة ومن حال إلى حال وإثارتها السحاب ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي يدركون بالعقل مبادئها وعواقبها ومنشأها ومصرفها ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي تتلوها عليك متلبسين بمحبة الحق واستفادة الناس منها، أو تتلوها تلاوة بالحق ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾؟.

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠ هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝١١ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٢ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٣﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ نزلت في أبي جهل وقيل في النضر بن الحرث وكان يشتري حديث الأعاجم ويشغل به الناس عن استماع القرآن لكنها عامة كما هو مقتضى كل ويدخل فيه من نزلت فيه دخولاً أولياً أي ويل لكل كذاب كثير الإثم ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الجملة صفة بعد صفة لأفاك ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾ عن قبول معانيها ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ بادر إلى الاستهزاء بالآيات كلها ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي مذل محقر لهم ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أي من قدامهم في مستقبلهم جهنم ﴿وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا﴾ من عذاب الله أو شيئاً من الإغناء ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ عطف على ما كسبوا أي ولا يغني عنهم ما اتخذوه أولياء من دون الله ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠ هَٰذَا هُدًى﴾ أي هذا القرآن هدى للمكلفين إذا اهتدوا به وآمنوا ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ أي من أشد العذاب.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ بأن جعله أملس السطح ﴿لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي بأمر الله ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٢ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ أي من الله ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ التصرف البارز البديع ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟

يَكۡسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ
﴿١٥﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ
عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ
ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ
﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ
﴿١٨﴾ إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ
وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ﴾ حذف المقول لدلالة يغفروا عليه، يعني قل للذين آمنوا اغفروا للذين لا يرجون أيام الله يغفروا. وفي مورد نزول الآية روايات فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في عمر رضي الله عنه، شتمه مشرك بمكة قبل الهجرة فهم أن يبطش به فنزلت. وهذا ظاهر في كونها نزلت بمكة. وروي أن النبي ﷺ وأصحابه نزلوا في غزوة بني المصطلق على بئر يقال له المريسيعُ، فأرسل عبد الله ابنُ أبي غلامه ليستقي فأبطأ عليه، فلما أتاه قال لي: ما حبسك؟ قال: غلام عمر قعد على طرف البئر فما تركَ أحداً يستقي حتى ملأ قرب النبي ﷺ وقُرب أبي بكر رضي الله عنه تعالى عنه. فقال ابن أبي: ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل: «سمنْ كلبك يأكلك» فبلغ ذاك عمر رضي الله عنه فاشتمل سيفه يريد التوجه إليه، فأنزل تعالى الآية. وحكاه الإمام عن ابن عباس وهو يدل على أنها مدنية. وروي عن ميمون بن مهران أن فنحاص اليهودي قال لما أنزل الله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾: احتاج ربُّ محمدٍ! فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه فاشتمل سيفه وخرج فبعث النبي ﷺ في طلبه حتى رده فنزلت. وهذا أيضاً يدل على مدنيتها.

ومعنى الآية: قل يا رسولي للذين آمنوا: اغفروا للذين لا يرجون أيام الله، أي لا يتوقعون أن يأتي يوم القيامة وهو يوم الله الذي يجزي فيه الناس حسب أعمالهم ويعصون الله ورسوله، ويتكلمون بالباطل ويشتمون الناس حتى لا يحصل شغب بين الناس، ويأتي يوم الجزاء فينالون عقابهم كما يستحقون. وإذا كانت الآية مكية كان هذا الأمر لضعف المسلمين إذ ذاك، وكان الرسول يخاف من المقابلة النزاع والفتنة وعذاب المؤمنين. وأما إذا كانت مدنية فالوجه أن هذه الأمور التافهة تقع كثيراً بين الناس لاسيما بين الفريقين المتخالفين فيجب حينئذ السماح وصرف

النظر حتى لا يتزلزل النظام ولا يبتلى الناس بالمحن والآلام. وقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ تطمين للمؤمنين بأن الله تعالى لا يهمل شأن أولئك الناس الفاسدين ويجزيهم جزاء حسب أعمالهم، ولا حاجة إلى أخذهم في الدين بالبطش والإيلام. وكذلك قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ أي التوراة، وفي الحقيقة أنها هي الموسوعة المفيدة في ذلك العصر لبني إسرائيل وكل أنبيائهم يعملون بها. وزبور داود عليه السلام كان فيه القصص والمواعظ، وأما الأحكام فكانت كما في عهد موسى عليه السلام. وأما الإنجيل فقد كان فيه من الأحكام الطارئة ولكنها كانت قليلة. ﴿وَالْحُكْمَ﴾ أي القضاء وفصل الخصومات، وذلك لأن الملك كان فيهم. واختاره أبو حيان، أو الفقه في الدين وخصه بالذكر مع دخوله في التوراة للاهتمام به لوسعة الفقه في الأحكام على عهد موسى عليه السلام. ومنه ما هو منصوص التوراة، ومنه ما جرى على لسان موسى عليه السلام ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ حيث كثر فيهم الأنبياء ما لم يكثر في غيرهم، وسره كثرة المشاجرة والمنازعة وإبداء الآراء بينهم فما كان يعالجها إلا الأنبياء عليهم السلام ﴿وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ ۖ﴾ أي دلائل ظاهرة واضحة تطمئن بها القلوب، أو معجزات تندهش عندها الأعداء، أو آيات ظاهرة في رحمة الله عليهم كالمن والسلوى عندما كانوا بالتيه ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ وهذا من سوء الحظ ومن النكبات الأممية إذ لا نزاع بعد العلم إلا من العناد والكفر والاستكبار وذلك دليل الدمار للديار أعاذنا الله. ولذلك عقبه بقوله: ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ﴾ يعني كان الاختلاف ناشئاً من البغي لا من الجهل بالأحكام وكانوا يعلمون الحق ويعاندونه ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ﴾ وأنت الرسول الوحيد من بني إسماعيل عليه السلام ﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ أي أمر الدين وأحكامه الأصلية والفرعية الاعتقادية والعملية ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾ وأمر أمتك تتبعها بنشر العلماء العاملين واستنباطاتهم من المنطوق، والمفهوم، من عبارة النص، ودلالة النص، واقتضاء النص، وإشارة النص... كما أنزلنا عليك ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ ويتبعوا النصوص الداعية إلى الاعتصام والإجماع. وكونوا على حذر من الجمود والجحود، ولا يغرنهم

البساطة والتنازل والتسافل، فإن الله يحب معالي الأمور ويكره سفسافها، واعلموا أن الشيطان وأعوانه لكم بالمرصاد والله عليكم بالمرصاد ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الحق ويكتفون بما عندهم من الخيالات السافلة والخزعبلات الباطلة، لا سيما الأجانب الذين لا يرقبون فيكم إلاً ولا ذمة، ويتربصون بكم الدوائر، فإنهم ظالمون، ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار. ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ من الأشياء لا في الدين ولا في الدنيا، أما في الدين فظاهر، وأما الدنيا فلأنهم لا ينفعونهم بقيمة درهم حتى ينتفعوا بقيمة دينار ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ فالظلم صفة سخيفة واحدة وجريمة كبيرة واحدة وأصحابها أمة واحدة ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وأهل التقوى هم أهل الحق وماذا بعد الحق إلا الضلال.

﴿هَٰذَا﴾ أي هذا القرآن وهذه الشريعة الشريفة ﴿بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ أي أسباب تنوير البصائر فهو كحل لعيون القلوب وشفاء لأهل الأمراض والكروب ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ عظيمة ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي فائزون باليقين.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ استئناف سيق لبيان حال المسيئين والمحسنين بعد بيان حال الظالمين والمتقين. وأم منقطعة، والإضراب للانتقال من بيان إلى بيان، واجتراح السيئات كسبها بالجوارح، والمراد هنا أعم من ذلك فإن أهل الاعتقاد الفاسد ليسوا مع أهل الاعتقاد السليم متساوين. والمعنى أبل حسب الذين اكتسبوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات. وقوله: ﴿سَوَآءً﴾ بدل من الكاف في كالذين فإنه بمعنى المثل. و﴿مَّحْيَاهُمْ﴾ فاعل سواء بمعنى مستو، و﴿مَمَاتُهُمْ﴾ عطف عليه. وقوله: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ إنشاء لذم حكمهم بالمساواة بين الفريقين، فإنه يعارضه الشرع الإلهي في كل عهد وعصر، كما يعارضه العقل البهي في كل زمان ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي متلبساً

ذلك الخلق بالحق. ومعنى تلبسه بالحق موافقته للحكمة ورعاية الإنصاف ومراعاة العدالة في الأمور وقوله: ﴿وَلِتُجْزَىٰ﴾ معطوف على مقدر أي ليدل به على قدرته ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ تعجب من أحوال من اتبع الهوى فصار يتبعه كما يتبع الصبي الرضيع ثدي أمه. والهوء ما تحبه النفس من مستلذاتها حقاً أو باطلاً، وفساد النفس الأمارة وعداؤها للإنسان إنما هو لأنها الأمارة بالهوى، وفيها من ذم اتباع هوى النفس ما فيها. وقال ابن عباس ﷺ ما ذكر الله الهوى إلا ذمه. فالهوى إذا توجه إلى الحق صار الإنسان مؤمناً كاملاً. قال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ** به» وكفى في مدح تسخيره للحق قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ قال سهل التستري ﷺ: هواك داؤك فإن خالفته فداواؤك. فيقول الباري جل شأنه: أخبرني عن حال من اتخذ إلهه هواه؟ أي اتخذ هواه إلهاً له ومعبوداً يطيعه في كل ما يأمر به وينهاه ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ﴾ عن سلوك سبيل الخير ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ به، فلو كان جاهلاً أمكن أن يكون معذوراً، ولكنه عالم واتبع الباطل مغروراً ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ﴾ فلا يسمع آيات الذكر الحكيم ولا مواعظ المرشد السليم ﴿وَقَلْبِهِۦ﴾ فلا يتفكر في عاقبته ولا يسعى في عافيته ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ غطاء يمنعه عن إبصار ما أمامه من المستوي والمعوج، والشارع المستوي والطريق المنهار فيصل إلى شفا جرف هار فينهار به في النار ﴿فَمَن يَهْدِيهِ﴾ أي فمن يهدي ذلك الهاوي في نار جهنم ﴿مِنۢ بَعْدِ اللَّهِ﴾ فهل هناك هادٍ أهدى من الله للعباد؟ لا حاشا وكلّا لا يوجد إلى يوم التناد ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟ أي أفلا تلاحظون الأدلة حتى تتذكروا ما ينفعكم في الدارين.

﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا

كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ الضمير ضمير مبهم مفسر بالحياة أي ما الحياة إلا حياتنا الدنيا، أي هذه الحياة المعلومة في هذا العالم عالم التعب والألم عالم الأكل والشرب والمنام والمقام ولا حياة جديدة في عالم آخر يسمى بعالم الآخرة ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي نموت نحنُ معاشر الآدميين الموجودين فنفنى ولا يبقى منا أثر، ونحيا. أي باعتبار جيل ينوب مناب الأموات سواء كانوا من أولادهم أو من غيرهم. والحاصل أنه يعيش جيل في قرن فيموتون، وينبعث جيل ثان لقرن آخر وهكذا إلى الأبد. وعلى هذا المعنى لا يبقى مجال للقول بأن المناسب أن يقول نحيا ونموت. ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ﴾ أي الزمان الطويل المستمر ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ﴾ مستند إلى عقل أو نقل أي كلام يخرج من الأفواه مستند إلى الأوهام ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ ظناً مأخوذاً من تقليد آباء بنوا تقليدهم على تقليد آخر، والتقاليد إذا لم تصحب نوعاً من البصيرة آل أمرها إلى خيالات فارغة. ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ في معارضتها ورفضها ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعوى البعث بعد الموت. ومعلوم أن ما جعلوه حجة كخيط العنكبوت لأن الرسول لم يدع أنه يأتي بالبعث بعد الموت، وإنما يقول أن الله يبعثكم فصارت حجتهم داحضة ساقطة. ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ ابتداء ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انتهاء الأجل للحياة ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي فيه ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي في ذلك الجمع ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وذلك سهل يسير على الله. ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ إذ لا يبقى عندهم أي شبهة فضلاً عن حجة.

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ﴾ على رُكبها أي وترى كل أمة من الأمم المجموعة يوم القيامة جاثية أي جالسة على أطراف أصابع رجليها مستوفزة للحركة والسير إلى حيث يساقون إليه ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ أي تدعى إلى محل خاص يؤتى في ذلك المحل كتابها من اليمين أو الشمال أو الظهور ويقال لهم ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا﴾ الكتاب الذي تؤتونه ﴿كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ أي يشهد عليكم بالحق ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي نأمر كرام الكاتبين يستنسخون في دقائق

الأعمال ما كنتم تعملونه في الدنيا وليس في ذلك شبهة قطعاً. فالكتاب ينطق عليكم بالحق القويم ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أي في جنته التي هي دار رحمته ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ فيقال لهم ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن استماعها وقبولها ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾؟.

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي إذا قيل أن ما وعد الله تعالى به من الأمور المنتظرة التي تأتي في يوم القيامة حق ﴿قُلْتُم﴾ في الجواب لعنادكم: ﴿مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ أي شيء هي استغراباً واستنكاراً ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ أي أن نظن بوجودها ووقوعها في المستقبل إلا ظناً حقيراً كاد أن يلتحق بالتصورات ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ لها استيقاناً يكون أساساً للتقوى ومبنى للاعتراف الثابت بالساعة وما يقع فيها.

وما ينبغي التنبيه عليه أن أمثال قوله تعالى: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ من استثناء المصدر التأكيدي من الفعل مشكل لأنه يوجب استثناء الشيء من نفسه أي ما ظننت إلا ظننت! وأجيب عن هذا الإشكال بأمرين:

الأول ـ تحويل المفعول المطلق التأكيدي إلى النوعي بأن يقال في الآية الكريمة: للظن مراتب مختلفة بالقوى والضعف ويراد من المصدر مرتبة مخصوصة مناسبة للمقام فيكون المعنى ما ظنَنا أو ما نظن بالساعة آتية إلا ظناً ضعيفاً حقيراً كما مر آنفاً. فيكون هذا المستثنى مرتبة واحدة من مراتب المستثنى منه.

والثاني ـ أن يقال ما دام سياق كلام المتكلم على تأكيد تحقق الظن يؤوّل نظن بنعتقد أي ما نعتقد بالساعة إلا اعتقاد الظن بالمعنى العام الشامل لما عدا اليقين، وما نحن بمستيقنين للساعة، وعلى اليقين يبنى الاعتراف بالساعة وما فيها.

ويؤول نحو ما ضربت إلا ضرباً بما فعلتُ شيئاً إلا ضرباً وهكذا.

﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ أي ظهر لهم حينئذ ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ في الدنيا ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي وأحاط بهم جزاء استهزائهم في الدنيا بوعود الباري سبحانه وتعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ﴾ أي نترككم في العذاب كما تركتم أسباب حصول لقاء يومكم هذا ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ ينصرونكم ويدفعون عنكم العذاب ﴿ذَٰلِكُم﴾ العذاب ﴿بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ أي مهزوءة به ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي لا يطلب منهم إرضاء الباري لأنه قد ولى زمان التوبة وإرضاء الباري تعالى ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تقديم الخبر للحصر وعلة اختصاص الحمد به تعالى على كل الفقرات أن الكل نعمة منه تعالى. والأول أنه رب السماوات التي ينزل منها المطر الذي من أسباب الأرزاق. والثاني أنه رب الأرض التي استقر عليها الحامد أياً كان. والثالث أنه مصدر الخيرات والنعم الكثيرة وأهمها أنه رب حبيبه محمد الذي أرسله رحمة للعالمين ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ والكبرياء العظمة والملك. وقال الراغب: الترفع عن الانقياد. ووجه تخصيص الكبرياء بالأمرين ظهور آثاره فيهما. ونسأله أن يسترنا بستار كبريائه عن الابتلاء بشر أعدائه، وأن يتغمدنا برحمته وآلائه إنه سميع قريب مجيب.

❀ ❀ ❀

الجزء السادس والعشرون
سورة الأحقاف

مكية وآياتها خمس وثلاثون
نزلت بعد الجاثية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلۡ
أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ
ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنۡ
أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ
غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾.

قوله: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ الكلام فيه ما في نظائره ﴿مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ﴾ من المخلوقات المكشوفة لحد الآن أو غير المكشوفة ﴿إِلَّا﴾ خلقاً متلبساً ﴿بِـ﴾ رعاية ﴿ٱلۡحَقِّ﴾ العدل والحكمة، ومن الحكمة الاعتراف بخالقها المسيطر على الوجود والفياض بالجود ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالله وصفاته وآثاره المستندة إليه ﴿عَمَّآ أُنذِرُواْ﴾ به ﴿مُعۡرِضُونَ﴾ فإن الكافر بالذات كافر بالصفات وبالآثار في الكائنات وبطبيعة كفرهم يُعْرِضون عن كل ما أنذروا به من البعث للحساب والميزان ودخول النار أو الجنة مع الأبرار إلى غير ذلك من الأمور التي وردت بها الآيات ﴿قُلۡ﴾ يا رسولي لهم توبيخاً ﴿أَرَءَيۡتُم﴾ أيها المشركون ﴿مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؟ من الأصنام والنار وسائر المعبودات الباطلة ﴿مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ ترابها أو أحجارها معادنها أو نباتها أو حيوانها ﴿أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؟ أضرب عما تقدم في

الأرض هل لهم نصيب مع الله سبحانه في السماوات ذواتها الأثيرية الخالصة أو كواكبها الدرية الثابتة أو السيارة، أو ما في أي كوكب منها من الأجزاء النافعة والنابعة ﴿ٱئۡتُونِي﴾ إن كنتم على بصيرة في أمركم ﴿بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ﴾ القرآن الناطق بالتوحيد فيه ما تدعون، أو إن لم يكن لكم كتاب فأتوني ﴿أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ﴾ أي بقايا من علم العلماء والحكماء السابقين تعتمدون عليه فيما تتوجهون إليه من الإشراك ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في مبادئكم ومقاصدكم، فإن الإنسان الصادق مع نفسه أو غيره يجب أن يعتمد في اعتقاده وأقواله وأفعاله على نقل مستقيم أو علم من عقل سليم وإلا فهو مريض سقيم، وكل ما يدعيه عاطل عقيم.

وإذا علمنا أنه ما عندهم مدرك من المعقول والمنقول فاعلموا أنهم أهل ضلالة لا ضلالة فوقها ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ﴾ في مطلب ولا يؤويه في مهرب من يومنا هذا ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَ﴾ الحال أن ﴿هُمۡ﴾ أي الذين يدعونهم ﴿عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ﴾؟ لا يسمعون ولا يبصرون ولا يفهمون ولا يعقلون. وهذا الذي ذكرنا من أحوال شركائهم في الدنيا ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾ عند قيام الساعة ﴿كَانُواْ﴾ أي الشركاء المعبودون ﴿لَهُمۡ﴾ أي للمشركين العابدين كافرين مكذبين ﴿أَعۡدَآءٗ﴾ ألداء ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ﴾ لهم ﴿كَٰفِرِينَ﴾ منكرين مكذبين. قالوا لهم: ما عبدتمونا وإنما عبدتم النفس والشيطان والهوى، وما كنا طالبين منكم أي تذلل وسجود.

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ
مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا
تُفِيضُونَ فِيهِۚ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا
مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا
نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٩﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ
إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ
فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ﴿١١﴾ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ
مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي واضحات وموضحات للطريق ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ﴾ أي في رد ذلك الحق ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر لا شك في كونه سحراً. وإنما قالوا ذلك لأنهم لما عجزوا عن معارضته وهم من العرب العرباء ظنوا أن ذلك مقرون بسر مانع للناس عن مقابلته، وهذا أيضاً يدل على جهلهم بالحقائق، وإلا كان الأقرب إلى العقل أن يتفكروا في أسلوبه المخالف لأسلوب كلام الناس، وبذلك كانوا يصلون إلى الإيمان بأنه كلام الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي كذب على الله ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾ على الفرض والتقدير ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي فإن الله يعاقبني على افترائي عليه كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ وإذا عاقبني فلا طاقة لكم على الدفاع عني وترونني من الهالكين أمامكم، فكيف أنا مع علمي بذلك أتجاسر على الافتراء على الله؟ ولما ردهم وعارضهم بذلك قال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ بالذي تخوضون فيه من القدح في ذاتي وفيما يوحى إليّ من كلامه، ولا شك أن الله لا يهملكم وإن أمهلكم مدة من الزمان ﴿كَفَىٰ بِهِۦ﴾ أي بالله العليم ﴿شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ حيث يشهد لي بالصدق والبلاغ والبيان، وعليكم بالكذب والعناد والكفران ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ لكم إذا تبتم ورجعتم إليه.

﴿قُلْ﴾ يا رسولي لهم: ﴿مَا كُنتُ﴾ أنا ﴿بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي شخصاً مبتدعاً مخالفاً لسيرتهم وأعمالهم وآمالهم وآدابهم فقد سمعتم أنه جاء الرسل، وأوضحوا السبل، وبلغوا للكل حسب نطاق رسالتهم، وأنا جئتكم على ذلك المنهاج أبلغكم رسالة ربي أن آمنوا به ووحدوه واعبدوه ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ في الدارين على التفصيل وإن أخبرت من الله تعالى بأني وأصحابي منتصرون، وأن نور الله يتم ولو كره الكافرون، وأننا ندخل الجنة في الآخرة، وأن الكافرين هم أصحاب النار ﴿إِنْ أَتَّبِعُ﴾ في أعمالي وحركاتي ﴿إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ لأهل العصيان بالعقاب، ولأهل الطاعة بالثواب، وإنذاري وتبشيري وارد حسب الوحي المبين.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ﴾ أي ما يوحى إلي ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ولم يكن سحراً ولا مفترى ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ أي على مثل ما أوحي إلي من القرآن حسب ما أخذه من التوراة من التوحيد وبعث الرسول العربي في آخر الزمان، وأنه خاتم النبيين ﴿فَـَٔامَنَ﴾أي بما أوحي إلي مع أنه ليس من قومي ﴿وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾؟ أنتم

وكفرتم به مع أنكم من قومي وبني جلدتي. وجواب الشرط وهو ألا يتبين أنكم قوم ظالمون محذوف بقرينة قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي كفار مكة أي في شأنه ولأجلهم: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ أي لو كان ما جاء به محمد ﷺ حقاً وسعادة للبشر وسائر المكلفين ما سبقونا إليه أي ما سبقنا محمد وأتباعه إليه، ولا يعلمون أن الملازمة في كلامهم ممنوعة لأن الخير من الرسالة وغيرها عائد إلى الله وفي تصرفه. وهو أعلم حيث يجعل رسالته والقرآن والدين خير، ويختص به محمداً وأتباعه ولا يؤتيه من عاند الحق وأشياعه ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ﴾ أي بالقرآن ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ أي أن الكفار المشركين يعاندون الحق من التاريخ الثابت ويعتبرون دعوى الوحي والرسالة إفكاً قديماً وكذباً دارجاً في العهود السابقة مع أنهم يعلمون علماً قطعياً أنه كان كتاب موسى وهو التوارة من قبل القرآن الكريم والناس يعلمون أنه كان لذلك الكتاب دور مهم في العالم، وكان موسى إماماً للمهتدين ورحمة لأهل الدين كما كان كتابه إماماً لسائر الكتب النازلة بعده ورحمة للمسلمين في عهده. وهذا أمر محقق لا ينكره إلا المعاندون ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن الذي نزل ويقولون في شأنه أنه كذب مفترى كلام صدق وحق و﴿كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾ لكتاب موسى وسائر الكتب ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي ذا لسان عربي ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أنفسهم بالإشراك بربهم وظلموا الكعبة الشريفة بتحويلها من بيت التوحيد إلى بيت الإشراك، وظلموا الناس لمنعهم عن الاهتداء بالدين المبين، ومع ذلك كله فهو ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ إلى أنفسهم بالتوحيد وإلى الناس بنشر الدين المجيد.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ

أَتَعِدَانِنِيٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ أي إن الذين جمعوا بين الاعتقاد السليم والدوام على ذلك الاعتقاد مع الأعمال الصالحة ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من لحوق مكروه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ من فوت محبوب معناه أن العباد المؤمنين المستقيمين على الحق تأتيهم البشرى عند الموت بالعافية في العاقبة فلا يرد عليهم بعد ذلك خوف من المحاذير المستقبلة ولا حزن على فائت، لأنه يستغنون بهذه البشارة ويكتفون بها ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءً﴾ أي يجزون جزاء ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من الحسنات الاعتقادية والعملية.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا﴾ أي حملاً ذا كره ومشقة وتعب ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ﴾ أي وضعا ذا كره ومشقة وألم ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ﴾ منها أربعة وعشرون شهراً للرضاع لقوله تعالى: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي فعاش واستمر حتى إذا بلغ واكتهل وبلغ أربعين سنة ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ﴾ أي وفقني ورغبني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ﴾ أي اجعل الصلاح سارياً مستمراً في ذريتي ﴿إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ عما لا ترضاه ﴿وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ من الطاعات ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ على لسان الرسول. والآيتان نزلتا في شأن أبي بكر الصديق ـ رضي الله تعالى عنه ـ.

﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ﴾ عند دعوتهما له إلى الإيمان ﴿أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ اسم مبني على الكسر مبتدأ ولكما خبر، وأف اسم صوت يصدر عن الإنسان عند تضجره ﴿أَتَعِدَانِنِىٓ﴾ أتعطيانني الوعد ﴿أَنْ أُخْرَجَ﴾ من القبر بعد الموت ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ أي مضت القرون ولم يخرج واحد منهم منه ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ أي يقولان الغياث بالله تعالى منك ومن كلامك، قائلين له: ﴿وَيْلَكَ ءَامِنْ﴾! وأصل ويل الدعاء بالثبور يقام مقام الحث والترغيب على الفعل المقصود للمتكلم، أي خذ ويلك إن

لم تفعل، وآمِن فعل أمر من آمن يؤمن إيماناً مشتق من تؤمن بحذف حرف
المضارعة، وإعادة همزة القطع المحذوفة وتخفيف الهمزة الثانية بقلبها ألفاً وبنائها
على السكون ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ أي بالبعث بعد الموت ﴿حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾
الكافرين ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ أي ولكل من الفريقين
درجات مما عملوا من النبيين إلى الصديقين إلى الشهداء وإلى الصالحين. وكذا
لأهل الكفر دَرَكات في جزاء كفرهم وجزاء ما عملوا، فالكفر قدر مشترك، وأما
باقي الأعمال السيئة فلها حساب، فعذاب الكافر المستور في زاوية تخالف جزاء
كافر داعٍ إلى الفساد، داعٍ للباطل، حيال على الأمم، دساس على البلاد والعباد،
يُعذب الناس أشد التعذيب، ويخرب البلاد أقسى تخريب. وكل من أفراد الكافرين
أيٌ مقدار من العذاب قرر له لا يخفف ذلك عنه قليلاً أو كثيراً ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص ثواب لمن أثيب أو زيادة عذاب لمن عذب وهو الحكم بل أحكمُ
الحاكمين.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم
بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ
تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ
يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ
أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ
عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا
مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا
وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُواْ
يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا
حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن
دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أي اذكر يوم يعذب الذين كفروا بالنار: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي فيقال لهم في مقام اللوم والتوبيخ على غفلتهم عن الآخرة: أذهبتم حصتكم من الطيبات في حياتكم الدنيا لأنكم استوفيتموها وما تركتم مشتهى إلا وأخذتم منه شيئاً ﴿وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ فلم يبق لكم منها للآخرة ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي عذاباً هو الهوان والحقارة والذل ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ بغير استحقاق لذلك ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ أي تخرجون من طاعة الله أي بسبب استكبارهم وفسقكم المستمرين.

﴿وَٱذْكُرْ﴾ لكفار مكة ﴿أَخَا عَادٍ﴾ وهو هود عليه السلام ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ جمع حقف وهو رمل مستطيل فيه اعوجاج يقال: إحقوقف الشيء إذا اعوج، وكانوا بدويين بين أصحاب خباء وعمد يسكنون بين رمال مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشجر من بلاد اليمن ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ﴾ أي الرسل ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أي من قبله عليه السلام ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ فقد كان نوح وبعده صالح عليهما السلام قائلاً لهم ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فقد كان قبله نوح وبعده صالح عليهما السلام قائلاً لهم ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا﴾ أي لتقلبنا وتحولنا ﴿عَنْ﴾ عبادة ﴿ءَالِهَتِنَا﴾ الأصنام ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من معالجة العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في وعيدك وتهديدك لنا بنزوله إذا بقينا على الإشراك ﴿قَالَ﴾ هود: ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ﴾ أي بوقت نزول العذاب ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ وحده لا علم لي بذلك ﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ ومن أدلة ذلك أنكم تستعجلون عليّ ما ليس من شأني ولا قدرة لي عليه ولا ادعيته.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ أي فأتاهم العذاب فلما رأوه عارضاً أي سحاباً مستقبل أوديتهم أي متوجه أوديتهم ﴿قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ ولنا فيه منفعة ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ من العذاب ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ﴾ من الخيام والبيوت والأعمدة المستحكمة ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ أي فجاءتهم الريح فدمرتهم فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ﴾ أي قررنا وأحكمنا قوم عاد ﴿فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ أي في شيء من القوة والسلطة والنفوذ ما مكناكم فيه يا قوم قريش، فأنتم في الثرى وهم في الثريا، فإن معيشتكم على كدّ الأكتاف، وتجارة الأطراف، والبيوع والاستسلاف،

وليس لكم إدارة ولا مَلِك من الأشراف، وهم كانوا دولة عادية يمينية ترضخ لها الأطراف والأكناف، وكانوا مسيطرين على البحر عند جنوب اليمن، وكان لهم نفوذ على البحر، وكانوا أهل عمارات لم يخلق مثلها في البلاد ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ أي كانوا أهل شعور وإحساس وإدراك يستفيدون من النظر العقلي كما استفادوا من المشاعر والحواس ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم﴾ وأحاط بهم ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي وأحاط بهم جزاء إنكار حق والهزء بحق من الرسالة والقرآن وأحكامه كانوا به يستهزئون.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ كحجر ثمود، وقرى قوم لوط، ومدين شعيب وسائر القرى التي تمرد فيها سكانها ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي كررناها وغيرناها وبدلنا آية بآية ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي فهلا نصرهم أولئك الأصنام التي اتخذوها من دون الله ﴿قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ﴾ أي آلهة متقرّباً بها إلى الله ﴿بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ﴾ أي بل فقدوهم فلم يبق أثر ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي ضلال آلهتهم عنهم أثر إفكهم وافترائهم.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي وَجّهنا إليك وأمَلْناهُم ورغبناهم في الاقتراب منك والاستماع لما أوحي إليك من القرآن والانتفاع به ﴿نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾

أي جمعاً منهم. والنفر ما بين الثلاثة إلى العشرة. والنفر من النفير أي الخروج إلى المهمات، فإن القوم إذا داهمهم أمر خطير خرج جمع منهم للمدافعة والمكافحة. والجن أمة خلقها الله تعالى قبل الإنسان، وأبوهم (الجان) خلق من مادة نارية أي أكثر عناصرها النار، وهم جسم لطيف يقبل التشكل بأشكال مختلفة يتوالدون ويتناسلون، وأرسل إليهم الرسل إلى خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ وإرساله إليهم معلوم من الدين بالضرورة وإنكار ذلك كفر واضح، ومنهم المؤمن والكافر. ومن المؤمنين أمثال ما في البشر من الأولياء والصالحين والعلماء العاملين، كما أن منهم العامة الفسقة. ومن الكافرين فئة متمردة يسمّون بالشياطين. وإن الشيطان المعروف بالمنكرات منهم، ولقب بإبليس لأن من شأنه الإغواء والتلبيس للباطل بالحق والحق بالباطل.

وفي القرآن الكريم ذكرهم في عدة مواضع، وفي سورة الجن ذكر عودة الرسول محمد ﷺ لهم إلى الإسلام، وقد آمن به كثير، وكالإنس منهم المؤمن ومنهم الكافر قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ وأن ذلك النفر كانوا من جن نينوى أو نصيبين في ديار بكر جاؤوا إليه بوادي النخلة على مسافة ليلة من مكة المكرمة. فقد أخرج أحمد وعبد بن حميد والشيخان والترمذي والنسائي وجماعة عن ابن عباس قال: انطلق النبي ﷺ في طائفة من أصحابه إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب. قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الّذي حال بينكم وبين خبر السماء؟ فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبي ﷺ وهو وأصحابه بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ، وهو عليه الصلاة والسلام يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له هذا والله للذي حال بيننا وبين خبر السماء. فهناك حين رجعوا إلى قومهم

وفي رواية ابن المنذر عن عبد الملك: أنهم ﴿لَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ﴾ وفرغ ﷺ من صلاة الصبح ﴿وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ مؤمنين لم يشعر بهم حتى نزل ﴿قُلْ أُوحِىَ﴾ إلى ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ وأولئك النفر كانوا سبعة ولما ولوا منذرين إلى قومهم جاؤوا وافدين إلى رسول الله ﷺ وهم ثلاثمائة، فانتهوا إلى

الحُجُون فجاء واحد منهم واسمه الأحقب فسلم على رسول الله ﷺ فقال: إن قومنا قد حضروا الحجون يلقونك فواعده رسول الله ﷺ لساعة من الليل بالحجون.

وفي وفادة الجن إلى رسول الله ﷺ روايات. وذكر الشهاب الخفاجي أنه قد دلت الأحاديث على أن وفادة الجن كانت ست مرّات ويجمع بذلك اختلاف الروايات في عددهم وفي غير ذلك. وقوله تعالى: ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي قراءته ﷺ للقرآن في صلاة الصبح كما ذكرنا ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟﴾ أي فلما حضروا قراءته للقرآن قال بعضهم لبعض: أنصتوا أي اسكتوا لسماعه ﴿فَلَمَّا قُضِىَ﴾ أي تم وفرغ ﷺ عن قراءته ﴿وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ أي مقدرين إنذارهم لهم عند وصولهم إليهم. ولما وصلوا قالوا: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ أرادوا به ما سمعوه من القرآن والداعي إلى الله هو سيدنا محمد ﷺ وآمنوا به وبما جاء به من عند الله تعالى واعملوا به ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ ينصرونه من العذاب ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ﴾ أي لم يتعب ﴿بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ وبكل شيء خبير بصير.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾؟ أي ليس هذا العرض على النار المعدة للعذاب حقاً؟ ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ﴾ تصديق بحقيقته ﴿قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي بسبب استمراركم على الكفر في الدنيا ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ الفاء واقعة في جواب شرط مقدر أي إذا كان الإرشاد لا ينفع أهل العناد فاصبر على ما يصيبك من جهتهم ليزداد أجرك عند الله كما صبر أولو العزم من الرسل للغاية عينها. والعزم يطلق على الجد والاجتهاد في الشيء وعلى الصبر عليه. واختلف في عدتهم وتعيينهم على أقوال فقال الحسن بن الفضل ثمانية عشر وهم المذكورون في سورة الأنعام لأنه سبحانه وتعالى قال بعد ذكرهم ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ وقيل: تسعة نوح لصبره على أذى قومه طويلاً، وإبراهيم لصبره على الإلقاء في النار، وإسماعيل لصبره على البئر والسجن، ويعقوب لصبره على فقد يوسف، ويوسف لصبره على الذبح، وأيوب لصبره على البلاء، وموسى لصبره على إلحاح قومه القائلين إنا لمدركون فقال إن معي ربي سيهدين، وداود لصبره واستقامته على حرب أعدائه، وعيسى لصبره على أذى اليهود حتى أرادوا صلبه فرفعه الله تعالى.

وقال الجلال السيوطي: الأصح أنهم خمسة: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد ـ عليهم الصلاة والسلام ـ.

﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ أي لكفار مكة ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ أي من العذاب ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ أي في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ لما يشاهدون من شدة العذاب ﴿بَلَٰغٌ﴾ أي هذا الذي يجب عليك هو البلاغ أي وصول القرآن إلى المكلفين وقد بلغت بالحق ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾؟ الخارجون عن إطاعة الله تعالى ورسوله ﷺ.

جاء في بعض الآثار أن هذه الآية لها خاصية في قضاء الحوائج. أخرج الطبراني في الدعاء عن أنس عن النبي ﷺ قال: «**إذا طلبت حاجة وأحببت أن تنجح فقل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له العلي العظيم، لا إله إلا الله وحده لا شريك له الحليم الكريم، بسم الله الذي لا إله إلا هو الحي العليم، سبحان الله رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين، كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها. كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون. اللهم إني أسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، والسلامة من كل إثم، والغنيمة من كل بِرٍّ، والفوز بالجنة، والنجاة من النار، اللهم لا تدع لي ذنباً إلا غفرته، ولا هماً إلا فرجته، ولا ديناً إلا قضيته، ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة إلا قضيتها برحمتك يا أرحم الراحمين. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين**».

❀ ❀ ❀

سورة محمد

مدنية وآياتها ثمان وثلاثون
نزلت بعد سورة الحديد

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ﴾.

هذه السورة مدنية إلا آية ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ﴾ إلى آخرها، فإنها نزلت بعد أن خرج ﷺ من مكة إلى الغار وتأسف على فراقها.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي الذين أعرضوا عن الإسلام ﴿وَصَدُّواْ﴾ الناس بقدر إمكانهم ﴿عَن﴾ سلوك ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهو الذي جاء به محمد ﷺ ﴿أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي جعلها ضائعة غير مفيدة كمن ضاع في مفازة لا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلاً ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي آمنوا بالله وعملوا الصالحات ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ﴾ من القرآن وخصه بالذكر مع اندراجه في الإيمان بالله بناء على أن الإيمان به كان بسبب دعوة الرسول ﷺ اهتماماً بمقامه وتنويهاً بشأنه الشريف، ويؤكده قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ والموصول مبتدأ وخبره ﴿كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ أي سترها بالإيمان والعمل الصالح ﴿وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾ أي حالهم في الدارين، اما في الدنيا فبالبصيرة الحاصلة له من التزام نظام الحق، وأما في الآخرة فبالخلود في الجنة والرضوان ﴿ذَٰلِكَ﴾ الأمر المذكور من اختصاص كل من الفريقين بما خص به ﴿بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ وهو سيرة الهوى ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ﴾ النازل ﴿مِن رَّبِّهِمۡ﴾ وهو القرآن الكريم الهادي إلى الصراط المستقيم. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك

الذكر الوارد هنا ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ أي يذكر الله للناس أحوالهم ومآلهم.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾﴾.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ يعني بعد أن ظهر لكم حال المؤمنين ورشادهم وحال الكافرين وعنادهم وأرادوا أن يناجزوكم، فإذا لقيتم الذين كفروا وهم مستعدون لضربكم فضرب الرقاب أي فبادروا بالعمل واضربوهم ضرب الرقاب ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أي أكثرتم فيهم من القتل وتمكنتم من الاستيلاء عليهم ﴿فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾ أي فأسروا من بقي منهم غير مثخن، واحفظوهم وراعوهم بالتداوي والإطعام على العادة بما في الإمكان ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ أي فإما تمنون عليهم مناً بلا شيء وتطلقون سراحهم على أن يبقوا أحراراً في ذمة المسلمين يعطون الجزية كما فعل عمر رضي الله عنه ذلك في أهل السواد، إلا أسارى مشركي العرب والمرتدين، فإنهم لا يقبل منهم جزية، ولا يجوز استرقاقهم بل الحكم فيهم إما الإسلام أو السيف، وإن أسلم الأسرى بعد الأسر فلا يجوز قتلهم لاندفاع شرهم بالإسلام، ولكن يجوز استرقاقهم، فإن الإسلام لا ينافي الرق جزاء على الكفر الأصلي، والحال أنه وجد بعد انعقاد سبب الملك وهو الاستيلاء. ﴿وَإِمَّا﴾ تفدون ﴿فِدَآءً﴾ أي تسلمونهم إلى أميرهم، أو ترجعونهم إلى دارهم فدية لأجل استرجاع الأسرى المسلمين عندهم.

ويجوز أيضاً إطلاق سراح الأسرى في مقابل فدية يأخذها منهم الإمام حسب مصلحة المسلمين في ذلك. وكما يجوز للإمام أن يبقيهم ويسترق الرجال والنساء ويقسمهم بين المحاربين يجعل الكل خمسة أقسام أربعة للمحاربين، وقسم واحد لبيت المال على ما قسمه الله تعالى في القرآن.

ومسألة استرقاق الكافرين فرع لعادة مستمرة ابتدأت من فجر التأريخ إلى عهد سيدنا محمد ﷺ. فكان الغالب من المتحاربين يسترق جانب المغلوب رجالاً

ونساء، فإذا وقعت امرأة في سهم أي محارب تكون مملوكة له ملك اليمين، ويجوز له أن يعتقها ثم يتزوجها كسائر الحرائر، ويكون لها نكاح وطلاق على الأصول. ويجوز أن لا يتزوجها بل يجامعها بقوة ملك اليمين، لأن الله جعل نكاحها في تملكها كما جعل نكاح الحرائر بالتلفظ بالإيجاب والقبول والشهود والصداق للمرأة. ولما جاء دور الإسلام ما كان ممكناً إبطال هذه القاعدة المقررة من قديم الزمان وإلغاؤها حيث كان هناك عبيد وجوار للمالكين يعيشون في البيوت كأفراد العائلة وطردهم عنها ليكتسبوا ويعيشوا بأنفسهم كان في ذلك العصر جد عسير عليهم. لكن الإسلام قرر لعتقهم وإطلاق سراحهم ليعيشوا أحراراً ستة وثلاثين أصلاً شرعياً.

منها: عتق الرقبة في كفارة اليمين، وفي كفارة الظهار، وفي كفارة القتل، وفي كفارة الإفطار بالجماع في رمضان. إلى غير ذلك من الأصول يطلع عليها المراجع المتتبع للأمور ومع ذلك احترمهم الرسول ﷺ وقال: «**إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، أطْعِمُوهم مما تطعمون واكسوهم مما تكسون، ولا تكلفوهم ما لا يطيقون، فإن كلفتموهم فأعينوهم**» وأعتقد أنه لو بقي الرسول ﷺ إلى عمر سبعين كان يؤول الأمر إلى زوال الرق إلا ما شذ.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ غاية للمقررات السابقة، والأوزار بمعنى وزر بمعنى الثقل، والمقصود حتى تنتهي الحرب، وأهمل استعمال آلاتها ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الأمر ذلك الذي نزل ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ أي لانتقم من الكافرين بإبادتهم بدون حرب ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ أي ولكن أمركم بالقتال ليختبر بعضكم ببعض ويظهر من الذي يحارب ويجاهد في سبيل إعلاء كلمة الحق ومن الذي لا يحارب أو يحارب لغاية أخرى ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي لا يضيعها أبداً بل هي تثبت في دفتر أعمالهم ويجزون عليها في مآلهم ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ أي سيرشدهم في دار الآخرة إلى مقر استراحتهم ونيل ثوابهم ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ أي شأنهم بإعلان كرامتهم ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ المخصوصة المهيأة لهم و﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أي يجعل عليها علامات واضحة بحيث يعرف كل محله ومنزله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وتجتهدوا وتجاهدوا في سبيل إعلاء كلمته ﴿يَنصُرْكُمْ﴾ على أعدائكم بالتوفيق على إعداد العدة، واتحاد الكلمة، وإطاعة أولي الأمر، وتحقيق المشورة في المخاطر، وخلق المشاكل لدى أعدائكم، وتشتيت

قلوبهم، وتضعيف كروبهم ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ عند اللقاء فتكونون كالحديد المغروز في الأرض ولا تتزلزون أمام الأعداء ولا تهتمون بما تسمعون من أسباب الخذل وضعف الهمة حتى تنالوا إحدى الحسنيين. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ والتعس الهلاك، وانتصابه على المصدرية لفعل محذوف واجب الحذف لأنه للدعاء كسقياً ورعياً، أي فتعسوا تعساً لهم أي فهلكوا هلاكاً لائقاً بهم.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أي ذلك الإضلال للأعمال والخزي في المآل بسبب أنهم كرهوا ما أنزل الله من القرآن وقد أنزله لإرشاد العقل إلى السعادة ﴿فَأَحْبَطَ﴾ الله جزاء لهم ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ ثم أخذ الباري على لطفه الجاري ينصحهم ويقول: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي أرض ديار العرب حواليهم ﴿فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم الفاسدة الكارهة لدين الله ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي دمر الله دورهم عليهم ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ الناهجين منهجهم ﴿أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ﴾ الأمر المنتج لنتيجة الفرق بين الفريقين ﴿بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ فينصرهم ويدفع ما حل بهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ﴾ بمتاع الدنيا بلا مراعاة للآخرة ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ من الأشواك والأوراد، ومن الأنجاس والأقذار، ومن الكسب والغصب، ولا ينظرون إلى

الحق، ولا يتبعون ما أنزل الله فعاقبتهم العذاب ﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي موضع إقامة لهم يقيمون فيها مع العذاب الذي أعد لهم حسب ما تناسب النفوس الشريرة وتكفيها ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ ظالمة ﴿هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ وستكون عاقبة أهل قريتك كعاقبة أهالي تلك القرى إذا لم يرجعوا إلى ربهم ومولاهم.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي فمن كان على شهود عدول تشهد بحقية اعتقاده وعمله وتلك الشهود جاءته من ربه كالآيات النازلة من الله على الرسول ﷺ ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ﴾ من النفس وهواها والشيطان الذي أغواها ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ من الإشراك والفسوق وما والاها فاستمروا في اتباع شهواتهم ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ وجواب الاستفهام موكول إلى أولي الأفهام، وهو أنه ليس بين الفريقين إلا كما بين المشرقين، أولئك الأولون من صفوة المختار وأولئك الآخرون من شر الأشرار، ولذلك يجزي الأولون بالجنة والآخرون بالنار ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أنها جنة ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ لم يتغير لا طعمه ولا لونه ولا ريحه ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ لم يحمض ولم يصر قارصاً شديد الحموضة، ولا حاذراً أي فوق الحامض ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ بلا ذهاب عقل ولا صداع ولا غول ولا تأليم ولا تأثيم ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ من الشمع وفضلات النحل وغيرها ﴿وَلَهُمْ فِيهَا﴾ أي في الجنة ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي كل فرد من كل صنفٍ من كل نوعٍ من الثمرات ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أي ولهم فوق هذه الأمور المادية مغفرة من ربهم أي نعومة ولطافة حاصلة ﴿مِّن﴾ مغفرة ﴿رَّبِّهِمْ﴾ وقوله: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف أي أمن هو خالد في هذه الجنة كمن هو خالد في النار ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا﴾ أي حاراً ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾؟ من فرط الحرارة. قلنا في الجواب: لا.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ استئناف لبيان أحوال بعض من المنافقين

فيقول: ومنهم من يستمع إليك، ولكن لا يهتم به ولا يريد أن يستمع استماع فهم وقبول، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ من باب الإسلام أو من استماع كلامه ﷺ: ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾؟ أي قبيل هذه الدقيقة، وليس مقصوده من هذا السؤال فهم المقال بل أراد التحقير والاستهزاء بكلامه ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟﴾ إلى طريق الحق ﴿زَادَهُمْ﴾ الله ﴿هُدًى﴾ إليه ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ أي وآتاهم سكينة تحملهم على تقواهم ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي مفاجأة ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ من بعث الرسول محمد ﷺ نبي آخر الزمان وانشقاق القمر.

﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ أي فأنى لهم ذكراهم، وكيف يحصل لهم التذكر والندم إذا باغتتهم أي لو كانت عندهم بصيرة لتوجهوا إلى الله وآمنوا به وبرسوله قبل أن يأتيهم الموت وأنى لهم ذلك؟

وللعلماء في أشراط الساعة كتب مختصرة ومطولة. وثبت من قوله ﷺ أنه لا تتحقق الساعة حتى تظهر كُبْريات الآيات منها: الدخان، وخروج الدجال، ونزول عيسى - عليه السلام، وظهور المهدي، وخروج الدابة، وطلوع الشمس من مغربها، وقلة العلم والحياء، وكثرة الجور والهرج والفوضى.. ولكن الأمر الذي يطمئن له القلب في قرب وقوعها ما روي أنه ﷺ خطب أصحابه بعد العصر حين كادت الشمس تغرب ولم يبق منها إلا أسف أي شيء قليل فقال: «**والذي نفس محمد بيده ما مثل ما مضى من الدنيا فيما بقي منها إلا مثل ما مضى من يومكم هذا فيما بقي منه، وما بقي منه إلا اليسير**» وهذه النسبة المفهومة هنا لا تتحد إلا إذا تحددت مدتها من الأول، فالعلم بحلولها عند الله العليم الخبير. غير أنا نعلم أن هذه الاضطرابات والتزلزل لقواعد الدين الموجودة من كل الوجوه في عصرنا الحاضر تهدد بأن الساعة قريبة جداً والله أعلم.

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي واثبت على العلم بالتوحيد كما كنت، واستغفر لذنبك بالنسبة إلى علو مقامك من خلاف الأولى، ولذنوب المؤمنين كيفما كانت ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ في الدنيا ﴿وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ في الآخرة.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ

فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ (٢٣)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي حرصاً ورغبة في الجهاد ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي هلا نزلت سورة يؤمر فيها بالجهاد ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ بصورة الأمر به، والمراد بقوله محكمة واضحة مبينة لا اشتباه فيها، أو سورة ثابتة لا نسخ عليها ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي نفاق وقيل ضعف في الدين ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي نظر المحتضر الذي شخص بصره ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾. في قوله تعالى ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ وجوه من المعاني، والأحسن من بينها أن يكون أولى أفعل تفضيل ومبتدأ ولهم صلته، واللام بمعنى الباء، وطاعة خبراً له، وقول خبر بعد خبر، ومعروف صفته. أي فالأولى والأليق بأولئك الناظرين نظر المغشي عليه من الموت طاعة لله في مباشرة الجهاد، وقول معروف مع العباد ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي جد الأمر وتحقق ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في دعاويهم ووعودهم بالجهاد ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ ولا خير في هذه الحالة تجدونها فيهم.

ثم خاطب الباري تعالى أولئك الذين في قلوبهم مرض على طريق الالتفات فقال: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أمور الناس وصرتم متولين عليها ﴿أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾؟ تكالباً على مطامع الدنيا الدنية، أو فهل عسيتم إن توليتم أي استدبرتم عن الإسلام ورجعتم إلى حالكم في الجاهلية أن تفسدوا في الأرض بمنع الناس عن الإسلام وتقطعوا أرحامكم بمقاتلة الأقارب وعداء المسلمين؟ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي أبعدهم عن رحمته ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن استماع الحق ورعايته ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ عن النظر إلى الحق والعناية به.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ (٢٤) إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ (٢٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ (٢٧)

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾
أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ
لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾
وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا
وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ كلام مع أولئك الناس المرضى القلوب فيقول تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي لا يلاحظونه ولا يتأملون فيه وفي ما اشتمل عليه من المواعظ والزواجر حتى لا يقعوا في ما وقعوا فيه ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾؟ أي أم تدبروا ولكن لم يدخل ما افتهموه في قلوبهم لأنه كانت أقفال حديدية على قلوبهم فما كانت تنفتح ولم تدخل المفاهيم فيها حتى ينتفعوا بها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم﴾ أي رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر قال ابن عباس ﷺ: نزلت في منافقين كانوا أسلموا ثم نافقت قلوبهم. وقال بعض: نزلت في اليهود ارتدوا عن الهدى بعد أن عرفوا أن محمداً ﷺ نبي ورسول ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أي زين لهم ذلك الارتداد ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي ومد لهم الشيطان في الأماني والآمال ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الارتداد ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي بسبب أنهم ﴿قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ سنطيعكم في بعض الأمر أي في بعض الشؤون والأحوال التي ترد عليكم ونعينكم فاغتروا بذلك ولم يفدهم ما قالوه ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ﴾ تكون أحوالهم ﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي قبضت أرواحهم حال كونهم ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾؟ وبما أن الجملة حال والأصل فيها المقارنة يستفاد من الآية عذاب عالم البرزخ أي عالم ما بين الموت والبعث للحشر ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ من الاعتقاد الفاسد والعمل السيىء ﴿وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ أي ما يرضى به سبحانه وتعالى ﴿فَأَحْبَطَ﴾ الله ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ الحسنة التي عملوها قبل الارتداد.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ وهم المنافقون الذين فصلت أحوالهم الفاسدة ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾ أم منقطعة والإخراج الإبراز والإظهار. والإضغان جمع ضغن بمعنى الحقد. والمعنى بل حسب أولئك الناس المنافقون

الحاقدون على الإسلام أن لن يظهر الله أحوالهم للمؤمنين ولا يكشف عن نفاقهم ويبقون متسترين ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ أي لعرفناكهم أو لأبصرناكهم ويؤيد الأول قوله تعالى: ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ أي وكانت سيماهم تؤيد ما علمته. ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ جواب قسم محذوف أي والله لتعرفنهم في لحن القول أي في مفهوم كلامهم فإنه كان بحيث يستفاد منه مخالفة الرسول ﷺ. أو المراد وضع التلفظ بالكلام ولهجته الخالصة ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ بالأمر بالجهاد والأعمال التي فيها المشقة على النفس ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على مشاق التكاليف والأعمال العسيرة ﴿وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ عن الإيمان وموالاة المؤمنين ومعاداتهم، فإنه إذا تتبع الإنسان أخبار قوم أدرك مدى ما بينهم وبين غيرهم من الولاء أو العداء.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ﴾ أي ومنعوا الناس عن سلوك ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهو الإسلام ﴿وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾ أي نازعوه وصاروا في شق غير شقه وعلى سبيل غير سبيله ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ لما شاهدوا من نعوته في الأسفار السابقة ومطابقة أخباره اللاحقة لها، وظهور أخلاقه الحميدة العالية حتى شهد بحسنها الأعداء والأغبياء والأذكياء ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ ولا يقدرون أن يوقفوا ركب الرسالة عن الحركة نحو الأمام ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ المكائد التي يكيدونها لعرقلة الحركة الدينية، أو أعمالهم الحسنة التي عملوها قبل الارتداد عن الأصول السنية.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾
فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾
إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ
أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ
هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا
يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ
ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ قيل

أن بني أسد أسلموا وقالوا لرسول الله ﷺ: قد آثرناك وجئناك بنفوسنا وأهلنا كأنهم مَنوا بذلك فنزلت فيهم هذه الآية. وقوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ ولذا قيل في تفسير قوله الكريم: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ لا تبطلوها بالمن على الرسول ﷺ بالإسلام ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي ومنعوا الناس عن سلوك سبيل الله وهو دين الإسلام ﴿ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ عام في كل من مات على الكفر، وإن صح نزوله في أهل قليب بدر من الكفار المشركين المقتولين الذين ألقوا هنالك ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ أي إذا علمتم أن الله مبطل أعمالهم ومعاقبهم فلا تشكوا في أن الله خاذلهم، فلا تهنوا أمامهم ولا تظهروا ضعفاً عندهم ولا تدعوهم إلى السلم حتى يظنوا أنكم تخافون منهم ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ أي أنتم الأغلبون ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ أينما كنتم ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ﴾ أي ولن ينقصكم ﴿أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ لا عاقبة حميدة لها ولا نفع فيها ﴿وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ أي ثواب إيمانكم وتقواكم من الباقيات الصالحات ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا﴾ أي أموالكم ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ أي فيجهدكم بطلب الكل ﴿تَبْخَلُواْ﴾ بإعطائها ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾ أي ويظهر للناس حبكم لها ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أيها المخاطبون ﴿تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ أي ناس يبخلون بالإنفاق ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي فإنما يمنع الخير عن نفسه ولا يسري الضرر إلى غيره ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ الكاملون في الفقر والاحتياج إليه ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي يستبدلكم بقوم غيركم يخلفونكم ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ في التولي عن الإيمان والتقوى.

❁ ❁ ❁

سورة الفتح

مدنية، نزلت في الطريق عند الانصراف من الحديبية وآياتها تسع وعشرون نزلت بعد سورة الجمعة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ
نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ
أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾
وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ
عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا
﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ إخبار عن صلح الحديبية عند الجمهور، قال ابن عطية وهو الصحيح: وأصل الفتح إزالة الإغلاق عن أي عقدة، وفتح البلد إزالة غلق باب سوره وفتحه للظافرين الغالبين الذين يدخلونها من الباب. وقال بعض: أن المراد بالفتح هنا: فتح خيبر. وقال بعض: فتح مكة. وعليه تكون الآية الكريمة وعداً بالفتح، والتعبير بالماضي لتحقق الوقوع. والظاهر أنه إذا حملناه على فتح البلاد فالمراد به فتح مكة، لأنه هو الذي كان نصب العين للرسول ﷺ والهدف الأشرف، فإنه بعد فتح أم القرى ففتح ما سواها سهل يسير والله على كل شيء قدير. وإذا حملناه على إزالة الإغلاق فالمراد به الوعد بإزالة الموانع التي كانت أمامه حتى يصل إلى غايته القصوى وهي النجاح في مهمته ونشر شريعته واعتناق

الأمة لدينه والالتفاف حول لوائه في تنوير العباد وتعمير البلاد مادة ومعنى، وهذا هو الفتح المبين والنصر العزيز لسيد المرسلين.

وقوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ قالوا أن اللام ليست للتعليل لأن أفعال الله تعالى ليست معللة بالأغراض، بل بمعنى الفاء التي تدخل على الغايات المترتبة على الأسباب وهذا البحث بحث طويل قد دار بين العباد، ولكن الحق الذي يجب قبوله أن العلل الواقعية موجودة بسيطة أو مركبة، وأنه قد يترتب عليها المعاليل إذا قارنتها الإرادة، وقد لا فهي الجزء الأخير من العلة كما أن الغايات المتفرعة والمترتبة عليها موجودة أيضاً. وأن أفعال الله تعالى يجوز تعليلها بالعلل المناسبة المقرونة بالحكم والمصالح التي يراعيها لكن لا بمعنى أن الفاعل المختار والمبدأ الفياض يحتاج إلى تلك العلل لترتب المعاليل عليها، بل بمعنى تطبيق سنته وجريان عادته بها. وأما تفسير قوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ فهو عبارة عن ستر ما يكاد لا يناسب مقامه الشريف ورتبته العالية، ويعبر عنها بخلاف الأولى، وذلك لأن النصوص متكاثرة على أن الأنبياء والرسل الكرام هم المصطفون الأخيار وهم صفوة العباد وخيار الأمة على بسيط الأرض، والأدلة دالة على عصمتهم من الذنوب والمعاصي. ويمكن أن يقال: أن بعض الأمور الاجتماعية التي لا بد من ردودها على الإنسان ويصعب العدول عنها وقد يراها بعض الناس الضعفاء العقول كالذنوب في الصورة أعلن الله تعالى أنها مغفورة بالنسبة إليك ولا تعتبر جريمة لإنسان يقود الناس بأسرهم إلى السعادة ويريد تهذيب وتصفية أحوالهم عن المفاسد والعيوب. ولا بد من حلق رأس ضربته الجروح وجبر مكسور الأيدي والأرجل، وإن حصل منها آلام. ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بإضافة فتح البلاد التي تبعد عن الجزيرة إليها، والملك إلى النبوة، وأن يهيىء لك من الأمم التي تدخل تحت لواء الإسلام من يأخذ به ويجعله على كتفه ويوصله إلى المشارق والمغارب ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ بقوة الأخلاق العالية والسيرة السامية حتى يسهل سلوك ذلك السبيل عليك وعلى من يتبعك في الحال والاستقبال ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ﴾ على كل من عاداك في عصرك وينصر من ينصر دينك على عدوه في عصره، فإن نصره نصرٌ لك وعونه عون لك. ﴿نَصْرًا عَزِيزًا﴾ في الوجود لم يسبق مثله ولا يتحقق في المستقبل نظيره، وقد كان الأمر كذلك.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قلنا هذه السورة نزلت عند رجوع

الرسول ﷺ من الحديبية إلى المدينة المنورة بعد المصالحة من قريش على أن يرجعوا للعمرة في السنة الآتية، وفي وقت الصلح كان الأصحاب الكرام منزعجين من عدم الوصول إلى الهدف المقصود أعني العمرة، لكن بعد أن تحلل ﷺ عن الإحرام تحللوا، وزالت تلك العقدة وذلك الانزعاج عنهم، وتبدلت بالسكينة والاطمئنان كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ أي ليزدادوا إيماناً برحمة الله المتوالية عليهم، وأن الله معهم، وإنه ناصر الرسول وأصحابه وأتباعه المستقيمين على الحق إلى يوم القيامة. وهذا الإيمان علاوة على ما كان في قلوبهم من الإيمان ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وما يعلم جنود ربك إلا هو، ومن جنوده الإيمان، وقوة المعنويات، وزيادة العدة، والأجهزة والآلات الحربية والعينية والنفقات، وتوجه الناس في الآفاق إلى المبدأ المرسوم كما أن من جنوده ملائكة السماوات حيث تنزل عند الحاجة إليها، وقد أنزلها الله تعالى في بدر، وفي حنين، وفي أحد أيضاً، وفي مواضع أخرى على المؤمنين لمعونتهم. وكذلك من جنوده تشتت قلوب الأعداء والشقاق والخلاف بينهم وعدم اجتماع أسباب حركاتهم وهجماتهم على المسلمين. والمقصود هنا تنبيه المؤمنين على الرجاء القوي من الله تعالى لمزيد النصر والتأييد في المستقبل وأن الله معهم ما داموا هم مع الله ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بأحوال الرسول والمؤمنين وغيرهم ﴿حَكِيمًا﴾ في أفعاله ونصره للرسول في كل أمر عسره ويسره.

وقوله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ متعلق بما يدل عليه ما تقدم، أي ويؤيدكم على ما أنتم عليه ويقهر الكافرين ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ بما عملوا من حسناتهم ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ الإدخال والتكفير ﴿عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ لا يعلم مقداره إلا من قرره وقدره. وقوله ويعذب معطوف على ما قبله أي ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ وهو أن الله لا ينصر الرسول وأصحابه ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ جهنم ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ينصر بهم من ينصر ويقهر بهم من يقهر ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ منيعاً لا يغالب في أمره ﴿حَكِيمًا﴾ لا تخلو أفعاله من الحكم والمصالح.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ

﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٠﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ أي على أمتك لقوله تعالى: ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ بالثواب لأهل الطاعة ﴿وَنَذِيرًا﴾ بالعقاب على المعصية. وقوله: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ خطاب للنبي وأمته أي لتؤمنوا أنتم أيها الرسول والمؤمنون بالله ورسوله ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أي تنصروه ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ تعظموه ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي تأتون بتسبيحه في الوقتين بأن تقولوا سبحان الله العظيم، أو سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم، لأن ضم الحمد إلى التسبيح توقير وتعظيم مليح. أو لتصلوا له غدوة وعشياً أي صلاتي الصبح والعصر. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما تفسير الآية بصلاة الصبح وصلاة الظهر وصلاة العصر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ أي يوم الحديبية على الموت في نصرتك، والمبايعة مفاعلة من البيع يقال بايع السلطان مبايعة إذا ضمن بذل الطاعة له. وقد وقعت قبل نزول الآية في الحديبية. والآية نزلت في أثناء الطريق عند رجوعه ﷺ إلى المدينة المنورة فصيغة المضارع لاستحضار الصورة ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ لأن المقصود من المبايعة إطاعته وإطاعته إطاعة لله تعالى ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي أنه عند جعل الأيدي في يد الرسول كأنهم جعلوا الأيدي في يد الله تعالى. ولما كانت اليد مستحيلة الإضافة إليه تعالى فالمعنى أن نصرة الله تعالى لهم فوق قوتهم ونصرتهم أي أن الله معكم في هذه المبايعة معية السيطرة ومعية القوة ومعية المنة والعطاء والكرم الشامل ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ أي نقض العهد ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ أي فلا يعود ضرر نكثه إلا على نفسه ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهو الجنة وما فيها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ۝١١ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ

﴿ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ قال مجاهد وغيره: المخلفون من الأعراب هم جهينة ومزينة، وغفار، وأشجع، والديل، وأسلم. استنفرهم رسول الله ﷺ حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمراً ليخرجوا معه حذراً من قريش أن يتعرضوا لهم بحرب أو يصدوهم عن البيت وأحزم هو ﷺ وساق معه الهدي ليعلم أنه لا يريد حرباً، ورأى أولئك الأعراب أنه ﷺ يستقبل عدداً عظيماً من قريش وثقيف وكنانة والقبائل المجاورين مكة وهم الأحابيش، ولم يكن الإيمان تمكن من قلوبهم فقعدوا عن النبي وتخلفوا، وقالوا: نذهب إلى قوم قد غزوه في عقر داره بالمدينة وقتلوا أصحابه فنقاتلهم. وقالوا: لن يرجع محمد ﷺ ولا أصحابه من هذه السفرة قطعاً ففضحهم الله تعالى في هذه الآية وأعلم رسوله بقولهم واعتذارهم قبل أن يصل إليهم في رجوعه إلى المدينة. والحاصل أنهم لم يوافقوه في السفر معه إلى مكة وظنوا خيبة الرسول، ولما حفظ الله رسوله وأصحابه من القتال وانتهى الأمر بالمصالحة ورجع الرسول إلى المدينة وخاب ظن أولئك الأعراب. . . أنزل الله تعالى هذه، وبين له أنهم يعتذرون إليك بكذا وكذا ولكنهم ينافقون.

والأعراب سكان البادية من العرب لا واحد له، أي سيقول لك الأعراب الذين لم يوافقوك في السفر والخروج معك إلى مكة بأنه ﴿شَغَلَتْنَآ﴾ عن السفر معك ﴿أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ أي لم يكن معنا من يقوم بحفظهم وحمايتهم، وتقديم ذكر الأموال على الأهل للإشارة إلى لؤمهم ودناءتهم حيث كان اهتمامهم بحفظ الأموال أكثر من اهتمامهم بحفظ الأهل. ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ﴾ الله تعالى ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ﴾ أي أن كلامهم هذا غير مطابق لما في قلوبهم، ولو كان لهم إيمان ثابت بالله تعالى لوافقوك في الخروج معك ولم يتخلفوا ﴿قُلْ﴾ لهم يا حبيبي بعد أن وصلت إليهم واعتذروا عندك: ﴿فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ﴾؟ يعني أنكم خالفتم خوفاً من أن يصيبكم في مكة شيء فهل إذا خلصتم من ذلك تخلصون أيضاً من سائر المضرات؟ وهل أسباب الضر والنفع قليلة؟ وإذا

بقيتم في باديتكم وأتاكم عارض ﴿فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ لابتعادكم عن الفضاء ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ﴾ من الذي يصد باب الخير عنكم إن ﴿أَرَادَ﴾ الله ﴿بِكُمْ نَفْعًا بَلْ﴾ أعرضوا عن هذا الاعتذار الصوري فقد ﴿كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ من الأمور المخالفة لاتباع الدين ﴿خَبِيرًا﴾ فإنكم لستم مؤمنين متمكنين، وكان يعجبكم أن لا يرجع الرسول من ذلك السفر ولا أحد من أصحابه.

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ﴾ أي عشائرهم ﴿أَبَدًا﴾ وذلك بإبادتكم من جانب أهل مكة ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ من طرف النفس والشيطان ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ أي ظن الشر ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ جمع بائر أي قوماً هالكين، وذلك لعدم تمكن الإيمان في قلوبكم ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾ أي فهو كافر ونحن أعتدنا وهيأنا للكافرين سعيراً يعذبون به ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يتصرف فيهما وفيمن فيهما بما يشاء ف﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ للعباد.

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾... الآية اللام للعهد إشارة إلى الأعراب المخلفين عن السفر المذكورين آنفاً، وذلك الإخبار السابق كان إخباراً عن الغيب، وهذا إخبار آخر يثبت بهما وبأمثالهما أن القرآن كلام الله المنزل على حبيبه المفضل يعني سيقول لك أولئك المخلفون ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ وأرادوا بها خيبر، لأن اليهود كانوا يعارضون الإسلام، وفي خيبر قوة ومنعة وتصوروا في أنفسهم أن الرسول ﷺ يحاربهم ويفتح البلد ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ أي دعونا ولا تمنعونا حتى نكون في عداد المحاربين، وإذا فتح البلد يكون لنا نصيب من الغنائم

﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ﴾ النازل في شأن أهل بيعة الحديبية المعروفة ببيعة الرضوان الناطق بأن الله وعدهم مغانم كثيرة يأخذونها، فيكون هذا الأمر محولاً إليهم، ويكون لهم من تلك المغانم حصة ﴿قُل﴾ لهم يا حبيبي ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ أي لن تكون لكم حالة نفسية قدسية مطمئنة راضية بالدخول في الجهاد لإعلاء كلمة الله حتى تستحقوا شيئاً من المغانم على تقدير الفتح، وقالوا أن النفي في معنى النهي، أي لا تتبعونا ولا نرضى باتباعكم لنا، فإن من لم يكن لنا في وقت أردناه لا يكون معنا في وقت لا نريده ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُۖ﴾ أي من قبل أن تهيأتم للخروج معنا. وذلك عند الانصراف من الحديبية إلى المدينة ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ أي أولئك الأعراب المخلفون للمؤمنين ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَاۚ﴾ أي أعرضوا عن أن يكون عدم اتباعنا لكم حكم الله تعالى، وإنما هو ناشىء من أنفسكم ولا تحبون صحبتنا لكم لأنكم تحسدوننا في أن يكون لنا نصيب من المغانم ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وهذا الإضراب معناه عدم الالتفات إلى كلام المخلفين فكل ما يأتون به عاطل باطل وكانوا لا يفقهون من أمور الدين وحقيقة الإسلام والجهاد في سبيله إلا شيئاً قليلاً، فلا تجادلوهم عند ظهور بوادر الخلاف.

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ المعروفين بالتخلف حتى صار سمة لهم ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي ذوي قوة شديدة في الحرب، وهم على ما قاله بعض ورواه الطبراني عن الزهري بنو حنيفة: مسيلمة وأهله وقومه من أهل اليمامة، وعليه جماعة. وفي رواية زيادة أهل الردة. وعن رافع بن خديج: أنا كنا نقرأ هذه الآية فيما مضى ولا نعلم من هم، حتى دعا أبو بكر ﷺ إلى قتال بني حنيفة فقلنا: إنهم أريدوا بها. وعن عطاء بن أبي رباح ومجاهد في رواية، وعطاء الخراساني، وابن أبي ليلى: هم الفرس الذين حاربهم عمر ﷺ وبهذه الآية تثبت خلافة الشيخين ﷺ، لأنهما دعوا المسلمين إلى الجهاد مع قوم أولي بأس. أما أبو بكر فدعا الناس إلى مقاتلة مسيلمة وأتباعه وإلى مقاتلة مانعي الزكاة، وعمر ﷺ دعاهم إلى قتال الفرس في دور (يزدجرد) وكانوا أولي بأس شديد والداعي الذي تقرر الآية الكريمة دعوته إلى القتال هو الداعي المحقق المحق الواجب إطاعته وقبول دعوته، وهذا هو الظاهر منها.

﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَۖ﴾ على معنى التنويع لا التشكيك، أي يكون أحد الأمرين إما المقاتلة أو الإسلام لا غير كما دلت عليه قراءة أو يسلموا لأن النصب يقتضي

أن أو بمعنى إلا أن، فإن قلت: هذا يفيد أن أمر القوم الذين يقاتلون منحصر في الأمرين فلا يبقى لترك المقاتلة وأخذ الجزية مجال فيفسد الاستدلال بها على خلافة عمر ﷺ لأنه قاتل المجوس وكان يصح أخذ الجزية منهم! قلت: إن كان الإسلام على المعنى العرفي قلنا: يكفي إثبات خلافة أبي بكر ﷺ لأنه بعد أن ثبتت خلافته لا يبقى خلاف في جواز استخلافه لأي إنسان مسلم بعده، وقد استخلف عمر ﷺ. وإن كان الإسلام على المعنى اللغوي أعني الانقياد والاطاعة فالانقياد كما يكون باعتناق الدين الإسلامي يكون بالتزام الجزية أيضاً ﴿فَإِن تُطِيعُواْ﴾ أي ذلك الداعي إلى القتال وتقاتلوا أولئك القوم لإعلاء كلمة الحق ﴿يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ يعني الغنيمة في الدنيا والجنة في الآخرة ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ﴾ عن الداعي ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ في أمر الحديبية ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فيهما ﴿لَّيْسَ﴾ في التخلف عن تلك الدعوة ﴿عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ أي إثم ﴿وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ لوجود العذر، والعذر يجعل العسر يسراً ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في الأوامر والنواهي ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي عن الطاعة ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لا يقادر قدره.

﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ روي أنه لما نزل الحديبية بعث خراش بن أمية الخزاعي إلى أهل مكة. فهموا بقتله فمنعه الأحابيش، فرجع فبعث عثمان بن عفان، فحبسوه فأرجف بقتله. فدعا رسول الله ﷺ أصحابه، وكانوا ألفاً وثلاثمائة أو أربعمائة وبايعهم على أن يقاتلوا قريشاً ولا يفروا عنهم، وكان جالساً تحت سمرة أو سدرة. وهذه البيعة سميت بيعة

الرضوان لنزول آية الرضا فيها. والحديبية تصغير الحدباة، سمي بها المكان. وخراش بكسر الخاء وفتح الراء المهملة، وأرجف أي أذيع قتله بلا أصل يعتمد عليه، والأحابيش جمع أحبوش، وهم قوم من قبائل شتى سموا به قيل لسوادهم كالحبش، وقيل لتحالفهم عند جبل يسمى حبشي ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الإخلاص ﴿فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي الطمأنينة وسكون النفس بالتشجيع أو بالصلح أو بهما ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ فتح خيبر عند انصرافهم وقيل فتح مكة أو هجر بالبحرين ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ يعني مغانم خيبر ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ هي ما قرر الله للمسلمين من أول القتال إلى آخر الأيام، فإن الغنائم لم تحل لأمة قبل الإسلام وقد أحلت لها إلى يوم القيامة ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ﴾ أي مغانم خيبر ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ﴾ أيدي أهل خيبر وحلفائهم وقوله: ﴿وَلِتَكُونَ﴾ عطف على مقدر علة لقوله ﴿وَكَفَّ﴾ أي وكف أيدي أهل خيبر عنكم لتسلموا ولتكون هذه الكرة آيةً وأمارة للمؤمنين على أنه إذا جاء نصر الله سخر الأعداء ومنع أنصارهم عن التعاون معهم وإمدادهم ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ هي صراط الثقة بوعد الله تعالى بأن المؤمنين منتصرون ﴿وَأُخْرَىٰ﴾ أي ووعدكم الله مغانم أخرى وهي مغانم هوازن في غزوة حنين ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ علماً وقدرة وستتحقق لا محالة ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ ماضياً وعاجلاً وآجلاً.

﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي من أهل مكة ولم يصالحوكم أو حلفاء يهود خيبر من قبيلة أسد وغطفان ﴿لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ﴾ أي لانهزموا وولوا الإدبار ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يتولى أمورهم وينظم جيشهم إذا قاتلهم المسلمون ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم ويعينهم ليقلبوا على المسلمين ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ أي سن سبحانه وتعالى سنة الله ﴿الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل هذا العصر وهي تأييد المؤمنين ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ

لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ أي منع أيدي كفار مكة عنكم ﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ أي وكف أيديكم عنهم ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ يعني به الحديبية، وكونه ببطن مكة مبني على أن بعضها داخل في الحرم أو على اعتبار قربها منها منزلاً منزلة كونها جزء منها. وقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْۚ﴾ أي من بعد أن جعلكم ظافرين وظاهرين وغالبين عليهم.

أخرج الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن أنس قال: لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلاً من أهل مكة في السلاح من قبل جبل التنعيم يريدون غرة رسول الله ﷺ، فدعا عليهم فأخذوا، فعفا عنهم، فنزلت هذه الآية ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ﴾.... اه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي بجميع ما تعملون ومنه العفو بعد الظفر ﴿بَصِيرًا﴾ فيجازيكم عليه.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أنْ تصلوا إليه وتطوفوا به ﴿وَٱلْهَدْىَ﴾ أي وصدوا الهدي ﴿مَعْكُوفًا﴾ أي محبوساً ومربوطاً للخير ﴿أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥۚ﴾ بدل اشتمال من الهدي أي منعوا بلوغ الهدي إلى محله المعهود للذبح وهو منى، وإلا فعند الإمام الشافعي ﷺ مكانه لمن منع حيث منع. وعند الإمام أبي حنيفة ﷺ أرض الحرم وبعض الحديبية حرم عنده. ومع ذلك فالمحل المعهود هو منى وقد منعوا وصول الهدي إليه ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾ في مكة سبعة من الرجال وامرأتان ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ بدل اشتمال عن الضمير المنصوب أي لم تعلموا وطأهم ودوسهم بالأقدام ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ﴾ أي فتصيبكم بسبب دوسهم وإيذائهم معرة ومكروه ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍۖ﴾ وقوله: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ علة لما يدل عليه الجواب المحذوف أي ولولا ذلك لأمرنا بالتعرض لهم لكنه سبحانه كفها عنهم ليؤدي الصلح إلى فتح مكة ليدخل الله في رحمته ﴿مَن يَشَآءُۚ﴾ وهم المؤمنون

الذين سكنوا في مكة ولم يهاجروا لحد الآن وإدخالهم في الرحمة بأن يبقوا أمناء لا يتعرض لهم كفار مكة انتقاماً لمد المسلمين الأيدي إلى الكفار ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ والتنزيّل التفرق، أي لو تفرّق أولئك المؤمنون والمؤمنات وتميزوا عن الكفار الساكنين في مكة ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

﴿إِذْ جَعَلَ﴾ منصوب بأذكر على المفعولية ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ أي حمية الأمة الجاهلية فمنعوا الرسول وأصحابه الجائين للاعتمار ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهدأت أعصابهم واستراحت قواهم، فلم يتعرضوا لأحد بالسوء، ولم يقع ما لا تُحمدُ عواقبه ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ وهي كلمة التوحيد فيكررونها ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا﴾ أي بتلك الكلمة وأهلها ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فيعلم من هو الأحق بالشيء ومن هو أهله. والفرق بين الأهل والأحق أن الأهل أدخل في الاستحقاق فكان الشيء ماله وحاله الخاص المغروز فيه خلقة كالصفات الغريزية. وأما الأحق فهو أولى من باقي المستحقين بوجه لشيء ما من العلل المؤيدة في الموضوع. والله أعلم.

وتفصيل تفسير الآية ما روي أنه لما نزل بالحديبية وصار أمر قريش المنع له ولأصحابه من الاعتمار وطواف البيت، واهتم بقتالهم بعث قريش سهيل بن عمرو، وحويبط بن عبد العزى، ومكرز بن حفص ليسألوه أن يرجع من عامه على أن تخلي له قريش مكة من القابل ثلاثة أيام فأجابهم وكتبوا بينهم كتاباً، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ لعلي رضي الله عنه «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم» فقالوا: ما نعرف هذا، اكتب باسمك اللهم. ثم قال: «اكتب هذا ما صالح عليه رسول الله أهل مكة» فقالوا: لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت وما قاتلناك، اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله أهل مكة ـ فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «اكتب ما يريدون» فهم المؤمنون أن يأبوا ذلك ويبطشوا به فأنزل الله السكينة عليهم، فتوقروا وتحملوا وألزمهم كلمة التقوى كلمة الشهادة أو بسم الله الرحمن الرحيم محمد رسول الله اختارها لهم، أو الثبات والوفاء بالعهد، وإضافة الكلمة إلى التقوى لأنها سببها أو كلمة أهلها.

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ

ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾

﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ رأى رسول الله ﷺ قبل خروجه إلى الحديبية أنه هو وأصحابه دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا وقصروا. فقص الرؤيا على أصحابه ففرحوا واستبشروا وحسبوا أنهم داخلوها في العام الذي هم فيه، وقالوا: إن رؤيا رسول الله ﷺ حق، فلما تأخر ذلك قال عن طريق الاعتراض عبد الله بن أبي، وعبد الله بن نفيل، ورفاعة بن الحرث: والله ما حلقنا، ولا قصرنا، ولا رأينا المسجد الحرام، فنزلت الآية.

والمعنى صدقه في رؤياه وقوله بالحق أي متلبساً به فإن ما رآه كائن لا محالة في الوقت المقدر له وهو العام القابل. ويحتمل أن بالحق قسماً بالحق وهو اسم الله تعالى، وعلى هذا فقوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ جوابه وإلا فهو جواب لقسم محذوف أي والله لتدخلن المسجد الحرام، قوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾ أي من بطش الأعداء وقوله: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ كل لبعض منهم والمشتقات أحوال متوالية مفردة. وقوله: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ جملة حالية، أو مستأنفة أي لا تخافون بعد ذلك ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟﴾ أي فعلم الله تعالى ما لم تعلموا من التأخير في الدخول والحكمة فيه ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ الدخول ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ هو فتح خيبر، أو فتح مكة المكرمة.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي متلبساً بالهدى وهو القرآن ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ أي دين الإسلام الثابت المطابق للواقع ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ بانتشاره في جميع الدنيا وبخلوده إلى يوم القيامة، وبعمومه للأمم كلها، وبمقارنته للمعجزة المستمرة معه، وبجهاد منتسبيه لإعلاء كلمة الحق، وبمماشاته مع الأزمنة بثبات أركانه

وأصوله وفروعه الكلية، وبجواز اجتهاد المجتهدين لاستنباط الفروع المتنوعة، وبعدم اتفاق أتباعه على الضلال، وبتجديده في كل مائة عام مرة بمجدد معه أعوان كالاطواد والأوتاد الراسخة في العالم ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ على ذلك.

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي ذلك الرسول الذي أرسل بالهدى ودين الحق محمد رسول الله المبعوث رحمة للعالمين إلى كافة الثقلين أجمعين. وذلك لأنه ادعى الرسالة العامة من الله تعالى وأظهر المعجزات الكثيرة ومنها القرآن المتواتر بحروفه وكلماته وجمله السليمة وآياته الحكيمة، وتأيدت بالأخلاق العظيمة التي اندهشت عقول العالمين منها كإيمانه، وأمانته، واستقامته، وبره، وتقواه، ومثابرته، وجوده، وجهاده، وحلمه للأجانب كعشيرته وحبه لمساكين أمته وخيره الفائض على العالم ودوامه على فضائله، وذكره الدائم لربه، ورحمته بالمستضعفين، وزهده عن الدنيا، وسلامة صدره ولسانه، وسماحته وشكره لله، وشجاعته، وصراحته في البيان، وصبره، وصدقه، وصفائه، وصيامه، وإضاءة وجهه للخلق، وطهارة جوارحه، وحواسه وعقله وعلمه وعفوه، وعلو همته، وغيرته على شريعته، وفرط تفقده لفقراء أمته، وقوة قلبه عند تفاقم الأهوال، وقيامه بالليل مع تعب نهاره، وكرامة نفسه، ولين كلامه، وميله إلى أيسر الوجوه في معاشرته، ومدده، ومروته، ونجدته، ووفائه بوعوده وعهوده، ووقاره وهدوئه وهيبته وهمته، ويمنه ويقينه... فهذه الأخلاق الحسان معجزة من أهم المعجزات لم يجمعهن الخالق في غيره من البريات، وعلى وجودها له بينة بل بينات، فالصلاة والسلام عليه وعلى آله وأصحابه وسائر أتباعه ما دامت الأرض والسماوات. ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ مبتدأ خبره ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ أي راكعين ساجدين لله رب العالمين ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ في الدارين ﴿وَرِضْوَٰنًا ۖ﴾ منه لهم ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم﴾ أي علامتهم في وجوههم من الجباه والخدود وذلك ﴿مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ﴾ ذلك المذكور من النعوت الجليلة ﴿مَثَلُهُمْ﴾ أي وصفهم العجيب المستحسن عند اللبيب الكائن ﴿فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ﴾ الجليل المنزل على موسى رسول بني إسرائيل ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ أي فروخه ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ أي أعانه وقواه الزرع ﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ فتحول من الدقة إلى الغلظ ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ أي فاستقام على قصبه ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ بقوته وكثافته وغلظه وحسن منظره. ومعلوم أن كل هذه النعوت الجليلة والأوصاف الجميلة إنما حدثت لهم من الله سبحانه وتعالى وإنما جعلهم كذلك ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ﴾ ويغبط بهم المؤمنون الأبرار،

ويستفاد من الآية الكريمة أن الغائظ لهم كافر بيقين وأن المغتبط بهم مؤمن أمين ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً﴾ لهفواتهم ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ في جناتهم وكلمة من في الآية الكريمة للبيان لا للتبعيض إذ قد تقرر قبلها أن الذين معه أشداء على الكفار فيمتنع أن يكونوا من الكافرين وأنهم راكعون ساجدون طالبون رضواناً من الله. وما دام وصفوا بذلك وعقب ذلك بقوله الكريم ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ لا تبقى شبهة ولا شك من أي عاقل أن كلهم صالحون ومرحومون ومغفورون ومأجورون أجراً عظيماً، فاحتمال كونها للتبعيض لا يمكن اعتباره بأي وجه من الوجوه إلا من وجه مريض.

وعلى وجه اللطافة أحكي نكتة لطيفة سمعتها من بعض الفضلاء قال: إن هذه الآية الكريمة عمت جميع المؤمنين في العالم، فسيد العالمين محمد رسول الله ﷺ وأصحابه هم الذين ذكر الله نعوتهم الجليلة وحكاها عن التوراة والإنجيل، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين هم المشمولون لآخر الآية فيقول سبحانه وتعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ﴾ أي المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بادئين منهم وكاسبين لها منهم أي متعلمين منهم مغفرة وأجراً عظيماً وهذا المفهوم وإن لم يتطرق إليه أحد فيه نوع من الملاحة واللطافة المقبولة جعلنا الله بفضله وإحسانه من التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

❀ ❀ ❀

سورة الحجرات

مدنية وآياتها ثماني عشرة
نزلت بعد المجادلة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ هذه السورة مدنية إلا آية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ فهي مكية عند بعض وبالجملة هذه السورة سورة محيطة بآداب اجتماعية مع الله ورسوله، ومع المسلمين بعضهم مع بعض، ومع الناس كافة، وبالآخرة ببيان رجوع الكل إلى الله تعالى وأن النعم والفضائل كلها منه، وأهمها الإسلام ولا تمنوا على الرسول ولا على غيره ولا تقدموا إما من قدم المتعدي والمفعول محذوف لقصد العموم أي لا تقدموا أمراً من الأمور الدينية أياً كان في حكمكم فيه إيجاباً أو سلباً بين يدي الله ورسوله أي لا تحكموا فيه قبل حكمهما به أو منزل منزلة اللازم لعدم القصد إلى المفعول كما تقول: فلان يعطي ويمنع، أي يفعل الإعطاء والمنع، وذلك لأن القصد عدم التقدم عليهما وعدم المخالفة لحكمهما بتاتاً بدون تقييده بشيء، أو من قدم اللازم بمعنى

تقدم، أي لا تتقدموا كناية عن لا تخالفوهما فإن من تقدم على شخص في سيره لا يربط سيره بسيره ويتمشى لقصد شخصه وخيره ولا يهتم بغيره. وقوله: ﴿بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ اليدان مجازان عن الجهتين اليمين والشمال مجازاً مرسلاً بعلاقة الجوار، ثم استعيرت الجملة الناهية عن التقدم في الجانبين إلى معنى النهي عن الحكم بأي شيء قبل حكمها لأن المقصود التوقف عن الأحكام مطلقاً إلى صدور الحكم من الباب العالي، هذا في ذلك العصر، وأما بعده فيجب سلوك ما قرره من التقيد بالنصوص ودلالاتها ثم الاعتبار بالإجماع، ثم بالاستدلال الاجتهادي لمن هو أهل له لا الحكم الاشتهائي كما هو سهل ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي مخالفته عن مراعاة النظام فإن الأنام لا قيام لهم بدون النظام، والنظام من أحكام الله الملك العلام والرسول ﷺ مبلغ لها ومبينها للأنام ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لكل ما يسمع و﴿عَلِيمٌ﴾ بكل المعلومات.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ يعني إذا تكلم الرسول ﷺ في موضوع فلا تتكلموا عند ذلك بصوت جهوري يعلو على صوته فلا يسمعه المستمعون له. وإذا تكلم معه ﷺ فليكن صوتكم همساً، لا جهاراً بحيث يرتفع على صوته أو يساويه بل أخفضوه رعاية للأدب في مكالمته ﷺ ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي وإذا ابتدأتم بالكلام معه فلا تجهروا له بحيث يؤذي سمعه ويؤلم شعوره كجهر بعض لبعض كأن يناديه للاستنجاد والاستغاثة من بعيد، فإن ذلك من آداب البدويين العائشين في الصحاري والجبال، وأنتم صرتم متمدنين بمدنية الإسلام الحاوي للأحكام، والداعي للنظام، والسالك على طريق الإسلام، وليكن فيكم الدراية والرعاية كراهة ﴿أَن تَحْبَطَ﴾ وتسقط ﴿أَعْمَـٰلُكُمْ﴾ بما يؤذيه عليه السلام ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ بأن هذا النوع من اللا أدبية يرفع الهيمنة والأمانة ويجلب الإنسان إلى التوحش عن نظام الدين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ سواء عند سكوته عن الكلام، أو تكلمه مع غيره، أو تكلمه معه، أو في بدء الكلام معه في سؤال حكم أو استفسار عن أمر ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي أعدها وهيأها لها ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ على رعاية الأدب الرفيع مع الشفيع.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ أي من خارجها خلفها أو قدامها ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ الفرق بينك وبين غيرك في المناداة وأنك قد ينزل عليك الوحي في تلك الأوقات أو مشغول بمهمة من المهمات. والحجرات جمع حجرة

بضم الفاء وسكون العين قطعة أرض محجورة أي ممنوعة من دخول غير أهلها فيها بحائط وباب أو بأمر آخر ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ حيث استفادوا العلم بمقصودهم بصورة معتادة مقبولة بدون إزعاج أحد واستفاد الناس من أدبهم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بليغ المغفرة عما تقدم وواسع الرحمة لمن تأدب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ أي فتعرفوا وتصفحوا وحققوا الخبر، وأصله حتى لا تقعوا فيما لا تحمد عواقبه. روي أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعث الوليد بن عقبة لأخذ الزكاة إلى بني المصطلق، وكان بينه وبينهم سوء تفاهم، فلما سمعوا به استقبلوه فحسبهم مقاتليه، فرجع وقال لرسول الله ﷺ: قد ارتدوا ومنعوا الزكاة، فهم بقتالهم، فنزلت. وقيل بعث إليهم خالد بن الوليد فوجدهم منادين بالصلاة متهجدين فسلموا إليه الصدقات فرجع. واستدل بالآية على أن من الصحابة من ليس يعدل لأن الله تعالى أطلق الفاسق على الوليد بن العقبة فيها، فإن سبب النزول قطعي الدخول وهو صحابي بالاتفاق فيرد بها على من قال إنهم كلهم عدول ولا يبحث عن عدالتهم في رواية ولا شهادة. وهذا أحد الأقوال في المسألة.

وثانيها: أنهم كغيرهم، فيبحث عن عدالتهم في الرواية والشهادة إلا من يكون مقطوع العدالة أو ظاهرها كأعيانهم.

والثالث: أنهم عدول إلى قتل عثمان رضي الله عنه ويبحث عن عدالتهم من حين قتله لوقوع الفتن فيهم، وفيهم الممسك عن خوضها.

والرابع: أنهم عدول إلا من قاتل علياً ـ كرم الله وجهه ـ لفسقه بالخروج على الإمام الحق وإلى هذا ذهبت المعتزلة. والحق ما ذهب إليه الأكثرون وهم يقولون: إن من طرأ له منهم قادح ككذب أو سرقة أو زنا عمل بمقتضاه في حقه، إلا أنه لا يصر على ما يخل بالعدالة بناء على ما جاء في مدحهم في الآيات والأخبار وتواتر

من محاسن أعمالهم فلا يسوغ لنا الحكم على من ارتكب منهم مفسقاً بأنه مات على الفسق ولا ننكر أن منهم من ارتكب في حياته مفسقاً لعدم القول بعصمتهم، وأنه كان يقال له قبل التوبة فاسق، لكن لا يقال باستمرار هذا الوصف فيه، ثقةً ببركة محبة النبي ﷺ ومزيد ثناء الله عز وجل عليهم كقوله سبحانه ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] أي عدولاً وقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ إلى غير ذلك.

﴿أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ علة للأمر بالتبين، أي كراهة أن تصيبوا قوماً بجهالة أي متلبسين بجهالة بحقيقة الأمر ﴿فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ﴾ بإيذاء بعض الناس على أثر الخبر الكاذب ﴿نَٰدِمِينَ﴾ على ما فعلتم مغتمين.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ أي لوقعتم في الجهد والهلاك ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ وأمنتم ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ﴾ فتركتم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ أي أولئك الناس الموصوفون بالأمرين هم الراشدون الواصلون إلى الرشد، الموصوفون به. والرشد صلاح الدين والمال، وعند بعض الأئمة صلاح المال وليس بمقصود هنا. وقوله: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ﴾ مفعول له للفعلين السابقين حبب وكره، وما بينهما معترضة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال المؤمنين ودرجاتهم و﴿حَكِيمٌ﴾ في هباته.

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ﴾... الآية روي أن النبي ﷺ كان متوجهاً إلى زيارة سعد بن عبادة في مرضه. فمر على عبد الله بن أبي بن سلول فقال ما قال، فرد عليه عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، فتعصب لكل منهما أصحابه، فتقاتلوا، فنزلت فقرأها ﷺ عليهم فاصطلحوا، وكان ابن رواحة خزرجياً وابن أبي أوسياً.

يقول تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ أي إن اقتتل طائفتان اقتتلوا، والجمع باعتبار أن كل طائفة جمع والتثنية في قوله: ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ﴾ باعتبار نفس الطائفتين، والإصلاح يكون بعد فهم ما عند الجانبين، ثم الدعوة إلى التزام حكم

الله، فإن صلحتا فالصلح خير حاسم للشر ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ أي حتى ترجع إلى حكم الله ﴿فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾ أي بفصل ما بينهما على ما حكم الله، وتقييد الإصلاح بالعدل لأنه مظنة الجور ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ﴾ أي اعدلوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ أي العادلين ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ من حيث الانتساب إلى أصل واحد وهو الإيمان الموجب للحياة الأبدية ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (١١) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ (١٢) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ (١٣)﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ﴾ أي منكم ﴿مِّن قَوۡمٍ﴾ أي من قوم آخرين منكم، والسخر الهزؤ، وفي الزواجر: هو النظر إلى المسخور منه بعين النقص، وقد يكون بالقول، وقد يكون بالفعل، وكل ذلك جريمة كبيرة مفسدة للمسلمين وموجبة للشقاق والاختلاف، ثم علل النهي بقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ﴾ أي المسخور بهم ﴿خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ أي من الساخرين ﴿وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ﴾ أي ولا تسخر نساء من نساء ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ﴾ أي المسخور بهن ﴿خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾ أي من الساخرات ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ أي ولا تعيبوا آحاداً أو جماعات آخرين، فإنهم ما داموا مؤمنين يعتبرون من أنفسكم فتعييبكم لهم تعييب لأنفسكم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لما عيب بعض بعضاً جاء البعض المعيوب بعيب العائبين، وعند ذلك كان كأن اللامز لَمَزَ نفسه ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ﴾ أي لا ينادي أحدكم بالألقاب ولا يدعوه بها، ولا يسميه، ولا يلقبه بما فيه عيب، والمراد بالألقاب ألقاب السوء، وإلا فالألقاب الحسنة استعمالها على وجه الصدق من الحسنات، وقد لقب أبو بكر بالعتيق وبالصديق، وعمر بالفاروق، وعثمان بذي النورين، وعلي وحمزة بأسد الله، وخالد بسيف الله وأمثالها. . . نعم اللقب الغير المحبوب إذا كان من

المميزات والمشخصات فلا بأس باستعماله ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ﴾ أي بئس الذكر المشهور بين الناس وهو الفسوق، وقوله: ﴿بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي بعد دخول ذلك الإنسان المذكور باللقب الفاسد في الإيمان أي المناسب للإنسان الداخل في الإيمان أن يذكر ويشهر بالألقاب الشريفة الرفيعة لا بالألقاب البذيئة الوضيعة. وعلى ما قلنا فالاسم فاعل، والفسوق مخصوص بالذم. ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ عن التنابز بالألقاب السيئة إلى الناس ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أنفسهم بارتكاب الجريمة التي تنجر إلى جرائم أخرى لأن ذلك الاستعمال يحرض الناس على المقابلة والتخاصم والتنابذ. والظالمون غيرهم لأنهم يتحقرون في أعين الناس بتلك الكلمات والألقاب التافهة. أعاذنا الله من كل قول وفعل فاسد، وحفظنا من كل نابز حاسد أنه هو الحفيظ العليم والرؤوف الرحيم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ أي تباعدوا منه وأصل اجتنبه كان على جانب منه، ثم شاع في التباعد. ومما ينبغي علمه أن الظن هو التصديق بالنسبة التامة الخبرية بحيث لا يقطع الطرف الآخر بأن يبقى عنده مرجوحاً، كظنك بمن يدور حول الأزقة بالليل خائناً، فهذا الظن إذا كان في الاعتقاديات فهو ساقط لا اعتبار له. فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ وإن كان في الأحكام العملية، فإن كان حاصلاً من اجتهاد إنسان واصل إلى درجة الاستنباط فهذا يجوز العمل به، بل يجب. وأما إذا كان متعلقاً بأحوال الناس وأفعالهم مع بعض، فإن كان المظنون به مجاهراً بالفسق، أو مشهوراً به فلا بأس في ذلك الظن بل ويجب عليه نصيحة الناس ومنعهم من مجاورته واقترابه. وأما إذا كان متعلقاً بالناس الصالحين أو بمن لا يعرف حاله، فهو حرام، وهذا هو المراد في الآية الكريمة. وفي ذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾ أي لا تبحثوا عن عورات المسلمين ومعايبهم، ولا تستكشفوا ما هو المستور من عيوبهم. عن أبي برزة الأسلمي قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «**يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه لا تتبعوا عورات المسلمين، فإن من تتبع عورات المسلمين فضحه الله تعالى في قعر بيته**» ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي لا يذكر بعضكم بعضاً بما يكره، سواء كان في دينه أو دنياه، أو خلقه أو خلقه، أو ماله أو ولده، أو زوجته، أو مملوكه، أو خادمه، أو لباسه أو غير ذلك... ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾؟ تمثيل لما يصدر

عن الغياب بأكل لحم أخيه الميت، وذلك شيء مذموم مكروه جداً ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقد تجب الغيبة لغرض صحيح شرعي لا يتوصل إليه إلا بها وتنحصر في ستة أبواب:

الأول: التظلم فلمن ظلم أن يشكو لمن يظن أن له قدرة على إزالة ظلمه.

الثاني: الاستعانة على إزالة المنكر بذكره لمن يظن أنه قادر على إزالته.

الثالث: الاستفتاء فيجوز للمستفتي أن يقول للمفتي ظلمني فلان بكذا فهل يجوز له ذلك؟

الرابع: تحذير المسلمين عن الشر كجرح الشهود والرواة والمصنفين والمتصدين للإفتاء أو الإقرار مع عدم أهليته، فتجوز إجماعاً، بل تجب.

الخامس: أن يتجاهر بفسقه كالمكاسين وشربة الخمور، فيجوز ذكرهم بما تجاهروا فيه.

السادس: التعريف بنحو لقب كأن تقول: قال القاضي الأعمش.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ أي من آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ والفرق بين الشعب والقبيلة أن الشعب هو الجمع العظيم المنسوب إلى أصل واحد وهو يجمع القبائل، والقبيلة تجمع العمائر، والعمارة تجمع البطون، والبطن يجمع الأفخاذ، والفخذ تجمع الفصائل. فخزيمة شعب، وكنانة قبيلة، وقريش عمارة وقصي بطن، وهاشم فخذ، والعباس فصيلة. وسميت الشعب شعباً لأن القبائل تفصل منها. وقوله: ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ علة للجعل، أي جعلناكم كذلك ليعرف بعضكم بعضاً، فتصلوا الأرحام وتبينوا الأسباب والتوارث، لا للتفاخر والتشاجر ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ أي من هو أكثر خوفاً من الله ويراعي الحرام والحلال، ويترك المحرمات، ويؤدي الواجب عيناً وكفاية. ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى عليم بكم وبأعمالكم ﴿خَبِيرٌ﴾ ببواطن قلوبكم.

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن سبب نزولها قول ثابت بن قيس لرجل لم يفسح له عند النبي ﷺ فنزلت. وروى البيهقي في سننه عن الزهري قال أمر رسول الله ﷺ بني بياضة أن يزوجوا أبا هند امرأة منهم، فقالوا: يا رسول الله أنزوج بناتنا موالينا؟! فأنزل الله قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم﴾... الآية. وقد دلت على أنه لا ينبغي التفاخر بالأنساب وبذلك نطقت الأخبار.

وأخرج ابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر أن النبي طاف يوم الفتح على راحلته يستلم الأركان بمحجنه فلما خرج لم يجد مناخاً فنزل على أيدي الرجال فخطبهم فحمد الله وأثنى عليه وقال: «**الحمد لله الذي أذهب عنكم عبية الجاهلية وتكبرها. يا أيها الناس رجلان: بر تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله، الناس كلهم بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب، قال الله تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾»، إلى قوله تعالى: ﴿خَبِيرٌ﴾ وأخرج البيهقي وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال خطبنا رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق خطبة الوداع، فقال: «**يا أيها الناس ألا أن ربكم واحد، لا فضل لعربي على عجمي ولا لأعجمي على عربي ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ألا هل بلغت؟**» قالوا: بلى يا رسول الله قال: «**فليبلغ الشاهد الغائب**».

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾... الآية قال مجاهد نزلت في بني أسد ابن خزيمة قبيلة تجاور المدينة، أظهروا الإسلام وقلوبهم دغلة إنما يحبون المغانم وعرض الدنيا. وروي أنهم قدموا المدينة في سنة جدبة فأظهروا الشهادتين، وكانوا يقولون لرسول الله: جئناك بالأثقال والعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، يريدون بذكر ذلك الصدقة، ويمنون به على النبي ﷺ. وقيل: هم مزينة، وجهينة، وأسلم، وأشجع، وغفار. قالوا آمنا فاستحققنا الكرامة فرد الله تعالى عليهم. وعلى كل فليس المراد بالأعراب العموم. وقوله تعالى: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ إكذاب لهم في دعوى الإيمان إذ هو تصديق مع الثقة واطمئنان القلب ولم يحصل لهم وإلا لما منوا على الرسول ﷺ بترك المقاتلة ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓا۟

﴿أَسْلَمْنَا﴾ فإن الإسلام انقياد ودخول في السلم، وهو ضد الحرب، وما كان من هؤلاء شيء يشعر به.

وتحقيق المقام أن الإيمان علم وتصديق للرسول بما جاء من الله به إجمالاً فيما علم إجمالاً، وتفصيلاً فيما علم كذلك، فهو من الكيفيات النفسية. وأما الإسلام فهو الانقياد والاستسلام وذلك فعل وقد يظهر المرء ذلك الانقياد بين الناس وليس عنده حب من خردل من الإيمان. ولذلك قال الباري: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾ فالإيمان والإسلام الواقعي الحقيقي متغايران معنى، ولكنهما متساويان تحققاً. وأما الإسلام الظاهري فقد يكون مع الإيمان الواقعي كما هو لعباد الله المؤمنين وقد يكون بدونه، كما في صورة الآية الكريمة حيث قال: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي بالإخلاص ﴿لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ﴾ أي لا ينقصكم شيئاً من الأعمال، ولا من أجورها، ويجعلها مقبولة مجزّأة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ﴾ أي لم يشكوا مطلقاً ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي في سبيل طاعته وإعلاء كلمته ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ في دعوى الإيمان ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ أي أتخبرونه سبحانه وتعالى بذلك بقولكم آمنا ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعني أن الله تعالى عالم بإيمان المؤمنين الصادقين المجاهدين في سبيل الله كما أنه عالم بأنكم لستم مؤمنين صادقين ولم تجاهدوا في سبيله، فعليكم أن تتحولوا من النفاق وتتوجهوا إلى الله وتؤمنوا حق الإيمان وتجاهدوا حق الجهاد، فإذا وفيتم بذلك أخذتم كمال الأجور هنالك ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ ۖ﴾ أي يعتدون إسلامهم منة عليك ﴿قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ﴾ أي لا تعتدوا إسلامكم منة علي، أو لا تمنوا علي بإسلامكم ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي في الإيمان على حسب ما زعمتم أي لو كنتم مؤمنين بحق لكان حقاً لله أن يمن عليكم بأن هداكم، ولكن ما آمنتم بحق ولا معنى لمنتكم بما ليس موجوداً عندكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ أي ما غاب فيهما ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بالإسرار والإعلان فكيف يخفى عليه ما في ضمائركم؟

❁ ❁ ❁

سورة ق

مكية وآياتها خمس وأربعون
نزلت بعد المرسلات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ① بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ
هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ② أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًاۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ③ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ
ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ④ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ
مَّرِيجٍ ⑤ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ
⑥ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ⑦ تَبْصِرَةً
وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ⑧ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ
ٱلْحَصِيدِ ⑨ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ⑩ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً
مَّيْتًاۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ⑪﴾

قوله تعالى: ﴿قٓۚ﴾ إحدى الاحتمالات فيها أنها اسم للسورة، وتسمى بالباسقات أيضاً. أخرج أحمد ومسلم وأبو داود وابن ماجه والترمذي والنسائي عن أبي واقد الليثي أنه كان ﷺ يقرأ في العيد بقاف واقتربت. وفي رواية ابن ماجه كان يقرؤها في الركعة الأولى من صلاة الفجر. وأخرج أبو داود وابن ماجه والبيهقي وابن أبي شيبة عن أم هشام ابنة حارثة قالت ما أخذت سورة ق والقرآن المجيد إلا من في رسول الله ﷺ، كان يقرأ بها في كل جمعة على المنبر إذا خطب الناس. وفي حديث ابن مردويه عن أبي العلاء رضي الله عنه مرفوعاً: «**تعلموا ق والقرآن المجيد**» وذلك دليل على أنها من السور العظام.

﴿قٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ أي ذي المجد والشرف من باب النسب (ذي كذا)

كلابن وتامر، والواو للقسم وجوابه محذوف يدل عليه المقام، والكلام كأنه قال ق والقرآن المجيد إنا أنزلناه لتنذر به الناس ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ وبل للإضراب عما يشعر به جواب القسم إلى أحوالهم الشاذة ومقالتهم الناشئة عن عقائدهم الزائغة، فإنهم عجبوا أن جاءهم منذر منهم أي رسول منذر لأهل الكفر والمعاصي، وهو منهم يعرفونه بالصدق والأمانة ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي أن إنذار هذا الشخص لنا ولأمثالنا شيء غريب عجيب يتعجب منه، إذ من جملة ما جاء به أنه نعاد بعد الموت إلى الحياة ثانية ونجمع ونسأل ونحاسب ونأخذ الجزاء على ما قدمنا، وهذا الشيء يتعجب منه ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾؟ الاستفهام للتعجب، وتأكيد الإنكار يقولون: أئذا متنا وتفتتت أجسادنا وكنا تراباً ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ أي ذلك الرجوع إلى الحياة الجديدة بعيد عن عقولنا المشوبة بأوهام التقليد الموجبة لإهمال قوة القادر الفعال لما يريد ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ﴾ أي نحن أهل علم شامل بالكليات والجزئيات والأعيان والأعراض ونعلم ما تنقص الأرض من لحومهم بالتفتيت والتمزيق وتغيير صورته النوعية، ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ أي كتاب حافظ لتفاصيل الأشياء كلها، فإذا كانت الأجزاء الممزقة معلومة لنا قدرنا على جمعها وخلق الحياة فيها، وهذا الكتاب هو اللوح المحفوظ. ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالدين الحق أو منشئه وهو الرسول الحق الصادق المصدوق ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ أي اعتقاد مضطرب متزلزل، فإذا جاءهم وسيلة إيمان وثبات من جانب أتاهم موجبات من أسباب الضلال من جوانب أخرى.

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾؟ ورتبنا سماء على سماء ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ بالمصابيح المنورة والشهب المستنيرة ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ أي من فتوق وشقوق وخلاء في الموجات الأثيرية المترتبة ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾أي بسطناها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي جبالاً ثوابت رواسخ تمنعها من الميلان يمنة ويسرة ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ﴾ من الأشجار، والنباتات المختلفة موصوف بأنه ﴿بَهِيجٍ﴾ أي ذي بهجة ونضارة وحسن في اللون والعطر الساري في الدماغ ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ﴾ علتان لفعل مقدر بطريق الاستئناف، أي فعلنا ما فعلنا تبصرة أي تبصيراً وذكرى أي تذكيراً ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ أي راجع إلى ربه لأنه هو الذي يستفيد من أمثال تلك الآيات.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ أي كثير البركات والخيرات ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ﴾ أي أشجاراً ذات ثمار كثيرة ﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ أي وأنبتنا به زروعاً ذات حب من

شأنها أن تحصد ﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ﴾ أي وأنبتنا به النخل باسقات، أي طوالاً أو حوامل من أبسقت الشاة إذا حملت ﴿لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ﴾ أي منضود بعضه فوق بعض ﴿رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ﴾ وفي ذكر التبصرة والذكرى سابقاً ورزقاً هنا إشارة إلى أن حق العبد المرزوق بهذه الأمور التي يتقوت أو يتفكه بها أن يكون بحيث يستبصر ويستذكر بها، لا أن يهمل شكر الإنعام بها ﴿وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ﴾ أي بذلك الماء ﴿بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ﴾ أي أرضاً لا نماء فيها، فجعلناها رابية منبتة ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾ أي ومثل تلك الحياة المعادة على الأرض سنة فسنة حياة الموتى بالبعث من القبور.

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ
﴿١٣﴾ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ
بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴿١٥﴾ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ
وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ﴿١٧﴾
مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ
مِنۡهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾ هذه الجملة مع ما بعدها استئناف لتقرير أن البعث حق ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ﴾ وهو البئر التي لم تُبْنَ، وقيل: هو وادٍ، وأصحابه قيل هم الذين بعث إليهم شعيب عليه السلام، وقيل: قوم حنظلة بن صفوان ﴿وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ﴾ والمراد به وقومه ﴿وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ﴾ قيل: كانوا من أصهاره عليه السلام فليس المراد الأخوة الحقيقية من النسب ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ﴾ والأيكة الغيظة وأصحابها قوم غير أهل مدين بعث إليهم شعيب عليه السلام ﴿وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ﴾ الحميري كان تبع مؤمناً وقومه كافرين ﴿كُلّٞ﴾ من المذكورين ﴿كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ في ما أرسلوا به من الشرائع ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أي فثبت وحق عليهم وعيدي ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ﴾ أي أفتعبنا وهلكنا بالخلق الأول أي بخلقهم أول مرة فلم تبق لي طاقة إعادة الحياة إليهم في المرة الثانية؟ ﴿بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ بل للإضراب أي أعرض عن موضوع العي والتعب بالخلق الأول، فإنهم معترفون بذلك، وإنما هم في لبس واشتباه من خلق جديد، ولو كانوا من أهل الفكرة لعلموا أنا قادرون على البعث وإحياء الموتى، فإن العالم القادر قدرة شاملة لا يعجزه ولا يمنعه أي مانع من إعادة الحياة في العالم الثاني.

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ﴾ من الخيالات الإيجابية أو السلبية

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ والحبل معروف وإضافته إلى الوريد وهو عرق مخصوص في العنق للبيان كشجر الأراك. وقوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى﴾ ظرف منصوب بقوله أقرب، أي ونحن أقرب إلى الإنسان من عرق عنقه إذ يتلقى ﴿ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ أي الملكان اللذان يتلقيان كل ما يقوله ويعمله ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ أي عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، والقعيد فعيل بمعنى المفاعل، أي عن اليمين مقاعد وعن الشمال مقاعد. والباري سبحانه وتعالى أعلم بكل شيء من كل شيء لكن إرسال الملكين وتقريرهما على الجانبين من الإنسان لحكمة الشهادة عليه في يوم الحساب ﴿مَّا يَلْفِظُ﴾ أي الإنسان ﴿مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾ أي ملك يرقب أعماله وأقواله ويكتبها فإن كان خيراً فهو صاحب اليمين، وإن كان شراً فهو صاحب الشمال. وقوله: ﴿عَتِيدٌ﴾ أي مُعَدٌّ ومهيأ لكتابة ما أمر به من الخير أو الشر. والظاهر أنهما في سائر أحوال الإنسان عن يمينه وعن شماله. وروي عن ابن عباس ﷺ أنه قال: إن قعد فأحدهما عن يمينه والآخر من شماله، وإن مشى فأحدهما أمامه والآخر خلفه. وإن رقد فأحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه. والإنسان يبقى في هذه الحالة مع وجود دواعيه للخير والشر إلى الأجل.

﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ أي دهشة الموت التي تزيل العقل كشرب المسكر القوي ومجيئها ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي متلبساً بالثبوت الواقعي لا شبهة فيه ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي مجيء الموت ﴿مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي تميل وتنحرف ولا تريده ولا ترضى به.

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ
﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ
قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ
مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ
رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم
بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ
وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ
أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ
يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ أي نفخة البعث بقرينة البيان الآتي ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾ أي ذلك النفخ يوم إنجاز الوعيد الوارد في الدنيا على لسان الرسول ﷺ، أو الوارد في القرآن الكريم ﴿وَجَآءَتْ﴾ بعد البعث ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس البرة أو الفاجرة حال كونها ﴿مَّعَهَا سَآئِقٌ﴾ يسوقها ﴿وَشَهِيدٌ﴾ من الملائكة لتشهد لها أو عليها. وهذا السوق يختلف بحسب مراتب المبعوثين المسوقين، كما أن كلام الشهيد للخير وعلى الأعمال الصالحة غير كلام الشهيد على الشر وعلى الأعمال السيئة، فيقال للمسوق إلى ميدان الحساب والقائل هو الله تعالى أو ملك مأمور بذلك: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ﴾ مجيء ﴿هَٰذَا﴾ اليوم ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ أي الحجاب الساتر لأمور المعاد فزال ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي نافذ الإبصار لزوال المانع له ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ أي شيطانه المقيض له في الدنيا: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ الإشارة إلى الكافر الملزوم عنده، أي هذا الشخص الكافر عندي ومهيأ لجهنم قد هيأته منذ وجدته لعذاب جهنم.

فقال الله سبحانه وتعالى للسائق والشهيد ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ مبالغ في العناد وعدم الخضوع للحق ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ مبالغ في منع الحقوق المالية عن المستحقين ﴿مُعْتَدٍ﴾ متجاوز عن حدود الله ﴿مُّرِيبٍ﴾ شاك في الله أو في البعث، أو في القرآن، أو في دين الإسلام، أو في الكل ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ رد الكلام المقرون: ﴿رَبَّنَا﴾ إن هذا القرين أغواني وأطغاني ربنا ﴿مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ وما أجبرته على الطغيان ﴿وَلَٰكِن كَانَ﴾ هو بالذات ﴿فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ من الصراط المستقيم. قال الباري سبحانه وتعالى ﴿لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ﴾ في موقف الحساب ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم﴾ إلى كل من القرين ومن قرن به ﴿بِٱلْوَعِيدِ﴾ على الغاوي والمغوي فلا نفع في اختصامكم ولا تطمعوا في الخلاص عن العذاب الذي تستحقونه ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ الذي صدر مني في معاقبة الكافرين ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ﴾ أي بذي ظلم مثقال ذرة ﴿لِّلْعَبِيدِ﴾ وبه يتعلق قوله: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾؟ من المعذبين وهل تحقق ما حلفت عليه بقولي لأملأن جهنم منك وممن تبعك ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾؟ على هذا العدد حتى تأتوا به وتجعلوه مع زملائه الداخلين. فيضع الجبار قدمه فيها ويتجلى عليها بالقبض، فتقول: قطني قطني بعزتك.

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي وقربت لمن اتقى الكفر والمعاصي ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي حال كونها في مكان غير بعيد منهم. وقيل له من جانب الله أو الملك المأمور

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ رجاع إلى الله أي من كان بحيث كلما غفل عنه تذكر، وكلما نسي تفكر، وكلما عصى تاب، وكلما ابتعد عنه آبَ ﴿حَفِيظٍ﴾ حافظ على نفسه وقواها من أن تتورط وتنغمر ولا تخلص حتى ينقهر ﴿مَّنْ خَشِيَ﴾ مخالفة ﴿ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ عن الرقابة المادية، أو الرحمن الثابت المتلبس بالغيب عنه فاتقى شهوات نفسه وهواها، وأرجعها عن غيها إلى هُداها ﴿وَجَآءَ﴾ إلى ربه المجيب ﴿بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ فيه قوة نورية ربانية يرجع قواه إلى مولاه فيقال لهم ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ أي تلك الجنة المهيأة متلبسين ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ من المكاره والمحظورات، أو سلام من انتهاء زمان الراحة ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾ مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ﴿فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ على ذلك من لقاء الباري ورضوانه وتجليات الرحمة وغفرانه. فعن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ قال: يتجلى لهم الرب عز وجل.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ أي كثيراً أهلكنا قبل قومك ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ أي من أهل قرن مقترنين في قرن واحد ومعاصرين في عصر واحد ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم﴾ أي من قومك ﴿بَطْشًا﴾ أي قوة وعدة وعدداً ﴿فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ أي فساروا في الأرض للاستيلاء عليها، أو نقبوا في البلاد عند خوف الهلاك والفساد فإنه روي عن الراغب أن معنى نقبوا هربوا بلغة أهل اليمن قائلين ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ أي من منجي ومخلص لنا ينجينا من الموت؟ وذلك القول إما بلسان الحال أو بلسان المقال عند بوادر نزول العذاب عليهم فخافوا وطلبوا الخلاص من العذاب ولم يجدوا ما

يريدون ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي في إهلاك القرون المتمردة ﴿لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ عاقل عالم واع راع للحقائق المعلومة فيجعلها أدلة قاطعة لأخذ النتائج التي يسعد بها المكلف في الدارين ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ وأصغى لما يتلى عليه من المواعظ والإرشاد ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ حاضر أي متفطن يستفيد مما ألقي إليه.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ أي تعب وإنا قادرون على كل إيجاب وسلب ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي المشركون في الله وفي شخصك ورسالتك ودينك وفي الكتاب النازل عليك وفي البعث والنشور ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي ونزه ذاته عما لا يليق به واحمده على نعمه ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ أو المراد صل صلاة الصبح وصلاة الظهر والعصر ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ تسبيحاً لائقاً بك تؤديه لربك، أو صل في بعض أوقات الليل أي صلاة المغرب والعشاء، أو صلاة التهجد التي تعرف بصلاة الليل أيضاً ﴿و﴾ صل ﴿أَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ أي في ما بعد الصلاة المفروضة ما شرع من الرواتب والسنن ﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ ما يسمع من أهوال الساعة وزلزال العالم أو صوت صور إسرافيل ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ كل ميت مكلف ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ هو صخرة بيت المقدس، أو من مكان يعتبره المنادي قريباً منه لقوته ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ فإن كان صوت النفخة فهو قريب من الخروج، وإلا فهو يوم الخروج نفسه ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ﴾ الأموات في الآخرة ﴿وَنُمِيتُ﴾ الأحياء في الدنيا ﴿وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ أي الرجوع لا إلى غيرنا ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ مصدر وقع حالاً عن ضمير عنهم أي مسرعين في الخروج ﴿ذَٰلِكَ﴾ العمل أو ذلك اليوم ﴿حَشْرٌ﴾ أي يوم حشر للناس وجمعهم في صعيد واحد للمحاسبة وهو ﴿عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ سهل لأنه بأمر الإله القدير ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ في الله وفي كتاب الله ورسول الله وأتباعه المجاهدين في سبيل الله، وفي بعث أنفسهم وسوقهم إلى الله ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ بمسيطر وتجبرهم على ما تريده ﴿فَذَكِّرْ﴾ وأرشد ﴿بِٱلْقُرْءَانِ﴾ وآياته البينات ﴿مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ فإنهم هم المنتفعون به. نفعنا الله به في الدنيا والآخرة يوم تكون وجوه ناضرة إلى ربها ناظرة.

❁ ❁ ❁

الجزء السابع والعشرون
سورة الذاريات

مكية، وآياتها ستون، نزلت بعد الأحقاف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا
﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى
قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ
سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟
فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا﴾ أقسم الله تعالى بالرياح التي تذرو التراب وغيره ﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا﴾ أي السحب الحاملات للأحمال الثقيلة من الأمطار وغيرها. ﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا﴾ أي السفن الجارية على سطح البحار بسهولة ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ أي الملائكة الذين يقسمون الأمور بين الخلائق على ما أمروا به. والقسم في الحقيقة بالله الذي خلق هذه الأشياء، فإن الله هو مصدر القوة والقدرة والعمل العظيم. والمقسم عليه جملة ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ أي أن ما توعدون من البعث بعد الموت والحشر والميزان ومحاسبة الأعمال، ثم السوق إلى الجنة أو النار لصادق مطابق للواقع ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ﴾ أي جزاء الأعمال ﴿لَوَٰقِعٌ﴾ لا شك فيه ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ أي ذات الطرق المتعددة والمدارات المختلفة لحركات السيارات، وهي جمع حبيكة كطرق جمع طريقة، ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ أي متخالف متناقض في أمر الله تعالى، فتقولون أن الله خالق السماوات والأرض، وله قدرة لا تغالب، ثم تعبدون الأصنام الجامدة الهامدة التي ليس فيها شيء من النفع والضر، وتقولون أنه خلق العالم، ثم

تشركون به ما ليس فيه طاقة من القوة لا في خلق السماوات ولا في خلق الأرض. أو أن كلامكم في شأن الرسول والكلام المنزل عليه كذلك، فمرة تقولون أن الرسول كاهن، ومرة مجنون، وهما لا يجتمعان، فإن المجنون ليس له نظام في أعماله، والكاهن مرتاض له معرفة كاملة، وكذلك في شأن القرآن الكريم فمرة يقال: أنه شعر، ومرة أنه أساطير الأولين إلى غير ذلك من الأقوال المتعارضة. وقوله: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ أي يصرف عن الإيمان بما كلفوا الإيمان به من يؤفك من ضعفاء العقول.

ولما كانت تلك الأقوال ناشئة عن الخرص والتخمين الوهمي، وكانت غير معقولة ولا مقبولة قال: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ أي الخمانون أي المتكلمون بالظنون والأوهام الزائفة الزائغة ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ﴾ أي في بحيرة عظيمة من الجهل تغمرهم وتسترهم ﴿سَاهُونَ﴾ غافلون عن الله وأداء ما أوجبه على العاقل من التفكر في الحقائق بأنظار دقائق يسألون على وجه الاستهزاء والاستعجال: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾؟ أي يوم القيامة التي ينال فيه كل إنسان جزاء ما اعتقده وعمله خيراً أو شراً ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ أي يقع يوم هم يحرقون على النار كاللحم المبسوط على النار للشيّ ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ﴾ أي مقولاً لهم ذوقوا عذابكم المعد لكم ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ في الدنيا بطريق الاستهزاء.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ لما ذكر الباري تعالى حال الكافرين في مآلهم، شرع في حال المؤمنين المتقين فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ لا يعلم كنه بهجتها ونضارتها والتذاذ النفس بها ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي قابلين لكل ما أعطاهم الله بالارتياح والسرور ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾أي في الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ﴾ لأعمالهم الصالحة ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي أنهم مع قلة منامهم بالليل وحقهم أن يناموا بالأسحار يستمرون بعد صلاة الصبح على الاستغفار، أي اعتبروا أنفسهم معطلين

بالليل فيستغفرون بالأسحار لغفلة الليالي، وذلك نصيبهم المعنوي من الحسنات. وأما نصيبهم المادي فهو ما بينه الباري بقوله: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ﴾ أي يلزمون أنفسهم نصيباً ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ أي المتعفف عن السؤال من الذين يظن بهم الغني من التعفف.

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ﴾ أي دلائل من أنواع ما أودعه الله فيها من المعادن والنبات والحيوان ﴿لِّلْمُوقِنِينَ﴾ الذين سلكوا الطريق البرهاني الموصل إلى الإيمان بالله وبالرسل وسائر ما يجب الإيمان به ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي وفي أنفسكم آيات للمستدلين بها وبأحوالها على وجود رب واحد قادر مختار ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؟ تلك الأدلة ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ أي تعيينه وتقديره أو أسباب رزقكم من المطر والثلج والبرد والمن وغيرها يتنزل ويستفاد منه ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ أي من الجنة والنار ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ أي أن ما توعدون لحق ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ كما أنه لا شك منكم في نطقكم وتحريك ألسنتكم أو في منطوقكم أي ما تتلفظون به.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾؟ فيه تفخيم لشأن جده إبراهيم عليه السلام، وتوجيه له إلى وجوب الاقتداء به في تحمله الأذى من أجل تحقيق الهدف الأعلى وهو نشر توحيد رب العالمين، كما فيه تسلية له من حيث أن البشر مخلوق في كبد وفي محنة، ولا سيما العقلاء العلماء، ومنهم الرسل والأنبياء فإنهم يجب عليهم الصبر والتحمل للأذى من أي جهة كان بحكاية ضيف إبراهيم فيقول: هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين أي عند الله عز وجل، وعنده ﴿إِذْ دَخَلُوا۟

﴿عَلَيۡهِ﴾ أي حديث زمان دخولهم عليه، ولما دخلوا عليه ﴿فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ﴾ أي نسلم عليك سلاماً ﴿قَالَ سَلَٰمٞ﴾ أي وعليكم سلام. وقوله: ﴿قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ أي وهم قوم منكرون غير معروفين حيث لم ير قوماً مثلهم في الهيئة والزي والنظافة والأدب ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾ أي فذهب إبراهيم على خفية من ضيفه إلى أهله لتهيئة طعام لهم يأكلونه، والروغ الذهاب بخفية ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾ أي سمين، وفي الكلام إيجاز، أي راغ إلى أهله وذبح عجلاً وشواه ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ فتوقفوا عن الأكل ﴿قَالَ﴾ مستفسراً: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ من هذا اللحم الطري السمين المشوي؟ فاعتذروا عن الأكل ﴿فَأَوۡجَسَ﴾ سيدنا إبراهيم عليه السلام ﴿مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ﴾ أي أضمر في نفسه خوفاً منهم، لأنه كان وما يزال للطعام والإطعام احترام وذمام، والامتناع عن موحش موجب لظن قصد السوء منهم، وقال بعض المفسرين رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما: إن إبراهيم عليه السلام علم بعد اعتذارهم أنهم ملائكة مأمورون بالعذاب، فخاف ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ﴾ منا إنا رسل الله أرسلنا لشغل معين.

﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ مهيأ للعلم وكرامة النبوة والرسالة ﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ﴾ سارة لما سمعت ببشارتهم ﴿فِي صَرَّةٖ﴾ أي صيحة على عادة النساء إذا أدركن شيئاً عجيباً ﴿فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا﴾ أي ضربت بيدها على وجهها ﴿وَقَالَتۡ﴾: أنا ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٞ﴾ أي عاقر فكيف ألد؟ ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ﴾ أي مثل ذلك القول الذي بشرناك به قال ربك، وإنما نحن معبرون نذكر ما أمر به ربك ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

وبعد أن هدأت أعصاب أهل البيت ﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام بعد علمه بأنهم ملائكة: ﴿فَمَا خَطۡبُكُمۡ﴾ أي شأنكم الخطير الذي تريدون تنفيذه ﴿أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ أيها الملائكة المأمورون؟ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾ يريدون قوم لوط عليه السلام ﴿لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ﴾ بعد قلب بلادهم ﴿حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ﴾ أي طين متحجر ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أي معلمةً معينة ﴿عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ﴾ أي للمجرمين المتجاوزين عن الحدود مطلقاً، أو لهم بالذات على كون اللام للعهد ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا﴾ فيقول الباري فأخرجنا من كان فيها أي قرى قوم لوط ﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ من الذين آمنوا بلوط ﴿فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ والمراد بهذا البيت بيت لوط عليه السلام وابنتيه ﴿وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ أي فقلبنا القرى كلها وأمطرنا عليها من تلك الحجارة، وتركنا في ذلك المكان آية وعلامة على العذاب الوارد عليهم للذين يؤمنون بالله ويخافون العذاب الأليم الوارد منه تعالى.

﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي وفي موسى آية ﴿إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي بمعجزات غالبة على ما يقابله مادة أو معنى ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ فرعون ﴿بِرُكْنِهِۦ﴾ أي أعرض بما عنده من قوة اعتبرها ركناً لكيانه ﴿وَقَالَ﴾ لقومه في رد ما أظهره موسى ﷺ من المعجزات: إنه ﴿سَٰحِرٌ﴾ أي عاقل لكنه عالم بالسحر وقلب عصاه حية، ويده مضيئة، وغيرها ما أظهره بواسطة ذلك، وليس لها بقاء تأتي وتذهب ﴿أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أي يظهر ما يظهر عنده من الجن والشياطين المستولين على عقله وشعوره. والحاصل أن ما عنده مطلقاً سحر يأتي به شخصه وهو عاقل، أو يأتي به قرناؤه الشياطين وهو لا اختيار له فيه ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾ أي فأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي ليلاً وألقيت في روع فرعون جمع جنوده فجمعهم وعقب موسى ومن معه ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ وأغرقناهم ﴿وَهُوَ﴾ أي فرعون ﴿مُلِيمٌ﴾؛ أي آت بما يلام عليه من الكفر والطغيان والاستمرار فيهما. أو صيغة مليم من صيغ النسب كلابن وتامر، أي هو ذو لوم يُلام، فافهم.

﴿وَفِى عَادٍ﴾ آية أخرى ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ التي لا تأتي بخير ولا تلقح شيئاً ﴿مَا تَذَرُ﴾ أي ما تترك من شيء ﴿أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ أي الشيء البالي من العظم أو النبات.

﴿وَفِى ثَمُودَ﴾ آية أخرى ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي قيل لهم من طرف صالح ﷺ إذ أوحى إليه بقرب العذاب تمتعوا في داركم ثلاثة أيام، والظاهر أن القول كان سابقاً على ذلك، فقال لهم صالح: إن الله بعثني إليكم بشيراً ونذيراً فآمنوا بالله ورسوله، وتمتعوا في دياركم آمنين متمتعين حتى حين تأتيكم الآجال المقررة، فطلبوا منه المعجزة ناقة كذا وكذا، فمضت مدة على القوم مع صالح والناقة موجودة ﴿فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ فعقروها وأتى أمر الله فأهلك القوم ودمر البلاد

كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٤٤ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ﴾ من أماكنهم، أو ما استطاعوا قياماً على دفع ورفع وحركة وسكون ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ﴾ بل صارو مقهورين منكسرين.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي واذكر قوم نوح، أو وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء الهالكين ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ خارجين عن إطاعة رب العالمين.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ۝٤٨ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥١ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٥٣ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ۝٥٤ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ۝٥٩ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٦٠﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا﴾ شروع في تذكير الكافرين المشركين ببيان أن ما اختص به تعالى من خلق الكائنات العظيمة لا يقدر عليه غيره، والكلام من باب الاشتغال، أي وبنينا السماء بنيناها ﴿بِأَيْي۟دٍ﴾ أي بقوة، والأيد والآد ثلاثيان أجوفان بمعنى القوة لا جمع يد، لأنها لفيف مفروق، والأصل يَدَي وهذان معتلا العين ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي لقادرون من الوسع بمعنى الطاقة ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا﴾ أي وفرشنا الأرض فرشناها أي مهدناها وبسطناها، ولا تمنع كرويتها عن البسط، كما لا تمنع عن وجود الجبال العاليات، لأن الكرة الكبيرة كل قطعة منها كسطح، والجبال بالنسبة إليها كشعرات تنبت على رأس الإنسان المعتدل أول يوم من حلقها ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ أي الفارشون نحن ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي من كل نوع من الحيوان ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أي مزاوجين أحدهما ذكر والآخر أنثى لحفظه ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فتعلموا أن الله قادر لا يعجزه شيء. ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وتوجهوا إلى باب طاعته والعمل بشريعته ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي مفيد لبيان الحق وعذاب من خالفه.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِۦ﴾ أي أأوصى بعضهم بعضاً بهذا القول ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ فيؤثر مجاورة بعضهم لبعض في تنمية هذا الطغيان ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ وأعرض بعد أن صرفت قواك في إرشادهم وما أفاد ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ منا على الإعراض عنهم ﴿وَذَكِّرْ﴾ من تظن النفع في تذكيره ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فإن محصول المأمول عبادتهم لربهم ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي ما خلقتهم إلا لمحبة أن يعبدون، فإن الكامل المطلق غني مطلق عن جميع ما سواه ومن سواه، فليس الخلق للافتقار إلى العبادة ولا لإرادتها منهم لأنه لو شاءها منهم لكانت. فمن المشهور: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولم يكن الخلق لتلك الغاية حتى يصير الخلق عبثاً غير مثمر لها، وإنما خلقهما لمحبة العبادة، فإن صاحب الكبرياء المطلقة تناسبه العبودية والتذلل المطلق؛ فمن أتى بما أحبه الله آتاه من فضله ما أحبه في دنياه وأخراه، وليس الباري مريداً لآثار أعمال مادية تعود إليه، فإنه يقول: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ لي ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾.

ولما كانت العبادة موقوفة على المعرفة أوجب الله على عباده العلم والمعرفة، ورغب فيها وأمر حبيبه ﷺ بالعلم فقال: فاعلم أنه لا إله إلا الله، لأن العلم أساس العمل وهما ثمرة شجرة الوجود، وهذا مناسب للمشهور بين الناس من الحديث القدسي «**كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لكي أعرف**» فلام ليعبدون داخلة على المحبوب في المنتهى، ولام ليعرفون على المحبوب في المبتدأ، ولما كان المحبوب المعرفة والعلم للعبادة فلا تحزن بمن ظلم نفسه ولم يأت بما يناسب قدسه ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا﴾ أي نصيباً من العذاب ﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾ أي أمثالهم من الأمم السالفة المخالفة للدين ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ حلول ذلك ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ أعاذنا الله تعالى منه.

❀ ❀ ❀

سورة الطور

مكية، وهي تسع وأربعون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۝٣ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ۝٤
وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ
۝٨ يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ۝١٠ فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ
۝١١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ ۝١٢ يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ
ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ۝١٥ ٱصۡلَوۡهَا
فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝١٦﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ﴾ وهو في اللغة اسم لكل جبل. والمراد به هنا طور سينين الذي كلم الله تعالى موسى عليه السلام عنده. ويقال له طور سيناء ﴿وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ﴾ فسر بكتاب الأعمال، وباللوح المحفوظ، وبالتوراة والإنجيل، وبالقرآن المنزل على سيدنا محمد ﷺ. والكل هنا محتمل لكن يؤيد إرادة القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ﴾ والرق جلد رقيق يكتب، وقد كتب القرآن الكريم في الجلد في زمن أبي بكر رضي الله عنه حين جمع القرآن. وفي زمن عثمان رضي الله عنه في الجمع الثاني. ﴿وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ﴾ يحتمل أن يكون المراد بيت المعمور الذي في السماء السابعة يجتمع فيه من الملائكة ما لا يعلمه العليم الخبير أو بيت المقدس. ويحتمل أن يراد به أي مسجد يذكر فيه الله تعالى أو أي بيت من بيوت المسلمين يعمر بذكر الله فإن الله يحب الذكر ومجالسه سواء كانت المساجد الثلاثة أو غيرها ﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ﴾ أي السماء كما رواه جماعة وصححه الحاكم عن علي ـ كرم الله وجهه ـ ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾ أي الممتلىء أو المُدفأ بالفوران، فالبحر المسجور عبارة عن المحيط الفائر عند زلزلة الساعة. وهذه الأشياء مقسوم بها والمقسوم عليه قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ

رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۞ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ أي أن عذاب الله الوارد في الآيات الكثيرة بالنسبة إلى المستحقين للعذاب في الآخرة لواقع لا شك ولا شبهة فيه، وإن الدين أي جزاء الأعمال من الأمور التي قضى الله تعالى به وسيتحقق و﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ يعارضه ويدفعه لأنه جرت المشيئة وما شاء الله كان ويقع.

﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾ أي تضطرب اضطراباً أي ترتج وتشقق ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ عن وجه الأرض بعد انقلاعها عن أمكنتها فتصير هباء ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالبعث والنشور وجزاء الأعمال ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ﴾ أي في اندفاع زائد في الهوى ﴿يَلْعَبُونَ﴾ ويطربون ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ﴾ أي يدفعون دفعاً شديداً ﴿إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ أي دفعاً، ويقال لهم: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ وتدعون أنها لا تأتي أبدَ الآبدين ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾ الذي ترونه أيضاً كالقرآن الذي كان يخبر به ﴿أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ أم أنتم عُمْيٌ عن المخبر كما كنتم في الدنيا ﴿ٱصْلَوْهَا﴾ أي أدخلوها ﴿فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ هذان الأمران ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ۞١٧ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۞١٨ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۞١٩ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۞٢٠ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ۞٢١ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۞٢٢ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ۞٢٣ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ۞٢٤ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۞٢٥ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۞٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۞٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ۞٢٨ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۞٢٩﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ شروع في بيان حال المؤمنين بعد ذكر حال الكافرين فيقول: إن المتقين الذين احترزوا عن موجبات سخطه تعالى واكتسبوا أسباب مرضاته فهم ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ عظيمة ﴿وَنَعِيمٍ﴾ عميم ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ﴾ أي متنعمين ومتلذذين بما آتاهم ﴿رَبُّهُمْ﴾ من المشتهيات والمستلذات ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ العذاب الذي كانوا يستحقونه على تقدير تبديل التقوى بالفسوق، فإن لكل إنسان منزلين؛

منزلاً في الجنة، ومنزلاً في النار، فإذا دخل الجنة قيل له: وقاك الله من منزلك في النار، وإذا دخل النار قيل له: لو اتقيت الله لوصلت إلى ذلك المنزل المبارك الميمون في الجنة. فيقال لهم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾ أي كلوا أطعمة الجنة واشربوا مشروباتها من اللبن والعسل والماء الصافي الغير المتغير أكلاً وشرباً هنيئاً ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا. هذا من باب الأكل والشرب وأما من باب المسكن والمقام فأفاده بهذا الوصف الواقع من ضمير الجمع السابق أعني ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ وأما الأليف فأفاده بقوله الكريم ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي وقرناهم بحور عين ولذلك عدى بالباء، وإلا فالتزويج متعد إلى مفعولين بالذات.

ولما ذكر حال المتقين في أنفسهم ذكر أحوالهم بالنسبة إلى أولادهم وقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ﴾ قاصر عن درجة إيمان الآباء ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ في الدرجة إكراماً لآبائهم. أخرج سعيد بن منصور، وهناد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال: إن الله تعالى ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة وإن كانوا دونه في العمل لتقرّ بهم عينه. ثم قرأ الآية. وفي رواية ابن مردويه والطبراني عنه أنه قال: إن النبي ﷺ قال: «**إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده، فيقال له: إنهم لم يبلغوا درجتك وعملك، فيقول يا ربي قد عملت لي ولهم فيؤمر بإلحاقهم به**» وقرأ ابن عباس الآية ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم﴾ أي وما نقصنا الآباء بهذا الإلحاق ﴿مِّنْ عَمَلِهِم﴾ أي من ثواب عملهم ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ أي شيئاً بأن أعطينا بعض مثوباتهم أبناءهم فتنقص مثوباتهم وتنحط درجتهم، وإنما رفعناهم إلى منزلتهم بمحض الفضل والإحسان. وقوله تعالى: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ قال الواحدي: هذا عود إلى ذكر أهل النار فإنهم مرتهنون في النار، وأما المؤمن فلا يكون مرتهناً قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ وهو قول مجاهد وقال الزمخشري: كل امرىء بما كسب رهين عام، فكل أحد مرهون عند الله بالكسب، فإن كسب خيراً فكّ رقبته وإلا أوبق بالرهن.

والذي أعتقده أن المقصود من جملة كل امرىء بما كسب رهين أن الإنسان كائناً من كان مربوط بعمله لا بعمل شخص آخر، وهذا الإلحاق ليس من باب المكسوبات بل من باب الموهوبات، فيكون جملة كل امرىء بما كسب رهين في

معنى الغاية لما تقدم، يعني أنه وإن كان الإنسان مرهوناً بكسبه لكنا ننظر إلى الأبناء بغير النظر، فإن كانوا مؤمنين ألحقناهم برباط الآباء.

﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي وزدناهم بما كان من مبادىء النعم وقتاً فوقتاً مما يشتهون ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ أي يتجاذبونها في الجنة هم وجلساؤهم تجاذب ملاعبة ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا﴾ أي في شربها ﴿وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ أي ولا يفعلون ما يؤثم به فاعله ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ﴾ لهم أي مماليك مختصون بهم ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ أي مستور في كن مصون عن الأيدي يعني لم يتوسخ صفاؤه بمس أيدي الجفاء ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ بينهم يسأل بعضهم بعضاً على وجه التحدث بالنعمة وإظهار السرور والشكر عليه ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ﴾ أي قبل الموت ﴿فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أي خائفين من العاقبة لزوال العافية ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالرحمة والإحسان ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ أي عذاب النار الداخل في مسام الشعرات ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ نعبده ونسأله العافية في هذا اليوم ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي المحسن الكثير الرحمة. وهذا الذي أوحيناه إليك حال الفريقين وبينهما بعدٌ لا يناسب بُعدَ المشرقين ﴿فَذَكِّرْ﴾ المؤمنين برحمة الله وعذابه وبعقابه وثوابه، ولا تهتم بنعرات السفهاء وأكاذيبهم ﴿فَمَآ أَنتَ بِـ﴾ سبب وصول ﴿نِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ إليك وإلقاء أعباء الرسالة عليك ﴿بِكَاهِنٍ﴾ بائن عن الحق والحقيقة وآخِذٍ مع الشياطين أسْوَأَ طريقةٍ ﴿وَلَا﴾ بشخص مختل العقل ﴿مَجْنُونٍ﴾ فإنك معصوم بعون الله ومصون ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ
ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا
يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ
هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ
خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ
مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾
أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ
لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ

سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ أم منقطعة أي بل أيقولون هذا الرجل شاعر وليس برسول من الله، ونتوقف وننتظر عروض نوائب الدهر عليه حتى يتوفى، والريب القلق والعارض الذي يقلق الإنسان، والمنون: قد يراد به الدهر، وقد يراد به الموت. والمآل هو أنهم ينتظرون انقراض عهده وفوات رسالته، ولم يعلموا أنه رسول الله المؤيد وكتابه كلام الله، ولا مناسبة بينه وبين الشعر الذي مخلوط من أشكال من المشتهيات، والمبالغات، والأكاذيب المفتعلة، وهذا الكتاب الذي يمنع الإنسان عن كل ذلك ويوجهه إلى الله الحي القيوم.

﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أي انتظروا كما تريدون فإني من المنتظرين أتربص هلاككم كما تتربصون هلاكي ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا﴾ أي أتأمرهم عقولهم الزائفة بهذا التناقض والتخالف من الكلام؟ فمرة يقولون هو كاهن وما يقوله كهانة، ومرة يقولون هو ساحر وكلامه سحر، ومرة أخرى يقولون هو شاعر وكلامه شعر، ولا ينظرون إلى اختلاف أصناف الناس المختلفة الآداب من الكهنة والسحرة والشعراء ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾؟ متجاوزون في الحدود فيتكلمون بما يشتهون، ولا ينظرون إلى الحق ولا ينتبهون ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾ أي هذا الكتاب كلام افتراه على الله تعالى ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ بالحق فاختلت عقولهم واحتاروا ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ أي مثل القرآن ﴿إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ فيما زعموا أنه كلام متقول فإنه لو كان كذلك لكان في استطاعتهم أن يتقولوا أيضاً كلاماً كذلك.

﴿أَمْ خُلِقُوا﴾ وتكونوا في الدنيا ﴿مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾؟ أي من غير خالق مؤثر ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾؟ لأنفسهم وكل ذينك باطل فإن الأثر لا يكون بدون مؤثر، والمؤثر لا يكون شخصاً قادراً على الإبداع والتكوين، فإذا آل الأمر إلى الاعتراف بأن لهم خالقاً موصوفاً بالكمال فكيف لا يطيعونه ولا ينقادون لدينه وشرعه؟ ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾؟ بما فيها ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ أي لا يوقنون حقيقة الجواب، لأنهم إذا قالوا الله الذي خلق السماوات والأرض وخلق ما فيهما وما عليهما من المعادن

والنبات والحيوان وعلموا بحقيقة جوابهم ما كانوا ينحرفون عن الحق والصواب.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾؟ حتى تكون النبوة والرسالة عندهم يعطون من يشاؤون ويمنعون عما يشاؤون ﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾؟ على الأمور حتى يأمروا بما يشاؤون ويمنعوا ما يشاؤون عن الناس، كل ذلك لا توجد عندهم وإنما هم أناس ضعفاء تحت قبضة القدرة، فإذا شاء توفاهم في طرفة عين لكنه أمهلهم فصار لهم طغيان وتحكم على ما ليس من شأنهم واستطاعتهم ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾ يصعدون عليه إلى السماء فـ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾؟ كلام الملائكة أو غيرهم ممن يوثق بكلامه ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ على أنه استمع شيئاً يعتمد عليه ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾؟ وحاشا خلاق العالم واجب الوجود عن التناسب مع الممكن الموجود.

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾ على تبليغ الدين إليهم ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ أي فهم مثقلون ذمة وأكتافاً ولا يتحملون تلك الغرامة ولذلك تنفروا عنك وعن قبول دينك ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ أي المقدر المكتوب في اللوح المحفوظ الذي هو غيب وغائب عن الناس ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ منه ويخبرون به الناس ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾؟ بك وبشرعك حتى تموت ولا تروج شريعتك ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ يعني أنهم سفهاء خفاف العقول يتصورون أنهم الكائدون على الرسول ودينه ويعارضونهما ولا يعرفون أنهم المكيدون المغلوبون ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا﴾ أي وإن يروا قطعة من السحاب ساقطة لتعذيبهم ﴿يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ أي متراكم ملقى بعضه على بعض ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ أي حتى يلاقوا ذلك اليوم الذي يغمى عليهم من صيحة النفخ ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ من جهة الغير إذ لا غير يريد بهم الخير.

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ العذاب من الجدب والقحط والغلاء ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن أمامهم أشياء لا يعرفونها ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بإمهالهم فإنه لا يجتمع مع الإهمال ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ وتحت نظر عصمتنا وصيانتنا وعنايتنا ورعايتنا ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ من كل مجلس، وقل: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك. أو قل عندما تقوم إلى الصلاة ودخلت فيها: سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك. أو عندما تقوم من القيلولة صل صلاة الظهر ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ وفي بعض أوقات الليل

سبح واحمد ربك، أو صل الصلاة المكتوبة للوفاء بالواجب يعني صلاة المغرب وصلاة العشاء ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ أي وسبح بحمد ربك عند إدبار النجوم وميلها إلى الغروب والغياب. أو صل ركعتي الفجر عند ذلك. وفسره بعض بصلاة النوافل بالليل. والله نسأل أن يجعلنا في الدنيا من المسبحين، وفي الآخرة من المستريحين.

❀ ❀ ❀

سورة النجم

مكية، وهي اثنتان وستون آية
نزلت بعد سورة الإخلاص

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ
۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ
بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ
مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً
أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ
۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾.

قوله: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ أقسم الباري سبحانه وتعالى بالنجم، والمراد به جنس النجم المعروف، وبهويه غروبه. أي إذا سقط إلى الأفق الغربي وقال الحسن المراد بالنجوم إذا انتثرت في الفضاء في القيامة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المراد به النجوم إذا رجمت الشياطين. وقيل المراد به: الثريا، فإن النجم صار علماً بالغلبة لها، وقيل: هو الشعرى المرادة، بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ۝٤٩﴾ والكهان، كانوا يتكلمون عن المغيبات عند طلوعها، وقيل: الزهرة وكانت تعبد، وقيل المراد: المقدار النازل من القرآن، والهوى نزوله. وعلى كل حال فالمقسم عليه قوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ أي أنه ما تجاوز عن طريق الحق الذي هو الدعوة إلى الله والميل إلى الآخرة وما اعتقد باطلاً قط، فإن الغي هو الجهل بالواقع باعتقاد فاسد.

﴿وَمَا يَنطِقُ﴾ أي صاحبكم الذي هو الرسول ﷺ ﴿عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ أي نطقاً ناشئاً

عن هوى النفس بدون الإيحاء من جانب القدس، والمراد أنه ما يصدر نطقه فيما آتاكم به من جهته عز وجل كالقرآن عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ أي ما الذي ينطق به من القرآن إلا وحي من الله عزَّ وجلَّ يوحى إليه بوحي منه تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥﴾ أي الذات الذي شديدة قواه، ودليل قوته أنه قلع قرى قوم لوط من الأساس ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي ذو حصافة ومتانة في العقل ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ أي فاستقام على صورته الحقيقية التي خلقها الله عليه ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ أي الجهة العلياء من السماء ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾ أي قرب جبريل عليه السلام منه ﷺ فتعلق جبريل في الهواء ﴿فَكَانَ﴾ أي جبريل عليه السلام منه ﷺ ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أي مقدار قوسين من قسي الأعراب أو أقل وأصله أنه إذا تحالف رئيسان من العرب قعداً ووضعاً قوسهما بينهما مربوطاً رأس قوس هذا برأس قوس ذاك، فإذا تم الحلف رمى كل منهما بسهم عن قوسه، وكان ذلك شعار الناس في عقد الأحلاف. والآية كناية عن كمال القرب والاتصال بين الرسول ﷺ وجبريل عليه السلام.

وقوله: ﴿فَأَوْحَىٰ﴾ أي جبريل عليه السلام ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِ﴾ أي عبد الله ورسوله ﴿مَا أَوْحَىٰ﴾ وإبهام الموحى به للتفخيم، وقوله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١﴾ أي ما كذب فؤاد محمد ﷺ ما رآه ببصره من صورة جبريل عليه السلام، والمقصود أن قلبه كان على وعي ورعاية، وبصره على رؤية واقعية ودراية، وتوافق على ذلك وكان المدرك والمبصر واحداً ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢﴾؟ أي أتجادلونه ﷺ على ما رآه وبقيت صورة المرئي عنده لانطباعها الثابت في حسه اللطيف، أو أتجادلونه على ما يرى من مثل ذلك؟.

﴿وَلَقَدْ رَآهُ﴾ أي رأى الرسول ﷺ جبريل ﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ أي مرة أخرى من النزول ﴿عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ۝١٤﴾ أي عند شجرة النبق عن يمين العرش فوق السماء السابعة ﴿عِندَهَا﴾ أي عند السدرة ﴿جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ التي يأوي إليها المتقون يوم القيامة كما روي عن الحسن، واستدل به على أن الجنة فوق السماء السابعة، وقال بعض كابن عباس رضي الله عنهما، وقتادة: جنة المأوى تأوي إليها أرواح الشهداء، وليست بالتي وعد المتقون، وقيل: هي جنة تأوي إليها الملائكة، والقول الأول أظهر. وكلمة المأوى تُعَبِّرُ عن أنها مأوى أهل الجنة ولو لطبقة خاصة، فهم كما يظهر من قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ وقوله: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦﴾ متعلق برآه، والمعنى إذ يغشى السدرة من الملائكة ما

يغشى ورأى الرسول ﷺ ما رآه هناك من جبريل ومن عجائب مخلوقات الله تعالى، ومع ذلك كله ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ أي ما مال بصر رسول الله عما رآه ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ أي وما تجاوزه بل أثبته إثباتاً سليماً مستيقناً، وهذا تأكيد للأمر الجاري من فيض ذات الباري جل جلاله ويفيد أن ذاته العالية الثابتة لم يعجبه ما رآه لامتلائه بنور الحقيقة التي فوق المستوى. ﴿لَقَدْ رَأَىٰ﴾ والله لقد رأى الرسول ﷺ ﴿مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ أي الآيات الكبريات التي لا يراها إلا من خصه الله برحمته.

وهذا التفسير إلى هنا كان مبنياً على أن الكلام في رؤية الرسول ﷺ لجبريل عليه السلام. والذي رآه المحققون المحقون المنصفون الناظرون إلى سردِ العبارة، وانتظام الضمائر، وتقرير معنى الايحاء على الوجه المناسب، هو ما قاله الحسن البصري رضي الله عنه، وتبعه أناس كثيرون، ونقله صاحبا روح البيان وروح المعاني من أن الكلام جار على ما جرى بين الله ورسوله ﷺ، فعن الحسن: أن شديد القوى هو الله تعالى، وجمعِ القوى للتعظيم، وذو مرة بمعنى ذي الحكمة وما يليق أن يكون وصفاً لله عزَّ وجلَّ. وجعل أبو حيان الضميرين في قوله تعالى فاستوى وهو بالأفق الأعلى على ما روي عن الحسن له سبحانه وتعالى وقال: إن ذلك على معنى العظمة والقدرة والسلطان. ولعل الحسن يجعل الضمائر في قوله سبحانه ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ له عزَّ وجلَّ أيضاً. وكذا الضمير المنصوب في قوله ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾، فقد كان عليه الرحمة يحلف بالله تعالى لقد رأى محمد ﷺ ربه، وفسر دنوه تعالى من النبيّ ﷺ برفع مكانته ﷺ عنده وتدليه بجذبه بكليته إلى جانب القدس. وهذا المعنى هو الذي يطمئن إليه قلبي وأعتقد أن هذه الآيات تنطبق على حادثة المعراج الشريف. ورؤية ذات الباري في عالم الآخرة ثابتة على ما اعتقده أهل الحق من المتكلمين، فتكون من الممكنات الخاصة والماهية الممكنة لا تنقلب إلى الممتنع فيمكن أيضاً أن يرى في الدنيا. وظاهر قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ يدل عليها، ولا ضرورة إلى التأويل، وأما كيفية رؤيته له تعالى فموكول إلى علم الله الجليل. وهذا هو الذي يفيده سرد ظاهر الآيات الشريفة والله أعلم.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ

أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن
رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ
فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن
يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا
وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن
سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ
أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ
وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ
أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ أسماء أصنام للمشركين. فاللآت، كما قال قتادة، لثقيف بالطائف. والعزى لغطفان، وهي على المشهور سمرة بنخلة، روي ابن مردويه عن أبي الطفيل: لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة وكان بها العُزى، فأتاها خالد، وكانت ثلاث سمرات، فقطع السمرات، وهدم البيت الذي كان عليها، ثم أتى النبيّ ﷺ فأخبره، فقال: «**ارجع فإنك لم تصنع شيئاً**» فرجع خالد، فلما أبصرته السدنة مضوا وهم يقولون: يا عزى يا عزى، فأتاها فإذا امرأة عريانة، ناشرة شعرها، تحثو التراب على رأسها، فجعل يضربها بالسيف حتى قتلها، ثم رجع إلى رسول الله فأخبره، فقال ﷺ: «**تلك العزى**»، ومناة قيل: كانت صخرة لهذيل وخزاعة. وعن ابن عباس لثقيف، وعن قتادة للأنصار بقديد. وقال أبو عبيدة كانت بالكعبة، واستظهر أبو حيان أنها كانت ثلاثتها فيها، قال: لأن المخاطب في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾ قريش، والأخرى صفة ذم كأنه قال سبحانه وتعالى ومناة الثالثة الذليلة. وذلك لأن اللات على صورة آدمي، والعزى صورة نبات، ومناة صورة صخرة فالآدمي أشرف من النبات، والنبات أشرف من الجماد، فالجماد متأخر، ومناة جماد فهي في أخريات المراتب.

﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾؟ مع أنكم في مستوى الحيوانات من الإدراك وتعبدون الشجر والحجر والنبات ﴿تِلْكَ﴾ القسمة التي أقررتموها ﴿إِذًا﴾ وأنتم في

ذلك المستوى ﴿قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ جائرة غير عادلة، حيث اعتبرتم له سبحانه ما تستنكفون عنه. وضيزى بكسر الضاد صفة مشبهة من ضاز يضيز إذا جار وظلم. وأصله ضُيْزى بضم الضاد لأن الوصف لم يستعمل إلا بالضم، فكسرنا الضاد حتى تسلم الياء، وإلا كانت تقلب واواً لسكونها وضم ما قبلها فالتبست بالواوي. ويجوز أن تكون الكسرة أصلية على أنها مصدر كذكرى، ولكن نحتاج إلى تقدير المضاف يعني قسمة ذات ضيزى أي ذات جور. ﴿إِنْ هِيَ﴾ أي ما هي ﴿إِلَّآ أَسْمَآءٌ﴾ وألفاظ تستعمل في مقابل جمادات ليس فيها معنى الشعور والعقل فضلاً عن معنى الألوهية ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ صفة الأسماء وضميرها لها لا للأصنام. والمعنى جعلتموها أسماء، فان التسمية نسبة بين الاسم والمسمى فإذا قيست إلى الاسم فمعناها جعلها اسماً للمسمى، وإذا قيست إلى المسمى فمعناها جعلها مسمى للاسم، وإنما اختير ههنا المعنى الأول من غير تعرض للمسمى لتحقيق أن تلك الأصنام التي يسمونها آلهة أسماء مجردة ليس لها مسميات قطعاً كما في قوله سبحانه ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً﴾ وقوله: ﴿أَنتُمْ﴾ تأكيد لضمير الجمع المرفوع ﴿وَءَابَآؤُكُم﴾ معطوف عليه بعد التأكيد ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ أي بتلك الأسماء ﴿مِن سُلْطَٰنٍۚ﴾ أي برهان يستدلون به ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ أي أولئك المشركون الواضعون لتلك الأسماء ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي إلا توهماً بأن ما هم عليه حق توهماً باطلاً ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ﴾ عطف على الظن أي وما يتبعون إلا ما تهوى الأنفس الأمارة بالسوء ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي الدليل الحق على أن ما جاؤوا به واتبعوه باطل عاطل.

﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ أي أبل للإنسان ما تمنى واشتهى من وجود آلهة مزيفة تقربهم إلى الله الحق زلفى ويطمعون فيهم خير الدنيا والشفاعة في الآخرة؟ وبديهي أن الجواب هو النفي الصرف ﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ أي أن لله الآخرة والأولى ولا نصيب للأصنام فيهما ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ من الإغناء ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يشفعوا له ﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾ ويراه الباري أهلاً للشفاعة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ فإنهم كانوا يقولون أن الملائكة بنات الله سبحانه ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍۖ﴾ أي والحال أنه لا علم لهم أصلاً بما يقولون ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ في تلك التسمية ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّۖ﴾ أي التوهم الباطل ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ من الإغناء فهم جمع متولون عن ذكرنا ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن

ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ ولذتها بأي وجه يمكن الوصول إليها ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي أمر الحياة الدنيا مبلغهم ومنتهى ما وصل إليه علمهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي الصراط المستقيم ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ أي ليجزي الضالين المسيئين بجزاء ما عملوا وهو العقاب وعذاب النار ﴿وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ أي بالمثوبة الحسنى وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ﴾ بدل من الموصول في قوله ليجزي الذين أحسنوا بالحسنى، أي ليجزي الذين أحسنوا ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ مما يشعر بقلة اكتراث صاحبه بالدين ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ وهو ما عظم قبحه من الكبائر لتعلقها بهتك الأعراض وقوله: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ أي الصغائر استثناء من الكبائر استثناء منقطعاً ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ أي لهم ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ إنشاء إجمالياً ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ على الأطوار المختلفة المذكورة ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ ولا تثنوا على أنفسكم بالنظافة والطهارة عن الأوساخ والآثام ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ المعاصي وتركها.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ (٣٣) وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ (٣٤) أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ (٤١) وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ (٤٢) وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ (٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ (٤٦) وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ (٤٧) وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ (٤٨) وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ (٤٩) وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ (٥٠) وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ (٥٢) وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ (٥٤) فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ (٥٥) هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ (٥٦) أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ (٦١) فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ (٦٢)﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ (٣٣)﴾ أي الرجل الذي تولى وأعرض عن قبول الإسلام ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ (٣٤)﴾ أي وأعطى شيئاً قليلاً من المال ثم قطع

العطاء. نزلت في الوليد بن المغيرة كان قد سمع قراءة رسول الله ﷺ وجلس إليه ووعظه. فقرب من الإسلام، وطمع فيه رسول الله ﷺ، ثم أنه عاتبه رجل من المشركين وقال له: أتترك ملة آبائك؟ ارجع إلى دينك واثبت عليه، وأنا أتحمل عنك كل شيء تخافه في الآخرة، لكن على أن تعطيني كذا وكذا من المال! فوافقه الوليد على ذلك، ورجع عما هو به من الإسلام وضل ضلالاً بعيداً، وأعطى بعض المال لذلك الرجل ثم أمسك عنه وشح ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾؟ أن صاحبه يتحمل عنه يوم القيامة ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾؟ أي وفى بما التزمه من أوامر الله تعالى، أو بالغ في الوفاء بما عاهد عليه ربه سبحانه وتعالى.

قال ابن عباس وفى بسهام الإسلام كلها ولم يوف بها أحد غيره. وهي ثلاثون سهماً، منها عشرة في براءة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم...﴾ الآيات. وعشرة في الأحزاب ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ...﴾ [الأحزاب: ٣٥] الآيات وست في ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾، وأربع في ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ﴾ والذين يصدقون بيوم الدين والأولى اعتبار العموم فيما وفى به، ومن أهمها مقابلة نمرود، وقبول إلقائه في النار، والوفاء بما رأى في رؤياه، وتركه إسماعيل وأمه في الحجاز عند بيت الله الحرام. ومن جملة ما في صحف موسى وإبراهيم عليهما السلام، ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾ أي ولا تحمل نفس من شأنها الحمل حمل نفس أخرى ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ أي ليس له بطريق الاستحقاق إلا جزاء سعيه وكسبه. ما يعتبر كسباً له من الأمور وهي: صدقة جارية، وعلم علمه الناس وانتفعوا به، وولد صالح يدعو له. وأما ما عدا ذلك فيصله الأجر بطريق الفضل. فللّه سبحانه في هذا الموضوع بابان: باب الإستحقاق والعدل، وباب الإحسان والفضل.

وقال بعض الأجلّة من المحققين: أنه ورد في الكتاب والسنّة، ما هو قطعي في حصول الانتفاع بعمل الغير وهو ينافي ظاهرَ الآية مع قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١]، فتقيد بما لا يهبه العامل لذلك الإنسان. وسأل والي خراسان عبد الله بن طاهر الحسين بن الفضل عن هذه الآية مع قوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١] فقال: ليس له بالعدل إلا ما سعى، وله بالفضل ما شاء الله تعالى، فقبّل عبد الله رأس الحسين.

وفي الأذكار للنووي ـ عليه الرحمة ـ: المشهور من مذهب الشافعي رضي الله عنه

وجماعة أنها لا تصل (أي ثواب العبادات البدنية المحضة كالصلاة والتلاوة بل غيرها كالصدقة والحج) وذهب أحمد بن حنبل وجماعة من العلماء ومن أصحاب الشافعي إلى أنها تصل، فالاختيار أن يقول القارىء بعد فراغه: اللهمّ أوصل ثواب ما قرأته إلى فلان. والظاهر أنه إذا قال ذلك ونحوه كوهبت ثواب ما قرأته لفلان بقلبه كفى، وعن بعضهم اشتراط نية النيابة أول القراءة، وفي القلب منه شيء.

وللمسلم أن يقلّد الائمة القائلين بوصول ثواب الأعمال البدنية وغيرها كالصدقة وسائرها، فإن باب الفضل والرحمة واسع جداً. وذكر الشيخ أحمد ابن حجر الهيتمي رحمه الله، في كتاب الإجارة من تحفته بجواز استئجار القارىء لقراءة القرآن للموتى. وفي فتح المعين لتلميذه التلنباري أن الشيخ السبكي قضى الصلوات الفائتة عن بعض أقاربه. وعموم فضله ورحمته، وتواتر الاستغفار للمؤمنين والمؤمنات، والدعاء لهم يدعونا إلى ما درج عليه سلفنا الصالح، وليست أعمالنا لأنفسنا أقرب إلى القبول منها لغيرنا، والله ولي المؤمنين.

ومن قلّد القائلين بعدم وصول ثوابها لغيره لا يجوز له قطعاً منع المقلّد للقائلين بوصولها إليه، فان المقلّد لإمام ليس له حق المنع لمقلّد إمام آخر فليتنبه لهذا والله اعلم.

تنبيه: قد علمت أن حملنا الحصر في قوله تعالى ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ على حصر الأعمال التي توجب الجزاء على أصول العدل، وإلا فباب الفضل لا حصر فيه لأمور منها: قوله ﷺ «**الدال على خير كفاعله**» ومنها قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ ومنها أن الإنسان ينتفع بدعاء غيره وهو انتفاع بعمل الغير. ومنها أنه ثبتت شفاعة الرسول ﷺ لأهل الموقف في الحساب، ثم لأهل الجنة في دخولها، ثم لأهل الكبائر في الخروج من النار. ومنها ما ثبت من أن الملائكة يدعون ويستغفرون لمن في الأرض، ومنها قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ ومنها ما ثبت أن الله يخرج من النار من لم يعمل خيراً قط بمحض رحمته، وهذا انتفاع بغير عملهم. ومنها أن أولاد المؤمنين يدخلون الجنة بحسنات آبائهم ومنها قوله تعالى في قصة اليتيمين ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ ومنها ما ثبت أن الميت ينتفع بالصدقة عنه وبالعتق بنص السنة والإجماع. ومنها أن الحج المفروض يسقط عن الميت بحج وليه عنه بنص السنة. ومنها أن الحج المنذور أو الصوم المنذور يسقط عن

الميت بعمل غيره بنص السنة وهو انتفاع بعمل الغير. ومنها أن المدين قد امتنع ﷺ من الصلاة عليه حتى قضى دينه أبو قتادة، وقضى دين آخر علي بن أبي طالب وانتفع بصلاة النبيّ ﷺ وهو من عمل الغير. ولذلك قال الشيخ تقي الدين أحمد ابن تيمية: من اعتقد أن الإنسان لا ينتفع إلا بعمله فقد خرج عن الإجماع. هذا ونسأل الله التوفيق على الاعتدال في العقائد والأقوال والأعمال، وهو حسبي ونعم الوكيل.

﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ أي يكشف له يوم القيامة في صحيفته وميزانه ويوزن له ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ الضمير المرفوع عائد إلى الإنسان، والمنصوب عائد على السعي والجزاء الأوفى مصدر مبين للنوع ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ أي أن انتهاء الخلق ورجوعهم إليه تعالى لا إلى غيره استقلالاً ولا اشتراكاً، والمراد بذلك رجوعهم إليه سبحانه يوم القيامة حين يحشرون ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ أي يخلق ما يضحك الإنسان أو يبكيه لأن الضحك من التعجب وهو إدراك أمور غريبة لا يعرف أسبابها، والبكاء من الحزن، ومنشأ كل ذلك بخلق الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾﴾ أي خلق الموت والحياة ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ من كل نوع من أنواع الحيوانات وكذلك من النبات، وخلق الذكران والإناث ﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ أي تقطع من محله الأصلي وتدفق في الرحم. ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ أي الإنشاء والإحياء الأخير بعد النشأة الأولى.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾ أي يغني الإنسان بإعطاء ما يحتاج إليه لضرورة حياته ويعطيه ما يقتنيه ويدخره لمستقبله مما يبقى ويدوم ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ وهي كوكب جنوبي عبدتها حمير وخزاعة، ومن العرب من كان يعظمها ويعتقد تأثيرها في العالم ولما كان اعتقادهم بذلك فاسداً رد عليهم سبحانه وتعالى بأنه مادة من المواد السماوية وكوكب من الكواكب خلقه الله تعالى ورباه وراعاه. ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ أي القدماء لأنهم أولى الأمم إهلاكاً بعد قوم نوح. وأما عاد الأخرى فهي قبيلة كانت بمكة مع العماليق، ولم يكن على قوة الأولى ﴿وَثَمُودَا﴾ أي وأهلك ثمود ﴿فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ منهم أحداً. أو معناه أخذ كلاً منهم بذنوبه ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أي وأهلك قوم نوح ﴿مِّن قَبْلُ﴾ إهلاك عاد وثمود ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ من أضرابهم وكانوا يتفننون في تعذيب الناس ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ وأسقط المؤتفكة بعد قلعها عن الأرض ورفعها ﴿فَغَشَّىٰهَا﴾ أي فغطاها ﴿مَا غَشَّىٰ﴾ ما غطى من المدمرات

والمعذبات ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ﴾ من آلاء ﴿رَبِّكَ﴾ سواء كانت آلاء للكل كنعمة الإرشاد والتربية، أو آلاء لبعض وبلاء لبعض كإهلاك الأمم الظالمة التي هي آلاء للفقراء ﴿تَتَمَارَىٰ﴾؟ تتشكك يعني أن هذه الأمم الطاغية الباغية قد أهلكت فصار إهلاكهم عبرة وعظة لكثير من الناس، وكانت آلاء للمظلومين لخلاصهم عن الظلم، وكلها كانت واقعة وثابتة لا مجال للشك فيها، وحق الكافرين في مكة أن لا يتشككوا فيها ويعتبروا بها، فمادام لا يعتبرون فلا تهتم بهم فإنهم عما قريب يهلكون.

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي أن رسولنا نذير للكافرين من جنس المنذرين الأول القدامى وسنّة الله فيمن عصاه سنّته فيمن سبق من الأمم، ولا تجد لسنة الله تبديلاً ﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ﴾ أي اقتربت الساعة التي هي دوماً أخذت تتقارب لأن كل آت هو على الاستمرار من مزيد الاقتراب ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾ لا كاشف عن حقيقة ما يقع فيها إلا الله، أو لا دافع للعذاب الواقع فيها إلا الله ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ وهو القرآن الكريم المعجز النفيس ﴿تَعْجَبُونَ﴾؟ إنكاراً له ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ استهزاء به وبمن معه لعدم شعوركم بما فيهما من النور وانشراح للصدور ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ على أنفسكم من النار التي ستدخلونها أو لا تبكون على جهلكم وسوء حالكم ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ لاهون لا تتأثرون بما فيه من وجوه العبر والمواعظ. وما دام بقيتم على الغفلة منه إلى الآن ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾ الذي أنزله ﴿وَٱعْبُدُوا۟﴾ لعله يتوب عليكم بالهداية للإيمان. وهذه آية سجدة عند أكثر أهل العلم وقد سجد النبيّ ﷺ عندها، أخرج الشيخان وأبو داود والنسائي وابن مردويه عن ابن مسعود قال: أول سورة أنزلت فيها سجدة ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾ فسجد رسول الله ﷺ وسجد الناس كلهم إلا رجلاً.. الحديث.

❀ ❀ ❀

سورة القمر

مكية وآياتها خمس وخمسون، نزلت بعد الطارق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي قربت جداً ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ أي انفصل بعضه عن بعض. وذلك على عهد رسول الله ﷺ قبل الهجرة بنحو خمس سنين. فقد صح من رواية الشيخين وابن جرير عن أنس أن أهل مكة سألوه ﷺ أن يريهم آيةً فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما. والأحاديث الصحيحة في الانشقاق كثيرة، واختلف في تواتره فقيل هو غير متواتر. وفي شرح المواقف الشريفي أنه متواتر، وهو الذي اختاره العلامة ابن السبكي قال في شرحه لمختصر ابن الحاجب: الصحيح عندي أن انشقاق القمر متواتر منصوص عليه في القرآن، مروي في الصحيحين وغيرهما من طرق شتى بحيث لا يمترى في تواتره، إنتهى باختصار.

وقد جاءت أحاديثه في روايات صحيحة عن جماعة من الصحابة منهم علي كرم الله وجهه، وأنس، وابن مسعود، وحذيفة وجبير بن مطعم، وابن عمر، وغيرهم..

﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً﴾ أي آية دالة على صدق الرسول ﷺ في دعوى رسالته من الله تعالى يعني معجزة من المعجزات ﴿يُعْرِضُوا۟﴾ عن التأمل فيها أو يعرضوا عن جعلها دليلاً على صدقه فيها ﴿وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي مطرد دائم يأتي به محمد على مر

الزمان، وقيل: معنى مستمر أنه يشبه بعضه بعضاً، أي استمرت أفعاله على هذا الوجه من التخييلات ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي وكذب المشركون آية انشقاق القمر الحادث على يد الرسول ﷺ، كما كذبوا سائر آياته واتبعوا في ذلك أهواءهم الفاسدة ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ﴾ أي وكل أمر من الأمور منته إلى غاية يستقر عليها ومن جملة تلك الأمور أمر رسالة محمد ﷺ، ولا بد يستقر ويثبت في الواقع على رغم أنوف الكفار لأنه شاء الله استقراره، وما شاء الله كان ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ﴾ أي والله لقد جاءهم في القرآن ﴿مِنَ الْأَنْبَاءِ﴾ أي أنباء القرى الهالكة بغضب الله تعالى ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ وانقلاع وارتداع عن المشي وراء الأهواء والنفس والشيطان ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ أي وما جاءهم في القرآن الكريم أخبار وأحوال صادقة محكمة غاية الإحكام لا خلل فيها. ولما جاءتهم تلك الحكم القرآنية وما استفادوا منها بل عارضوها شر المعارضة حق عليهم قول ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ جمع نذير بمعنى منذر، أي فما تغني بعد هذه الآيات التي جاءتهم سائر الأمور المنذرة لهم، لأنه طبع على قلوبهم فهم لا يفقهون.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي وما دام لا تغني النذر فتول عنهم أي اترك قتالهم، أو اترك الجدال معهم فإن كان الأول فهو منسوخ بالأمر بالقتال، وإن كان الثاني فالآية محكمة ثابتة. ﴿يَوْمَ﴾ ظرف لقوله الآتي يخرجون أي يوم ﴿يَدْعُ الدَّاعِ﴾ وهو إسرافيل جميع المكلفين ﴿إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ﴾ مستكره على النفوس حال كونهم ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ﴾ حال من فاعل ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أي القبور، أي يخرجون من القبور يوم البعث والنشور خاشعي الأبصار وخافضيها من الخجل في الظهور ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ في الكثرة والتموج والانتشار في الأقطار ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ مسرعين في السير إلى الداعي أو التوجه إليه والانتظار لامره ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ أي صعب شديد، وذلك لما يشاهدونه من مخايل القهر والانتقام..

﴿۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ
أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا
فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا
جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي
وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ شروع في تذكير أحوال بعض من المشركين فقال كذبت قبلهم قوم نوح ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ أي نوحاً ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ﴾ أي لم يكتفوا بالتكذيب وأضافوا إليه رميه بالجنون واختلال العقل وقالوا: ازدجرته الجن وذهبت بلُبِّه واختبطته ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ أي فدعا ربه بأني مغلوب لقلة أعواني فانتقم لي منهم، أو فانتصر لنفسك يا ربي فإنهم كذبوا رسولك ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾﴾ أي منصب، وقيل كثير ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ أي وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون متفجرة ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾ أي ماء السماء بماء الأرض ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي قدرها الله تعالى ﴿وَحَمَلْنَٰهُ﴾ أي نوحاً ومن معه ﴿عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ أي فحملناه ومن معه على سفينة ذات ألواح خشبية ومسامير دقت فيها للربط ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ أي تجري تلك السفينة على سطح الماء المتموج برعايتنا وصيانتنا لها عن أن تنقلب بموجة مائية أو بريح شديدة، وفعلنا ذلك ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أي وأهلكنا الكافرين جزاء لهم ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً﴾ أي وقد أبقينا السفينة وأخشابها على الجودي لتكون آية وعلامة على ما جرى بأمرنا، أو جعلنا تلك الحادثة نفسها آية تكون عبرة للمعتبرين ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾؟ يتذكر ما جرى ليعتبر به ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾؟ أي فانظروا كيف كان عذابي للمنذرين، وكيف كان إنذاري لهم سابقاً؟ أي أنذرتهم إنذاراً شديد اللهجة ولم يسمعوا، ومن أنذر فقد أعذر، أي سلب العذر عن المقابل ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ أي لتلاوته وتذكر معناه والعبرة والاتعاظ ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾؟ متذكر يستفيد منه.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي
يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي
وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾
فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا
بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً
لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟
صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً
فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ عقب بحث قوم نوح بقوم عاد تذكيراً بقدرة الله تعالى على إهلاك قوم كما يشاء وله وسائل عديدة لتدمير أعدائه، وما يعلم جنود ربك الا هو كي يتعظ المتعظون، فيقول: كذبت عاد أي كذبت بعبدي هود ولم يتعظوا ببلاغه ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾ أي وإنذاري، أو ما أنذروا به. ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي إنا عذبناهم بأن أرسلنا عليهم ريحاً شديدة الصوت، شديدة النفوذ في الأسماع، شديدة النضج للبدن ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾ شؤم عليهم ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾ ليالي سبعاً وأياماً ثمانية، أو استمر عليهم الشؤم في البرزخ بعد الهلاك، ويستمر إلى أن يدخلوا جهنم وبئس المصير ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾ أي كأنهم أعجاز نخل منقلع عن مغارسه ساقط على الأرض ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾؟.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾؟ يتذكر ويتعظ ويتبصر.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾﴾ أي بالمنذرين والمنذر بالنسبة إليهم وإن كان واحداً وهو سيدنا صالح، لكن من كذب رسولاً في تبليغ الدين فقد كذب رسلاً كثيرين، لأن المنهج واحد وهو الدعوة إلى الله رب العالمين ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا﴾؟ أي إذا اتبعنا ذلك ﴿لَّفِي ضَلَٰلٍ﴾ عن الحق ﴿وَسُعُرٍ﴾ أي نيران كثيرة، وجمع السعير باعتبار دركاتها.

﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾؟ وفينا من هو أحق به منه مالاً وجمالاً وقوة ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ أي شديد البطر، ورد عليهم الباري بقوله الكريم ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ يوم القيامة أو يوماً يهلكون فيه، ويخرج صالح بسلامة ﴿مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ أمن يدعو إلى التوحيد لله؟ أو من يكفر ويشرك بالله؟ وقوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ أي ثم طلبوا من صالح معجزة، فاقترحوا أن تخرج ناقة من صخرة في ديارهم عينوها، ولما علمنا بأنهم متعنتون ولا يسترشدون أخرجنا لهم الناقة منها، ولكن جعلناها فتنة وامتحاناً لهم وامتهاناً ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾ أي وقلنا لرسولنا صالح: ارتقبهم أي انتظرهم لتر ما يأتون به ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ على ما أتوا به إذا كان من باب سوء الأدب ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ﴾ المعهود بينهم للشرب ﴿قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ مقسوم بينهم حسب الحاجة ﴿كُلُّ شِرْبٍ﴾ ونصيب منه ﴿مُّحْتَضَرٌ﴾ ومهيأ لصاحبه المعين في نوبته.

﴿فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ﴾ المعروف للأعمال السيئة قدار بن سالف لعقر ناقة صالح حتى

لا تزاحم نوقهم في الشرب ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ العقر وتجاسر على الحق ﴿فَعَقَرَ﴾ الناقة وقطع قوائمها ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ هي صيحة جبريل عليه السلام صباح يوم الأحد ﴿فَكَانُوا۟﴾ أي فصاروا ﴿كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ أي كالعشب اليابس الذي يجمعه الناس في الحظيرة للمواشي والبهائم ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾؟ أي فهل هناك واحد ماجد يتلو القرآن ويتفكر في معناه ويستنبط أسراره ويعتبر به؟.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾﴾ على منهج أمثاله ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ أي ملكاً يحصبهم أي يرميهم بالحجارة، أو ريحاً حاصبة ترميهم بالحصباء عليهم ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ أي أتباعه وأهله المؤمنين به ﴿نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ أي في سحر ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي فعلنا مثل ذلك، وبمثله ﴿نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾ لأن تدمير العدو تعمير الصديق ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم﴾ أي لوط ﴿بَطْشَتَنَا﴾ أي بأخذتنا الشديدة لهم بالعذاب ﴿فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ﴾ أي فتشككوا بالمنذرين على ما قلنا، وبالإنذارات المتتالية ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ﴾ أي صرفوه عن اتجاهه المؤدب المحترم وأرادوا إقناعه على السكوت عما يريدون، وطلبوا الفجور بهم ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ أي أزلنا أثرها ومنعناها عن إبصار الضيف ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ أي فعذبناهم وقلنا لهم: ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً﴾ أي أول النهار ﴿عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أي لزمهم حتى أهلكهم ﴿فَذُوقُوا۟﴾ أي فقلنا ذُوقوا ﴿عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾؟ يتذكر.

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ

ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ
بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ
فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى
مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾ فما نسبوها إلينا ونسبوها إلى السحر ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ﴾ أي آل فرعون ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ مسيطر لا يعجزه معجز ولا يمنعه مانع ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾؟ يخاطب المشركين المنكرين للرسول وللكتاب المنزل عليه فيقول لهم: أكفاركم خير من أولئكم الأقوام المعدودين المهلكين خيرية يحسبها حسابكم؟ أي من جهة المال والجاه والعَدد والعُدد والقوة المعنوية وسائر وسائل الاستيلاء ﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ﴾ من عذاب الله مكتوب ﴿فِى ٱلزُّبُرِ﴾ النازلة من السماء إذا كنتم مصدقين بها؟ ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ على حسب الدعوى والزعم الفارغ نحن جماعة ذات شوكة ومهابة وعز وانتصار على غيرنا إذا قابلناه وحاربناه، وإذا كانت لكم دعوى كذلك فهي باطلة وإذا كان لهم جمع كذلك قلنا لهم: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ أي الأدبار وقد كان هذا من دلائل النبوّة فقد نزل يوم لم يكن قتال فصار للرسول شوكة وخافوا على استيلائه فأرادوا قتله، فهاجر إلى المدينة المنورة، وبعد سنين حدثت واقعة بدر الكبرى وانهزم المشركون وولوا أدبارهم ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ أي ليس ذلك الانهزام تمام عقوبتهم بل الساعة موعد عذابهم والساعة وعذابها أدهى أي اعظم داهية وبلاء وأمر عذاباً وذوقاً للعذاب.

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ﴾ من طريق الحق في الدنيا ﴿وَسُعُرٍ﴾ في الآخرة بحسب استحقاقهم ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ ويقال لهم من جانب الملك المأمور: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ أي المرارة الروحية والجسدية الناشئة عن مس سقر ونارها إلى الأبد وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ روي بنصب كل على تقدير فعل مضمر يفسره الفعل الظاهر المشتغل عنه بالعمل في ضميره، وتفيد هذه الآية بهذه القراءة المعنى الصحيح الموافق لاعتقاد جمهور المسلمين، حيث قال تعالى إنا خلقنا كل شيء بقدر أي على حد مقرر مقدر معلوم لنا من الأزل إلى الأبد مقارن للحكمة الإلهية في أفعاله، ولا يخرج شيء عن علمنا وقدرتنا الإبداعية. فالقدر على هذا

عبارة عن التقدير العلمي الأزلي وذلك لأن نصب كل يكون بفعل مضمر يفسره الفعل الظاهر، وإذا ذكر المضمر لا يبقى الظاهر لأنه عوض عنه والعوض والمعوض لا يجتمعان، فيكون الحاصل أنا خلقنا كل شيء بقدر، فلا يخرج عين ولا عرض عن خلقه وابداعه تعالى.

﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ أي وما شأننا إلا فعلة واحدة وهي إيجاد المراد بلا معالجة ومشقة، أو ما أمرنا إلا كلمة واحدة وهي قوله تعالى: ﴿كُن﴾ فالأمر على الأول بمعنى الشأن، وعلى الثاني بمعنى الأمر المقابل للنهي، لكن يجب أن يعلم أنه ليس المراد بالأمر التلفظ بصيغة ﴿كُن﴾ بل المقصود توجيه الإرادة نحو المراد الموجب لوجوده فوراً، وهذا في البسائط المجردة عن المادة كالأرواح واضح، وكذلك الحال في الماديات البسيطة على تقدير وجودها. وأما المركب من الأجزاء فالاجزاء كل منها شيء، والمجموع المركب منها شيء آخر، فأمره بالنسبة إلى الأجزاء واحد وبالنسبة إلى خلق المركب من المجموع واحد، مع العلم أن الله تعالى قادر على خلق جميع المركبات بل مجموعها المؤلف من العلويات والسفليات في آن واحد.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾ أي أشباهكم وأمثالكم في الكفر والتمرد على الحق ولم يجدوا ولياً ولا نصيراً ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ يتذكر أن الله كما أهلك الأمم القوية الجبارة الماضية، قادر على أن يهلك الأمم المتمردة الحاضرة، فليحذروا عن مخالفة أمره تعالى ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ﴾ أي أولئك الاشياع ﴿فِي ٱلزُّبُرِ﴾ أي مكتوب في دفتر الأعمال المحفوظ عند المأمور المختص ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾ ولا يتوهمن أحد أنه أهمل شيء منهما مطلقاً ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي من العقائد والأعمال السيئة ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ عظيمة الشأن ﴿وَنَهَرٍ﴾ أي وفي أنهار وأفراد اسم الجنس لرعاية الفواصل، وقوله: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أي في مكان مرضي محترم، أي في مقعد يقال في حقه صدق الله عبده وعده وهو المقام الرفيع العالي في الجنة والمجاورة المستفادة من قوله تعالى: ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ للترفيع وإعلان الشأن والمقام، يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

❀ ❀ ❀

سورة الرحمٰن

مكيّة وآياتها ثمان وسبعون نزلت بعد الرعد

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ مبتدأ، والجملة بعده خبره. ثم هذه السورة مختصة ببيان نعم الباري تعالى لعباده، ولما نزلت النعم من سماء الرحمة صدرها بقوله الرحمن لتذكير الناس أن رحمة الباري تعالى هي ينبوع المكارم والخيرات. ولما كان القرآن الكريم أجل وأفضل نعمة أنعم الله بها على عباده قدم هذه النعمة الجليلة، فقال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ ولما كان الإنسان أشرف خلق الله المتمتع بنعمه عقبه بقوله: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ وبما أن الإنسان لا يستفيد بنفسه ولا يفيد غيره إلا بالبيان المعرب عما في الضمير أتى بعده بقوله: ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ ولما كانت معيشة الإنسان والحيوان متوقفة على زمان الكسب والاستراحة ويحصلان عادة بالليل والنهار الحاصلين من الشمس والقمر.. عقب تلك النعم بذكر الشمس والقمر وكونهما ملابسين لحساب مقرر. ولما كان الاقتيات بالناميات التي لها ساق أولاً ذكر النجم وهو النبات الذي لا ساق له، والشجر وهو النبات الذي له ساق. ولما كان هذا العالم الحي محتاجاً إلى فيض أمطار الرحمة وسائر البركات النازلة أتى بعدها بذكر رفع السماء ووضع الميزان لدوران كواكبها، أو بذكر الميزان الذي له دور هام في رعاية العدالة بين الأنام، والمعاملات فإن

الطغيان فيها يوجب النقصان في حياة الإنسان، والعدل فيها يوجب تكافؤ أفراده في الحقوق أتى بعدها بالنهي عن الطغيان فيه والجور في استعماله فيقول الباري سبحانه: الرحمن الذي هو المختص بإفاضة الرحمة على العالم علم رسوله وسائر عباده المؤمنين القرآن الذي هو مجمع السعادة في الدارين ومنبع الخيرات وخلق الإنسان لتعلم واجب حياتهم في دنياهم وسعادتهم في عقباهم من ذلك القرآن، وعلمه البيان الفصيح المعرب عما في الضمير حتى يفيد، والشمس والقمر الكوكبان العمدتان لتكوين الليل متلبسان بحسبان وتقدير لطلوعهما وحركتهما وطولهما وقصرهما، ﴿وَٱلنَّجْمُ﴾ النابت في الأرض بلا ساق ﴿وَٱلشَّجَرُ﴾ الذي يقوم على ساق ﴿يَسْجُدَانِ﴾ ويخضعان لإرادة الخالق المنان ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ كسقف على الكرة الأرضية التي منها خلقنا وفيها نعاد ومنها نخرج تارة أخرى للفوز بكامل السعادة، ووضع الميزان لها، أو وضع الميزان بين الناس في الأرض للتعامل، أي شرع العدل وأمر به بأن وفر على كل مستعد مستحقه، ووفى كل ذي حق حقه حتى انتظم أمر العالم واستقام. قال ﷺ: «**بالعدل قامت السماوات والأرض**» أي بقيتا على أبلغ نظام وأتقن أحكام. ومن هذا الحديث الشريف يستفاد أن الميزان في قوله تعالى ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ ليس محصوراً في ميزان الأشياء العديل للكيل، بل يعم كل ميزان وعدالة حتى تؤمن بأن الله تعالى جعل لكل كوكب سماوي مداراً خاصاً وحركة خاصة لا ينبغي أن ينفك عنها، وإلا تدمرت السماوات واختلت، وكذلك في الأرض وما فيها من الأثقال والمعادن وبيان ذلك يعود إلى من له اختصاص بتلك العلوم، وقوله: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨﴾ أي لئلا تطغوا فيه، فاللام الجارة مقدرة، فإن ناصبة، ولا نافية. وجعلها الزمخشري مفسرة لما في وضع الميزان من معنى القول، لأنه بالوحي وإعلام الرسل، وهذا تركيب وجيه حسن. ويأتي الحاصل ووضع الميزان وقال لا تطغوا في الميزان ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾ في كل الأمور المتعلقة بالإنسان من القول والفعل والأخذ والعطاء والمحبة والعداء وأداء الحقوق واستردادها ﴿وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ ولا تنقصوه فإن من حقه التسوية والاتيان بهذه الجملة تأكيد ومبالغة في التوصية برعاية العدل.

وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ أي ووضع الأرض وخلقها للانام لبدء النشوء والاستمرار في كسب المعيشة مر الدهور والأيام. وهذه الآية تدعو الإنسان إلى العلم بطرق المعيشة واستفادة الخيرات بالمزارع والمعاملات التجارية

واستخراج المعادن. وأشار إلى بيان نبذة مما وضعه في الأرض للأنام وقال ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ أي فيها ضروب كثيرة مما يتفكه به ﴿وَ﴾ فيها ﴿ٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ هي أوعية التمر أعني الطلع ﴿وَٱلْحَبُّ﴾ أي وفيها الحب المخزون في السنابل وغيرها ﴿ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ وهو ورق الزرع، وقيده بعضهم باليابس ﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾ أي وفيها الريحان. وهو كل مشموم طيب الريح من النبات ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾؟ الخطاب للجن والإنس، يعني الله هو الخالق لهذه النعم المحسوسة لكم ولنيلكم بالسعادة والراحة فبأي نعمة من نعمه تعالى تكذبان بإنكار وجودها أو إنكار أن الله خلقها؟.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ
مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي آدم أبا البشر عليه السلام ﴿مِن صَلْصَٰلٍ﴾ أي من طين يابس له صَلْصَلَة كالجرس ﴿كَٱلْفَخَّارِ﴾ أي الخزف وقد خلق الله آدم أبا البشر عليه السلام من تراب جعله طيناً، ثم حمأً مَسْنوناً ثم صلصالاً.

﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ﴾ وهو أبو الجن كآدم بالنسبة إلى البشر ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ أي من لهب خالص لا دخان فيه كما هو رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقيل: هو اللهب المختلط بسواد النار أي الدخان، من مرج الشيء إذا اضطرب واختلط.

والمعروف عند الجمهور أن الجن أجسام لطيفة نارية ويتناسلون لوجود الذكر والأنثى من نوعه. وقد بعث إليهم الرسول سيدنا محمد ﷺ، وقد اجتمع بهم ست مرات. ومنهم من آمن، ومنهم من كفر ويتشكلون بأشكال مختلفة، وليس المراد

الجان إبليس، بل إبليس فرد من أولاد الجان. وله ذرية كثيرة وزمرة الجن المتمرد يسمون بشياطين الجن، كما أن الكفرة المارقين من الإنسان يسمون بشياطين الإنس. وإنما خلق الله النوعين لمحبة المعرفة والعبادة، والنيل بالسعادة، والعرض للنعيم المقيم. ومن أطاع الله ورسوله فقد هدي إلى صراط مستقيم، ومن عصى وتمرد وطغى فقد أرسل إلى سبيل الجحيم، ولا يلومن إلا نفسه حيث طغى وبغى وخالف قُدْسَهُ، والعرض للنعمة من آلاء الله تعالى ولذا قال تعالى ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ مشرقي الصيف والشتاء ﴿وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ أي مغربي الصيف والشتاء، فمشرق الصيف عندما كانت الشمس في مدار السرطان، ومشرق الشتاء عندما كانت على مدار الجدي وكذا المغربان. وفي القرآن الكريم ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ باعتبار كثرة المدارات اليومية للشمس في كل دورة كما هو معلوم عند أهله.

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾﴾ أي أرسل البحرين كبحر النيل والبحر الأبيض المتوسط وكبحر شط العرب والخليج، وأجراهما حال كونهما ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ ويتصلان كل بالآخر. والمعنى أرسل الماء المفرق المتبحر العذب، والبحر الملح، ولا يؤثر العذب في الملح بتعذيبه ولا الملح في العذب بتمليحه. كما قال الله تعالى ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ أي حاجز من قدرة الله تعالى ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ أي لا يخلي يبغي أحدهما على الآخر بتكييفه بالكيفية الموجودة فيه، مع أن الماء من طبعه التأثر بالمجاور والحاصل أن الله سبحانه وتعالى قادر على إعطاء كل شيء ومنع كل شيء كما يريد. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ﴾ صغار الدر ﴿وَٱلْمَرْجَانُ﴾ كباره وفي كتب اللغة المرجان صغار اللآلي، وقد قيل: إن الدراري لا تخرج من البحر العذب، وإنما تخرج من البحر الملح. وأجيب بأن البحرين لما اتصلا كانا كبحر واحد فينسب الحاصل من أحدهما إليهما بالإطلاق لأنهما يتراءيان كبحر واحدٍ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾؟ وفي تلك الدراري فوائد كثيرة، في روح المعاني: اللؤلؤ يمنع الخفقان، والحر، وضعف الكبد، والكلى، والحصى، وحرقة البول، والسدد، واليرقان، وأمراض القلب، والسموم، والوسواس، والجنون، والتوحش، والربو شرباً، والجذام والبرص والبهق والآثار مطلقاً بالطلي. . إلى غير ذلك وأن المرجان يفرح ويزيل فساد الشهوة ولو تعليقاً، ونفث الدم والطحال

شرباً، والدمعة والبياض والسلاق والجرب كحلاً. . إلى غير ذلك مما هو مذكور في كتبهم.

﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ﴾ أي السفن الجارية على سطح البحر ﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ أي المرفوعات فيه ﴿كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ كالجبال ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾؟.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ أي كل من هو على الأرض سطحها البادي أو عمقها الفادي فانٍ أي آيل إلى الفناء والزوال ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ باقياً حياً قيوماً لا يفنى ولا يموت ﴿ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ أي يجله الموحدون وينزهونه عن النقصان وينسبون له الصفات الكمالية اللائقة بذاته الكريم فبأي آلاء ربكما تكذبان؟ ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ جميع ما يحتاجون إليه من كافة الجهات بلسان الحال والمقال من المؤمنين والحال من الكافرين ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ أي كل وقت من الأوقات هو في شأن من شؤونه الفعلية تنفيذاً لما قرره في علمه الأزلي، يخلق ويفني ويعطي ويمنع ويعز ويذل وهو على كل شيء قدير ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾؟.

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ الفراغ هنا ليس بالمعنى المتعارف من الفراغ من عمل سابق يمنعه عن الاشتغال بلاحق، بل معناه أنه بعد نهاية العالم الأول تأتي نوبة العالم الثاني ونبدأ بجزاء أعمالكم التي عملتموها ليأخذ كل حقه ومستحقه، والمراد بالثقلين الجن والإنس لثقلهما على الأرض أو لوقارهما وهيبتهما ورزانتهما. ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟ التي من جملتها التنبيه على ما أمامكم من العذاب حتى تتنبهوا وتتوجهوا إلى الله.

ثم يهددهم من مغبة أعمالهم ويقول ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ تبتلون يوم القيامة بعذاب شديد فيقال لكم ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وتخلصوا من عذاب جهنم ﴿فَٱنفُذُوا۟﴾ لكن ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ﴾ أي بقوة شديدة تُعينكم

على الخلاص وأنى تكون لكم؟ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ⑬﴾؟ من التنبيه والتحذير والمساهلة والعفو، مع القدرة على التعذيب وقوله: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا﴾ استئناف في جواب من يسأل عن الداعي للفرار والخروج عن أقطار السماوات والأرض، فيجيب بأن الداعي هو أنه ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا﴾ في جهنم عند إرادة التعذيب ﴿شُوَاظٌ﴾ أي لهيب خالص ﴿مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾ أي ويرسل عليكما نحاس أي الصفر المعروف، أي يصب على رؤوسكما صفر مذابٌ ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ أي فلا يوجد عندكما قوة الانتصار والمنع، هذا ما قرره الكثير من المفسرين.

ولكن إذا نظرنا إلى سرد الآيات الشريفة هنا، وتعقيبها بقوله الكريم ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَآءُ﴾ ظهر للعقل بادىء بدءٍ أن قوله تعالى ﴿يَٰمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ نداء لهما في الدنيا، وقوله ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَآءُ﴾ بيان وقوع القيامة وحلول العذاب فيه. وأراد الله تعالى تنبيههم وتحذيرهم عن المعصية حتى لا يقعوا في المحنة فيقول تعالى ﴿يَٰمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ لا مخلص لكم منا بأي وجه فلا تتمردوا وآمنوا بالله ورسوله وأطيعوا، وإلا فإن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض حتى تخلصوا مني فانفذوا واخرجوا. لكن لا تخرجون إلا بسلطان وقوة غالبة على الموانع وأنى تحصل لكم قوة هكذا فإذا خرجتم بدون قوة هائلة كذلك وصعدتم السماء دارت حولكم ومنعتكم شواظ، أي لهيب من نار لطيفة خالصة، ونحاس أي نار مخلوطة به فأحرقتكم قبل الخروج منها. هذا في دنياكم، وأما في الآخرة ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَآءُ﴾ أي انصدعت وذلك عند حلول الساعة ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ أي كالوردة في الحمرة ﴿كَالدِّهَانِ﴾ أي كالأديم الأحمر، وجواب إذا محذوف أي حل بكم عذاب ومحنة وبلاء لا ينحصر في البيان، وانما يكشف بالعيان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ⑬﴾؟ وبأية نصيحة وبيان وتهديد وتخويف لوصولكم إلى الراحة تكذبان.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ⑲ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ⑳ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَٰصِى وَالْأَقْدَامِ ㉑ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ㉒ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ الَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ㉓ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ㉔ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ㉕﴾.

قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذ تنشق السماء ﴿لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ لأنهم يعرفون بسيماهم، وهذا في موقف، وما دل على السؤال ففي موقف آخر

﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ والنواصي جمع ناصية وهي مقدم الرأس، والأقدام جمع قدم، وهي قدم الرجل المعروفة. والباء للآلة مثلها في أخذت بخطام الدابة، والجار والمجرور نائب الفاعل. وكيفية هذا الأخذ على ما روي عن الضحاك أن يجمع الملك بين ناصية أحدهم وقدميه في سلسلة من وراء ظهره، ثم يكسر ظهره ويلقيه في النار. وقيل تأخذ الملائكة عليهم السلام بعضهم سحباً بالناصية، وبعضهم سحباً بالقدم. وقيل تسحبهم الملائكة تارة بأخذ النواصي، وتارة بأخذ الأقدام.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ وينكرون في الدنيا وجود الآخرة ووجود جهنم فيها، والآن صارت عياناً لهم ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا﴾ أي يتردد المعذبون بين نارها ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ أي ماء حار متناه إناه وطبخه، بالغ في الحرارة أقصاها، يعني يعذب المجرمون تارة بالإحراق بنار جهنم، وتارة بالإجبار على شرب الحميم أي الماء الحار جداً. والعياذ بالله ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾؟ أي كان قبل هذا العذاب أنواع من الآلاء فكفروا بها وعذبوا.

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ
﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ
بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ
قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ
ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ
﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾
فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ
وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ
يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ
خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ

وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٧٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ المقام فيه إما مصدر ميمي بمعنى القيام ويراد به قيامه على العالم، أو اسم مكان بمعنى محل القيام والإضافة للتشريف، فمعناه ولمن خاف عظمة ربه ورقابته على الأعمال بمعنى أنه لا يغفل عنه، أو لمن خاف هيبة مقامه ومكانه عند وقوفه للمحاسبة أمام ربه ﴿جَنَّتَانِ﴾ إحداهما محله ومحل زائريه، والأخرى محل حوره ومتعلقاته. أو جنتان إحداهما في داخل قصره والأخرى في خارجه. وقيل منزلان يتحول بينهما هنا وهناك في مقابل من يطوف بين الجحيم وبين الحميم ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾؟ بالجنة الأولى وما فيها أو بالثانية ﴿ذَوَاتَآ أَفۡنَانٍ﴾ ذواتا لغة في تثنية ذات، كما أن ذاتاً لغة فيها، وأفنان جمع فن بمعنى النوع أي صاحبتان لأنواع من الثمار، أو جمع فنن بمعنى ما لان من الأغصان، أي صاحبتان للأغصان الدقيقة الناعمة التي يحسن منظرة الجنتين ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾؟ ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ ﴿٥٢﴾﴾ أي صنفان معروف عنده وغريب لم يعرفه في الدنيا، أو رطب أو يابس ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ﴾ أي الديباج ويقرب أن تكون ظهائرها من ديباج ناعم حتى لا يتألم الماشي عليها ﴿وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ﴾ أي والثمر الذي يؤخذ من أشجارهما قريب من اليد لا حاجة في أخذه إلى تعب ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ أي في منازل الجنتين حور قصرت عيونهن على النظر إلا إلى أصحابهن ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ أي لم يفتضهن قبل أزواجهن إنسي ولا جني ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾ في صفاء الخدود وباقي الجسد ولمعانها. ويمكن أن يكون وجه الشبه حمرة لون المحل الذي تليق به الحمرة. والظاهر أن وجه الشبه هو الرغبة والميل فيهن ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾؟ أي ما جزاء إحسان الاعتقاد والأعمال إلا إحسان المنزل والمأوى وإحسان اللقاء مع المولى ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾؟.

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ أي ومن دون تينك الجنتين السابقتين جنتان أخريان. وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي موسى عن النبيّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ قال: «**جنتان من ذهب للمقربين، وجنتان من ورق لأصحاب اليمين**» وقال الحسن الأوليان للسابقين، والأخريان للتابعين ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ وقوله:

﴿مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾﴾ صفتان لجنتان وسط بينهما الاعتراض لما تقدم من التنبيه على أن تكذيب كل من الموصوف والصفة حقيق بالإنكار والتوبيخ، أو خبر لمبتدأ محذوف أي هما ﴿مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾﴾ من الدهمة وهي السواد أي غلب عليهما السواد لكثرة النبات والأشجار والأوراق ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ أي فوارتان بالماء ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ عطف الأخيرين على الأول عطف الخاص على العام بناء على عد البسر والتمر من الفواكه ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ أي في بيوت تينك الجنتين، أو في كل من تينك الجنتين السابقتين واللاحقتين حور ذوات جمال وخيرات مختارات في النساء وحسان في الوجوه والعيون والملامح، ونعومة الأيدي ولطافة الكلام ولينه ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ أي مخدرات حالتهن القصر على بيوتهن وملازمتهن لها ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ وذلك لمزيد الرغبة على من لم ترغب في الغير ولم يرغب الغير فيها، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾؟.

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ أي متكئين على وسائد خضر والوسائد هي المخدات أو على نمارق بناء على أن الرفرف ما يطرح على الفرش ﴿وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ﴾ أي وعلى وسائد عجيبة غريبة نفيسة نسبت لجودتها إلى بلدة عبقرة المنسوبة إلى الجن كانت العرب في الجاهلية تزعم أن للجن بلدة اسمها عبقرة والأشياء النفيسة تصنع فيها، فإذا رأت شيئاً عجيباً نسبته إلى عبقرة، ويقال: هو عبقري، أو هي عبقرية ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ أي تعاظم وتقدس اسم ربك الذي هو ذو الجلال أي ذو النزاهة عن النقص، وذو الإكرام فالتبارك متوجه إلى اسمه تعالى، وما دام الاسم متباركاً كان الذات متباركاً بالأولى، أو أن الاسم مقحم والمقصود تبارك ربك، والله هو المتبارك.

❁ ❁ ❁

سورة الواقعة

مكيّة وآياتها ست وتسعون نزلت بعد طه

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ (١) لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ
ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا (٤) وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا (٥) فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا (٦) وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ
(٧) فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ (٨) وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ
(٩) وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ (١٠) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٞ مِّنَ
ٱلۡأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ (١٤) عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ (١٥) مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ
(١٦) يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ (١٨) لَّا يُصَدَّعُونَ
عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ (١٩) وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ
عِينٞ (٢٢) كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِٕ ٱلۡمَكۡنُونِ (٢٣) جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (٢٤) لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا
وَلَا تَأۡثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا (٢٦)﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ (١)﴾ أي إذا حدثت وتحققت القيامة التي هي الواقعة العجيبة المدهشة التي تندهش بها الألباب ﴿لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢)﴾ إما مصدر كالعاقبة والعافية، أي ليس لها كذب ومخالفة للواقع، أو وصف أي ليس لها نفس كاذبة تخبر بعدم وقوعها. والحقيقة أن هذا الخبر معناه الاهتمام بالوقوع وهيبة الوقوع بحيث لا يتطرق إليه أدنى شبهة. والقضية المفيدة لهذا المعنى تسمى الضرورية بشرط المحمول يعني كل شيء كان في حد ذاته ممكناً يستوي وجوده وعدمه فهو بشرط الوجود ينقلب وجوده ضرورياً. والمقصود أن القيامة التي في حد ذاتها ممكنة الوجود صارت ضرورية واجبة، لأن الله تعالى قدر وقرر وصول الجزاء إلى العاملين والثواب إلى المطيعين، والعقاب إلى الغافلين.

وقوله: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾ خبران لمبتدأ محذوف أي وهي خافضة للمترفعين ورافعة للمتواضعين خافضة للكافرين رافعة للمؤمنين. أي خافضة لدركات الأسفلين ورافعة لدرجات الأعلين، وقوله: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤﴾ بيان لزمان وقوع هذه الطامة العامة الكبرى أي إذا زلزلت الأرض وحركت تحريكاً شديداً بحيث تتزلزل أطواد الجبال وتنسحق كالرمال ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥﴾ أي وفتتت أجزاؤها الصلبة تفتيتاً، من بس السويق إذا لته، أو تفرقت الجبال تفريقاً أي انفصل بعض أجزائها عن بعض من بس الغنم إذا فرقها ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾ أي فصارت الجبال غباراً منتشراً في الجو ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧﴾ أي وصرتم أصنافاً ثلاثة كافرين مبعدين عن الرحمة. ومؤمنين فاضلين مؤيدين، ومؤمنين مفضولين موحدين.

وأما إعراب ﴿إِذَا رُجَّتِ﴾ فقال ابن جني وأبو الفضل الرازي إن قوله إذا رجت في موضع رفع على أنه خبر للمبتدأ الذي هو إذا وقعت، وليست واحدة منهما شرطية، بل هي بمعنى وقت أي وقت وقوع الواقعة وقت رج الأرض. وادعى ابن مالك أن إذا تكون مبتدأ واستدل بهذ الآية على ذلك، وقال أبو حيان: هو بدل من إذا وقعت وجواب الشرط عندي ملفوظ به وهو قوله فأصحاب الميمنة، والمعنى إذا كان كذا وكذا فأصحاب الميمنة ما أسعدهم وما أعظم ما يجازون به. أي أن سعادتهم تظهر في ذلك الوقت ولك أن تقول ان الخبر المحذوف هو: فالناس أصناف ثلاثة: السابقون، وأصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة ثم يفصل أحوال كل صنف منها، وقوله: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ تفصيل للأصناف الثلاثة، وقوله: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ مبتدأ أول وقوله ما أصحاب الميمنة كلمة ما مبتدأ ثان وهي للاستفهام، وما بعدها خبرها، والجملة خبر للمبتدأ الأول اكتفى عن الرابط بتكرار المبتدأ الأول. وهذا التكرار للاهتمام والاعتبار، أي فأصحاب الميمنة صنف مهم معتبر عند الله اعتباراً لائقاً بدرجاتهم. وكذلك إعراب قوله تعالى ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾. أي وأصحاب المشأمة صنف لا اعتبار لهم عند الله، والميمنة: ناحية اليمين بمعنى أخذ الكتاب باليد اليمنى، أو معناها اليمن والبركة. والمشأمة ناحية الشمال بمعنى أخذ الكتاب باليد الشمالية أو معناها الشؤم مقابل اليمن.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠﴾ أولئك المقربون هذا الصنف هو

الصنف الثالث في العبارة، ولكنه هو الصنف الأول في الاعتبار، وذكرهم أخيراً حتى يتصل ببيان أحوالهم العالية، وأثمانهم الغالية، وأوصافهم الحميدة، واختصاصاتهم الفريدة، وأما المراد منهم فقال بعض: هم الذين سبقوا إلى الإيمان والطاعة لله ولرسوله من غير تردد واضطراب، وقيل: هم الذين سبقوا في حيازة الكمالات من العلوم اليقينية ومراتب التقوى الواقعة بعد الإيمان، وقيل: هم الأنبياء والرسل ﷺ، لأنهم مقدمو أهل الأديان، وقيل: هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار.

والظاهر من الأدلة أن هذه الأصناف إذا اعتبرت من جميع العباد المكلفين فهم الأنبياء والرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام، وإن كان من أمم الأنبياء ففي كل أمة واسعة توجد الأصناف الثلاثة، ولكن أكثر الأمم عدداً أمة محمد ﷺ والسابقون منهم عبارة عن السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب فعن أبي أمامة رضي الله عنه، عن النبيّ ﷺ قال: «**وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً لا حساب عليهم ولا عذاب، مع كل ألف سبعون ألفاً**» رواه الترمذي بسند حسن، ويشمل السابقون بهذا المعنى السابقين من المهاجرين والأنصار وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين، وقوله: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ متعلق بالمقربون، أو بمضمر هو حال من نائب فاعله أي كائنين في جنات النعيم الممتازة بين الجنات بلطائف الإحسان.

وقوله: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ إن كان على اعتبار السابقين من أمم جميع الأنبياء والمرسلين فالمعنى ان السابقين هم ثلة من الأولين من كل أمة وقليل من آخريها. يعني أن كل أمة فيها السابقون المقربون، لكن الأوائل منها أكثر وفي أواخرها أقل، فمثلاً في أمة الرسول محمد ﷺ يكون السابقون في القرون الأولى من قرونها، كقرون الصحابة والتابعين وتابعي التابعين أكثر وأزيد من السابقين الموجودين في أخريات أمته، فإن كل مسلم عاقل يؤمن بأن الصحابة والتابعين لهم مباشرة كانوا أنور من باقي الأمة الموجودة بعدهم، والموجود من السابقين بعدهم آحاد من العلماء العاملين والأولياء والصالحين.

وإن اعتبرت الأصناف الثلاثة من أمة محمد ﷺ كما يوافقه ظاهر الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾﴾ فالسابقون أكثرهم في القرون الثلاثة المشهود لهم بالخيرية، وأقلهم في من جاء بعدهم، وقوله: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾﴾ حال من المقربين، يعني حال كونهم على سرر محكمة منسوجة بخيوط ذهبية مشبكة بالدرر

واليواقيت ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ١٦﴾ ينظر بعضهم إلى بعض. وهذا عند الزيارات أو أن التقابل بين الذكور من أهل جنات النعيم وأزواجهم من الحور العين وغيرهن، والجمع المذكر للتغليب، أي يقابل الرجال النساء من الحور والنساء الرجال لاستكمال العشرة النفسية واللذة الروحية من النظر إلى جمال الصاحب والصاحبة ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ١٧﴾ أي يبقون على شكل الولدان وأولئك الولدان هم أولاد الكفار الذين ماتوا قبل البلوغ فانه اشتهر أنه عليه الصلاة والسلام قال: «**أولاد الكفار خدم أهل الجنة**» وهذا هو الموافق للأدلة الدينية فإن أولاد المسلمين لا يفارقون آباءهم وأمهاتهم في الجنة إذ لا يطيب العيش بدون لقاء الأولاد والبنات. وأما أولاد الكفار فآباؤهم في النار لسوء الاعتقاد والأعمال والأولاد الصغار ما وصلوا درجة التكليف حتى يعذبوا فيجعلون خدماً لأهل الجنة ﴿بِأَكۡوَابٖ﴾ بأواني لا عرى لَها ولا خراطيم ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ جمع إبريق، وهو إناء له خرطوم ﴿وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ﴾ أي من خمرٍ جارية من العيون، أي لم تعصر كخمر الدنيا ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا﴾ أي حال كونهم لا يحصل صداع لرؤوسهم بسبب شربها ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ أي ولا تذهب عقولهم، جمع المذكر الغائب من باب الإفعال من أنزف الشارب إذا ذهب عقله.

﴿وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ٢٠﴾ أي يأخذون خيره وأفضله ﴿وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ٢١﴾ مما تميل نفوسهم إليه وترغب فيه، وقوله: ﴿وَحُورٌ عِينٞ ٢٢﴾ عطف على ولدان أي وتطوف عليهم حور عين. وعين جمع عيناء، وأصله عين على وزن قفل فكسرنا فاء الفعل حتى لا تقلب الياء واواً، وتلتبس اليائي بالواوي، وهن ﴿كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِٕ ٱلۡمَكۡنُونِ ٢٣﴾ أي كأمثال اللؤلؤ المستور في صفائها ولمعانها ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ مفعول له لفعل محذوف أي يعطون ذلك جزاء بما كانوا يعملونه من الأعمال الصالحة في الدنيا. ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا﴾ أي كلاماً لا يعتد به من العقلاء ﴿وَلَا تَأۡثِيمًا﴾ أي كلاماً فيه النسبة إلى الإثم، أو التأثيم التجريح، يعني لا يسمعون كلاماً فيه جرح وألم لقلوبهم، لأن الجنة دار الصفاء لا دار الجفاء وقوله: ﴿إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ٢٦﴾ مستثنى مما قبله على قاعدة تأكيد المدح بما يشبه الذم، أي إن كان سلاماً سلاماً كلاماً فيه التأثيم وأنى ذلك! هذه النبذة نموذج من أحوال السابقين.

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ٢٧ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ٢٨ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ٢٩ وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ٣٠ وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ٣١ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ٣٢ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا

مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

ثم شرع في بيان أحوال الصنف الثاني أي أصحاب اليمين فقال ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾﴾ أي لهم شأن رزين ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾ أي هم في سدر مخضود لا شوك فيه، أو مثنى مفتول بعض أغصانه الدقيقة ببعض ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾﴾ وشجر موز متراكم الثمار فتلصق بعضه ببعض ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾ منبسط لا انقباض فيه ولا يزول ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾﴾ أي جار من غير أخاديد تجري بقدرته تعالى على ما يرام بدون الشق في الأرض ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾﴾ أنواعاً وأصنافاً وأشخاصاً ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ﴾ في وقت من الأوقات ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ عمن يريد التفكه بها ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾ إما جمع فراش بمعنى البسط، أي ساكنين في فرش متراكمة بعضها على بعض فترتفع وتعلو، وإذا قعد عليها شخص يغور فيها لنعومتها، أو كنى بالفرش عن الحور كما يستعمل الفراش عند العرب للمرأة التي تحت تصرف صاحبها بالوجه المشروع وهذا أنسب بما بعده من قوله: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ لعود الضمير إلى الفرش، وأما على الأول فلا بد من إعادتها إلى ما يستفاد من المقام أي الحور ذوات الفرش المبسوطة، أي أنا خلقناهن خلقاً إبداعياً بلا أصل يتفرع عنه ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾﴾ تفسير لما سبق أي أبدعناهن باكرات غير مطموثات ﴿عُرُبًا﴾ جمع عروب كصبور وهي المتحببة إلى زوجها جداً ﴿أَتْرَابًا﴾ متساويات في السن، وسره أن لا تفتخر إحداهن على الأخرى بشيء من المميزات ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾ متعلق بأنشأناهن، أي خلقناهن لهم.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾.

وقوله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾﴾ أي في حالة يرثى لهم فيها لأنهم ﴿فِى سَمُومٍ﴾ أي في الريح الحارة التي تؤثر تأثير السم وتنضج الجلد وتحرقه ﴿وَحَمِيمٍ﴾ أي وفي ماء حار يقطع الأمعاء عند الشرب ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾﴾ أي من دخان أسود. وعن ابن عباس أنه سرادق النار المحيطة بأهلها ﴿لَّا بَارِدٍ﴾ يستريح به القاعد تحته، ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ نافع كسائر الظلال الاعتيادية. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ الحلول في العذاب عندما كانوا في الدنيا ﴿مُتْرَفِينَ﴾ أي متبعين هوى أنفسهم غير مهتمين بأوامر قدسهم ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ﴾ ويستمرون ﴿عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي على الذنب العظيم الذي لا يساويه ذنب ﴿وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾؟ من القبور ونحشر ونحاسب ونساق إلى دار الجزاء ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾؟ همزة الاستفهام داخلة على واو العطف أي أنبعث نحن وآباؤنا الأولون الأقدمون الذين مرت عليهم الأحقاب والقرون؟.

﴿قُلْ﴾ انتقال من حكاية الأحوال التي ستقع في الآخرة وتعليلها بأقوالهم السابقة في الدنيا، إلى استحضار الصورة الحالية للكافرين المماثلة لأولئك الكفار المنكرين للبعث فيقول تعالى ﴿قُلْ﴾ يا رسولي لهم ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ﴾ من الأمم سابقها ولاحقها منكم ومن غيركم ﴿لَمَجْمُوعُونَ﴾ بعد البعث ﴿إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ والميقات ما وقت به الشيء أي حُدَّ، وضمن المجموع معنى السوق ولذا عدي بإلى أي كلهم مجموعون للسوق إلى ميقات وهو يوم معلوم للاجتماع وبعد ذلك الميقات لا يبقى السوق لحلول وقت الحساب مع المجموعين. ويحتمل أن تكون كلمة إلى بمعنى في أي لمجموعون في ميقات يوم معلوم ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ﴾ طريق السعادة ﴿ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ بمن يستحق الطاعة والعبادة ﴿لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾﴾ أي بعد نهاية الحساب ودخولكم جهنم معذبون في النار وآكلون من شجر من زقوم، من الأولى لابتداء الغاية، والثانية لبيان الشجر أي مبتدئون للأكل من شجر هو زقوم، وذلك لشدة الجوع. ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ أي بطونكم ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ﴾ لشدة العطش ﴿مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾ أي الماء الحار جداً ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ جمع هيماء، وكسرت فاء الفعل حذراً من قلب الياء واواً والالتباس لليائي بالواوي ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾ أي هذا المذكور نزلهم يوم الدين أي طعامهم المعد لهم لاستهلاكه يوم الدين، أي يوم جزاء الأعمال وهو يوم القيامة.

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَم

نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ
أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ
﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ
حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ
ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ
أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ
نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ
ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ تحويل الكلام من الغيبة إلى الخطاب على الالتفات أي نحن خلقناكم من نطفة وطورناها أطواراً مختلفة فيها أعمال دقيقة تتحير فيها عقول المتفكرين حتى وصلتم إلى هذه الحالة المناسبة لتصديق الباري ورسله في بيان حقيقة سُبُلِهِ، وكان الواجب أن تصدقوا بوجوده ووحدته وعلمه وقدرته ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ بذات الواجب الوجود المنعوت بصفات الكمال ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾﴾ أي ما تقذفونه من النطفة في الأرحام ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾ وتجعلون له العظم والعصب واللحم والجلد وسائر ما يحتاج إليه من لوازم البشر ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾؟ نحن قدرنا بينكم الموتَ أي لا شك ولا شبهة في أنا نحن الخالقون فخلقناكم لتعلق الإرادة به، وكما خلقناكم ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ﴾ أي حددنا بينكم زمان ﴿ٱلْمَوْتَ﴾ بأجل معلوم عندنا لا يقبل التغير والتبدل آناً ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي مغلوبين وعاجزين وغير قادرين ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ أي أوصافكم جمع مثل بفتحتين بمعنى الوصف وذلك بإعادتكم وإحيائكم بالبعث من القبور مع تبدل الأوصاف فإنكم كنتم شاكين في البعث بعد الموت، وشاكين في قدرة الله تعالى على ذلك، وشاكين في إنشاء عالم آخر للحساب والميزان وجزاء الإيمان والكفر والطاعة والعصيان، وفي ذلك اليوم يحصل لكم العلم بكل ما أنكرتموه ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي ونعيدكم في وضع وحالٍ وصفاتٍ ما كنتم تعلمون بها سابقاً قطعاً.

ويجوز أن تكون الأمثال جمع مثل على وزن حبر بمعنى الشبيه والمثيل، يعني وما نحن بمسبوقين وعاجزين عن أن نبدل بكم أمثالكم أي نذهب بكم ونأتي بقوم

آخر من البشر أمثالكم في الذات والصورة، ومخالفين في الصفات والسيرة فنأتي بدل الكافرين بمسلمين وبدل المتكبرين المترفعين بالمتواضعين، وبدل الظالمين بالعادلين، وبدل الفاسقين بالصالحين المتقين على وزن قوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم﴾ في الصفات عينها، وننشئكم في ما لا تعلمون من الأحوال إذ كنتم أعزة فتكونوا أذلة وكنتم سادة أمراء فتكونوا عبدة مأمورين، وكنتم بطرين مترفين مترفهين فتكونوا معتدلين مكتفين متوسطين وهذا هو الذي رأيناه ونراه في طبقات الأمة البطرة حيث تبدلت بالأمة المفتقرة. ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي ولقد علم أهل العقل والإنصاف منكم الخلق الأول لآدم من تراب، ولنسله من نطفة متطورة ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟ أي تتفكرون أن من قدر على النشأة الأولى قادر على النشأة الأخرى بل أسهل وأحرى لوجود بعض المواد الأساسية في النشأة الأخرى دون الأولى. وهذه الآية حجة على إثبات أنه قادر على أن يبعث الموتى، وتقريرها: الله قادر على النشأة الأولى، وكل قادر على النشأة الأولى فهو قادر على النشأة الأخرى.

ثم ذكر الباري سبحانه وتعالى أصنافاً من المخلوقات وسأل عمن أبداها ليتبين الجواب ويتعين به الصواب، وهو أن الله هو القادر المجيد والفعال لما يريد فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾﴾؟ أي ما تبذرون حبه وتنشرونه في تربة الأرض الفاشية ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ﴾؟ أي تنبتونه وتجعلونه نباتاً خارجاً من التراب مخرجاً لأشطاء إلى أن يستوي فينتج الحب وينعقد ويستفاد منه ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ المنبتون له؟ ﴿لَوْ نَشَآءُ﴾ إضاعته ﴿لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ أي هشيما متكسراً متفتتاً لشدة يبسه ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ تتعجبون من سوء حاله، وقال بعض تندمون على ما أنفقتم فيه قائلين: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ أي معذبون مهلكون من الغرام بمعنى الهلاك ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ من الرزق ومن محصولات الزراعة ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾؟ أي من السحاب ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ﴾ تغيير طعمه بحيث لا يكون قابلاً للشرب ﴿جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ ملحاً مراً لا يمكن شربه لإحراقه الفم واللهاة والحلقوم ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ على نعمة إبقائه على طعمه المعتدل المرئي ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾﴾ أي تقدحونها وتستخرجونها من الزناد ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ﴾ التي منها الزناد وهي المرخ والعفار ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾؟ لها بقدرتنا ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾ أي نحن جعلنا النار التي تورونها تذكرة لنار جهنم ومتاعاً

يتمتع بها للمقوين أي للذين ينزلون القواء وهي المحل القفر الخالي من الناس. وفي الحقيقة صارت النار وسيلة من وسائل المحركات الموصلة للإنسان إلى المقاصد، حيث تتحرك السيارات في الأرض، والطيارات في الجو، والبواخر في البحر.. ومنها يحصل التمتع بالمآكل التي تحتاج إلى الطبخ والقلي والشي، وفيها فوائد أخرى، ولما علمت أن هذه المنافع البديعة العجيبة ناتجة من خلقه وقدرته تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ نزه وبعد اسم ربك عن أن تذكر معه شيئاً آخر بل انسب الآثار كلها إليه، وتوكل عليه، وكل خير أو شر عائد إليه، فسبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم.

﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾ قالوا: إن حرف النفي زائدة، والمقصود أقسم بمواقع النجوم بدليل ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ وقال بعض: أنها ليست زائدة. والمعنى فلا أقسم بمواقع النجوم على أن الكتاب المنزل عليك كتاب كريم لأن المقسم به واضح جداً وظاهر غاية الظهور فلا حاجة إلى تأكيده بالقسم. والمراد بالمواقع مواقع أقساط الآيات المنزلة من اللوح المحفوظ، لأن الله سبحانه كما خلق سطورها في اللوح كذلك ميز كل نجم نجم منه وعين للنزول في وقته الخاص. ومواقعها إما محلها الذي نقش فيه القسط من الآيات أو الرسول ﷺ والجمع الذي نزلت الآيات لاستفادتهم منها، أو مواقع النجوم السماوية، أي مغاربها عند الأفول، فإن في أفولها رهبة وهيبة ووحشة في قلوب

الناس، وإما مواقعها في العالم حين انتشرت، وإما مواقعها عند رجم الشياطين في السماء، وإما بروجها ومنازلها المعينة في السماء على ما ذكره علماء الهيئة، وأهميتها بالنسبة إلى دلالتها على آثار ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ أي وأن القسم بمواقع النجوم قسم عظيم لوجود أسرار كثيرة في المقسم به تدل على عظمة خالقها ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ أي ما أنزل عليك لقرآن كريم ﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾ أي مستور عن العيون لا ترى بالعين المجردة، والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ أي لا يمس ذلك الكتاب أو محله إلا المطهرون من الأرجاس والأقذار وهم الملائكة في أطراف اللوح، والمتطهرون المتنظفون من الحدثين في الأرض ﴿تَنزِيلٌ﴾ أي متنزل أو ذو تنزيل ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي أن رب العالمين نزله إلى حبيبه محمد ﷺ، وهو هدية أهديت إليه والمهدي يحفظ هديته عن المعارضات إلى أن يصل إلى المهدى إليه.

﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾﴾؟ أي أفبهذا الكتاب الجليل الذي أنزل لإفادة الخير أنتم مدهنون أي متهاونون ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ به بدل أن تصدقوا به وتستفيدوا منه ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ﴾ أي النفس ﴿ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ إلى الشخص المحتضر ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ علماً وقدرة وعلاقة ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ﴾ تأكيد لولا الأولى ﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ أي غير مغلوبين وغير مقهورين ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ أي ترجعون النفس إلى مقرها الأول ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في اعتقادكم وإسنادكم نحو هذه الأمور إلى غير الله تعالى. والحاصل أن المحضض عليه بلولا الأولى هو ترجعونها، ولولا الثانية تأكيد للأولى، وهي بما في حيزها دليل جواب الشرط. والمعنى إن كنتم غير مملوكين مجزيين كما دل عليه جحدكم أفعال الله وتكذيبكم بآياته إن كنتم صادقين في تعطيلكم فلولا ترجعون الأرواح إلى الأبدان بعد بلوغها الحلقوم.

وقوله: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ شروع في بيان أحوال المتوفى أي فإن كان المتوفى من المقربين عند الله السابقين في الحسنات ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ أي فله راحة وشميم ريحان لدماغه في البرزخ ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ في الآخرة ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي فيقال له سلام من الله لك وأنت من أصحاب اليمين ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالله ورسوله ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ عن الصراط المستقيم ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾﴾ أي فله في الآخرة طعام مهيأ كنزل الضيف وذلك

من حميم أي الماء الحار ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾ أي إدخال له في الجحيم ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ المذكور بأصنافه ﴿لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ أي لا شك ولا شبهة فيه.

واليقين هو بالمعنى العام من التصور والتصديق اسم للعلم المجرد عن الالتباس والشبهة، وبالمعنى الخاص بالتصديق هو التصديق الجازم الثابت المطابق للواقع. فغير المطابق للواقع جهل مركب، وغير الثابت اعتقاد عند الأصوليين ويسمى تقليداً عند المنطقيين. وأما غير الجازم فهو ظن، وقد يضاف إليه العين فيقال: عين اليقين، أو العلم فيقال علم اليقين، أو الحق فيقال حق اليقين، بمعنى اليقين الواقعي لا في الزعم. ومنهم من فرق بينها فيقول عين اليقين عبارة عن يقين حصل من استعمال الحواس كالبصر والسمع والشم والذوق واللمس، وعلم اليقين ما استفيد منه بدون استعمال الحواس. وهذان الصنفان ينفكان عن الإنسان بعدم استعمال الحواس وعدم الاستدلال في النظريات والنسيان في البديهيات. وأما حق اليقين فهو علم يقيني ضروري الوجود لا ينفك عن صاحبه كالعلم بوجود نفسه فتأمل ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ يعني فنزهه بذكر اسمه تعالى عما لا يليق بعظمة شأنه. أخرج الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه، وغيرهم عن عقبة ابن عامر الجهني قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ قال اجعلوها في ركوعكم، ولما نزلت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ قال اجعلوها في سجودكم.

❀ ❀ ❀

سورة الحديد

مدنية وآياتها تسع وعشرون نزلت بعد الزلزلة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ
وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ۝٣ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ
ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا
يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ۝٤ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ۝٥ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ
عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٦﴾.

قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ التسبيح تنزيه الله سبحانه وتعالى عن أضداد الصفات الثبوتية والسلبية المسندة إلى الله من: الوجود، والقدم، والوحدة، والبقاء، ومخالفة الحوادث، والاستغناء عما سواه، والحياة، والعلم، والإرادة، والقدرة، والسمع، والبصر، والكلام، وقال الجمهور: المراد بالتسبيح معنى عام مجازي شامل لما نطق به لسان المقال كتسبيح العقلاء من الملائكة والثقلين، أو لسان الحال كتسبيح الحيوانات والنباتات، فإنها تدل بإمكانها وحدوثها على الصانع القديم الواجب الوجود المتصف بالكمالات المنزه عن النقائص.

وذهب بعض إلى أن التسبيح على حقيقته المعروفة في الجميع، لأنها فيها مبدأ لذلك التسبيح وإن لم يكن الناس يفقهونه، ويدل على ذلك تسبيح الحصى في كفه ﷺ.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا يغلب ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة. ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي سلطة التصرف فيهما كيف شاء لأنه الخالق لهما، والخالق متصرف في مخلوقه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من الأشياء قدير بالغ القدرة لا يمنعه شيء ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ أي السابق على كل موجود ﴿وَٱلْءَاخِرُ﴾ الباقي بعد كل موجود بالنظر إلى ذاتها وإن كان بعضها بالنظر إلى تعلق إرادة الباري بوجوده باقياً أيضاً كالجنة والنار، ومن فيهما ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾ بآثاره ووجوده ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ بكنهه وحقيقته ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي في مقدار يساوي مقدار ستة أيام، سواء كانت كأيامنا، أو على ما قاله سبحانه ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ بالمعنى الذي أراده الحي القيوم ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كالبذور ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ كالزروع ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كالأمطار ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ كالملائكة بالليل والنهار ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ معية علمية واقتدارية ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يبصر حركاتنا وسكناتنا ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ فقط ولا علاقة لها بغيره استقلالاً أو اشتراكاً ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾ أي بما فيها من الأمور.

﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي اسعوا واجتهدوا وانظروا في الآيات النفسية والآفاقية وفي المعجزات حتى يظهر لكم الحق فآمنوا بالله الأول والآخر

والظاهر والباطن، وبرسوله لأن الإيمان به يوجب بلوغ الحق وقبوله ونفوذ أحكام الدين ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ﴾ أي من المال الذي جعلكم الله خلفاء عنه في التصرف ﴿فِيهِ﴾ أو خلفاء عن المورثين، أو الجيل السابق وتركه لكم، فإن الدنيا دولة ولكل جيل صولة ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ بالله ورسوله ﴿وَأَنفَقُوا﴾ حسبما أمروا به ﴿لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ لا يعلمه إلا الله ثم استفهم استفهاماً تعجبياً وقال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ﴾ الصادق الأمين المؤيد بالآيات البينات والمعجزات الواضحات ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ جميعاً ﴿لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ الواحد الأحد الفرد الصمد ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾؟ أي وقد أخذ الله ميثاقكم بالإيمان من قبل بنصب الأدلة النفسية والآفاقية وتمكينكم من النظر، أو أخذ ميثاقكم حين أخرجكم من ظهر آدم وأشهدكم على أنفسكم بالاعتراف بأن الله ربكم. أو أخذ الميثاق من أبيكم آدم حين أهبطه إلى الأرض وقـال: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أو أخذ الميثاق من النبيين جميعاً بتوصيتكم بالسير في طريق الحق كما قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ . .﴾ الآية. ولا شك أن كل رسول وصى بما أمر به. فقد روي عن الإمام أحمد رضي الله عنه، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن نقول في الله تعالى ولا نخاف لومة لائم، وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ شرط جوابه محذوف دل عليه ما قبله والمعنى إن كنتم مؤمنين لموجب ولدليل دل عليه ولداع يدعوكم إليه فالرسول الصادق وتبليغه للحقائق أكبر موجب وأكبر داع لكل إنسانٍ فاهم راعٍ واعٍ.

﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ واضحـات ﴿لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي ليخرجكم من ظلمات الجهل والكفر والعصيان وسوء أخلاق الإنسان إلى نور العلم والإيمان والإطاعة والأخلاق الحسان ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ولذلك أرسل إليكم الرسول الكريم ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي وأي نفع يحصل لكم في عدم إنفاقكم في سبيل الله أي في سبيل استحصال مرضاته في الدنيا والآخرة وكل ما تركتموه لا يصل إليكم منه شيء إلا ما قررتم أن يصرف بحيث تنتفعون به ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؟ والكائنات كلها عائدة إليه وتبقى له ومنافعها مربوطة بصرفكم وإنفاقكم لها في ما يوجب مرضاته تعالى ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ

مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ﴾ أي فتح مكة ﴿وَقَٰتَلَۚ﴾ في سبيل إعلاء كلمة الحق ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ﴾ أي بعد الفتح ﴿وَقَٰتَلُواْۚ﴾ لأن الجهاد في ضيق العباد أنفع منه في وقت السعد والراحة ﴿وَكُلّٗا﴾ من الجمعين ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ أي المثوبة الحسنى، وهي الجنة ولقاء ذاته تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ فيجازيكم بما تستحقونه وإن تلك حسنة يضاعفها. والآية نزلت في أبي بكر ﵁ فأنه أول من آمن وأنفق في سبيل الله، وخاصم الكفار، وضرب حتى أشرف على الهلاك.

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ والقرض الحسن أن يكون خالصاً للّه بدون طلب مقابل مادي أو معنوي ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ أي فيؤتيه مقابله بالمضاعفة كما يشاء ﴿وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾ أي وذلك الأجر المضاعف أجر كريم محترم مرضي عند الله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ إما ظرف لقوله وله أجر كريم أو لـ﴿يَسۡعَىٰ نُورُهُم﴾ أي حصل لهم أجر كريم عند الله تعالى يوم ترى المؤمنين والمؤمنات حال كونهم ﴿يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾. روى الحاكم وصححه عن ابن مسعود ﵁، أنه قال يؤتون نورهم على قدر أعمالهم يمرون على الصراط، منهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة، وأدناهم نوراً من نوره على إبهامه، يُطْفَأ مرة ويَقِد أخرى. وظاهره أن هذا النور يكون عند المرور على الصراط، وقال بعضهم: يكون قبل ذلك ويستمر معهم إذا مروا على الصراط وفي الأخبار ما يقتضيه، والمراد أنه يكون لهم النور في جهتين: جهة الأمام، وجهة اليمين. على ميزان إيتاء كتب الأعمال منهما وبسبب إيمانهم يقال لهم ﴿بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ﴾ هو ﴿ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ لأن السعادة والفوز هو الفوز الخالد المؤبد، فإن الخير المؤقت المحدد كاللاشيء عند من له شيء من الإدراك.

﴿يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ١٣ يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ١٤ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٥ ۞ أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ

مِنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾ بدل من ﴿يَوْمَ تَرَى﴾ وأصل الاقتباس أخذ القبس أي الجذوة يعني يقول المنافقون والمنافقات على سبيل الترجي والابتهال عندما وقعوا في ظلمات لا يرون فيها ما أمامهم للمؤمنين الذين نورهم يسعى في جانبهم انظروا إلينا لعلنا نستفيد النور من مواجهتكم ونقدر أن نعبر على الصراط فأتاهم الجواب من المؤمنين و﴿قِيلَ﴾ لهم: ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ﴾ أي من حيث جئتم من الظلمة أو إلى المكان الذي قسم فيه النور ﴿فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ هناك ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم﴾ أي بين الفئتين من أهل النفاق وأهل الإيمان بسور له باب أي بحاجز عالٍ له باب ﴿بَاطِنُهُۥ﴾ الذي يلي مكان المؤمنين ﴿فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ والرضوان إذ هناك الجنة وفيها ما ذكر ﴿وَظَٰهِرُهُۥ﴾ الذي يلي مكان أهل النفاق والكفر ﴿مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ أي من جهته العذاب، وقوله: ﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ استئناف مبني على السؤال، كأنه قيل: فماذا يفعلون بعد ضرب السور؟ فقال ينادونهم، أي ينادي أهلُ النفاق أهل الإيمان ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾؟ في الدنيا ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ فقد كنتم معنا ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ فختنموها بالنفاق وأهلكتموها ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بالمؤمنين الدوائر والدمار ﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾ وشككتم في أمور الدين ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ﴾ أي الأهواء الفارغة الباطلة ومن جملتها الطمع في هلاكنا ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي الموت ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ وهو الشيطان. ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ بأن تبذل لحفظ النفوس عن العذاب والعقاب ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ظاهراً وباطناً ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ وناصركم ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ النار، وبئس النصير النار.

ولما استعرض هذا الموضوع وهو ما أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أبي فاختة يجمع الله تعالى الخلائق يوم القيامة، ويرسل الله سبحانه على الناس ظلمة فيستغيثون ربهم فيؤتي الله تعالى كل مؤمن منهم نوراً ويؤتى المنافقين نوراً، فينطلقون جميعاً متوجهين إلى الجنة معهم نورهم، فبينما هم كذلك إذ أطفأ الله تعالى نور المنافقين، فيترددون في الظلمة ويسبقهم المؤمنون بنورهم بين أيديهم فيقولون انظرونا نقتبس من نوركم إلى آخر ما حكاه الباري تعالى. والأخبار في إيتاء المنافق نوراً ثم إطفائه كثيرة، وليس في الآية ما يأباه.

أقول: ولما استعرض الباري أحوال المنافقين والكافرين المجاهرين بالكفر ومصيرهم يوم القيامة.. التفت إلى وعظ المؤمنين وإرشادهم مع توبيخ ما وقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ عزَّ وجلَّ ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي القرآن الكريم الصادق الثابت الموجه للعباد إلى الرشاد ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ﴾ أي قبل نزول القرآن ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ أي الأجل بطول أعمارهم ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؟ صلبت كالحجارة أو أشد ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ خارجون عن حدود دينهم.

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ويبعث الأنام بعد مماتها ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ الوعدية والوعيدية ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وتفهمون مناط الأحكام وتعلمون أن من خرج عن سبيل الله تعالى استهواه الشيطان، وأن من استقام فهو في ظل الرحمن.

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ﴾ كلمة أل فيهما موصولة أي إن الذين تصدقوا، واللآتي تصدقن، فيناسب عطف ﴿وَأَقْرَضُوا۟﴾ أي إن الذين تصدقوا والذين ﴿أَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعَفُ لَهُمْ﴾ أي يضاعف الثواب لجميعهم ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي عظيم لا يقدر قدره ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي أولئك عند ربهم عزَّ وجلَّ وفي حكمه سبحانه بمنزلة الصديقين والشهداء، أو المراد بالصديقين المبالغون في الصدق لأنهم آمنوا بالله وصدقوا

جميع رسله الكرام، وبالشهداء القائمون بالشهادة على الأمم يوم القيامة، أو تبقى الآية الكريمة على ظاهرها، ولكن يحمل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾ على من لهم كمال في الإيمان بالله ورسله، ولا يتحقق ذلك إلا بترك المحرمات وفعل الطاعات والابتعاد عن الشهوات، لأن رتبة الصديقين والشهداء لا ينالها كل من دخل في الإيمان بدون طاعات وسيرة مباركة تصدق إيمانه وتشهد على كرامته عند ربه، وإذا كانوا كذلك يستحق أن يقال فيهم أولئك هم الصديقون والشهداء ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ يوم القيامة ويمرون على الصراط بسلامة وكرامة، ومع ذلك لا بد أن يقال أنهم وإن كانوا صديقين وشهداء ولهم أجرهم ونورهم، لكن درجاتهم دون درجاتهم بدليل قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وأمثالها من الآيات المميزة بين الناس في مجال الإيمان والأعمال.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي الملازمون للسعير ونارها لأن الكفر والإيمان متقابلان في الذات، فلا شك أنهما متقابلان في الآثار.

ولما استعرض الباري أحوال المؤمنين الصادقين والمنافقين والكافرين جهاراً التفت إلى المؤمنين وأرشدهم إلى الزهد عن الدنيا وقال: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي لعب لا ثمرة له، ولهو يشغل الإنسان عما يعنيه ﴿وَزِينَةٌ﴾ أي وتزين بأشياء لا يحصل منها شرف ذاتي كاللباس والجاه والمال والبيوت الرفيعة ﴿وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ﴾ بالأنساب ﴿وَتَكَاثُرٌ﴾ بالعدد والعُدد ﴿فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ لحسنه ونضارته ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي يتحرك إلى أقصى ما يصل إليه من الزيادة في الأقطار والنضارة في الأوراق والأوراد ﴿فَتَرَىٰهُ﴾ بعد مدة ﴿مُصْفَرًّا﴾ بعد النضارة والخضارة ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ أي هشيماً متكسراً ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لمن كفر بالله ورسوله، ولم يهتم بالعمل الصالح ووصوله ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾ لمن آمن بالله حق الإيمان وعمل صالحاً خالصاً لله ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ لمن لم يراعها ﴿إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾.

﴿سَابِقُوٓاْ﴾ أيها المؤمنون ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي كعرضها جميعاً لو اتصل أحدهما بالآخر ﴿أُعِدَّتْ﴾ وهيئت ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الذي لا يعلم مقداره غيره، أو فضله لا يتناهى حتى ينظر إليه بنظر الجهالة والجحود.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ توجيه العباد المؤمنين إلى الاستقامة مع الأقدار، والصبر مع الأكدار لا بمعنى أن يبقى الإنسان مكتوف الأيدي لا يعمل ولا يدافع، بل بمعنى أن الحوادث كثيرة وفيرة لا يمكن مدافعتها ولا معالجتها، بل بعد الجهد في الأسباب قبل الورود، وفي الدفع قبل النزول، وفي الرفع بعد الحصول إذا بقي شيء منها وجب على الإنسان أن يتلقاها برحب الصدر، ويقابلها بقوة الصبر، فإن الصابر مأجور فقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ حادثة تؤلم الإنسان ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كجدب وعاهة في الزرع والثمار، وحشرات ظاهرة في الأرض، أو هائجة على الأوطان ﴿وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ من المرض والعاهة وقلة المال وضيق البال وموت الأولاد والأقارب وهجر الأوطان.. وغير ذلك ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ مسطور ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ أي نخلق تلك المصيبة.

والمراد بالكتاب إما علمه تعالى الأزلي، أو اللوح المحفوظ، أو كتاب الأقدار والأعمال المرتبط بكل إنسان على حياله يعني أنه قدر أن المصاب لم يباشر أسباب الوقاية، ولم يستحصل موجبات الدفع أو الرفع من الأسباب المادية الاعتيادية أو الأسباب المعنوية من الصدقات والدعوات وغيرها، فلذلك نزلت واستقرت. وهذا النوع من الأقدار مبرمة، لأنه إذا وقعت الواقعة فليس لوقعتها كاذبة. وتبين أن الأمر قد تقرر وصدر الأمر بحدوثه، وأما ما وفق الله الإنسان لسده قبل وروده كأخذ الحذر والحيطة، والوقاية منها، والتحصن في القلاع وجمع الأقوات في المخازن والمحلات الخاصة، والتداوي.. وهذه كلها من الماديات. أو بالإحسان والصدقات والدعوات وما شاكلها من الصلح، والمفاوضات، وصرف المال، والحال.. فهذه من الأمور التي تعلق العلم بعدم نزولها. ويقال لها في العرف المعلقات ومباشرة أسبابها واجبة على العين أو الكفاية. وبما أنا لا نعلم الغيب ولا ندري ماذا نكسب غداً وجب علينا السعي حسب علمنا بأسباب الوقاية كما قال تعالى: ﴿خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا﴾ فإن لكل شيء سبباً

أو أسباباً. والله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل. وهذا هو الظاهر من نصوص القرآن العظيم وسنّة الرسول الكريم، والغفلة والبطالة عن مباشرة الأسباب المادية أو المعنوية خلاف الشريعة السماوية وخلاف المقررات والمجرّبات البديهية، فمن يقول بأن الدعاء لا ينفع والصدقة لا تفيد فهو كمن يقول أن التداوي لا يفيد، وأن الأكل لا يشبع، وأن الماء لا يروي.. وهذا جهالة صرفة. وما ورد في بعض السنن من أن النذور لا تدفع شيئاً ولا تؤخر أجلاً فمعناه أن هذه الأشياء أسباب والأسباب ليست مؤثرة، بل التأثير لذات الحق سبحانه وتعالى فهذه طريقة المسلمين فامشوا عليها واستقيموا.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي إن ثبوت كل مصيبة في كتاب يسير على الله تعالى لا صعوبة فيه، وقوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ لكيلا تأسوا وتتأسفوا على ما فاتكم من الأموال والأنفس ﴿وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ لأن الأمور المقدرة المقررة يجب وقوعها وحدوثها وحصولها، وعدم الأسى على ما فات، وعدم الفرح بما هو آت وإن كان من المصاعب الاعتيادية لكن الإنسان العالم العاقل يقدر على أن يخفف قوة الأسف وشدته بالنظر في الدلائل النقلية المفيدة للأجر والدلائل العقلية الموجبة للصبر، والنصوص الداعية لوجوب الشكر على النعم كي تبقى حتى يلقى، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ تذييل يفيد أن الفرح المذموم هو الموجب للبطر والاختيال وذلك لا يناسب المؤمن بكل حال.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ بدل من كل مختال يعني أن المختال الفخور هو الذي يبخل وغالباً من عادات البخلاء أنهم يأمرون الناس بالبخل، فهو سبحانه وتعالى لا يحب أولئك الناس الفاسدين الجامدين الذين لا يحصل منهم خير لغيرهم ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ عن إرشادات الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ عنه وعن غيره و﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المحمود في كل فعاله لا يهمه منهم شيء أبداً.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى

ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ
ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ
ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ
رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ
فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن
رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ
أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن
يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بيان وبلاغ إلى عقلاء الثقلين مفاده أنا أرسلنا رسلنا إلى العباد للتنوير والإرشاد ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الهادي إلى الصواب ﴿وأرسلنا معهم ٱلْمِيزَانَ﴾ أي منهاج العدل في الاعتقاديات والعمليات في الأصول والفروع حتى يعيشوا سعداء بالاعتدال في الاعتقاد والأعمال، وأن لا يبخسوا الناس أشياءهم من أنفسهم وأموالهم وأحوالهم، فمن توسط واعتدل في الإدارة والأحكام عاش بأمانة وسلامة وإكرام، أو الميزان هو ميزان المعاملات المربوطة بالوزن والكيل حتى تتم للناس السعادة و﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي بالعدل في الحقوق للأنفس والأغيار على قاعدة لا ضرر ولا ضرار ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ أي وخلقناه كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ أو معناه هيأناه لكم وأنعمنا به عليكم كما يهيىء النزل للضيف قبل وروده، أو أنزلنا من السماء بالوحي استخراج الحديد من المعادن، والتصرف فيه بصنع الآلات الحربية والاستعمالية في البيوت، فاستخرجوه، ثم تطورت الصناعة إلى أن وصل إلى الدرجة الراقية في هذا العصر، فتستعمل بحسب تطور الدنيا وتبدل الحاجات، فإن ميزان القسط وحده بدون قوة رادعة للخائبين لا ينفع، والحاجة ماسة ضرورة إلى سيوف بعد حروف، ولجمع الحديد بين منافع الدنيا ومنافع الآخرة، أما في الدنيا فباستعماله فيما لا بد منه للعيش، وأما في الآخرة فللجهاد به ودفع أهل الطغيان والطيش قال تعالى: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ من استعماله في الأمور الحيوية والأمور الحربية ليندفع به أهل الأهواء المغروررون ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ﴾ أي ومن ينصر رسله باستعمال السيف والسنان والمدافع القوية

النيران، وقوله: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ للدلالة على أن من لم يكن له إيمان بالله بينه وبين الله لا يشهر السيف على الأعداء، ولا يقتحم أمواج القتال والبلاء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ﴾ قادر على نصر من ينصر دينه ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يغالب على عزته وقوته على العالمين.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ أما في ذرية نوح فالمراد الأنبياء والرسل من الأمم المنتشرة في أقطار العالم شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً، فإنه لم تخل أية أمة من رسول وأحكام قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ وقال: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ أي وترى واحداً بعد واحد، وأما في ذرية إبراهيم فالأنبياء والرسل الموجودون من إسحاق وأولاده المعروفين ببني إسرائيل وكشعيب من نسل مدين ابن إبراهيم ومن إسماعيل وأولاده كسيدنا محمد ﷺ ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ﴾ بالكتاب وسلك طريق الصواب ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ خارجون عن حكم الكتاب ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾ أي أرسلنا بعدهم رسولاً بعد رسول، وأصل التقفية جعل الشيء خلف القفا، وضمير آثارهم لنوح وإبراهيم ومن أرسلا إليهم من قومهما ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ أي جعلناه بعد أولئك الرسل ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ هما إذا افترقا اجتمعا على معنى واحد، وإذا اجتمعا افترقا على معنيين، فالرأفة ما فيه درء الشر، والرحمة ما فيه جلب الخير، وقوله: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ من باب الاشتغال، أي وابتدعوا رهبانية ابتدعوها من أنفسهم لتحصيل الثواب بالانقطاع من لذائذ الدنيا ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي ما فرضناها عليهم، إذ قلما يوجد إنسان له طاقة على اجتناب المشتهيات النفسية وقوله: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ استثناء منقطع أي ما فرضناها عليهم رأساً، ولكن ابتدعوها وألزموها أنفسهم ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي ما حافظوا عليها حق المحافظة فإن من التزم مندوباً وجبت عليه رعايته والدوام عليه وأن لا يأتي بما فيه المخالفة والمنافاة مع التزامه، وأن لا يحتال لتخليص نفسه منه، وأن لا يريد من ورائه شهرة أو سمعة، أو جلب الناس وكسب الجاه والمال به منهم، فإن ذلك هروب من الله لا رهبانية منه ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ﴾ إيماناً سالماً من المناقضات والمعارضات ﴿أَجْرَهُمْ﴾ على نياتهم وطاعاتهم ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ مارقون فجعلوها وسيلة إلى مفاسد لا تعد ولا تحصى، ومنها إخزاء الرهابنة الصادقين.

وفي هذه الآية الشريفة القول الفصل في الأعمال المستزادة على ما كان أولاً في عهد الرسول فإن كان ذلك على منهج الدين من طلب مرضاة الله تعالى ومنع

النفس الأمارة بالسوء عن الشهوات ومراعاة الشخص حقه فلا بأس به ولا إنكار عليه لأن نص قوله تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ يدل على أنهم لو كانوا يراعونها كانوا مكتسبين للأجر، ولذا قال تعالى: ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ وإن كان على غير ذلك فهو فسوق وخروج عن نظام الدين.

وتفصيل الكلام في الموضوع ما ذكره الإمام محيي الدين النووي في شرح صحيح مسلم، قال العلماء: البدعة خمسة أقسام: واجبة، ومندوبة، ومحرمة، ومكروهة، ومباحة. فمن الواجبة تعلم أدلة المتكلمين للرد على الملاحدة والمبتدعين وشبه ذلك. ومن المندوبة تصنيف كتب العلم، وبناء المدارس، والربط، وغير ذلك. ومن المباحة التبسط في ألوان الأطعمة وغير ذلك. والحرام والمكروه ظاهران، فعلم أن قوله ﷺ: «**كل بدعة ضلالة**» من العام المخصوص.

وقال صاحب جامع الأصول: الابتداع من المخلوقين إن كان في خلاف ما أمر الله تعالى به ورسوله ﷺ فهو في حيز الذم والانكار، وإن كان واقعاً تحت عموم ما ندب الله تعالى به ورسوله ﷺ فهو في حيز المدح، وإن لم يكن مثله موجوداً كنوع من الجود والسخاء وفعل المعروف، ويعضد ذلك قول عمر رضي الله عنه، في صلاة التراويح: نعمت البدعة هذه.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي اثبتوا واستمروا على تقواه عزَّ وجلَّ فيما نهاكم عنه ﴿وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ﴾ محمد ﷺ ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾ أي نصيبين ﴿مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ يوم القيامة وهو النور المذكور في قوله تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم﴾ [الحديد: ١٢] ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ما سلف منكم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أخرج الطبراني عن ابن عباس وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قالا: إن أربعين من أصحاب النجاشي قدموا على النبيّ ﷺ فشهدوا معه أُحُداً، فكانت فيهم جراحات ولم يقتل منهم أحد فلما رأوا ما بالمؤمنين من الحاجة قالوا: يا رسول الله إنا أهلُ ميرةٍ فأذن لنا نجيء بأموالنا نواسي بها المسلمين فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ فجعل لهم أجرين فلما نزلت هذه الآية قالوا: يا معشر المسلمين أما من آمن منا بكتابكم فله أجران، ومن لم يؤمن بكتابكم فله أجر كأجوركم. فأنزل الله

تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ يؤتكم كفلين من رحمته.. الآية أي راداً عليهم قولهم ومن لم يؤمن بكتابكم فله أجر كأجوركم. وقوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ متعلق بالجملة الطلبية السابقة المتضمنة لمعنى الشرط، إذ التقدير إن تتقوا الله وتؤمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته الآية.. ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ وكلمة (لَا) مزيدة أي ليعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله ﴿وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ وهذه الجملة تذييل مقررة لمضمون ما قبله والله أعلم.

❀ ❀ ❀

الجزء الثامن والعشرون
سورة المجادلة

مدنية وآياتها اثنتان وعشرون نزلت بعد المنافقون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ يعني قد سمع الله قول المرأة التي تجادلك وتراجعك الكلام في شأن زوجها، وفيما صدر عنه من عبارة الظهار، تريد أن ترجع إلى زوجها.

وكان الظهار في الجاهلية، وصدراً من الإسلام، طلاقاً إلى أن نزلت الآية ببيان حكمه وحل المرأة بإعطاء الكفارة، والظهار لغة: مصدر ظاهر وهو مفاعلة من الظهر، ويراد به معان مختلفة راجعة إلى الظهر معنى ولفظاً باختلاف الأغراض، فيقال: ظاهر زيد عمراً أي قابل ظهره بظهره حقيقة. وظاهره إذا نصره باعتبار أنه يقال قوى ظهره إذا نصره. وظاهر بين ثوبين إذا لبس أحدهما فوق الآخر باعتبار جعل ما يلي به كل منهما الآخر ظهراً للثوب، وظاهر من امرأته إذا قال لها أنت

علي كظهر أمي. وأما معناه شرعاً فعلى اجتهاد المجتهدين فقد عرفه الحنفية بأنه: تشبيه المنكوحة أو عضو منها يعبر به عن الكل كالرأس أو جزء شائع منها كالثلث، بقريب محرم عليه على التأبيد أو بعضو منه يحرم النظر عليه.

وعند الشافعية: تشبيه الزوج زوجته بمحرم نسباً، أو رضاعاً، أو مصاهرة من الإناث التي لم تطرأ حرمتها عليه. ولا فرق بين أن تكون الصيغة مقارنة للتشبيه أو لا، إلا أن الصيغ التي تحتمل الكرامة والحرمة تحتاج إلى نية الظهار. وتفصيل الصيغ المستعملة، وبيان أحكامها، يحتاج إلى مراجعة الكتب المعتمدة عند أئمة المذاهب، غير أنه اتفق الفقهاء على أن الرجل إذا قال لزوجته أنت عليّ كظهر أمي أنه ظهار. واختلفوا إذا ذكر عضواً غير الظهر، أو ذكر ظهر من تحرم عليه ممن يحرم نكاحهن على التأبيد غير الأم، فقال مالك: هو ظهار، وقال جماعة من العلماء: لا يكون ظهاراً إلا بلفظ الظهر والأم، وقال أبو حنيفة: يكون بكل عضو يحرم النظر إليه. وسبب اختلافهم معارضة المعنى للظاهر، وذلك أن معنى التحريم تستوي فيه الأم وغيرها من المحرمات، والظهر وغيرها من الأعضاء، وأما الظاهر من الشرع فإنه يقتضي أن لا يسمى ظهاراً إلا ما ذكر فيه لفظ الظهر والأم. وأما إذا قال هي عليّ كأمي ولم يذكر الظهر، فقال أبو حنيفة والشافعي ينوي في ذلك لأنه قد يريد بذلك الإجلال لها وعظم منزلتها عنده وقال الإمام مالك ﷺ هو ظهار.

وقد أخذ الباري يبين حكم الظهار فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ كأوس بن الصامت الذي ظاهر خولة بنت مالك بن ثعلبة ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ﴾ ليست تلك النسوة المظاهر منهن أمهات لأولئك الرجال ﴿إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ بعيداً عن الأدب إذا شبهوا زوجاتهم بأمهاتهم بأن قال المظاهر لزوجته أنت علي كظهر أمي ﴿و﴾ يقولون ﴿زُوراً﴾ من الكلام أي جملة كاذبة خاطئة إن قال المظاهر أنت أمي. وذلك الكلام فاسد في النقل ومخالف للعقل ويأثم به القائل ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ﴾ مبالغ في العفو ﴿غَفُورٌ﴾ مبالغ في المغفرة للذنوب.

﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ﴾ فان قال القائل أنت علي كظهر أمي ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ أي يتندمون عنه بالعزم على أن يبقوها ويطأوها أو بإمساكها مدة تسع إجراء صيغة الطلاق كما هو عند الإمام الشافعي ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾ أي فالواجب عليه تحرير رقبة سليمة من العيوب المخلة بالعمل من قبل أن يتلاقيا ويطأ

الزوج زوجته لأن وطأها قبل إعطاء الكفارة حرام ﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ﴾ به أي ذلكم الحكم بوجوب الكفارة توعظون به لأنه يدل على ارتكاب الجناية الموجبة للغرامة ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي يعاقبكم إذا خالفتم حكمه ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ الرقبة أو وجدها ولم يجد ما يشتريه به ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ أي فالواجب عليه ذلك ﴿مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ فإن أفطر بغير عذر لزمه الاستئناف، أو بعذر ففيه خلاف.

﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ﴾ أي الصوم لهرم أو مرض أو شبق مفرط فإطعام ستين مسكيناً ستين مداً عند الإمام الشافعي، وعند أبي حنيفة كل مسكين نصف صاع أو قيمته من النقد. ﴿ذَٰلِكَ﴾ الحكم ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي فرض ذلك لتصدقوا بالله ورسوله في قبول شرائعه ورفض ما كنتم عليه في الجاهلية، وحدود الله لا يجوز تعديها ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ الذين لا يقبلونها ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَا
آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا
عَمِلُوا ۚ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي
السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا
هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا
عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي يعادونهما فإن كلاً من المتعاديين في طرف وحد غير طرف الآخر وحده ﴿كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي أهلكوا كما أهلك الذين من قبلهم ويرجعون إلى الله ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي أنهم حادوا الله ورسوله مع أنا أنزلنا آيات فيها تشريع الأحكام العملية الدينية، والمبايعات والمعاملات والأحوال الشخصية، والجنايات والقضاء وغيرها.. مما لا بد منه للإنسان، وقررنا لهم الاجتهاد والاستنباط لأحكام لم يكن عليها نصوص، ومع ذلك عارضوا تلك الأحكام، وقرروا أحكاماً أخرى بدون الحاجة الماسة إليها ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ المحادين لله ورسوله ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ من القبائح ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ﴾ أي أحصى ما عملوه ﴿وَ﴾ هم ﴿نَسُوهُ﴾ لعدم اهتمامهم بالمخالفات ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ مطلع لا يغيب عنه شيء.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ غيبها وشهادتها ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ﴾ أي التناجي أي الكلام الجاري بين الناس سراً بحيث يختص بفهمه أهله من ﴿ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ﴾ أي الباري تعالى: ﴿رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾ كأن يكون بين اثنين ﴿وَلَا أَكْثَرَ﴾ كأن يكون بين ستة فصاعداً ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ يعلم ما يجري بينهم ﴿أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ من الأماكن ولو كانوا في سراديب ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فإن كان أمراً بصدقة أو إصلاح بين الناس فجزاؤهم المثوبة الحسنى، أو كان تدبيراً لتدمير قوم أو بلد أو قرية أو عائلة أو إهلاك شخص فالجزاء هو العقاب كما يستحقه أهل الكتاب ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لأن نسبته إلى كل شيء يساوي نسبته إلى غيره.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في اليهود والمنافقين، كانوا يتناجون دون المؤمنين وينظرون إليهم ويتغامزون بأعينهم عليهم يوهمونهم عن أقاربهم أنهم أصابهم شر، فلا يزالون كذلك حتى تقوم أقاربهم، فلما كثر ذلك شكا المؤمنون إلى الرسول ﷺ فنهاهم أن يتناجوا دون المؤمنين، فعادوا لمثل فعلهم، وقوله: ﴿وَيَتَنَاجَوْنَ﴾ معطوف على ما قبله وداخل في حكمه، أي ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون ﴿بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ﴾ أي قدموا لك التحية ﴿بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ روى البخاري ومسلم أن ناساً من اليهود دخلوا على رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم فقال ﷺ: وعليكم، قالت عائشة رضي الله عنها وقلت: وعليكم السام ولعنكم الله وغضب عليكم فقال ﷺ: «**يا عائشة إن الله لا يحب الفاحش ولا المتفحش**» فقلت: ألا تسمعهم يقولون السام؟ فقال ﷺ: «**أو ما سمعت أقول وعليكم**»؟ فأنزل الله تعالى وإذا جاؤك.. الآية ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ أي هلا

يعذبنا الله بسبب ذلك لو كان محمد ﷺ نبيّاً، أي لو كان نبياً لعذبنا الله بسبب ما نقول من التحية! فيقول الله تعالى: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝٨ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ كما يفعله المنافقون ﴿وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ أي بما يتضمن خير المؤمنين ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٩ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ﴾ أي المعهودة الملعونة التي تكون لإضرار المؤمنين وفي نقد أعمالهم ومعصية الرسول ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ أي من إلقائه وإثارته في قلوبكم ﴿لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي بإرادته إضرارهم ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ لا على غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١١ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝١٢ أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٣﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا﴾ هذه الآية الكريمة مع ما قبلها من الآداب الاجتماعية فواجب الإنسان العاقل الاجتماعي أن يتحبب إلى المجتمع ولا يفعل شيئاً يوجب الإثارة والعداء حتى يكون له وزن ويسمع الناس نصائحه وإرشاداته، والنجوى المثير للعداء وخوف الناس من الشرور والمفاسد العامة فنهى الله عنه أولاً، وأمر بالفسح وإعانة الناس في المجالس ثانياً حتى يأخذوا مكاناً على مكانتهم وبذلك يزداد الود والتحابب بين الناس فأمر به في هذه الآية وقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا﴾ أي فليفسح بعضكم لبعض فيها. فإذا فسحتم لهم فيها ﴿يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي في رحمته أو في الجنة أو في منازلكم أو في الأمكنة التي يردون عليها في المسافرات والعزائم أو في صدوركم أو في قبوركم، فإن حاجة الإنسان إلى الفسح أكثر من أن يحصى، والله قادر على كل فسح في كل مكان ومقام. أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حبان كان ﷺ يوم الجمعة في الصفة، وفي المكان ضيق، وكان عليه الصلاة والسلام، يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار، فجاء ناس من أهل بدر

منهم ثابت بن قيس بن شماس، وقد سبقوا إلى المجالس، فقاموا حيال رسول الله ﷺ فقالوا: السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته فرد النبيّ ﷺ، ثم سلموا على القوم فردوا عليهم، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم فلم يفسحوا، فشق ذلك على رسول الله، فقال لبعض من حوله: قم يا فلان ويا فلان، فأقام نفراً مقدار من قدم فشق ذلك عليهم. وعرفت كراهيته في وجوههم، وقال المنافقون: ما عدل بإقامة من أخذ مقامه وأحب قربه لمن تأخر عن الحضور! فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ . . .﴾ الآية وكان تلك الكراهية ممن لم يفسح تنافساً في القرب من رسول الله ﷺ ورغبته فيه، ولا تكاد نفس تؤثر غيرها بذلك ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ﴾ أي انهضوا للتوسعة على المقبلين ﴿فَٱنشُزُواْ﴾ ولا تتثبطوا ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ مجزوم في جواب الأمر ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ من المؤمنين ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ وعطفهم على الذين آمنوا من عطف الخاص على العام للاهتمام ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وعد للمتمثلين ووعيد لغيرهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾ أي إذا عزمتم على المناجاة معه ﴿فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ أي فتصدقوا قبلها على الفقراء ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ ذلك التقديم خير لكم لأجل نيل الثواب، وأزكى لأنفسكم لما فيه من تعويدها على الصدقات وعدم الاهتمام بخزن الأموال ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث رخص لمن لم يجد ما يقدمه أن لا يقدم ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ﴾؟ أي أخفتم الفقر لأجل تقديمها ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي لم تفعلوا ما أمرتم به وقد سامح الله عنكم ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في سائر الأوامر ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ
عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾
ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ
وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ
جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾
ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ
هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ

لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا﴾ تعجيب من حال المنافقين الموالين لليهود، فيقول سبحانه وتعالى ألم تر أيها الرائي إلى المنافقين الذين تولوا قوماً من اليهود ﴿غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ ولعنهم وأعد لهم جهنم ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ﴾ أي ليسوا منكم لأنهم منافقون وأنتم مسلمون صادقون ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾ لأنهم ليسوا من اليهود لا حسباً ولا نسباً، وفي الحديث: «**مثل المنافق مثل الشاة العائرة بين غنمين، لا تدري أيهما تتبع**»، ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ﴾ أي ويحلفون على حكم غير مطابق للواقع يعني يحلفون أنهم مسلمون وليسوا كذلك ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون. روي أنه ﷺ كان في حجرة من حجراته فقال: «**يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار، وينظر بعين شيطان**» فدخل عبد الله بن نبتل المنافق، وكان أزرق، فقال ﷺ له: «**علام تشتمني أنت وأصحابك**»؟ فحلف بالله ما فعل. ثم جاء بأصحابه فحلفوا فنزلت ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فتمرنوا على سوء العمل وتدربوا عليه ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ وقاية دون دمائهم وأموالهم ﴿فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فمنعوا الناس في خلال أمنهم عن سلوك سبيل الله ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي فلهم في الآخرة على رؤوس الأشهاد عذاب مهين محقر لهم عقاباً على استخفافهم بدين الله ورسالة رسوله ﴿لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ أبد الآبدين ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ﴾ أي لله تعالى قائلين: والله ما كنا مشركين ﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْۖ﴾ في الدنيا أنهم مؤمنون صادقون ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ﴾ بتلك الأيمان الكاذبة ﴿عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ من المنافع أو رفع العقاب والعذاب كما كانوا يدفعون بها في الدنيا بعض المضار المتوجهة إليهم ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾ وأي كذب أشد وأقوى وأكثر كسراً للأدب من الكذب أمام علام الغيوب؟.

﴿ٱسْتَحْوَذَ﴾ أي غلب ﴿عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ بالوساوس الفاسدة المفسدة حتى اتبعوه فيما ألقاه إليهم من الكفر والعناد ﴿فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِۚ﴾ تعالى ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِۚ﴾ أي

جنوده ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ أي المتصفون بالخسران في الدنيا والآخرة. ثم استأنف مشيراً لتعليل خسرانهم وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ ويخالفون أوامر الله ورسوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ﴾ وعلل ذلك بما يؤخذ من قوله الكريم ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ بالكتاب والحراب، بالإرشاد لأهل الرشاد، وبإعداد العدة على أهل العناد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾.

﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي لا ينبغي أن تجدهم وادين أعداء الله ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ﴾ وكل من تجده من المؤمنين يعاندونهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين لا يُوادون من حاد الله ورسوله ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ أي أثبته الله بحيث لا يقبل الزوال ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ أي قواهم يعني قوى سلطان وجودهم أعني القلب ﴿بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ أي بنور أفادهم الحياة الأبدية والسعادة السرمدية ﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ أبد الآبدين ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ أي ابتهجوا بما أوتوه من لطائف المنن الروحية وعوارف المعارف الفتوحية، فغلبت على قلوبهم حالة نفسية قدسية، فأحبوا الله تعالى ورضوا عنه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الناس الموصوفون بما سبق ﴿حِزۡبُ ٱللَّهِۚ﴾ أي زمرته وجماعته وثلته وكفى ذلك الحزب شرفاً إضافته إلى الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ لأنهم هم المؤمنون الصادقون الثابتون الصالحون.

❀ ❀ ❀

سورة الحشر

مدنية، وآياتها أربع وعشرون نزلت بعد البينة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾ هذه السورة تسمى سورة الحشر لجمع بني النضير وإخراجهم من جزيرة العرب إلى الشام.

روي أنه ﷺ لما قدم المدينة صالح بني النضير على أن لا يكونوا عليه ولا له، فلما ظهر يوم بدر قالوا: أنه النبيّ المنعوت في التوراة بالنصرة. فلما هزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا. وخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكباً إلى مكة، وحالفوا أبا سفيان، فأمرَ رسُول الله ﷺ أخا كعب بن أشرف من الرضاعة فقتله غيلة، ثم صبحهم بالكتائب وحاصرهم حتى صالحوا على الجلاء، فجلا أكثرهم إلى الشام، ولحقت طائفة بخيبر والحيرة. فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ إلى قوله ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

والتسبيح: هو التنزيه والتقديس لله سبحانه وتعالى عما لا يليق بذاته وصيغة

الماضي لتحقق وقوعه في الماضي وما يستقبل ما دام معلوماً له تعالى فهو كالماضي المنقضي المتحقق. وكلمة ما تستعمل للعاقل وغيره سيما إذا اختلط العقلاء بغيرهم، وصاروا في قلة من العدد بالنسبة إلى غير العاقل، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي الغالب الذي لا يغلب والفاعل الذي تقارن أفعاله الحكمة، وفيه صنعة بديع براعة الاستهلال لأن السورة في بيان عزة الله ورسوله والمؤمنين، ويفيد عزته وغلبته.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي يهود بني النضير ﴿مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ أي في أول حشرهم وإخراجهم من جزيرة العرب إلى الشام إذ لم يصادفوا هذا النوع من الإخراج من الجزيرة، أو في أول حشرهم للقتال مع رسول الله ﷺ حيث صبحهم بالكتائب وحاصرهم حتى صالحوا على الجلاء، وآخر حشرهم إجلاء عمر رضي الله عنه إياهم من خيبر إلى الشام ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟﴾ لشدة بأسهم وكثرة أموالهم ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي ظنوا أن حصونهم المستحكمة وتحصنهم بها تمنعهم من بأس الله تعالى ونكايته بهم ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ أي فأتاهم أمره وبأسه وقدره من حيث لم يظنوا أنه يأتيهم كذلك وذلك بقتل رئيسهم كعب بن الأشرف وإلقاء الخور والجبن والفشل في أوساطهم ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ أي الخوف الشديد ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ﴾ أي بمباشرة أيديهم ومعالجتها وإخراج الاخشاب منها لسد أفواه الدرابين حتى لا يدخل منها المسلمون عليهم ﴿وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إن كان فيهم بعض المؤمنين من الذين كانت لهم مصلحة في المزارع والبساتين وغيرها جاز اعتبار الباء الملحوظة هنا مثل الباء في المعطوف عليه بأن باشرت أيدي المؤمنين إخراج الأخشاب وتخريب البيوت، وإلا فالباء في المعطوف سببية بمعنى أن حصارهم واستعدادهم لقتال اليهود تسببا في تخريبهم بيوتهم ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ وانظروا أن علة حلول العذاب بهم استكبارهم وعنادهم مع الحق فكلما استكبر قوم وعصوا أمر الله تعالى أتاهم بأسه من حيث لا يحتسبون، فإن ذلك من القياس الجلي ولا ينكره إلا الغبي، ولا تظنوا أن نكاية الله وعذابه تنحصر في سبب واحد بل لها أسباب وعلل لا تكاد تحصى، وما يعلم جنود ربك إلا هو.

﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾ من الجزيرة إلى الشام وغيرها ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بالقتل كقتلى بدر أو بالأمراض والعاهات أو بوقوع الشقاق بينهم فإنه من

أعظم الآفات ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾ علاوة على ما في الدنيا ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي ذلك العذاب النازل بهم بسبب أنهم شاقوا الله ورسوله وأحدثوا الشقاق والمخالفة مع الله ورسوله وفعلوا ما فعلوا من القبائح كنشر الفوضى في ربوع الجزيرة ومخالفة أعداء الرسول والمؤامرة عليه لقتله وتحريش الناس وتحريضهم عليه وغير ذلك. ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ﴾ وفيه مشاقة رسوله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ
ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ
عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ
كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ
فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن
دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا
يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ
خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ
بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى
قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ إشعار بنصر الله تعالى للمؤمنين، وأن هذه الأمور الجارية من أسباب العز والكرامة كله من الله تعالى فيقول ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ أي من كريمة من النخلة ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي بخلقه تعالى وأن الحوادث مخلوقة له مطلقاً، وبرضاء الله ومحبته فإنه أراد إتمام نوره ونشر الإسلام ليحقق ما أراده وأحبه ﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ المارقين عن الإسلام ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ﴾ أي وما أرجعه الله وأوصله إلى المسلمين من أموالهم ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ فما أسرعتم عليهم فرداً من الخيل، ولا فرداً مما يركب من الإبل ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ أي ولكن جرت سنته الإلهية

البهية بأن يسلط رسله الكرام على من يشاء من عباده فيهيىء أسباب النصر المبين لهم ولمن تبعهم من المسلمين ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ﴾ فيفعل بالعباد ما أراد من العز والذل، والملك والفقر، والصحة والمرض، وغيرها. وحاصل معنى هذه الآية الكريمة أن ما أفاء الله على رسوله من بني النضير بعد الجلاء والخروج من الديار كان مختصاً بالرسول ولم يكن لأحد حق فيه، ولذلك قسمه بين المهاجرين ولم يعط الأنصار إلا ثلاثة منهم لفقرهم، والثلاثة: أبو دجانة سماك، وسهل بن حنيف، والحرث بن الصمة، وأخذ من ذلك ما احتاج إليه لصرفه على عائلته وممونه.

وقوله: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ بيان لما أفاء الله على رسوله من قرى الكفار بعد بيان حكم ما أفاء الله عليه من بني النضير، وبمقتضى ظاهر هذه الآية الشريفة فإن الفيء يقسم ستة أقسام: سهم منه لله ويصرف في الكعبة الشريفة. وسهم للرسول، يصرفه في نفسه وعائلته. والأسداس الأربعة الباقية لمن ذكر فيها. والجمهور على أن ذكر الله تعالى للتبرك، وأن سهم الله ورسوله واحد، والأخماس الأربعة الباقية للأصناف الأربعة المذكورة. والفرق بين الفيء والغنيمة أن الأول ما يحصل للمسلمين بدون القتال كما تركه الكفار وجلوا عنه وأمثاله وذلك يخمس كما ذكرنا، إلا ما اختص به ﷺ من بني النضير. وأما الغنيمة فهي مال حصل لهم بالحرب معهم، وهي تقسم بين المقاتلين إلا خمساً منه فهو يخمس ويقسم كالأقسام الخمسة من الفيء فقد روي بأسانيد معتبرة مقبولة.

وقوله تعالى: ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ﴾ تعليل للتقسيم المذكور أي قسمت بين الأصناف الخمسة كي لا يكون مالاً متداولاً بين الأغنياء منكم يتكاثرون به ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ أي وما أعطاكم من الفيء فخذوه لأنه حقكم الذي أحله الله لكم، وما نهاكم عن أخذه فلا تأخذوه ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في مخالفته ﷺ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ لمن خالفه وعذبه. أعاذنا الله وعافانا من المخالفة، ووفقنا على الموافقة والمؤالفة بمنه وكرمه آمين.

وقوله تعالى: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ بدل من قوله السابق لذي القربى وما عطف عليه. ومعناه أن استحقاق ذوي القربى للفيء مشروط بفقرهم، فلا يجوز صرفه لأغنيائهم، وإليه ذهب الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه، ومن أعطى أغنياءهم كالشافعي رضي الله عنه خصص الإبدال بما بعد ذي القربى أي اليتامى وما بعده، أو الفيء بفيء بني

النضير، فإنه لم يعط الأغنياء منه مطلقاً، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ حيث اضطرهم كفار مكة وأحوجوهم إلى الخروج فخرجوا منها. وكان هؤلاء مائة رجل ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ أي يطلبون منه رزقاً في الدنيا ومرضاة في الآخرة ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أي ناوين لنصرة الله ورسوله ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ﴾ معطوف على المهاجرين، والمراد بهم الأنصار والتبوء النزول في المكان والآية من قبيل: وزججن الحواجب والعيونا. أي تبوأوا الدار وألِفوا الإيمان ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي من قبل المهاجرين، والمراد من قبل هجرتهم إلى المدينة المنورة، حال كونهم ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ من مكة وغيرها لمواساتهم ومساعدتهم ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ أي حاجة واقتضاء لما أعطي المهاجرون من الفيء يعني يستحبون أن يكون المال لهم لكونهم فقراء مهاجرين في سبيل إعلاء كلمة الحق والدين ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي ويختارون غيرهم ويقدمونهم على أنفسهم في نيل المال من الفيء وغيره، ولو كان أي ولو وجد بهم خصاصة وحاجة وفقر حال.

روي أنهم وصلوا في هذا الباب إلى درجة لا ينالها غيرهم، حتى أن من كان عنده امرأتان يحب أن ينزل عن إحداهما ويزوجها واحداً من المهاجرين، ولكن الرسول ﷺ منعهم، وأمر من كان عنده ثروة أو بستان أن يشغل بعضاً منهم فيها، في سبيل كسب معيشته بتعب نفسه، أخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وغيرهم عن أبي هريرة قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أصابني الجهد فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً، فقال ﷺ: «**ألا رجلَ يضيف هذا الرجل الليلة، رحمه الله**»؟ فقام رجل من الأنصار، وفي رواية فقال أبو طلحة: أنا يا رسول الله، فذهب إلى أهله، فقال لامرأته: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ قالت: والله ما عندي إلا قوت الصِّبْية، قال: إذا أراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالي فأطفئي السراج، ونطوي الليلة لضيف رسول الله ﷺ ففعلت، ثم غدا الضيف على رسول الله فقال ﷺ: «**لقد عجب الله الليلة من فلان وفلانة**» وأنزل الله تعالى فيهما ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾. الآية ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي ومن يحفظ بتوفيق الله تعالى وبكسب نفسه وملاحظته أن حق الإنسان هو الإحسان لا الإساءة إلى من عداه وما عداه فأولئك الناس المحفوظون هم المفلحون الناجحون في حياتهم وبعد مماتهم، والفرق بين الشح والبخل: أن الثاني

هو منع النفس عن إفادة الغير الخير مالاً أو غيره، والأول هو ذلك أيضاً لكن مع حرص وحزازة ولؤم.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ عطف على المهاجرين، والمراد بهم الذين هاجروا إلى المدينة بعد أن تمكن المسلمون المهاجرون الأولون وحصل للإسلام قوة ومنعة، أي فهم أيضاً مستحقون لأخذ الفيء، وقيل: المراد المؤمنون بعد الفريقين أي المهاجرين والأنصار أينما كانوا إلى يوم القيامة. وعلى هذا المعنى جمهور الناس، فالآية مستوعبة لجميع المؤمنين إلى يوم الدين وقوله: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ أي سبق إيمانهم بالله ورسوله على إيماننا بهما، أو سبقونا في اللحوق بدار الآخرة مع الإيمان ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا﴾ أي حقداً وحزازة ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ على الإطلاق ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ بنا وبهم. فالآية الكريمة تنادي إلى وجوب رعاية حرمة المؤمنين ومحبتهم بالقدر المستطاع إلا من أمر الله تعالى أو رسوله بخلاف ذلك، وذلك لأن جزاء أعمالهم عائد إلى خالق عالم بكل شيء وأمرهم إليه تعالى.

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١٢) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧)﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ حكاية لما جرى بين الكفرة والمنافقين من الأقوال الكاذبة، فيقول: ألم تر إلى الذين نافقوا؟ والآية نزلت في رهط من بني عوف منهم عبد الله بن أبي بن سلول، ووديعة بن مالك، وسويد،

وداعس، بعثوا إلى بني النضير بما تضمنته الجمل المحكية بقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهو يهود بني النضير والمنافقون، وإن لم يكونوا من بني جلدتهم لكنهم كانوا إخوانهم في الكفر والشقاء والعداء للرسول ﷺ: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ موطئة للقسم وقوله: ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ جواب القسم أي والله لئن أخرجكم محمد من دياركم جبراً لنخرجن من ديارنا معكم وننتقل في صحبتكم أينما ذهبتم ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾ أي ولا نطيع في شأنكم وإيذائكم أحداً أبداً أي إذا طلبوا منا إيذاءكم لا نطيعهم في ذلك ولا نؤذيكم، وإن آذوكم لا نقبل إيذاءهم لكم وندافع عنكم ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ أي لنعاونكم على أعدائكم، وذلك شأن الحلفاء الصادقين بعضهم مع بعض ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في مواعيدهم لإخوانهم اليهود، كما هم كاذبون معنا نحن المسلمين. والمنافق شأنه النفاق أينما كان من الآفاق، لأن النفاق رذيلة نفسية لا تكاد تنفك عن صاحبها إلا بمعونة من الله تعالى، ويبين جهات كذبهم معهم فيقول: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُواْ﴾ أي بنو النضير من جانب الرسول ﴿لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ﴾ من جانبه ﴿لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ على سبيل الفرض ﴿لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ وليرجعن إلى منازلهم ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي لا اليهود المستنصرون بالمنافقين ولا المنافقون الذين أرادوا نصر اليهود الفاسدين.

﴿لَأَنتُمْ﴾ أيها الرسول ومن معه ﴿أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ ومخافة ﴿فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ تعالى يعني أنهم لا دين لهم ولا علاقة لهم بالله، كما أنهم ينافقونكم ويخافون منكم أكثر مما يخافونه ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ شيئاً من الدين والإخلاص منه ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ أي اليهود أو اليهود والمنافقون ﴿جَمِيعًا﴾ أي لو فرضنا اجتماعهم على المكيدة والحرب ﴿إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ بالقلاع والأبواب والخنادق ﴿أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ يتسترون بها دون أن يخرجوا ويبارزوكم ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ استئناف سيق لبيان أن عدم مقاتلتهم معكم إلا في الأماكن السابقة ليس لضعفهم في أنفسهم وذواتهم، لأنهم أقوياء شجعان إذا حارب بعضهم بعضاً فلهم صولة وجولة، ولكنهم يصيرون ضعفاء في مقابلتكم ومقاتلتكم بسبب أن الله يجعل الرعب في قلوبهم ويسلبهم البأس والمعنوية، وقوله تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ جواب ما يقال إذا كان بأسهم بينهم شديداً فما بالهم لا يقاتلون المسلمين؟ فقال: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي مجتمعين متكاتفين ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ أي متفرقة، أي لا يرتبط بعضهم ببعض، وكل قوم ولو كان كل فرد منهم بطلاً لكن لما لم تتوحد كلمتهم لا تتفق

عزيمتهم ولا يقدرون على مقابلة الأفزاع والأقدار ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي وتشتت قلوبهم ﴿بِـ﴾ سبب ﴿أَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ روح الألفة والاتحاد حتى يستحصلوها ويستفيدوا منها.

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي مثلهم ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا﴾ أي يهود بني قينقاع الذين غزاهم النبيّ ﷺ يوم السبت على رأس عشرين شهراً من الهجرة في شوال قبل غزوة بني النضير حيث كانت في ربيع سنة أربع وأجلاهم أي بني قينقاع أخرجهم الرسول ﷺ إلى أذرعات بالشام ﴿ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي ذاقوا سوء عاقبة مكيدتهم وسوء نيتهم مع الرسول وأمته بإخراجهم إلى الشام، ذلك في الدنيا ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لا يقادر قدره. ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ هذا أيضاً خبر مبتدأ محذوف أي مثلهم كمثل الشيطان ولكن الضمير هنا راجع إلى المنافقين المذكورين المصادقين لبني النضير. والضمير السابق راجع إلى يهود بني النضير أي مثل يهود بني النضير كمثل يهود بني قينقاع في ما جرى عليهم. ومثل المنافقين المحرضين ليهود بني النضير كمثل الشيطان ﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ﴾ أي عاقبة الشيطان المغوي والإنسان الغاوي بإغوائه ﴿أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا﴾ وأولئك المنافقون الذين أغووا بني النضير أولاً وتبرأوا منهم بعد جلائهم إلى الشام أنهما أي الطرفين أي المنافقون ويهود بني النضير في عار الدنيا ونار الآخرة ﴿وَذَٰلِكَ﴾ العار والنار ﴿جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في الدنيا وفي الآخرة. وذلك المذكور في هذه السورة المباركة كان أحوال المسلمين حين كانوا في فجر نهضتهم، ونماء دينهم وشريعتهم، ووحدة كلمتهم وعزيمتهم فكانوا يترقون يوماً فيوماً على مصاعد الشرف والكرامة، ويخاف منهم المخالفون في الأطراف والأكناف بسبب سلامتهم عن علة الخلاف والاختلاف، وهي سنة الله في العالمين. ونسأل الله تعالى أن ينظر إلينا بنظر اللطف والرعاية، ويلهمنا الاعتصام بكتابه، والسلوك على سبيل الخير الذي مهده لأحبابه، ويعيننا على الاستعداد للعلم والعمل الموحد والاعتصام، وأن يجمع شمل أمة الإسلام وذلك على الله يسير.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ
ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ
خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى
لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ
ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ
ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ
ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ نصيحة عامة وتوصيات هامة للمؤمنين والمؤمنات وان أتت بصورة خطاب الجمع المذكر فيقول: اتقوا الله في كل ما تأتون وتذرون قولاً أو فعلاً أكلاً وشرباً أو لبساً أو غيرها. والتقوى في القول بالتلفظ باللفظ الواجب أو المندوب أو المباح، بأن تترك القول الحرام والمكروه، وفي الفعل بالإتيان بالفعل الواجب أو المندوب أو المباح، وتترك الحرام والمكروه، وتميز تلك الأقوال والأفعال لأهل العلم بمراجعة الفقه، ولغير العالم بمراجعة الفقيه واسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ من الخيرات الناشئة من القول والفعل الواجبين أو المندوبين ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ كرره للتأكيد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي نسوا وجوده المعلوم لهم بالفطرة فغفلوا عنه حتى نسوا العلم به واحتاجوا إلى التعليم، أو نسوا حقوقه من الأمتثال للأوامر والاجتناب عن المنهيات ﴿فَأَنسَىٰهُمْ﴾ الله تعالى بسبب ذلك النسيان ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ مع كونها أقرب شيء بالنسبة إليهم، فكان جزاء وفاقاً. يعني أنه شغلهم بأخطار خطيرة ومشاكل كثيرة، حتى صاروا بحيث لو سألتهم عن أنسابهم وأسمائهم ما أجابوا جواباً شافياً ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الناس الناسون لله ﴿هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ المارقون عن الدين والاعتبار، وصاروا من أصحاب النار.

﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ بالسعادة. ثم التفت الباري بلطافة إلى توبيخ الغافلين الناسين لحقوق الله تعالى وقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ الجامع للمواعظ الرادعة، والنصائح اللامعة، والبراهين الساطعة، والأنوار اللامعة، ﴿عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ جامد وأودعنا فيه قوة السمع

وطاقة الامتثال ﴿لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا﴾ متذللاً ﴿مُّتَصَدِّعًا﴾ متفرقاً ﴿مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ وهيبة كلامه وقوة توبيخه وملامه ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ نذكرها لهم ونذكرهم بها ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في عظمة الله وقدرته وقدره وهيبة أمره.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ﴾ المتصرف في الكائنات ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ المنزه عن نقص الصفات ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ السالم من العيوب والآفات ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ المصدق لنفسه ورسله ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ الرقيب الحافظ لكل شيء ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ ذو العزة والجبروت ﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ الذي جبر خلقه على ما أراد، ولجبر كسر من أراد به الخير من العباد ﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ البليغ العظمة والكبرياء صاحب العزة، رفيع الدرجات إلى ما لا يتناهى من الدرجات العلى ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ الموصوف بمبادىء هذه الأسماء الحسنى ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي يشرك به المشركون الأغبياء.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ﴾ لكل شيء على مقتضى حكمته ورعاية سنته ﴿ٱلْبَارِئُ﴾ الموجود المميز لمخلوقاته بعضها عن بعض في الوجوه الامتيازية ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ لها بالصورة الجنسية والنوعية والصنفية والشخصية المحققة لكمال الهوية ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ المشيرة إلى وجوه آثاره في العالم الأسنى ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مع نفس السماوات والأرض بلسان الحال في الكل ولسان القال لمن أراد منه المقال ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب على كل شيء في كل الأحوال ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الموصوف في جميع الأقوال والأفعال. سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

❁ ❁ ❁

سورة الممتحنة

مدنيّة، وآياتها ثلاث عشرة نزلت بعد الأحزاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ
كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ
خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ
وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ
أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ
أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ
لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ
مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ
وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ
تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا
إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ۞ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ
الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا . . .﴾ الآية نزلت في حاطب بن عمرو أبي بلتعة وهو مولى عبد الله بن حميد بن زهير بن أسد بن عبد العزى. أخرج الإمام أحمد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي وابن حبان، وجماعة عن علي ـ كرم الله وجهه ـ قال: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال:

«انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب، فخذوه منها، فأتوني به» فخرجنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة. فقلنا أخرجي الكتاب، قالت: ما معي من كتاب، قلنا: لتخرجن الكتاب أو لَتُلْقِينَّ الثياب! فأخرجته من عقاصها، فأتينا به النبيّ ﷺ فإذا فيه من حاطب ابن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة، يخبرهم ببعض أمر النبيّ ﷺ فقال النبيّ ﷺ: **«ما هذا يا حاطب»**؟ قال: لا تعجل عليَّ يا رسول الله، إني كنتُ امرأ ملْصَقاً في قريش، ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهلهم وأموالهم بمكة. فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أصطنع إليهم يداً يحمون بها قرابتي، وما فعلت كفراً ولا ارتدادا عن ديني، فقال عمر رضي الله عنه: دعني يا رسول الله أضرب عنقه، فقال ﷺ: **«إنه شهد بدراً، وما يدريك! لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»**! فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي لا تعاملوهم كأولياء ولا تتعاونوا معهم وقوله: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ تفسير للموالاة، والباء زائدة على المفعول كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ أي ولا تلقوا أيديكم أي ذواتكم إليها أو للتعدية وفي ﴿تُلْقُونَ﴾ معنى تفضون وأفضى يتعدى بالباء، أي تفضون إليهم المودة ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي والحال أنهم قد كفروا بما جاءكم من الحق ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي ويخرجونكم من وطنكم المحبوب مكة المكرمة ـ حفظها الله ـ وقوله: ﴿أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ مقدر بنزع الخافض، أي يخرجونكم من مكة ويخرجونكم عنها لأن تؤمنوا، أو على أن تؤمنوا بالله ربكم رب العالمين، فلا تتخذوهم أولياء ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ﴾ عن أوطانكم ﴿جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ﴾ أي ومن يفعل عمل إسرار المودة معهم، أو من يفعله أي ذلك الإسرار منكم ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ الموصل للحق.

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾ أي يظفروا بكم ﴿يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾ أشداء توجب ابتلاءكم بالمصائب والمعايب ﴿وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي بما يسوءكم من القتل والأسر ونهب الأموال وما عندكم ﴿وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ أي تردون كفاراً ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ أي أقاربكم ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بدفع عذاب أو جلب ثواب ﴿يَفْصِلُ﴾ الله تعالى ﴿بَيْنَكُمْ﴾ بالحق ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي اقتداء حسن ﴿فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الخليل عليه السلام

﴿وَالَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟﴾ أي إبراهيم ومن معه ﴿لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ﴾ جمع بريء كشهيد وشهداء أي لا علاقة بيننا وبينكم من المودة والإخاء ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الكواكب والأصنام ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ وتتركوا ما أنتم عليه من الإشراك ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ استثناء من قوله أسوة حسنة أي لكم به اقتداء إلا في الاستغفار لأبيه فان ذلك الاستغفار كان من عدم ظهور حكم الله في أبي إبراهيم عليه السلام، فكان مسموحاً له، ولكن ليس لكم ذلك بالنسبة إلى أصولكم الكافرين وقوله: ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ من تتمة كلام سيدنا إبراهيم عليه السلام ومن معه وكذلك ما سيأتي من قولهم: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ أي رجعنا ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ أي موضوع افتتان وعذاب ومحنة ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فلا تسلطهم علينا بذنوبنا ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الجاعل للحكمة في كل شأن من شؤونك.

ثم كرر ما سبق وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي ومن يخالف ذلك ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عنه ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ في أفعاله. ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ كما وقع ذلك بعد مدة فقد تزوج ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان، فصارت وسيلة لارتباط عشيرتها به ﷺ، فدخلت في الإسلام زمرة محترمة من أقوامها ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾ على تغيير الأحوال والمآل والمصير إن ذلك على الله يسير ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ حد فاصل وخطاب فاضل مفيد مميز لأقوام الكفار، وإن كان الكفر كله ملة واحدة، وليس بعد الحق إلا الضلال، ولكن هناك فروق كثيرة بين الأصناف، فالكفار في ديار الإسلام إذا التزموا البقاء بالجزية فلهم ما لنا وعليهم ما علينا، والمستأمن إذا أمناه دخل في أماننا وكفالتنا ولا يجوز التعرض له بسوء. والمعاهدون في مدة المعاهدة داخلون

في أمان العهد حتى تنتهي المدة أو ينقضوا العهد، والمجاورون لنا في بلد كأمة مجتمعة في دولة لا يجوز التعرض لنفوسهم وأموالهم وأحوالهم وأعراضهم إلا من أعلن العداء معنا وأراد إيذاءنا وإخراجنا من أرضنا، أو ظاهر على إخراجنا فإنهم ملحقون بالمقاتلين وهم المحاربون، فمن حاربنا حاربناه وأهدرنا دمه وماله كما أهدر دماءنا وأموالنا. والمسلم مشتق من السلامة يجب أن يكون قلبه سليماً، والمؤمن مشتق من الأمن يجب أن يكون أميناً على ما كان في رعايته. ومع ذلك كله يجب أن يكون المؤمن عالماً بالأمور عاقلاً متفكراً فطناً يفهم الأشياء من خلال التجارب والتواريخ حتى لا يقع في شبكة الصيادين الفاسدين.

فيقول الباري سبحانه: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ﴾ تعالى عن مودة الكفار ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ لأجل نصرة دينهم الكفر والإشراك من أجل إمحاء ديننا دين الحق والإنصاف ﴿وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ بدل اشتمال من الموصول أي لا ينهاكم عن البر بهؤلاء ﴿وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ أي لا ينهاكم عن أن تفضوا إليهم بالقسط والعدل في الأمور ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ العادلين المعتدلين.

أخرج البخاري وغيره عن أسماء بنت أبي بكر ﷺ، قالت: أتتني أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا رسول الله ﷺ، فسألت رسول الله ﷺ: أأَصِلُها؟ فأنزل الله تعالى ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ..﴾ الآية فقال ﷺ: «**نعم صلي أمك**» وفي رواية أحمد عن عبد الله ابن الزبير قال: قدمت قُتيلةُ بنت عبد العزي على ابنتها اسماء بنت أبي بكر ﷺ، بهدايا: صاب، وأقط، وسمن وهي مشركة فأبت أسماء أن تقبل هديتها أو تدخلها في بيتها حتى أرسلت إلى عائشة ﷺ تعالى أن تسأل رسول الله ﷺ عن هذا، فسألته فأنزل الله تعالى ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ..﴾ الآية فأمرها أن تقبل هديتها وتدخلها بيتها. وقتيلة هذه كانت امرأة أبي بكر ﷺ، فطلقها في الجاهلية وهي أم أسماء حقيقة ﷺ.

وفي مورد نزول الآية روايات أخرى، منها أنها نزلت في خزاعة وبني الحرث وكنانة ومزينة وقبائل من العرب كانوا صالحوا رسول الله ﷺ على أن لا يقاتلوه ولا يعينوا عليه. ومنها أنها نزلت في قوم من بني هاشم. ومنها أنها نزلت في النساء والصبيان من الكفرة. ومنها أنها نزلت في قوم بمكة آمنوا ولم يهاجروا، فكان المهاجرون والأنصار يتحرجون من البر بهم لتركهم فريضة الهجرة. ومنها أنها نزلت في كفرة اتصفوا بما في مضمون الصلة. وعلى ذلك قال الكِيا: فيها دليل

على جواز التصدق على أهل الذمة دون أهل الحرب، وعلى وجوب النفقة للأب الذمي دون الحربي.

﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ﴾ كمشركي مكة سعوا في إخراج المؤمنين، وبعضهم أعانوا المخرجين ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ أي أن تتولوهم أي أن تحبوهم، وهو بدل من الموصول بدل اشتمال ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لوضعهم المحبة والولاية في غير موضعها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ بيان لبعض أحكام النساء المهاجرات وغيرهن، فيقول سبحانه وتعالى يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات بحسب ظاهر الحال ﴿مُهَٰجِرَٰتٍ﴾ من بين الكفار ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ فاختبروهن بما يغلب عليكم صدقهن في الإيمان ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ في الواقع ونفس الأمر، ولستم مكلفين بكشف القلب الذي لا مجال لكم فيه. أخرج الطبراني في الكبير، وجماعة عن ابن عباس أنه قال في كيفية امتحانهن كانت المرأة إذا جاءت النبيّ ﷺ حلفها عمر ﷺ تعالى: بالله ما خرجت رغبة بأرض عن أرض، وبالله ما خرجت من بغض زوج، وبالله ما خرجت التماس دنيا، وبالله ما خرجت إلا حباً لله ورسوله. ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾ في نفس الأمر ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ أي إلى أزواجهن الكفرة لقوله تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟﴾ أي وأعطوا أزواجهن مثل ما دفعوا إليهن من المهور، قيل وجوباً، وقيل ندباً.

روي أنه جاءت امرأة تسمى سبيعة بنت الحرث الأسلمية مؤمنة، وكانت تحت صيفي بن الراهب وهو مشرك من أهل مكة، فطلبوا ردها فأنزل الله تعالى الآية. وذلك لأن صلح الحديبية جرى على أن من جاء منكم رددناه، فلما تعذر عليه ردهن

لورود النهي عنه (أي بعد واقعة صلح الحديبية بمدة) لزمه رد مهورهن. وروي أنها كانت تحت مسافر المخزومي، وأنه أعطي ما أنفق وتزوجها عمر ﷺ، وفي رواية أنها نزلت في أُميمة بنت بشر امرأة من بني عمرو بن عوف كانت تحت أبي حسان ابن الدحداحة، هاجرت مؤمنة إلى رسول الله ﷺ وطلبوا ردها فنزلت الآية، فلم يردها ﷺ وتزوجها سهيل بن صيف، فولدت له عبد الله بن سهيل. وأياً ما كانت فالآية على ما قيل نزلت بياناً لأن الشرط في كتاب المصالحة إنما كان في الرجال دون النساء. وتراخي المخصص عن العام جائز. والآية وإن تأخرت عن زمان المصالحة لكنها لم تتأخر عن وقت العمل، لأن نزولها كان عند الحاجة إلى التخصيص.

وعن الضحاك أنه كان بين رسول الله ﷺ وبين المشركين عهد أن لا تأتيك منا امرأة ليست على دينك إلا رددتها إلينا، فإن دخلت في دينك ولها زوج أن ترد على زوجها الذي أنفق عليها مثل ما أنفق وللنبيّ ﷺ من الشرط مثل ذلك، وعليه فالآية موافقة لما وقع عليه العهد.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي وقت إعطائكم إياهن مهورهن. والمراد بإيتائها التزام إعطائها على ما تقرر لا إعطاؤها فعلاً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ جمع عصمة وهي ما يعتصم به من عقد نكاح أو سبب من أسباب ارتباط الزوجة بزوجها. أي لا يكن بينكم وبين زوجاتكم المشركات اللاتي بقين على إشراكهن وسَكَنَّ بين المشركين عصمةٌ ولا علاقة زوجية. قال ابن عباس ﷺ، من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتبرنها من نسائه، لأن اختلاف الدار قطع عصمتها منه وعن النخعي ﷺ: هي المسلمة تلحق بدار الحرب فتكفر. وعن مجاهد أمرهم بطلاق الباقيات مع الكفار ومفارقتهن. وليس معنى الآية أن لا تمسكوا ولا تعتدوا بعصم الكافرات إذا جئن إلى المسلمين لأنهن إذا أسلمن وهاجرن إلى المؤمنين فقد أعلن الله تعالى عن انقطاع العلاقة بينهن وبين أزواجهن المشركين بقوله الكريم: ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ وإن بقين على الكفر وجب إرجاعهن إلى أزواجهن إن لم يسلمن، وكان مجيئهن في وقت المعاهدة بين الطرفين.

وقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ أي اطلبوا مهر نسائكم

اللاحقات بالكفار إذا تزوجهن مشرك من المشركين وليطلب الكفار منا مهور زوجاتهم المهاجرات اللاحقات بالمسلمين ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ المذكور ﴿حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يشرع ما فيه الحكمة والخير.

﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ ولم يرد المشركون مهرها إلينا ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ أي فجاءت عقبتكم أي نوبتكم من أداء المهر لزوجة من زوجاتهم ﴿فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم﴾ إلى الكفار المشركين ولم يؤدوا مهورهن لهم ﴿مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ﴾ في مهورهن وخذوه من مهر المهاجرة الملحقة بنا التي أسلمت وهاجرت إلينا. يعني أن أي مسلم تزوج هذه المسلمة المهاجرة ووجب عليه إعطاء مثل مهرها إلى زوجها الكافر، وجب عليه أن يعطي ذلك المبلغ لأخيه المسلم الذي ذهبت زوجته إلى الكفار وما ردوا عليه ما أنفقه عليها في المهر، وقيل: المعنى إن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار وامتنعوا عن إرسال ما أنفق عليها إلى زوجها المسلم عندنا فعاقبتم، أي فأصبتم من الكفار عقبى وهي الغنيمة، فأعطوا من هذه الغنيمة لهذا المسلم الذي ذهبت زوجته إلى الكفار مثل ما أنفق في مهرها ومصارفها. وحاصله أن بيت المال هو الذي يغرم لهذا المسلم المسكين الذي فاتته زوجة ولم يأخذ شيئاً من الكفار، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ شروع في الأمر بمبايعته ﷺ للنساء على شروط مقررة، فيقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ أي مبايعات لك ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ من الأشياء: لا الشمس ولا القمر، ولا الحجر والشجر، أو شيئاً من الإشراك قليلاً أو كثيراً ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ﴾ أريد به وأد البنات، ومن هذا النوع إسقاط الحمل بعد أن تنفخ فيه الروح ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ في شرح البخاري للكرماني ما معناه: لا تأتوا ببهتان من

قبل أنفسكم، واليد والرجل كناية عن الذات لأن معظم الأفعال بهما، ولذا يقال للمعاقب بجناية قولية هذا ما كسبت يداك، وقال الفراء: كانت المرأة في الجاهلية تلتقط المولود، فتقول لزوجها: هذا ولدي منك، فذلك البهتان المفترى بين أيديهن وأرجلهن. وذلك أن الولد إذا وضعته الأم سقط بين يديها ورجليها ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ أي فيما تأمرهن من معروف وتنهاهن عنه من منكر، والتقييد بالمعروف مع أن الرسول ﷺ لا يأمر إلا به للتنبيه على أنه لا يجوز إطاعة المخلوق في معصية الخالق وخص بعضهم هذا المعروف بترك النياحة، لما أخرج الإمام أحمد والترمذي وحسنه عن أم سلمة الانصارية قالت امرأة من هذه النسوة: ما هذا المعروف الذي لا ينبغي لنا أن نعصيك فيه؟ فقال ﷺ «**لا تنحن...**» الحديث ﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾ بضمان الثواب على الوفاء بهذه الأشياء ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي مبالغ جل شأنه في المغفرة والرحمة فيغفر عز وجل لهن ويرحمهن إذا وفين بما بايعن عليه.

وهذه الآية نزلت يوم الفتح فبايع رسول الله ﷺ الرجال على الصفا وعمر رضي الله عنه يبايع النساء تحتها عن رسول الله ﷺ، وجاء أنه ﷺ بايع النساء بنفسه الكريمة. أخرج الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه والترمذي وصححه عن أميمة بنت رقية قالت: أتيت النبيّ ﷺ لنبايعه فأخذ علينا ما في القرآن، أن لا نشرك بالله شيئاً حتى بلغ ولا يعصينك في معروف فقال فيما استطعن وأطقن قلنا: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا يا رسول الله ألا تصافحنا؟ قال: «**إني لا أصافح النساء إنما قولي لمائة امرأة كقولي لمرأة واحدة**» وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ روي أن قوماً من فقراء المؤمنين كانوا يواصلون اليهود ليصيبوا من ثمارهم فنزلت، وقيل: هم اليهود والنصارى، وفي رواية عن ابن عباس أنهم كفار قريش، وقال غير واحد: هم عامة الكفرة، وقوله: ﴿قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ أي الذين ماتوا وتبين أنهم لا يرجعون إلى الدنيا، وانتهى أمرهم وتحقق حرمانهم وانقطع أمانهم، والعياذ بالله.

❁ ❁ ❁

سورة الصف

مدنيّة، وآياتها أربع عشرة نزلت بعد التغابن

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ﴿٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ . . .﴾ الآية، هذه السورة مدنية ويدل على ذلك ما أخرجه الحاكم وغيره عن عبد الله بن سلام قال: قعدنا نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ فتذاكرنا فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله تعالى لفعلناه، فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾؟ قال عبدالله: فقرأها علينا رسول الله ﷺ حتى ختمها، وروي هذا الحديث مسلسلاً يقرأها علينا، وهو حديث صحيح على شرط الشيخين أخرجه الإمام أحمد والترمذي وخلق كثير حتى قال الحافظ ابن حجر: إنه أصح مسلسل يروى في الدنيا إن وقع في المسلسلات مثله في مزيد علوه يعني أنه لا يوجد مثله في علوه إسناداً، وإن وجد مثله في علو الإسناد فلا يوجد أصح منه سنداً.

وروي في سبب النزول عن أبي زيد أنه قول المنافقين نحن منكم ومعكم، ثم يظهر من أعمالهم خلاف ذلك، فإن كان سبب الورود الأول فالنداء نداء المؤمنين. والكلام ماشٍ على حسب الواقع، وإن كان السبب الثاني فالنداء بوصف الإيمان للتهكم ويؤيده سياق الآية وقوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ وكبر من باب بئس فيه ضمير مبهم تفسره النكرة بعده، وإن تقولوا

هو المخصوص بالذم، والمقت أشد البغض وقال ابن عطية: المقت البغض من أجل ذنب أو دناءة أو ريبة أو دناءة يصنعها الممقوت، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ بيان لما هو مرضي عنده والمرصوص على ما قاله الفراء: هو المعقود بالرصاص، ويراد به المحكم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ أي اذكر يا سيد المخاطبين زمان قول موسى بن عمران عليه السلام أخيك في الدين وأصول الأحكام، وذلك القول جرى مع أمته الاسرائيلين: ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾ أي لم تؤذونني بمخالفتكم وعصيانكم لي في الأمر بالجهاد والمقاتلة والمصابرة عليها حتى تستقروا في مقامكم وتتفرغوا لكسب سعادة الدارين ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾؟ علماً قطعياً ناشئاً من إدراك المعجزات الباهرة القاهرة لفرعون وأتباعه فلم ينفعهم نصحه وإرشاده ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟﴾ أي صرفوا قلوبهم عن الإيمان بموسى عليه السلام ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي صرف الله قلوبهم عن نيل الهدى ووصل المحبوب والفوز بالمطلوب ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ الخارجين عن الإطاعة ففي نقل ما جرى بين موسى عليه السلام وقومه حث لأمته على الجهاد والتكاتف عليه حتى لا يبتلوا بمثل ما ابتلى الله به قوم موسى عليه السلام.

﴿وَإِذْ قَالَ﴾ معطوف على مثله، أي واذكر إذ قال ﴿عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ جمع عليه السلام بين المتعاطفين لكسب الأمة سعادة الدارين، يعني أتى بالحال الأول لتوجيه الإسرائيليين للإيمان به، فإن من ادعى الرسالة من الله وصدق بكتب الرسل السابقين مالت إليه القلوب وآمن به الناس، وأتى بالحال الثانية حتى يستميل أمته

قاطبة إلى الإيمان برسول آخر الزمان، ومن جمع بين الإيمان بالسابقين واللاحقين فقد فاز برتبة الأتقياء الصادقين. وكما أن في بشارته ﷺ بالرسول الآتي بعده المسمّى أحمد تصديقاً برسالته ومجيئه بعده كذلك في تصديقه بالتوراة تصديقاً برسالته ﷺ من حيث أن البشارة بسيدنا محمد ﷺ واقعة في التوراة كما جاء في الفصل العشرين من السفر الخامس منها ما ترجمته من العبرية (أقبل الله على سعينا، وتجلى من ساعير (مولد عيسى ﷺ)، وظهر من جبال فاران ـ سلسلة جبال مكة المكرمة) وقوله في الفصل الحادي عشر من هذا السفر: (يا موسى إني سأقيم لبني إسرائيل نبياً من إخوتهم مثلك، أجعل كلامي في فيه، ويقول لهم ما آمرهُ فيه، والذي لا يقبل قول ذلك النبيّ الذي يتكلم باسمي أنا أنتقم منه ومن سبطه)، إلى غير ذلك. ويتضمن كلامه أن دينه التصديق بكتب الله تعالى وأنبيائه ﷺ، جميعاً من تقدم ومن تأخر. وجملة ﴿يَأْتِى مِنْ بَعْدِى﴾ في موضع الصفة لرسول وكذا جملة ﴿ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ وهذا الاسم الجليل، والحاشر، والماحي، والعاقب، كلها أسماء لقبية، أي ألقاب لسيدنا محمد ﷺ فقد صح من رواية مالك والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن جبير بن مطعم قال قال رسول الله: «**إني لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا العاقب**» والعاقب هو الذي ليس بعده نبيّ. فلفظ الاسم في قوله تعالى: ﴿ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ اسم بالمعنى اللغوي، ويصدق بالكنية والعلم واللقب، وأحمد منقول من اسم التفضيل بمعنى أكثر حمداً لله.

ولما نطق القرآن الكريم بهذه البشارة العظيمة فإنكار النصارى لذلك لا قيمة له، وقولهم: لو صح لذكر في الإنجيل إن أرادوا بالإنجيل الإنجيل السماوي النازل على سيدنا عيسى ﷺ، فهو مفقود في الأرض فلا تصح دعواهم ذلك. وإن أرادوا به الأناجيل الأربعة التي ألفوها بعد رفع عيسى ﷺ إلى السماء فلا قيمة لها في مقابل نص القرآن الكريم لأنها مؤلفات متأخرة فيها بعض أحوال سيدنا عيسى وما جرى عليه. على أنه يجوز أن المؤلفين ذكروها، ولكن المتأخرين أسْقطوها حباً لدينهم وتعصباً على استمراريته، وأين ذلك من الواقع ونفس الأمر؟.

وتلك الأناجيل أولها إنجيل (متى) أحدُ الحواريين الإثني عشر، جمعه باللغة السريانية بأرض فلسطين بعد رفع عيسى ﷺ بثمان سنين، وعدة إصحاحاته ثمانية وستون إصحاحاً.

ثانيها: إنجيل مرقص وهو من السبعين جمعه باللغة الفرنجية بمدينة (رومية) بعد الرفع باثنتي عشرة سنة، وعدة إصحاحاته ثمانية وأربعون إصحاحاً. والثالث إنجيل (لوقا) وهو من السبعين أيضاً جمعه بالاسكندرية باللغة اليونانية، وعدة إصحاحاته ثلاثة وثمانون. والرابع إنجيل يوحنا وهو حبيب المسيح عليه السلام، جمعه بمدينة أفسس من بلاد رومية بعد الرفع بثلاثين سنة ومن أحب اتباع الحق وسلوك سبيل الإنصاف فليراجع التوراة ويطالع مزامير داود عليه السلام وكتب شعيا وحيقوق وأرمياء وغيرهم من أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي جاء عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل بالمعجزات الظاهرات ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي سحر واضح.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ أي يضع الكذب موضع الصدق فيجعل السحر موضع المعجزة، والباطل موضع الحق، ويدعي على معجزات الرسل أنها سحر ﴿وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾؟ والحال أن ذلك الظلام لم يؤت إلا بما فيه الخير وسعادة الدارين وهو دين الإسلام، ولا شك أن الجواب هو أنه لا أظلم من ذلك، فهو ظالم ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فلا يهديهم أبداً. وهذا المفترى بعضهم قد سبق ممن عاند عيسى وموسى ومن قبلهما، ومنهم من لحق وقابل سيدنا محمداً ﷺ من المشركين والمنافقين الذين قال الله تعالى في حقهم ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾ وهو القرآن أو دين الإسلام المأخوذ منه بأفواههم ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ أي مديم ذلك النور منيراً للعالم ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ذلك النور ودوامه.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ محمداً الهاشمي القرشي العدناني من نسل إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام إرسالاً مقروناً ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي بالقرآن، أو بالمعجزات ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ وهو أحكام الشريعة الشريفة الإسلامية السمحة ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ بإكمال الأمور العملية وإتمام الأخلاق الحسنة الإسلامية ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ ذلك لدعوته إلى التوحيد.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ
وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ
لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ

﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بعد أن ذكر الله سبحانه في صدر السورة استحبابه للمقاتلين في سبيل الله المخلصين لله، وعقبه بذكر عبده موسى ﷺ ومخالفة قومه له في أمره، وذكر عيسى ﷺ، وبشارته ببعث محمد ﷺ.. عاد إلى الأمر بالجهاد واعتبره تجارة منجية فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ أي أرشدكم وأطلعكم ﴿عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؟ فكأنهم قالوا نعم، فقال: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إيماناً صافياً عن الأوهام ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي في سبيل إعلاء كلمته ﴿بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ أي بإنفاق أموالكم على المجاهدين وبذل أرواحكم في سبيل نشر الحق ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ المذكور من الإيمان والجهاد ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من أموالكم وأنفسكم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ نتائج إيمانكم وجهادكم بأموالكم وأنفسكم حيث يكون استبدال المحدود في مقابل المنافع اللامحدودة فإذا وفيتم بما أمرناكم ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ﴾ المذكور هو ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ﴾ أي ويؤتكم مثوبة أخرى وفائدة أخرى ﴿تُحِبُّونَهَا﴾ وهي ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يوهب لكم ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ لبلد مكة المكرمة ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي فأبشر يا حبيبي وبشر من هو من أهل الإيمان والاخلاص.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ أي أنصار دين الله أي أنصار الرسول في نشر دين الله ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ والمشبه به مستفاد مما بعد الكاف في كما قال أي كالحواريين الذين كانوا أنصار الله عندما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ بعيسى ﷺ ﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ أخرى به ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾. واشتقاق الحواري من الحور وهو البياض، وسموا بذلك لأنهم كانوا قصارين، وقيل: للبسهم البياض، وقيل لنقاء ظاهرهم وباطنهم. وفي الحديث الشريف «**لكل نبي حواري وحواري الزبير**» وفسر بالخاصة من الأصحاب، وقال الأزهري: الذي أخلص ونقي من كل عيب، وعن قتادة: إطلاق الحواري على غير الزبير رضي الله عنه،

أيضاً، فقد قال: إن الحواريين للرسول كلهم من قريش: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وحمزة، وجعفر، وأبو عبيدة بن الجراح، وعثمان بن مظعون، وعبد الرحمن ابن عوف، وسعد ابن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام ﷺ. وحواريو عيسى عليه السلام كانوا اثني عشر رجلاً. وقد تفرقوا بعد رفعه عليه السلام في الأطراف، والمشهور أن بعضاً منهم جاؤوا إلى ناحية (ميدان) التابعة لقضاء (خانقين) والناحية مشهورة بـ(هورين) المخففة لحواريين، وبعضهم سكنوا في (كركوك) وواحد منهم يسمى بمتى سكن في محل يسمى الآن (بطوزخورماتو) التابعة لمحافظة صلاح الدين والمحل كان فيه (ملح) والاسم مركب من ثلاث كلمات هي (طوز حواري متى) أي الملح المنسوب للحواري المسمّى باسم متى، والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

سورة الجمعة

مدنيّة، وهي إحدى عشرة آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ أتى بصيغة المضارع المفيدة للتجدد والاستمرار حتى لا يتوهم أن التسبيح الجاري منهم شيء محدود منقطع، وإنما هو تسبيح وتنزيه دائم مستمر متجدد إلى فناء العالم لأنه إذا كان تسبيحاً بلسان الحال فلسان حال الممكنات الحادثة المحتاجة إلى الفاعل في ترجيح الوجود إلى العدم والمخرج منه من العدم إليه والمرتبطة بإرادة الفاعل مدة يبقى فيها ناطق بأن الله هو الخالق المنزه عن النقصان، وإن كان بلسان ذكر مفهوم لأهله ومكتوم منا كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ فالنص دال على أن التسبيح وظيفة ما في السماوات وما في الأرض وأداء الوظيفة ثابت مستمر ما دام لا يكون دليل على الانقطاع وبأي اللسانين يكون ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ وينزهه عن صفات لا تليق بكبرياء ذاته ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ تسبيحاً متجدداً استمرارياً مناسباً لله ﴿ٱلْمَلِكِ﴾ المسيطر على الكائنات ﴿ٱلْقُدُّوسِ﴾ المنزه عن نقص الممكنات ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالب على ما أراده ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ الموصوف بالحكمة في أفعاله.

وبين عزته وحكمته بأنه بعث أمياً لتعليم عالم الإنسان والجن مربياً ومرشداً للثقلين فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ أي في الأمة الأمية التي لا تقرأ ولا

تكتب الباقية على حال ولادتها من أمها ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ أي كائناً من جملتهم يعرفون أنه منهم ولم يقرأ ولم يكتب شيئاً ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ البليغة المعجزة لبلغاء الثقلين عن أن يأتوا بمثل ما نزل عليه فيرشدهم ويوجههم إلى الاعتراف بخالق الكائنات الأرض والسماوات وبوحدته في تأثيره في الموجودات ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ويهدي للتي هي أقوم ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي سنته وسيرته، أو كل ما فيه علم ومعرفة وأحكام وإتقان من أمور الدنيا والآخرة ﴿وَإِن كَانُوا۟﴾ أي أولئك القوم الأميون ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي قبل بعث ذلك الرسول ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ واضح من ظلمات الإشراك والوثنية وخبث الجاهلية.

﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ أي ويعلم قوماً أو أفراداً آخرين منهم ﴿لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ بعدُ وسيلحقون، وهم الذين جاؤوا بعد الصحابة من التابعين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ ذَٰلِكَ﴾ المذكور من بعث رسول أمي يكون في أرقى درجات معرفة الله تعالى واستفادة أمة سعيدة من رسالته ونور علمه وإرشاده ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ وفيض رحمته الواسعة ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ من عباده تفضلاً وإحساناً ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الذي لا يقدر قدره.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ كأنه جواب لسؤال مقدر تقديره: ما دام الرسول محمد ﷺ مبعوثاً في الأميين على تلك الدرجة من الفضل وقوة التربية والتزكية للإنسان والجن، وهذه الصفة صفة جليلة مذكورة في التوراة فما بال العلماء بها لم يذكروا للناس نعوته، ولم يبينوا أن ذلك الشخص المنعوت هو هذا المبعوث حتى يؤمن به الناس؟ فأجاب بأن ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ وجعلت صفة علمية لهم وكلفوا بحملها ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ أي عاندوا الحق وكتموه ولم يؤدوا ما كلفوا به ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ أي كتباً ضخمة كباراً، ولا يفهم شيئاً منها، ولم

يستفيدوا منها شيئاً. وهذا التشبيه بليغ جداً، فإنه تشبيه تمثيلي أخذ من جانب المشبه هيئة مأخوذة من عدة أمور من العلماء وتعبهم في تحصيل العلم، وعدم استفادة منفعة منها من جهة إهماله، وعدم العمل به، وكذلك من جانب المشبه به، حيث أخذت هيئة منتزعة من الحمار وتهيئته لحمل الكتب وتحميله عدة كتب ضخمة مستوعبة لمسائل مهمة بدون أن يستفيد منها شيئاً ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي بئس مثل القوم مثل الذين كذبوا بآيات الله ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إلى طريق استفادة الحق لتراكم غبار الغرور والعناد والاستكبار على قلوبهم.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟﴾ أي تهودوا أي صاروا يهودياً ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ﴾ أي أحباؤه وأخصاؤه ﴿مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ ولكم مقام غير مقام الآخرين ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ حتى تلقوا ربكم الذي تحبونه ويحبكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعوى الولاية لله ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ﴾ أي الموت ﴿أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من المكاسب السيئة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ العالمين بالفساد المرتكبين له عناداً واستكباراً ﴿قُلْ﴾ يا حبيبي: ﴿إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ بلا شبهة إن عاجلاً أو آجلاً ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيجزيكم عليه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟﴾ قال العلاَّمة ابن حجر الهيتمي في تحفة المحتاج: فرضت يعني صلاة الجمعة بمكة، ولم يقم بها لفقد العدد، أو لأن شعارها الإظهار، وكان ﷺ بها مستخفياً، وأول من أقامها بالمدينة قبل الهجرة أسعد بن زرارة بقرية على ميل من المدينة، إنتهى. وما تقدم من كون أسعد أول من جمع بالمدينة يخالفه ما أخرجه الطبراني عن أبي مسعود الأنصاري قال: أول من قدم من المهاجرين المدينة مصعب بن عمير وهو أول من جمع بها يوم الجمعة، جمع بهم قبل أن يقدم رسول الله ﷺ وهم اثنا عشر رجلاً. وقال الحافظ ابن حجر (العسقلاني) يجمع بين الحديثين بأن أسعد كان

أميراً ومصعباً كان إماماً وهو كما ترى. وأما ما كان من صلاته ﷺ إياها فقد روي أنه ﷺ لما قدم المدينة مهاجراً نزل (قبا) على بني عمرو بن عوف، وأقام بها يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس وأسس مسجدهم، ثم خرج يوم الجمعة إلى المدينة فأدركته صلاة الجمعة في سالم بن عوف في بطن واد لهم، فخطب وصلّى الجمعة، وهو أول جمعة صلاّها ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ أي فعل النداء لها أي الأذان والمراد به، على ما حكاه في الكشاف، الأذان عند قعود الإمام على المنبر، وقد كان لرسول الله ﷺ مؤذن واحد، فكان إذا جلس على المنبر أذن على باب المسجد فإذا نزل ﷺ أقام الصلاة، ثم كان أبو بكر وعمر ﵄ على ذلك، حتى إذا كان عثمان وكثر الناس وتباعدت المنازل زاد مؤذناً آخر فأمر بالتأذين الأول على داره التي تسمى زوراء، فإذا جلس على المنبر أذن المؤذن الثاني فإذا نزل أقام الصلاة فلم يعب ذلك عليه. وفي حديث الجماعة إلا مسلماً فلما كان عثمان وكثر الناس زاد النداء الثالث على الزوراء. وفي رواية للبخاري ومسلم زاد النداء الثاني، والكل بمعنى، وتسمية ما يفعل من الأذان أولاً وثانياً باعتبار أنه لم يكن على عهد رسول الله ﷺ وإنما كان بعد، وتسميته ثالثاً لأن الإقامة تسمى أذاناً كما في الحديث «**بين كل أذانين صلاة**»، وقوله تعالى: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ دليل على فرضية الجمعة حيث رتب فيها الأمر بالسعي لذكر الله تعالى على النداء للصلاة، فإن أريد به الصلاة أو هي والخطبة فظاهر، وكذلك إن أريد به الخطبة لأن افتراض السعي إلى الشرط وهو المقصود لغيره فرع افتراض ذلك الغير، ألا ترى أن من لم تجب عليه الصلاة لم يجب عليه السعي إلى الجمعة بالإجماع، وكذا ثبتت فرضيتها بالسنة والإجماع، وقد صرّح بعض العلماء بأنها آكد فرضية من الظهر. وهي فرض عين على من وجبت عليه لا تسقط إلا بعذر مشروع. ففي حديث رواه أبو داود وقال النووي على شرط الشيخين «الجمعة حق واجب على كل مسلم في جماعة إلا أربعة: عبد مملوك، أو امرأة، أو صبي، أو مريض» وأجمعوا على اشتراط العدد فيها، لكن اختلفوا في مقداره على أقوال:

أحدها: أنه اثنان، أحدهما الإمام وهو قول النخعي والحسن بن صالح وداود.

الثاني: ثلاثة أحدهم الإمام وحكى عن الأوزاعي وأبي ثور وعن أبي يوسف ومحمد، وحكاه الرافعي وغيره عن قول الشافعي القديم.

الثالث: أربعة أحدهم الإمام وبه قال أبو حنيفة والثوري والليث وحكاه ابن المنذر عن الأوزاعي وأبي ثور واختاره وحكاه في شرح المهذب عن محمد، وحكاه صاحب التلخيص قولاً للشافعي في القديم.

الرابع: سبعة حكي عن عكرمة.

الخامس: تسعة حكي عن ربيعة.

السادس: اثنا عشر في رواية عن ربيعة، وحكاه الماوردي عن محمد والزهري والأوزاعي.

السابع: ثلاثة عشر أحدهم الإمام حكي عن إسحاق بن راهويه.

الثامن: عشرون رواه ابن حبيب عن مالك.

التاسع: ثلاثون في رواية عن مالك.

العاشر: أربعون أحدهم الإمام وبه قال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، والإمام الشافعي في الجديد، وهو المشهور عن الإمام أحمد وأحد القولين المرويين عن عمر بن عبد العزيز.

الحادي عشر: خمسون في الرواية الأخرى عنه.

الثاني عشر: ثمانون حكاه المازري.

الثالث عشر: جمع كثير بغير قيد وهو مذهب مالك، فقد اشتهر أنه قال: يشترط عدد معين، بل يشترط جماعة تسكن بهم قرية ويقع بينهم البيع، ولا تنعقد بالثلاثة، والأربعة ونحوهم، قال الحافظ ابن حجر في شرح البخاري: ولعل هذا المذهب أرجح المذاهب، وأما إقامتها في المحل قرية أو قصبة أو مدينة بعد تحقق شروط الوجوب، فإن فقهاء الأمة رأوا النبيّ ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده والتابعين لهم بإحسان يتحرون في الجمعة أموراً لا يتحرونها في سائر الصلوات الخمس من ذلك أنها لا تصلّى إلا جماعة. ومن ذلك أنه إذا كان في البلد مساجد متعددة لا تصلّى إلا في مسجد واحد بها يجمع المؤدين لها في هذا البلد. وقد

كانت المساجد في عهد رسول الله ﷺ بمدينته المنورّة تقام فيها الجماعات بالظهر والعصر وغيرهما. وفي الصحيحين أن معاذاً كان يصلّي العشاء خلف رسول الله ﷺ ثم يذهب إلى مسجد قومه، وكانوا أهل عمل لا يسهل عليهم صلاة العشاء خلف رسول الله ﷺ فيصلّي بهم حتى إذا كان يوم الجمعة لم يقيموها إلا في مسجده ﷺ ولم يرخص ﷺ مع فرط حبه للتيسير على أمته في أن يقيموها في مساجد متعددة، أو يصلّي بمن يتيسر له الحضور أول الوقت، ويأذن في أن تقام بعده جمعة وجمعة وثالثة وهكذا لباقي الذين لا يستطيعون أن يحضروا، وكان ذلك أيسر عليهم لو كان. وعلى سنته السنيّة درج خلفاؤه الكرام ولما اتسعت الفتوحات الإسلامية، وكثرت الأمصار في المملكة المحمدية في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ؓ، لم يرخص في ذلك أيضاً بل نقل عنه الثقات أنه بعث إلى عماله في الأمصار بالكتب يأمرهم فيها أن يقيموا الجماعات في المساجد المتعددة في المصر، وألا يجمعوا بالناس إلا في المسجد الواحد الجامع.

وهكذا كان الأمر مدة خلافة الخلفاء الراشدين، وطيلة عصر بني أمية، وصدراً طويلاً من زمن الخلفاء العباسيين حتى إذا كان زمان الرشيد، أو زمان الواثق على ما صححه جمع من محققي الشافعية تعددت الجمعُ. بل ذكر الخطيب في تاريخ بغداد أن أول جمعة أحدثت في الإسلام في بلد مع قيام الجمعة القديمة في أيام المعتضد، وذلك سنة مائتين وثمانين، وذلك بعد وفاة الإمام الشافعي ؓ، بست وسبعين سنة كما بسطه الحافظ ابن حجر في كتابه التلخيص الخبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير.

رأى فقهاء الأمة هذا من رسول الله ﷺ وخلفائه الكرام إلى آخر ما ذكرنا وما لم نذكره من ملاحظات فطن لها أكابر الفقهاء، فاتفقت كلمة جمهورهم على وجوب أن تكون الجمعة واحدة في البلد، فإذا تعددت كان ذلك خروجاً من الناس على السنة السنيّة وسيرة السلف المرضية. ورأى الشافعي ؓ أن التعدد في البلد الواحد لا يجوز بحال دعت إليه الحاجة أم لا. وقد اختلف أئمة مذهبه من بعده: هل مذهبه جواز التعدد لحاجة بقدرها، قال بذلك الكثير منهم كالروياني وغيره؟ أم مذهبه منع التعدد مطلقاً؟ والمحققون من علماء المذهب على هذا.

وأما باقي الأئمة ما عدا الإمام الأعظم ؓ فإنهم منعوا التعدد لها إلا إذا

دعت إليه ضرورة. وأما الإمام الأعظم ﷺ فيروى عنه قولان: قول على منهج أولئك الائمة وهو منع التعدد لها إلا إذا دعت إليه الضرورة كأن لا يكون في البلد جامع يسع الحاضرين لها.

القول الثاني: جواز تعددها ولو لم تكن لضرورة داعية إليه. وتكلم أئمة مذهبه على القولين، فمنهم من رجح هذا القول، ومنهم من رجح القول الأول لموافقته لما درج عليه الرسول ﷺ وخلفاؤه الراشدون وجمهور المسلمين في البلاد. وإن شئت راجع كتاب رد المحتار على الدر المختار للعالم العلاَّمة محمد أمين ابن العابدين ﷺ. وعلى ذلك قرر ذلك العالم وكذا العالم العلاَّمة الجليل ابن الهمام في شرح الهداية إعادة صلاة الظهر بعد صلاة الجمعة بنية فريضة آخر الوقت خروجاً من مخالفة قوله الراجح، وقول سائر الائمة المجتهدين ولموافقة السنة السنية العلمية للرسول ﷺ ولخلفائه الراشدين ولقوله ﷺ «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك**» ولقوله ﷺ: «**فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه**».

وخلاصة المقام: أن من صلّى صلاة الجمعة في البلد الذي تعددت فيه فوق الحاجة وجب عليه أن يقلّد الإمام أبا حنيفة ﷺ في تجويزه ذلك، وإلا فصلاته باطلة. وإذا قلده وصلاّها سنت له إعادة صلاة الظهر بعد الجمعة بنية فريضة آخر الوقت خروجاً من الريبة والاشتباه في عبادته. ومن خالف ذلك بلا حجة شرعية فأمره إلى الله. وإنما فصلّنا الكلام في ذلك حتى يعرف الناس أن هذه الإعادة أمر مشروع، وليس على مذهب الإمام الشافعي فقط، وإنما هو على سائر المذاهب المدونة الإسلامية، هذا والله أعلم بالنيات.

وقوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ أمر بترك المعاملات والاشتغال بأمور الدنيا إذا أذن المؤذن. ولما كان الأذان في عهده ﷺ عبارة عن أذان يؤذنون به عند جلوسه على المنبر كان الأمر بتركها في ذلك الوقت. ولما كان ظاهر الأمر الوجوب حرم العلماء كل معاملة تجري إذ ذاك لكن إذا جرت فهل تصح المعاملة ويأثم الشخص أم تبطل؟ والجمهور على صحتها مع الإثم ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ المذكور من السعي إلى ذكر الله وترك البيع والمعاملات ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لاشتماله على خيري الدنيا والآخرة ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الخير والشر في الواقع ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ أي أديت صلاة الجمعة وفرغ منها ﴿فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ للوفاء بمصالحكم ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾

أي ما تقوم به المصالح ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ في كل زمان ومكان أمكنكم الذكر فيه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي كي تفوزوا بالسعادة أبد الآبدين.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ أي تفرقوا نحو الأمرين، وخلوك قائماً على المنبر. أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي عن جابر بن عبد الله قال: بينما النبيّ ﷺ يخطب يوم الجمعة قائماً إذ قدمت عيرُ المدينة فابتدرها أصحاب رسول الله، حتى لم يبق منهم إلا اثنا عشر رجلاً، أنا فيهم وأبو بكر وعمر فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً. . .﴾ الآية وفي رواية عن ابن عباس أنه بقي في المسجد اثنا عشر رجلاً وسبع نسوة، فقال رسول الله ﷺ: «**لو خرجوا كلهم لاضطرم المسجد عليهم ناراً**». وكانوا معذورين من شدة الحاجة إلى الأقوات المستوردة، وإن كان حقهم البقاء إلى اللقاء. ﴿قُلْ﴾ يا حبيبي ناصحاً لهم ﴿مَا عِندَ اللَّهِ﴾ من الرزق في الدنيا ومن الثواب في الآخرة ﴿خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ﴾ فإن الخارج من الجامع إما خرج للتفرج على القافلة الراجعة وأحمالها واستقبالها، وإما لشراء بعض الحاجيات، وعلى كل حال فما عند الله خير من ذلك ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

❀ ❀ ❀

سورة المنافقون

مدنيّة، وهي إحدى عشرة آية نزلت بعد الحج

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ
وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ
لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ
خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ
﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ
وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ
ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ أي حضروا مجلسك، والمراد بهم عبد الله ابن أبي بن سلول وأتباعه.

والشهادة إخبار بحق للغير على آخر عن يقين. والمقصود بها إنشاء الثبوت لا الإخبار به، والتأكيد بإن واللام لإفادة لازم الخبر على وجه القوة. وهو علمهم برسالته ﷺ من الله تعالى. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ وتقديمه على الجملة الأخيرة لتثبيت المشهود به وتصديقه وتحقيقه حتى لا يتوهم متوهم معنى فاسداً منها. وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي لكاذبون في دعوى ضمنية مستفادة من بيانهم وهي أن ألسنتنا وقلوبنا متوافقة في الشهادة، إذ لا موافقة بينهما في الواقع فألسنتهم تقر أن محمداً رسول الله وقلوبهم تنكر ذلك، أو في تسمية ذلك الإخبار بالشهادة لأنها اسم لبيان حق للغير على آخر بصورة يقترن بعلم

الشاهد بذلك مع أن الشهود هنا لا يقترن بيانهم بعلمهم ولا علم لهم بذلك بل ينكرونه، وليس الحكم بكذبهم لعدم مطابقة أخبارهم لاعتقادهم لأن معنى الصدق والكذب مطابقة الخبر للواقع ونفس الأمر وعدم مطابقته له، فقول القائل: العالم حادث صادق، وإن لم يوافق اعتقاده.

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ أي شهاداتهم كهذه الشهادة وغيرها مما يروجون لها أمورهم أو أحلافهم في هذه الصورة وغيرها ﴿جُنَّةً﴾ أي وقاية لهم عن قتل الأنفس وأخذ الأموال وهتك الأعراض فحافظوا عليها بهذه الشهادات والأحلاف ﴿وَصَدُّوا﴾ الناس الضعفاء الجهلاء ﴿عَن﴾ سلوك ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢ ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الحكم عليهم بسوء أعمالهم ﴿بِأَنَّهُمْ آمَنُوا﴾ أي نطقوا بكلمة الشهادة ظاهراً وإن كانوا يبطنون الكفر ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ أي ظهر كفرهم الباطن بعباراتهم الفاسدة كطعنهم في ظفر الرسول بمطلوبه وصدقه في ما ذكره في وعوده وغير ذلك ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ حتى يموتوا على الكفر ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ الإرشادات والنصائح لا لغبائهم الذاتي بل لعنادهم مع الحق.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ للصباحة وتناسب الأعضاء ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ لفصاحتهم وبلاغتهم ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ على ما يعتمد عليه يجوز أن يكون مدحاً لهم بالرزانة والسكون والوقار وذماً لهم بأنهم كأخشاب جامدة لا رطوبة فيها ولا روح ولا فكر ولا بصيرة ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي يحسبون كل صيحة يسمعونها واقعة عليهم فتضرهم وتبيدهم أي أنهم جبناء وضعفاء ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ أي أولئك الناس اللؤم الشؤم البرآء من الفقه والفهم ومحاسن الصفات محصورون في العداوة، والعدو إذا كان عاقلاً كريم النفس أمكن الخلاص منه بشفاعة أو ضراعة أو معاهدة. وأما العدو اللئيم الغبي الذميم فلا مخلص منه إلا بموته أو باللجوء إلى أقوى منه في صيته وصوته ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾! أي كيف يُصْرَفونَ عن الحق إلى الباطل. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا﴾ إلى الحق أو إلى الرسول ﴿يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ على عادة الرؤساء الأغبياء والأثرياء الجهلاء ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ أي يعرضون عن القائل أو عن الاستغفار ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ عن ذلك روي أنه لما صدق الله تعالى زيداً بن أرقم فيما أخبر به عن ابن أبي مقت الناس ابن أبي ولامه المؤمنون من قومه وقال بعضهم له: اِمْضِ إلى رسول الله ﷺ واعترف بذنبك يستغفر لك فلوى رأسه إنكاراً لهذا الرأي، وقال لهم: لقد أشرتم

عليّ بالإيمان فآمنتُ، وأشرتم عليّ بأن أعطي زكاة مالي ففعلت، ولم يبق لكم إلا أن تأمروني بالسجود لمحمد ﷺ.

﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي سواء على أولئك المنافقين استغفارك وعدم استغفارك لهم، فإن الله سبحانه لم ولن يغفر لهم، وذلك لأن الله لا يهدي القوم الفاسقين المفسدين.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ استئناف مبين لبعض ما يدل على فسقهم ولؤمهم ونفاقهم وشقاقهم يقول تعالى هم الذين يقولون أي يقول رئيسهم عبد الله بن أبي لمن معه: ﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ من الفقراء ﴿حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ ويتفرقوا من حوله ويظنوا أنهم إذا تركوا الإنفاق عليهم تفرقوا ولا يشعرون أن الله بيده مقاليد السماوات والأرض ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يرزق منها من يشاء ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ذلك وهم لا يكتفون بعدم الإنفاق عليهم بل ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ﴾ ويعني ابن أبي به نفسه ومن معه ﴿مِنْهَا﴾ أي من المدينة ﴿ٱلْأَذَلَّ﴾ ويعني به محمداً ﷺ ومن تبعه من المؤمنين، ويقول تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فنحن إذا سلمنا قوله من إخراج الأعز للأذل لزم أن يخرج الله ورسوله والمؤمنون عبد الله بن أبي بن سلول رئيس المنافقين ومن معه منهم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من هو الأعز ومن هو الأذل، وإلا ما كانوا يقولون ذلك القول.

ولما كان هذا الغرور من ابن أبي ومن معه نشأ من كثرة أموالهم وأتباعهم ومن كثرة أولادهم، ولذلك غفلوا عن ذكر الله وإطاعة رسوله. . قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ﴾ أي لا تغفلكم ﴿عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾ أي يلتهي بما عنده منهما ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ في الدنيا بإضاعة ما عندهم وفي الآخرة بما يرد عليهم من العذاب ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ أي بوادره ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾ يعني لماذا لا تؤخر أجلي مدة وجيزة ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ أي فأتصدق بمالي على من لا مال عنده ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ للعبادة فأعبد الله تعالى حتى يأتيني الأجل؟ قرىء وأكون بالنصب ووجهه ظاهر. وبالجزم، كما هو عندنا، بالعطف على محل فأصدق لأنه في معنى إن أخرتني أصدق على ما رآه أبو علي الفارسي. وذهب سيبويه إلى أنه على توهم شرط مقدر يدل عليه التمني. ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾ أي مع أنه لا يفيده طلب الإمهال عند آخر الأحوال ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ فمجازيكم عليه قليلاً أو كثيراً.

❀ ❀ ❀

سورة التغابن

مدنيّة، وآياتها ثماني عشرة، نزلت بعد التحريم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ
﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ
ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ۚ وَّٱسْتَغْنَى
ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي ينزهه سبحانه وتعالى جميع المخلوقات تنزيهاً مستمراً لائقاً بجناب قدسه ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ لا لغيره، فإن الكائنات مختصة به تعالى إيجاداً وإبداعاً، وأي حمدٍ من أي حامدٍ ولأي محمود يكون على نعم أو لا، يعود إليه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأن نسبة ذاته إلى جميع مقدوراته سواء والإمكان يستوعب جميع الكائنات ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ وأبدعكم من اللاشيء ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ﴾ ينكر وجود الخالق المصور أو وحدته في الخلق والإبداع ﴿وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ بربه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وبمبادىء أعمالكم خبير ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالحكمة البالغة المتضمنة لمصالح الدنيا والآخرة ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ في النشأة الأخيرة ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾ أي بالخيالات الموجودة فيها.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ يا أهلَ مكة ﴿نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي ضرر كفرهم ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ذلك العذاب الذي يرد عليهم ﴿بِأَنَّهُ﴾ أي بسبب أنه ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالمعجزات الظاهرة ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ أي فقال كل أمة من تلك الأمم في مقابل أولئك الرسل أبشر مثلنا يقدر أن يهدينا؟ فكفروا بالرسل لأن أوساخ المماثلة أخرجتهم من اتباع الحق إلى المجادلة، ولم يعلموا أن الله أعلم حيث يجعل رسالته، وتولوا عن التفكر في الأدلة القاطعة على ثبوت رسالاتهم وتركوا سبيل البرهان، واستغنى الله عن إيمانهم وطاعتهم والله غني عن العالمين حميد للحامدين.

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا﴾ الزعم إدعاء العلم وأكثر ما يستعمل للادعاء الباطل ولذا اشتهر أن زعم مطية الكذب يعني أن كلمة زعم فرس لا يركبها إلا الباطل، فإذا سمعت زعم فالغالب أن الكلام الواقع بعده باطل نحو ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا﴾ أي لن يحيوا بعد موتهم في الدنيا مع أن الإحياء أمر محقق مقرر لينال كل جزاء أعماله إن خيراً فخير وإن شراً فشر ﴿قُلْ﴾ يا رسولي في رد مزعومهم ﴿بَلَىٰ﴾ أي كلامكم باطل عاطل ﴿وَرَبِّي﴾ أقسم ﴿لَتُبْعَثُنَّ﴾ عند مجيء الساعة ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ أي لتحاسبن ولتجزون على أعمالكم لا على جهل وعدم اطلاع بل تنبئن بكل عمل خير أو شر عملتموه حتى تعترفوا به وإذا أنكرتم ما عملتم شهدت عليكم جوارحكم أيديكم وأرجلكم بما عملتم ﴿وَذَٰلِكَ﴾ البعث والإنباء بالأعمال

﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ سهل لا صعوبة فيه. وإذا كان الأمر كذلك ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ الحي القيوم القادر على كل شيء ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ النبيّ الزكي الأمجد سيدنا محمد ﷺ ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ إليه وهو القرآن الكريم ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

وقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ﴾ ظرف لقوله (لتنبئن) أي لتنبئن بما عملتم ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ﴾ جميعاً ﴿لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ أي لأجل الحساب والميزان الثابتين في يوم الجمع ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ أي وذلك يوم غبن فيه بعض الناس بعضاً بنزول السعداء منازل الأشقياء لو كانوا سعداء وبالعكس، فقد روي في الصحيح: «**ما من عبد يدخل الجنة إلا أُرِيَ مقعده من النار لو أساء ليزداد شكراً، وما من عبد يدخل النار إلا أُرِيَ مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة**» وهو مستعار من تغابن القوم في التجارة. ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز وراءه لاشتماله على النجاة من أعظم المهلكات والظفر بأعلى الطلبات.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي الآيات المنزلة من الله أو المعجزات التي خلقها الله تعالى لتأييد رسوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ النار، فيا أيها المؤمنون إذا آمنتم بالله فتوكلوا عليه وأنيبوا إليه، ولا تزلزلوا فيما أصابكم على الجهاد في الدين. ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وإرادته ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ إلى الصبر عند المصائب والآلام ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝١١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ في آياته ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ في تبليغاته وبياناته ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي استدبرتم وعصيتم ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝١٢ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ لا على غيره.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٤ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝١٥ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٦ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ۝١٧ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٨﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ﴾ كلمة من فيه للتبعيض، أي إن بعضهم كذلك، فمن الأزواج أزواج يعادين بعولتهن ويصرفن أموالهم في ما يشتهين بدون إذن منهم، ويخوننهم في المحارم، ويجلبن المخاصمات إلى بيوتهم، علاوة على إطالة لسانهن وعبوسة وجوههن وبذاءة كلامهن.. وكذا من الأولاد من يهدم شرف بيت أبيه بالعمل على ما يشتهيه. ومن الأزواج الصالحات الحافظات لحدود الله المؤدبات المطيعات للأزواج، كما أن من الأولاد من يخدم أباه، ويعمل على مبتغاه، ويطلب رضاه، ويطيع مولاه. ﴿فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾ أي ذلك البعض البغيض وذلك كثير وعدده وفير ﴿وَإِن تَعۡفُواْ﴾ عن المتعاطفين فيما يقبل العفو ﴿وَتَصۡفَحُواْ﴾ فيما لا يوجب الصفح فيه هوناً في الدين ﴿وَتَغۡفِرُواْ﴾ أي وتستروا عيوبهم وذنوبهم الهينة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾.

﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾ أي بلاء ومحنة. أما الأموال فالفتنة في كسبها من الشبهات أو المحرمات، وفي عدم صرف الواجبات، وفي ظهور عداء أصحاب الخيانات، وخيرها في الكسب من الحلال وصرفها في رضا الملك المتعال، وسد أفواه الناس بها حسب الإمكان في كل حال. وأما الأولاد فالفتنة في إهمال التربية والتعليم وإطلاق سراحهم ليعيشوا مع كل ذميم لئيم وتخويلهم الأموال لصرفها في ما يسوق إلى الجحيم. وخيرهم في حسن التربية بقدر الإمكان ورعاية مجاورتهم للصالحين بحسب الزمان، والاعتدال في الإنفاق عليهم وتزويجهم حتى لا يبتلوا بالعصيان ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ لمن يصون نفسه من موبقات الأموال والأولاد في سبيل الله وفي الحديث: «**يؤتى الرجل يوم القيامة فيقال: أكل عياله حسناته**» وأخرج الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والحاكم وصححه عن بريرة قال: كان النبيّ ﷺ يخطب فأقبل الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما، واحداً من ذا الشق، وواحداً من ذا الشق، ثم صعد المنبر فقال: «**صدق الله إنما أموالكم وأولادكم فتنة، إني لما نظرت إلى هذين الغلامين يمشيان ويعثران لم أصبر أن قطعت كلامي ونزلت إليهما**».

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ أي ابذلوا الجهد بقدر طاقتكم في تقواه ﴿وَٱسۡمَعُواْ﴾ كلام الله وكلام رسوله ﴿وَأَطِيعُواْ﴾ أوامره عز وجل ونواهيه بقدر الإمكان ﴿وَأَنفِقُواْ﴾

في الدنيا ﴿خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ في الآخرة ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ أي يحفظ من حرص نفسه على جمع الأموال من الحرام والحلال وبخله من صرف حلاله في سبيل رضا الملك المتعال ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون، ﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي إن تصرفوا أموالكم في سبيل مرضاته تعالى بإخلاص غير مشوب بالعيوب ﴿يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ﴾ من واحد إلى عشر حسنات، ومن عشر إلى سبعمائة ضعف من الدرجات ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ﴾ يعطي الجزيل في مقابل القليل ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يستعجل بعقوبة المذنب ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ لا يخفى عليه شيء ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في كافة المطالب.

❀ ❀ ❀

سورة الطلاق

مدنيّة، وآياتها اثنتا عشرة، نزلت بعد سورة الإنسان

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ١ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ٣﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ خص النداء بالنبيّ ﷺ، وعم الخطاب لأنه ﷺ إمام أمته فنداؤه كندائهم والمعنى: إذا أردتم تطليقهن فطلقوهن لعدتهن، أي في وقت ابتدائهن بعدتهن مباشرة بعد نهاية إنشاء الطلاق. يعني فطلقوهن في الطهر لأن زمن الطهر يحسب من العدة ولو بقي بعد التطليق دقيقة. وهذا عند من فسر القرء بالطهر، فالأمر بتطليقهن في الطهر إنما هو حتى لا تتضرر المرأة بتأخير عدتها، لأن العدة عنده بالإطهار، وزيد فيه شرط آخر وهو أن لا يجامعها في ذلك الطهر قبل التطليق خوفاً من الحمل. ومن اعتبر الأقراء بالحيضات وافق أيضاً في كون التطليق في وقت الطهر لكن قدر محذوفاً، أي فطلقوهن مستقبلات لعدتهن بأن يكون الطلاق في الطهر حتى انقضى الطهر ابتدأت بالحيض المحسوب لها من العدة. وظاهر أن الأمر

للوجوب فيحرم تطليقها في الحيض، لكن الطلاق يقع والدليل على الحرمة ووقوع الطلاق ما صح من أن عبد الله ابن عمر ﵄ طلق زوجته آمنة وهي حائض فذكر ذلك أبوه عمر ﵁ للرسول ﷺ فقال ﷺ «**ليراجعها ثم ليمسكها، حتى تطهر ثم تحيض، ثم تطهر، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسها، فتلك العدة التي أمر الله تعالى أن يطلق لها النساء**» فإنه لو لم يكن الطلاق واقعاً ما كان يحتاج إلى الرجعة، ولو كان حلالاً لم يأمر ﷺ بتلك العمليات التي تورث حرجاً على الزوج، وكان يأمر بمفارقتها.

﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ أي واضبطوها وأكملوها ثلاثة قروء فإن كان القرء حيضاً انتهت العدة بخلاصها من الحيضة الثالثة، وإن كان طهراً فبدخولها في الطهر الثالث ولا تنتظر أن تدخل في الحيض، بل يجوز أن تتزوج في ذلك الطهر لأن الطهر قد يستمر إلى موتها ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ في تطويل العدة عليها، فإن كانت في الطهر فلا بأس بتطليقها لمباشرتها للعدة فوراً أو في الحيض وجب الصبر إلى أن تطعن في الطهر.

والمقصود من الآية الكريمة أن يكون طلاق المرأة بعيداً عن الإضرار بها، ولذا قرر أن يكون في الطهر. وروي عن النخعي أن أصحاب رسول الله يستحبون أن لا يطلق الزوج زوجته إلا واحدة. ثم لا يطلق غير ذلك حتى تنقضي عدتها، وكان أحسن عندهم أن يطلق الرجل ثلاثاً في ثلاثة أطهار. قال مالك ﵁: لا أعرف طلاق السنة إلا واحدة، وكان يكره الثلاث مجموعة أو مفرقة. وأما أبو حنيفة وأصحابه فإنما كرهوا ما زاد على الواحدة في طهر واحد، فأما مفروقاً في الأطهار فلا لما روي عن النبيّ ﷺ أنه قال لابن عمر حين طلق امرأته وهي حائض: «**ما هكذا أمرك الله. إنما السنة أن تستقبل الطهر استقبالاً، وتطلقها لكل قرء تطليقة**» وروي أنه ﷺ قال لعمر: «**مر ابنك فليراجعها ثم ليدعها حتى تحيض، ثم تطهر ثم ليطلقها إن شاء**» وعند الشافعي لا بأس بإرسال الثلاث، وقال: لا أعرف في عدد الطلاق سنة ولا بدعة وهو مباح. فمالك يراعي في طلاق السنة الواحدة والوقت. وأبو حنيفة يراعي التفريق والوقت، والشافعي يراعي الوقت.

وأما إرسال الطلاق الثلاث بألفاظ متعددة كأن يقول أنت طالق أنت طالق

أنت طالق، أو بلفظ واحد كأن يقول أنت طالق ثلاثاً، فالذي ذهب إليه جمهور الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة المسلمين، ومنهم الأئمة الأربعة.. وقوع الثلاث، بل ذكر الإمام ابن الهمام وقوع الإجماع السكوتي من الصحابة على الوقوع، ونقل عن أكثر مجتهديهم كعلي - كرم الله وجهه -، وابن عباس، وابن مسعود، وأبي هريرة، وعثمان بن عفان، وعبد الله بن عمرو بن العاص الإفتاء الصريح بذلك. وذكر أيضاً أن إمضاء عمر الطلاق الثلاث عليهم مع عدم مخالفة الصحابة له مع علمهم بالسنة النبويّة دليل على أن ذلك الإمضاء كان حقاً مشروعاً، وإلا فكيف يخالف عمر ما سنه الرسول وقرره، أو كيف يسكت أولئك الأجلة من الأصحاب على مخالفة الرسول ﷺ في تشريعاته.

وقال بعض الأئمة: لو حكم قاض بأن الطلاق الثلاث بفم واحد يعتبر طلاقاً واحداً لم ينفذ حكمه لأنه لا يسوغ الاجتهاد فيه لإجماع الأئمة المعتبرين عليه. وما روي من غضبه ﷺ على من طلّق زوجته ثلاثاً فعلى تقدير ثبوته كان غضبه ﷺ على استعماله فيها وعدم إبقاء المجال للرجعة، أو استئنافاً لنكاح بعقد جديد لا لعدم وقوع الثلاث، فقد أخرج عبد الرزاق عن عبادة بن الصامت أن أباه طلق امرأة له ألف تطليقة، فانطلق عبادة فسأله ﷺ فقال ﷺ: بانت بثلاث في معصية الله وبقي تسعمائة وسبعة وتسعون عدواناً وظلماً، إن شاء الله تعالى عذبه وإن شاء غفر له. وأخرج أبو داود في سننه عن مجاهد قال: كنت عند ابن عباس فجاءه رجل، وقال: أنه طلق زوجته ثلاثاً، فقال له: عصيت ربك وبانت امرأتك منك، ومنهم من قال: أن المعصية قد نسخت لأنه روي عن جمع من الصحابة التطليق ثلاثاً مع وجود المعصية فيه منهم عبد الرحمن بن عوف طلق زوجته (تماضر) ثلاثاً في موضعه، والحسن بن علي ﷺ طلق زوجته (شهبانو) ثلاثاً لما هنأته بالخلافة بعد وفاة علي ﷺ. أو أن المعصية كانت في التطليق في الحيض أو أن المطلق قال (ثلاثاً للسنة).

﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ أي من مساكنهن عند التطليق إلى أن تنقضي عدتهن ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ أي تزني فتخرج لإقامة الحد عليها، أو المعنى إلا أن يأتين بفاحشة واضحة وهي خروجهن من مساكنهن بدون موافقة الزوج لأنهما لو اتفقا على الانتقال جاز، لأن الحق لا يتجاوزهما، وفي جمع

النهيين دلالة واضحة على استحقاق السكنى ولزومها ملازمة مسكن الفراق. نعم إذا لم يكن ذلك المحل متميزاً بمرافق خاصة وحصل من بقائها فيه الاجتماع بزوجها وجب: أما انتقال الزوج إلى محل آخر، أو انتقالها إلى سكنى أخرى مناسبة لها.
﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي وتلك الأحكام حدوده تعالى المذكورة ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ أي يتجاوزها ويخالفها منهما ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ بتعريضه لعقاب الآخرة ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ وهو الرجوع إلى إطاعة الباري والتوبة عما جرى من المخالفة، أو هو وجود الرغبة فيهما لاستئناف العقد بينهما، أو رجعته لها إن كان الطلاق رجعياً.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي قاربن الوصول إلى انتهاء مدة العدة ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ فراجعوهن أو استأنفوا عقد نكاحهن ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ متلبساً بما يعرف في الدين بأن تكون المعاشرة لطيفة شريفة بلا نزاع وجدال ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ بالوفاء بتسليم حقوقها المشروعة ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ على الرجعة أو استئناف العقد أو الفراق بينهما. والأمر للوجوب إذا كان الإمساك بعقد جديد، وللندب إذا كان بالرجعة أو كان الفراق بالطلاق.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ﴾ أي أدوها عند الحاجة ﴿لِلَّهِ﴾ خالصاً له تعالى ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الحكم المذكور ﴿يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ ولا يخالف أوامره ونواهيه ويطع شرع الله في السلب والإيجاب ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ من الصعوبات الواقعة أمامه ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أن يأتيه الرزق من ذلك المحل لأن الصدق بالغيب يلزمه الرزق بالغيب ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي يعتمد عليه حق الاعتماد وأن النافع والضار هو الله، وأطاعه في مباشرة الأسباب التي هيأها له ﴿فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ أي فالله كافيه في ترتب المسببات على الأسباب، فالتوكل هو الاعتماد على خلقه وتأثيره وأن لا يرى التأثير للأسباب ويؤمن بأن المسببات مع الأسباب لا بها. وليس معنى التوكل اختيار البطالة والمشي على الجهالة، فإن ذلك مخالف لسنة الله في العالمين. نعم قد يكون أفراد من البشر يمتنعون عن معالجة كل أمر ويحصل لهم كل ما أرادوه لكنهم شواذ مأمورون بمباشرة تلك الأحوال لحكمة في الخلق. وإلا فسيد الأنبياء والمرسلين ﷺ هو سيد المتوكلين مع أنه باشر الأسباب كما هو الحق والواجب وحول الأمر إلى الله العلي العظيم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ أي واصل إلى مراده، ولا يفوته مراد من المرادات لأن تخلف المراد عن الإرادة ممتنع ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ أي تقديراً خاصاً، أو مقداراً محدوداً، أو أجلاً ومدة من الزمن لا يتأتى تغييره.

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ﴾ روي أنه لما نزل ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ قيل: فما عدة اللاتي لم يحضن؟ فنزلت يعني والنساء اللاتي يئسن من خروج دم الحيض لكبر سنهن ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ أي جهلتم عدتهن ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ وقد قدر بعض الأئمة سن اليأس بستين سنة، وبعضهم بخمس وخمسين، وقوله: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ﴾ مبتدأ خبره محذوف، أي واللائي لم يحضن من أول زمان استعداد الحيض إلى وقت وجوب العدة عليها فعدتهن ثلاثة أشهر أيضاً. وكذلك صغيرة تزوجت وبوشرت ثم طلقت قبل أن تحيض. ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ أي ولو نحو مضغة قالت القوابل إنها مادة آدمي وهذه الآية تعم المتوفى عنها، فإنه إذا وضعت الحمل بعد وفاة زوجها فقد انقضت عدتها. فقد أخرج مالك والشافعي عن ابن عمر أنه سئل عن المرأة التي توفي عنها زوجها وهي حامل فقال: إذا وضعت حملها فقد حلت، فأخبره رجل من الأنصار أن عمر بن الخطاب قال: لو ولدت وزوجها على سريره لم يدفن لحلّت ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في رعاية أحكامه تعالى ومراعاة حقوق الزوجة ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾ لتفهموا أحكام الدين ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ بالمضاعفة.

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ من الحث على التقوى، كأنه قيل: كيف نتقي في شأن النساء؟ فقال: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ أي من وسعكم ومالكم الموجود ﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ فتلجئوهن إلى الخروج لشغل المكان عندكم، أو بالإسكان مع من لا يردن السكنى معه ﴿وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ والآية مخصوصة بالمطلقات لأن المتوفى عنها لا نفقة لها ولو كانت حاملاً، ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ بعد الوضع ﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ على الإرضاع ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ أي تشاوروا في مقدار الأجور وسائر الأمور ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ أي تضايقتم أي ضيّق بعضكم على بعض وما توافقتم على الأُجْرَة ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ﴾ أي مرضعة أخرى، أي فستوجد له مرضعة أخرى ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ﴾ مالية ﴿مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾، أي سَيَجعل الله بعد عُسر وفقرٍ يُسراً وغنىً وَسَعَةً في الحال والمال.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي كثير من أهل قرية ﴿عَتَتْ﴾ تكبّرت وعَصَتْ ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾ ولم تُطِعْهُما ﴿فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ في الدنيا بتغيير الأحوال وتقتير الأموال وتقليل الجاه والمَنال وقد كانت بالإهلاك والتدمير ﴿وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي منكراً عظيماً. أو كل الفقرات السابقة تفسير لمحاسبة الدنيا بقرينة قوله تعالى: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ عقوبة عصيانها ﴿وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ عظيماً لا خسرَ أزيد منه في الآخرة، وبيّنه بقوله: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ العقول السليمة من الخلل، أعني ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسوله حق الإيمان ﴿قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ أي صاحب ذكر ﴿رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾ لكم ما يصلح به

أمركم في الدارين ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ ظلمات الجهل وغباوة النفس وشقائها وشهواتها وسوء الاعتقاد والأعمال ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ نور العلم والذكاء للنفس وطاعتها وحسن الاعتقاد والأعمال. ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ إلى أن ينتهيَ أمدُه ويأتي أجلُه ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ من الأثير الصّافي القوي الذي لا ينفذ بدون سلطان، وهي واسعة بما لا يعلم حده إلا الله، والقربى منها مزيّنة بزينة الكواكب السيارة والثابتة والمكشوفة بالعيون أو الأرصاد، أو لا يصل إليها إدراك العباد وفوقها الجنة التي عرضها السماوات والأرض وفوقها الكرسي الذي وسع السماوات والأرض.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي وخلق من الأرض مثلهن أي مثل السماوات في كونها أجساماً على حد وميزان، أو في أنها طبقات بعضها فوق بعض طبقة التراب الصرفة المجاورة للمركز، والطبقة الطينية، والطبقة المعدنية التي تكون فيها المعادن، والطبقة الممتزجة بغيرها المنكشفة التي هي مسكن الإنسان ونحوه من الحيوان، وطبقة الأدخنة، والطبقة الزمهريرية، وطبقة النسيم الرقيق. وهذه كلها من الأرض. أو المراد أنها أقاليم سبعة بحسب القرب والبعد من خط الاستواء، أو أنها سبع منها الأرض التي نحن نسكن فيها، ومنها كراتٌ ست أخرى على نحو هذه الصّفات الأرضية من الامتزاج بالماء ووجود الجبال والهواء ومعيشة الحيوان إلى غير ذلك مما لم يكشف لحد الآن. والأمر محول إلى علم الله سبحانه وتعالى ويمكن أن ينكشف بالعلم في المستقبل بعض أشياء لم يعلمها الإنسان إلى يومنا هذا. فإن هذه الكرة الأرضية وسائر الطبقات الفلكية، والكواكب السيارة، والثوابت الموجودة الآن لا يعلم مدى تكونها بخلق الله وقدرته الإبداعية، هل هي مليون من السنين؟ أو مليار أو مليارات؟ وتبين بمعالجة ما أدرك منها ووصل الإنسان إليه أنها مواد ضعيفة قابلة للتفريق والتمزيق والتحويل، والأمر الضعيف الممكن المسخر لا شبهة في أنه واقع تحت قدرة الخالق القادر العليم، ويجري قضاؤه فيها كما قال ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ﴾ أي قضاؤه وقدره وشؤونه الفعلية ﴿بَيْنَهُنَّ﴾ أي بين الأرض والسماوات حسب علمه وإرادته ولا يغرنكم ما تسمعون من الكلام على طول زمان تكوّن السماوات والأرض، فإنها متى تكونت ونعلم مدتها أولاً فهي مخلوقة لصانع قادر بيده مقاليد السماوات والأرض الله خالق كل شيء وهو

على كل شيء قدير وجميع الموجودات المادية المكشوفة والملفوفة عالم الشهادة والغيب كلها بالنسبة إلى الله وقدرته كشيء حقير لا قيمة له ولا وزن. وخلق الله الحي القيوم كل ذلك ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

❀ ❀ ❀

سورة التحريم

مدنيّة، وآياتها اثنتا عشرة، نزلت بعد الحجرات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
(١) قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ
ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ
عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ (٣) إِن تَتُوبَآ
إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا
خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا (٥)﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ﴾؟ روى البخاري، وابن سعد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ كان يمكث عند زينب ويشرب عندها عسلاً فتواصيتُ أنا وحفصةُ أن أيّتنا دخل عليها النبيّ ﷺ فلتقل إني أجد منكَ ريح مغافير، أكلتَ مغافير، فدخل على إحديهما فقالت له ذلك، فقال: لا بل شربتُ عسلاً عند زينب بنت جحش ولن أعود. وفي رواية وقد حلفت فلا تخبري بذلك أحداً فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ من شرب العسل ﴿تَبْتَغِى﴾ بذلك التحريم ﴿مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾ يعني حفصة وعائشة ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لما نالَك من أذى خلاف الأولى على تحريم ما أحله الله تعالى لك و﴿رَّحِيمٌ﴾ حيث قرر لك الحنث في اليمين وسترها بالكفارة.

وتحريم ما أحلّه الله ليس معناه أن يعتقد بالشيء الحلال محرماً لأنّ تحوّل الحلال إلى الحرام ممتنع، ولا يمكن صدوره من العالم بالأحكام، فضلاً عن

صاحب شريعة الإسلام. وإنما معناه الانكفاف عن الاستفادة منه بأن لا يأكل المأكول، ولا يشرب المشروب، ولا يلبس الكسوة الفلانية وهذا أمر عام وارد بين الناس، ومنه ما وقع له ﷺ. وكلامه ﷺ إن كان مع الحلف أي والله لا أشربه فهو ظاهر، وإن كان بصيغة التحريم كأن يقول: حرمت على نفسي شرب ذلك المشروب وقصد به تحريم شربه فيمين عليها كفارة.

﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي شرع لكم ﴿تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ أي تحليلها ورفع إثمها بإعطاء الكفارة. واختلف العلماء في حكم قول الرجل لزوجته: أنتِ علي حرام، أو الحلال علي حرام ولم يستثن زوجته فقال جمع لا يلزمه شيء، وقال جماعة: هو يمين يكفّرها. والشافعي إن نوى طلاقاً أو ظهاراً حصل أو نواهما تخير، وثبت ما اختاره. وقيل طلاق، وقيل ظهار، أو تحريم عنها لم تحرم، وعليه كفارة يمين. وأبو حنيفة يرى تحريم الحلال يميناً في كل شيء والتفصيل في كتب الفقه: ﴿وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ سيدكم ومتولي أموركم ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ﴾ أي حفصة ﴿حَدِيثًا﴾ هو قوله ﷺ: «كنتُ أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش، فلن أعود له، وقد حلفت لا تخبري بذلك أحداً» ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾ أي فلما أخبرت حفصة عائشة بالكلام الذي قاله لها ﷺ ﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي جعل الله رسوله ظاهراً ومطلعاً على ذلك الحديث، وأن حفصة أخبرت عائشة بذلك السرّ ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ﴾ أي أظهر الرسول ﷺ بعضه لحفصة، وذلك البعض: كنتُ أشربُ عسلاً عند زينب ﴿وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ أي وترك إظهار الجزء الأخير من الكلام، وهو حلفت فلم يخبرها به ﴿قَالَتْ﴾ حفصة: ﴿مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ أي إن الله هو الذي أخبرني بأنك حكيت كلامي لعائشة، ثم خاطبها الباري تعالى بقوله: ﴿إِن تَتُوبَآ﴾ يا عائشة ويا حفصة ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ تعالى ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ﴾ أي فحق لكما التوبة إذ قد مالت قلوبكما عن الواجب وهو حب ما أحبه الرسول ﷺ وكراهة ما كرهه إلى مخالفة ذلك ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾ أي وإن تتظاهرا عليه وتتعاونا على استحباب ما تريدانه واستكراه ما يريده ﷺ فالوبال عائد إليكما ولا يتضرر هو ولا تغلبانه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾ وناصره ﴿وَجِبْرِيلُ﴾ هو مع ما عطف عليه مبتدأ وقوله ظهير خبر أي وجبريل ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ﴾ كأصحابه ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ النصر من الله ﴿ظَهِيرٌ﴾ لمحمد ﷺ. ومن كان الله نصيره، وأهل الحق ظهيره وجب إطاعته في ما أحبّه. ثم الأولى بكما أن

تكونا باقيتين عنده لاستفادة السعادة لكما، وإلا فلا يعود عليه ضرر. ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ﴾ مطيعات منقادات له بكل معنى ﴿مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ مخلصات قانتات مواظبات على الطاعة ﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾ لله في السراء والضراء ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ صائمات ﴿ثَيِّبَٰتٍ﴾ راجعات عن الزوج بعد التمتع والفراق ﴿وَأَبْكَارًا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ بترك المعاصي وفعل الطاعات ﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾ أي أزواجكم وأولادكم ﴿نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ تتقد بهما اتقاد غيرها بالحطب. ووقاية الأهل لحملهم على ما مرّ بالنصح والتأديب. روي أن عمر رضي الله عنه قال: يا رسول الله نقي أنفسنا فكيف لنا بأهلينا؟ فقال ﷺ: «**تنهوهن عما نهاكم الله عنه، وتأمروهن بما أمركم الله به، فيكون ذلك وقاية بينهن وبين النار**» واستدل بهذه الآية على أنه يجب على الرجل تعلم ما يجب من الفرائض وتعليمه لهؤلاء، وفي الحديث: «**رحم الله رجلاً قال يا أهلاه صلاتكم، صيامكم، زكاتكم، مسكينكم، يتيمكم، جيرانكم.. لعل الله يجمعكم في الجنة**» ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ﴾ في الأقوال ﴿شِدَادٌ﴾ في الأفعال ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾ المعهود المعلوم اليوم لكل إنسان ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ أي توبة بالغة في النصح فهو من أمثلة المبالغة كضروب وصف التوبة دون التائب للمبالغة في قوتها. وهي أن ينصحوا بالتوبة أنفسهم فيأتوا بها على طريقها. قال معاذ بن جبل يا

رسول الله ما التّوبة النّصوح؟ قال: «**أن يندم العبد على الذنب الذي أصاب فيعتذر إلى الله تعالى، ثم لا يعود إليه كما لا يعود اللبن إلى الضرع**» ومن شرائطها رد حقوق اناس إلى أصحابها بقدر الإمكان. والندم على فعل ما فعله من المعاصي أو ترك ما ترك من الطاعات، وعزمه على أن لا يعود إليها. فإن تبتم توبة على ما قرر ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ فجاهد الكفار بالحرب والنار، والمنافقين بإقامة الحجة البالغة، واغلظ عليهم بإقامة الحدود في حقهم بدون أيّ مسامحة ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي جهنم.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إما ضرب بمعنى ذكر، ومثلاً بمعنى قصة لها شأن و﴿ٱمْرَأَتَ نُوحٍ﴾ بدل من قوله مثلاً أي قصة امرأة نوح. أي ذكر الله للكافرين المغترين بقرابتهم مع النبيّ أو مع المؤمنين قصة لها شأن هي قصة المرأتين اللتين كانت لهما علاقة برسولين من الرسل مع أنه ما استفادتا من قرابتهما. أو أن ضرب بمعنى جعل، يتعدى إلى مفعولين وامرأة نوح مفعوله الأول وكذا ما عطف عليه. ومثلاً مفعوله الثاني، وأخر الأول ليتصل ببيان قصتهما العجيبة أي جعل الله قصة امرأة نوح وامرأة لوط مثلاً وشبيهاً لقصة أولئك الكافرين المغرورين حتى يمتنعوا الغرور ويتوجهوا إلى الله تعالى ورسوله فيبين الباري تعالى للاتعاظ والاعتبار ويقول: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ﴾ وهما نوح ولوط عليهما السلام ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ وخيانة امرأة نوح هي أنه كانت تقول بالنسبة إلى نوح عليه السلام

إنه مجنون. وخيانة امرأة لوط هي أنها كانت تدل أهل القرية المفسدين على الضيف الوارد على سيدنا لوط، فإن الله سبحانه وتعالى كما عصم الأنبياء ﷺ من الذنوب لمخالفتهما لمقام الرسالة كذلك عصم أهلهم من الفجور والفسوق لإخلالهما باحترام البيت النبوّي. وكل ما يقال أو يروى من ذلك الباب دسّ ووضع وافتراء على مقام النبوّة والرسالة، فاياكم وإياها، فإن الناس ناسون لحقوق الله تعالى وأنبيائه ورسله ويتكلمون كما يريدون. ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا﴾ أي ذانك العبدان الصالحان ﴿عَنْهُمَا﴾ أي عن الامرأتين ﴿شَيْئًا﴾ من الإغناء أو شيئاً من العذاب، أي لم تتخلصا من عذاب الآخرة بعلاقتهما مع ذينك الصالحين ﴿وَقِيلَ﴾ لهما من جانب الله تعالى: ﴿ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّاخِلِينَ﴾.

ولما علمت إعراب الآية هذه فقس عليه إعراب هذه الآية الآتية أعني قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ واسمها آسيا بنت مزاحم ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ والعندية يراد بها قرب العبودية منزلة من الرب المعبود ﴿وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ﴾ أي نفسه الكافرة الخبيثة بتأثيرها في نفسي أو بغضبها عَلي وإيذائي ﴿وَعَمَلِهِۦ﴾ أي ومن شوم عمله من إيذاء الناس، والإشراك بربّ العالمين ﴿وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ وهم الأقباط المتعاونون مع فرعون الظالم، أي من شوم عملهم أو كيدهم ووشايتهم علي. ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ﴾ عطف على امرأة فرعون، أي وضرب الله مثلاً للذين آمنوا حال مريم ابنة عمران ﴿ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي صانته وحفظته من كل ما يخالف الدين ﴿فَنَفَخْنَا﴾ على فم عبدنا الأمين جبريل من المقربين ﴿فِيهِ﴾ أي في فرجها مراداً به الجيب ففيه استخدام، لأن المحصنة الفرج المعهود، والمنفوخ فيه الفرج بمعنى جيب قميصها، لأنه لما تمثل لها بشراً سويّاً استحيت واستعاذت بالله. ولما بين أنه مرسل من ربه إليها للتبشير هدأت وسكن قلبها، فنفخ في جيب قميصها المتصل بصدرها، ووصل أثر النفخ إلى جسمها، لأن ذلك النفخ كان نفخاً ملكياً قدسياً كما قال ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ أي من الملك الروحاني البريء من المادة الترابية المخلوقة بأمرنا كن فيكون. فالإضافة للتشريف والتلطيف ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا﴾ الواصلة إليها بواسطة جبريل من قوله إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً. وقوله ﴿ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢١]. حيث حصل لها علم ضروري وهبي بأن المتمثل لها ملك مقدس مأمور من الله رب العالمين

وليس إنساناً ولا جناً ولا من الشياطين ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ أي وصدقت بكتبه السماوية كلها بواسطة السماع من ابنها عيسى عليه السلام ﴿وَكَانَتْ﴾ قبل هذه الحادثة وبعدها ﴿مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ﴾ العابدين لرب العالمين، والقانت: المطيع الملازم للطاعة، جعلنا الله منهم برحمته إنه أرحم الراحمين.

❀ ❀ ❀

الجزء التاسع والعشرون
سورة الملك

مكيّة، وآياتها ثلاثون، نزلت بعد سورة الطور

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ٢ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ٤ وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ٥﴾.

قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ أي البركة والكبرياء للخالق الذي بيده ﴿ٱلۡمُلۡكُ﴾ أي السلطة والتصرف المطلق يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وهذه الجملة من أعلى الجمل المفيدة للعظمة، لأن كل خير ينشأ عن كل فاعل فإنما ينشأ من السلطة، ويكون على ميزانها ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ﴾ فسر الحياة بأنها صفة توحيد الحس والحركة الإرادية، فهي وجودية ومن الكيفيات النفسانية، وأما الموت فمنهم من يقول إنها أيضاً صفة وجودية تضاد الحياة كالسواد للبياض، ومنهم من يقول: إنه أمر عدمي يفسر بعدم الحياة عمن يكون من شأنه الحياة فعلى الأول يتعلق الخلق بهما لأن أثر الخلق والإيجاد هو الوجود، وأما على الثاني فقالوا: إن الخلق بالنسبة إلى الموت بمعنى التقدير والتمييز، أو نسبته إليه بمعنى نسبته إلى محل انتزاعه، أي جعل الشخص بحيث ينتزع منه الموت، فقوله: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ أي ليعاملكم معاملة المختبر في عالم العيان أيكم أحسن من الآخرين عملاً وإطاعة لربكم رب العالمين ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره ﴿ٱلۡغَفُورُ﴾ الساتر لذنوب من يؤمن بقدره.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ أي متطابقة بعضها فوق بعض. والسماوات وإن كانت أجساماً أثيرية لكنها قابلة للتمايز وامتياز بعضها عن بعضها، فالسماء الدنيا منها قابلة لوجود الكواكب الثابتة والسيارة فيها، والسماء الثانية على غير تلك الصفة، وبين كل سماء مع مجاورها علاقة خاصة وارتباط. ولا تبغي إحداهما على الأخرى، وقوله: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ صفة لسبع سماوات وليس المراد بنفي التفاوت نفي الفوارق لأنها موجودة، بل المعنى أنه ليس فيها عيب ونقص من جهة أن الحكمة اقتضتها، أوليس فيها تجاوز الحد لأيّ واحد، كما أن الإنسان السوي مخلوق بقصر اليدين وطول الرجلين وعظم الهامة وسواد الشامة وكل ذلك مقبول ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أي فإن كنت في شبهة في السالبة السابقة فارجع البصر واستعمل الفكر حتى يتضح الحال ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ ليس المراد مرتين فحسب بل المراد تكرار استعمال البصر بقدر الميل قليلاً أو كثيراً، فإذا رجعته كذلك ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ ذليلاً عليلاً ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي كليل من طول المعاودة.

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي القربى منكم أي التي هي أكثر دنواً وقرباً منكم ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ أي بكواكب تنور العالم تنوير المصابيح للمجالس ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ أي وجعلنا تلك المصابيح بواسطة ما يحدث من دورانها وإشعاعها وحدوث النيازك منها ومن أمور اخرى رجوماً أي رجماً ودفعاً وطرداً للشياطين الصاعدين في الجوّ لاستماع بعض الأصوات والكلمات وأخذ أمور علمية منها مربوطة بأوضاع السماوات والأرض. يعني إن الشياطين المنتشرين في الأرض الصاعدين في الجو لاستراق السمع قررنا رجمها ودفعها بالنيازك والشهب الناشئة من تلك الكواكب. وليس معناها أن تلك المصابيح تنقض ذواتها وترجم الشياطين، ولا أنها لم تكن قبل الإسلام وإنما حدثت بعد مجيء الإسلام حتى يقال إن المصابيح والنيازك وجدت في العهود السابقة أيضاً، ولا أنها ليس لها فائدة إلا رجم الشياطين فيجوز أن يكون لها فوائد أخرى أيضاً، ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي وهيأنا لتلك الشياطين عذاب النار المسعرة الملتهبة المشتعلة في الآخرة.

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ

كَبِيرٖ ﴿٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ﴾ يعني كما اعتدنا عذاب السعير للشياطين قُرِرَ لكل مكلف من الذين كفروا بربهم وتمردوا عن أمره ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ جهنم ﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا﴾ أي إذا طرحوا فيها ﴿سَمِعُواْ لَهَا﴾ أي لجهنم ﴿شَهِيقٗا﴾ أي صوتاً منكراً كشهيق الحمير ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ أي ينفصل بعضها عن بعض ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ﴾ أي تكاد تتميز بعضها عن بعض من شدة فيها تشبه حالة الحي الغضبان ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ﴾ أي جماعة من الكفرة ﴿سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾؟ يتلو عليكم آيات الله فتخافوا ﴿قَالُواْ﴾ في جوابهم: ﴿بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ﴾ وتلا علينا آيات الله ﴿فَكَذَّبۡنَا﴾ ه من سوء حظنا ﴿وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ﴾ فضلاً عن الآيات التشريعية ﴿إِنۡ أَنتُمۡ﴾ أي ما أنتم أيها الرسل المنذرون ﴿إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ﴿٩﴾ وَقَالُواْ﴾ بعد ذلك الاعتراف الخطير متندمين على ما فرّطوا ﴿لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ﴾ آيات الله أو ﴿نَعۡقِلُ﴾ ونتفكر في أنفسنا وفي الآفاق آمنا بالله وآياته و﴿مَا كُنَّا فِيٓ﴾ عداد ﴿أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا﴾ وبعد ﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ وفي تفسير البيضاوي هنا: والتغليب للإيجاز والمبالغة والتعليل، وفي بعض نسخه: والتغيير للإيجاز والمبالغة والتعليل فعلى الأولى جواب لما يقال إن اصحاب السعير هم الشياطين الذين في أعمق الدركات، فكيف لف الكل وجعلهم من أصحاب السعير؟ فأجاب بأن تغليب أصحاب السعير على غيرهم للإيجاز وهو ظاهر، ولإفادة المبالغة في عذاب سائر الكافرين فكأنهم أيضاً أصحاب السعير، ولتعليل سحقهم وبعدهم عن رحمة الله بأنهم من أصحاب السعير وممن يستحقون عذابها، ولذلك سحقهم وأبعدهم. وأما على النسخة الثانية فيريد أن أصل الكلام فسحقهم الله سحقاً. وإنما غير الأسلوب وغير التركيب الفعلي بذكر المصدر النائب عنه للإيجاز وهو ظاهر، وللمبالغة في تعذيبهم حيث ذكر السحق مبهماً أوّلاً بدون بيان من يستحقه، ثم قال لأصحاب السعير ولإفادة علة سحقهم وبعدهم عن رحمة الله وهو أنهم من أصحاب السعير وملازميها والكل مناسب لا غبار عليه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي حال كون الباري تعالى غائباً عنهم، أو يخشونه بينهم وبين الله بالقلب ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ من الله لذنوبهم ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ لا يستقصى حدّه ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓ﴾ خطاب عام للمكلفين وتهديد للذين يضمرون السوء للرسول ﷺ ولأصحابه أو لأهل الدين الصادقين، ويؤيده أنها نزلت في المشركين الذين كانوا ينالون من النبيّ ﷺ فيوحى إليه ﷺ، فقال بعضهم لبعض: أسروا قولكم كيلا يسمع رب محمّد فقيل لهم أسرّوا بذلك أو اجهروا فإن الله تعالى يعلمه ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي كلّ ما يجول في صدوركم، وتقديم السر على الجهر للمبالغة والتأكيد في الأمر إشارة إلى أن السر لا يمتاز عن الجهر، بل هما متساويان عندنا ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ﴾ الأعيان والأعراض ولا يحدث شيء في الكائنات إلا بإرادته المقرونة بعلمه وقدرته ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾؟ المناسب بلطافته لدرك كل خفي والعالم لخبرته لكل شيء.

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ
ٱلنُّشُورُ (١٥) ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمۡ
أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ (١٧) وَلَقَدۡ كَذَّبَ
ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨) أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا
يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ (١٩) أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم
مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (٢٠) أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ
بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ (٢١) أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ
صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (٢٢)﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا﴾ أي منقاداً للاستثمار والاستغلال بسبب ما فيها من المعادن والنبات والأشجار القابلة للاستفادة، والأراضي المناسبة للحرث والغرس وغير ذلك ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ﴾ أي انتفعوا بما يستفاد منها بالأكل أو غيره ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ أي المرجع بعد البعث. ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي في السماء أمره ونفاذ قدرته وتأثيره في خلقه وقوله تعالى: ﴿أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ بدل اشتمال من من، وجوز أن يكون على حذف الجار، أي من أن يخسف بكم الأرض. ومحله حينئذ هو النصب أو الجر والباء للملابسة،

والأرض مفعول به ليخسف، والخسف قد يتعدى، يقال خسفه الله تعالى وخسف هو. قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١]. أي أأمنتم من أن تذهب الأرض إلى سفل متلبسة بكم ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ أي الأرض ﴿تَمُورُ﴾ أي ترتج وتهتز اهتزازاً شديداً، وأصل المور التردد في المجيء والذهاب ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًاۖ﴾ أي حجارة كقوم ثمود ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾؟.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾؟ أي الإنكار عليهم بإنزال العذاب ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ أي باسطات أجنحتهن ﴿وَيَقْبِضْنَۚ﴾؟ أي قد يضممن أجنحتهن ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ في الجو ﴿إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُۚ﴾ بقوته ورحمته ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ ويقدر على كل شيء ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾ أي بل ألحوا وتمادوا في عناد واستكبار ونفور عن الحق لغرورهم وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ﴾؟ يعني أن المؤمن الصادق الذي آمن بالله ورسله كمن يمشي خبيراً بصيراً على صراط مستقيم، وغيرهم كمن يمشي بطريق الإكبار على وجهه ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾؟ ولا شك أن الماشي على الصراط المستقيم يصل إلى منزله بنية قوية ودين قويم.

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ
﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن
كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً
سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ
أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ
ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَاۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ
أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۖ﴾ يعني: إن الله سبحانه وتعالى هو الذي كان ويكون وسيكون مبدأ لكل نعمة واصلة وفائضة من رحمته سواء كانت إيجاداً وإنشاء لذواتكم أو لحواسكم ومشاعركم من السمع والأبصار والأفئدة أو إبداعاً لفضائلكم النفسية المادية والمعنوية القدسية أفلا

تشكرون ذلك الخالق الواجب الوجود المنبع لكل خير وجود ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ لأنه قال وقليل من عبادي الشكور ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي خلقكم ونشركم فيها ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ لجزاء أعمالكم ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي أولئك الكافرون ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي اليوم الموعود لجزاء الأعمال ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أيها الرسول ومن معه ﴿قُلْ﴾ يا حبيبي جواباً: ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ عز وجل وهو من العلوم المستأثرة ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ لكم أنذركم بأنه سيوافيكم بلا شك ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ يعني ثم أتاهم اليوم ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ أي ذا زلفة وقرب ﴿سِيٓـَٔتْ﴾ وتعبست وتغيرت وتكدرت ﴿وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ أي تطلبونه في الدنيا وتنكرونه.

ولما كان كفار مكة يدعون على الرسول ومن معه بالهلاك والدمار نزل ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا﴾ ونجانا ونصرنا عليكم ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ويحفظهم ﴿مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ موعود لهم؟ أي فمن يجيركم، لكن أراد تسجيل الكفر عليهم بالتعميم حتى يثبت لهم العذاب الأليم في نار الجحيم، ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي المنجي لنا هو الرحمن ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ لا على غيره ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أأنتم وقد كفرتم بربكم؟ أم نحن وقد آمنا برب العالمين؟ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي غائراً أي ذاهباً في الأرض لا تناله وسائل الاستخراج، أو أمحاهُ وما أمكن استحصاله ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾؟ جارٍ بحيث يستفاد منه والجواب السالم المتين: الله ربنا ورب العالمين.

۞ ۞ ۞

سورة القلم

مكيّة وآياتها اثنتان وخمسون، نزلت بعد العلق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿نٓۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ
لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ
ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧ فَلَا
تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠
هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن
كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥ سَنَسِمُهُۥ عَلَى
ٱلْخُرْطُومِ ۝١٦﴾.

قوله تعالى: ﴿نٓۚ﴾ الله أعلم بمراده منه ﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أقسم الباري سبحانه وتعالى بقلم اللوح الذي جاء في الأخبار أنه أول شيء خلقه الله تعالى، أو قلم الكرام الكاتبين، أو قلم كتابة الكتب المنزلة من الله تعالى إلى المرسلين، أو قلم الكتاب لكل ما فيه خير في الدنيا وصلاح في الدين، ولا سيما أقلام العلماء الأعلام الذين ألفوا وهذبوا ونشروا العلم والحكمة في ربوع العالم. وعلى كل حال فالقلم جهاز شريف من أجهزة التثقيف والتعليم وعليه مدار سعادة البشر وصيانته عن الخطر ويليق بأن يقسم به رب العالمين ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ بالقلم والمُقسم عليه ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾ أركان الكلام فيه ما أنت بمجنون والباء لتأكيد النفي والباء في بنعمة إما للملابسة أي ما أنت بمجنون مع ملابستك لنعمة ربك الذي فضّلك واختارك وأرسلك رحمةً للعالمين، أو للسببية أي

بما أنه أنعم عليك بما شاء فاختارك من الخلق للنبوّة والرسالة والقدر والجلالة والكرامة والشهامة، وزينك بزينة المزايا الكريمة والصفات العظيمة ﴿وَإِنَّ لَكَ﴾ على أتعاب التبليغ ونشر القرآن البليغ وجهادك في سبيل تنوير العباد ﴿لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ غير منقطع ولا ممنوع ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ لا يعلم بنتائجها القيمة إلا الله العليم، فجميع المعجزات التي أوتيتها من الإمدادات الخارجية في كفّة والقرآن في كفّة، وخلقك القرآن.

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾؟ أي أن الكلام والاستدلال إذا لم يُفدْ ولم يقنع أولئك الجاهلين الطّاعنين في خلقك بالجنون ﴿فَسَتُبْصِرُ﴾ أنت بالعيون ﴿وَيُبْصِرُونَ﴾ بها ﴿بِأَييِّكُمُ﴾ الفتنةُ والجنون إن كان المفتون مصدراً على وزن المفعول كمَعقُول وإن كان اسم مفعول فالباء في أيّ زائدة أي فستبصر ويُبْصرون أيّكم المفتون هل أنت والحال، تعلو على قِمم المَعالي وقلبِ العالم من الظلمات إلى النّور ومن الفوضى إلى الدستور ومن الجهل إلى العلم؟ أو هُمْ وهم في هم الشّهواتِ النفسيّة والدنايا لا يعلمون من حَياتهم إلاّ إشباع النّفس من الشّهوات وقضاء الحياة في الغفلة والغمرات!؟ ثم إنك تنظر بالعينين، وتعمل باليدين عين إلى الحال وأخرى للمستقبل ويد للكتاب، ويد للسّيف والمحراب، ولك قلب منور يتفكر في عالم الشهادة والغيب ويرى يوم حساب الأعمال، ومدى مسؤولية المكلّف في الأفعال وهم عُمْيٌ عن ذلك فهل أنتَ مجنون أوْ عدوك الغبي مجنون؟.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ جملة مستأنفة مبينة لأحوال الفريقين. يعني هو سبحانه وتعالى أعلم بمن ضل عن سبيله المؤدي إلى السعادة ومن اهتدى إليه، وليس أحد غيره يعلم هذا الأمر بالحقيقة مثله. فلما هداك ذلك الرب الأعلم إلى السبيل السليم الأسلم ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨﴾ بالله ورسوله والمنحرفين عن سبيله ﴿وَدُّوا۟﴾ وتمنوا ﴿لَوْ تُدْهِنُ﴾ وتلين معهم ﴿فَيُدْهِنُونَ﴾ أي فيلينون لكي تنبه وتوجه إلى الحق القيوم ولا تسمع كلامهم، إلا إذا عرفت في الحق مرامهم فإذا علمت أنهم مالوا إلى الحق فتوجه إليهم واستمع لما لديهم ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ كثير الحلف في الحق والباطل ﴿مَّهِينٍ﴾ حقير في الرأي والتدبير ﴿هَمَّازٍ﴾ طعان في الناس ﴿مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ﴾ كثير المشي والمرور بينهم بإلقاء الأخبار المشوشة للعقول والمثيرة للناس بعضهم على بعض ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي مناع للناس عن الخير الواصل إلى الغير قولاً أو فعلاً، جاهاً أو مالاً، علاوة على

امتناعه في ذاته عن ذلك ﴿مُعْتَدٍ﴾ متجاوز على الناس بالظلم والعدوان ﴿أَثِيمٍ﴾ كثير الإثم ﴿عُتُلٍّ﴾ هو الشديد الفاتك أو الشديد الخصومة بالباطل أو الفاحش اللئيم أو هو الذي يعتل الناس أي يجرهم إلى الحبس والأذى، وقوله: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ أي وبعد ذلك المذكور من المثالب والعيوب زنيم أي دَعِيٍّ ملحَق بقَوم ليس منهم، ومن لم يولد على فراش أبيه ولم يأخذ التربية من أمه وأبيه وأعمامه وذويه ليس غالباً كما تبتغيه، وقوله: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾﴾ بتقدير اللام تعليل للنهي أي لا تطعه لكونه ذا مال وثروة وبنين وقوة فإن قوة الله فوق كل قوة، لأن ذلك الرجل من أكفر الكافرين ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾ أي هي عبارات متوارثة من الناس الأقدمين يتناولها الناس ويتداولونها جيلاً بعد جيل فلا تهتموا بها. وهذا الكلام كلام خارج عن أصول أولي العقول والأفهام لأن آيات القرآن لم يكن يحفظ شيء منها قبل بعث الرسول، ولم يكن متداولاً بين الناس، وعندما نزلت نزلت غضة طرية ذات مهابة وقوة قدسية وبلاغة لها آثار نفسية، بحيث عجز عن مقابلتها الأدباء والخطباء أصحاب البلاغات الشخصية، وأما إذا نظرت إلى المعاني فأي كلام جديد أو قديم إذا وجدته داعياً إلى رعاية الحق والشعور بالمسؤولية ورعاية الحقوق الاجتماعية وجب أن يحترم ويقدس، فإن حكمة الحكماء وعلوم العلماء الأولين لها مكانتها في الصدور ومغزى آيات القرآن الكريم كان كذلك، فالطعن فيه بالعبارات الفاسدة عمل فاسد ولا ينبغي أن يصغى إلى كل جاهل جاحد، وإنما العبرة بالعقل والعلم والاستدلال، وما عدا أهل العقل والعلم فهم في ضلال والعياذ بالله.

ثم نزلت من هذه الآيات التي كان يطعن فيها الجاهل آية كانت مخبرة عن الغيب، ثم وقع مضمونه في المستقبل بلا ريب. وهو قوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾ أي سنحقره في الآخرة ونذله بحيث يُهان ويخزى بأن نكويه في جهنم على خرطومه أي أنفه. وفي التعبير تحقير بليغ له، لأن الخطروم لا يستعمل إلا للفيل وهو حيوان كبير الجثة مختص بخواص يعرفها أهلها. ومعناه أن هذا الإنسان العظيم في الهيكل والقامة التي تشبه الفيل لا يعتني به، وهو مهان، وفي الوقت عينه كان في الآية إخبار بالغيب لأنه أصيب يوم بدر بضرب على خرطومه وبقي أثره إلى أن مات. وهذا الرجل كان اسمه وليد بن المغيرة، يقال أنه تبناه وألحقه بنفسه، ولكن الذي يظهر حسب التاريخ أنه ولد على فراش أبيه.

روي أنه لما نزلت الآية قال لأمه: إن محمداً وصفني بتسع صفات أعرفها غير التاسع منها، فإن لم تصدقيني الخبر ضربت عنقك، فقالت له: إن أباك عنين فخفت على المال، فمكنت الراعي من نفسي فأنت منه، فلم يعرف أنه ابن زنا حتى نزلت الآية.

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ يريد سبحانه وتعالى أنا للناس بالمرصاد علمنا بنوايا المشركين وعدائهم للدين فابتليناهم بالقحط والجدب، كما بلونا أصحاب الجنة الذين غيروا نواياهم مع الله فابتليناهم بآفة أفسدت ثمار بستانهم، وبعد ذلك تندموا واستغفروا، وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ أي حلفوا أنهم يقطعون ثمار جنتهم إذا دخلوا في الصباح ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾ أي لا يقولون إن شاء الله، كأنهم لا يهتمون بتقدير الباري ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾﴾ يعني فأحاط بجنتهم ونزلت عليها نازلة من الله سبحانه وتعالى بالليل وأصحاب الجنة نائمون غافلون عن كل شيء ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ أي فأصبحت الجنة بهذه النازلة كالبستان الذي قطع ثماره ولم يبق فيه شيء ﴿فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾ أي فنادى بعضهم بعضاً عندما دخلوا في الصباح أي اذهبوا إلى بستانكم إن كنتم صارمين قاطعين ثماره ﴿فَٱنطَلَقُوا۟﴾ فقاموا واستعدوا واجتمعوا وانطلقوا إلى البستان ﴿وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ﴾ أي يتشاورون بينهم سراً ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾ حتى لا يطلبوا منا الحقوق المعتادة المشروعة ﴿وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ أي وغدوا مستمرين على حرد المساكين ومنعهم حال كونهم ﴿قَٰدِرِينَ﴾ عليه،

أو غدوا قادرين على حرد، أي ذهبوا صباحاً حال كونهم قادرين على منع المساكين.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ أي الجنة ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ طريق البستان، أي فلما دخلوا على محل البستان ما رأوا شيئاً، فقالوا: إنا تائهون وضيعنا طريقها وهذا المحل ليس محل بستاننا. ولما نظروا إلى أطراف الجنة ومنارها وشعارها وجدوها كما كانت، وعلموا أن الجنة عين الجنة فقالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾ من ثمارها يعني ضيعها الله تعالى ولم يبق منها شيء يلتقط لنا.

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أي أشرف أصحاب الجنة وأحسنهم عقلاً ورأياً ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾؟ أي لولا تذكرون الله وتتوبون عن هذه النية الفاسدة، نية منع المساكين! ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ بقصد منع المساكين عن تسلّم الحقوق المشروعة ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ أي يلوم بعضهم بعضاً ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾﴾ أي متجاوزين حدود الله تعالى في منع الفقراء عن الحق المشروع لهم. ولذلك رمى الله تعالى بستاننا بمنع أشجارها وثمارها ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ﴾ نترجى أن يعطينا ربنا بدلاً خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون. ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ أي العذاب كذلك أي عذاب أهل الجنة كعذاب أهل مكة، أو عذاب أهل مكة كعذاب أصحاب الجنة وهما متقاربان ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ وهو العذاب النازل المؤبد على الكفار أكبر من العذاب الدنيوي ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ ذلك لانزجروا.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾﴾ يعني إن للمتقين عن الكفر ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في جوار رحمته في الآخرة ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي جنات فيها نعيم خالص

عن شوب الكدورات النفسية، والأمراض البدنية، والخوف عن الزوال وهذا فضل منا بمقتضى حكمتنا وعدلنا ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾؟ أي نعذبهم مثلهم حاشا ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾؟ أتى بهذه الفقرة إشعاراً بأن تلك التسوية مخالفة لحكمة الباري في شؤونه ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾﴾؟ أي تدرسون فيه أي تقرأون ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ أي للذي تختارونه وتشتهونه ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ﴾ أي بالغة أقصى درجات التوكيد مستمرة ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لا تنتقض في أي وقت ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ جواب القسم. ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ﴾ أي يا حبيبي سل الكفار الموجودين أيهم بذلك ﴿زَعِيمٌ﴾ أي أيهم كفيل على ذلك؟ ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ﴾؟ يشاركونهم في هذه العقيدة وفي هذا القول ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواهم، إذ لا أقل من التقليد.

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ متعلق بقوله تعالى فليأتوا، أي يوم يكشف الستر عن ساق الجد ويجبرون بكل قوة ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ أمام عظمة الله يوم القيامة ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لزوال القدرة عليه ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ﴾ أي تغشاهم ذلّة ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ في الدنيا مع أنهم لا يسجدون استكباراً وعناداً! فكيف يطلق سراحهم ليسجدوا أمام الباري يوم اللقاء ﴿فَذَرْنِى﴾ يا حبيبي ﴿وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ وحوّل أمره إليّ ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه استدراج بل يزعمون أن ذلك تقدير وترفيع شأن وجاه ومقام ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ﴾ أي وأمهلهم ليزدادوا إثماً ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ قوي لا يدفع بشيء وتسمية ذلك كيداً للمشاكلة.

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾؟ على الإرشاد وتبليغ الأحكام ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ﴾ أي غرامة مالية ﴿مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ ويستغنون بذلك عن علمك وإرشادك.

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ نزل عندما أراد ﷺ أن يدعو على ثقيف لما آذوه حين عرض نفسه على القبائل بمكة. فيقول الباري تعالى فاصبر لحكم ربك بالإمهال لهم مدة من الزمان بلا عذاب ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ هو يونس عليه السلام ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ أي مملوء غيظاً على قومه وحقداً على تأخر العذاب عنهم ﴿لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ وهو توفيقه للتوبة وقبولها منه ﴿لَنُبِذَ﴾ عن بطن الحوت ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ أي الصّحراء الخالية عن الشراب ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ حال وقيد لعامله أي نبذ بالعراء والحال أنه مذموم لكن الفضل والرحمة منه ساعدته وهو قد نبذ بالعراء بدون أن يكون مذموماً فاجتباه ربّه واختاره وجعله إنساناً معتدلاً فجعله من الصّالحين.

﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ كلمة إن مخففة من المثقلة أي وإنه قارب أن يزلقك الكفار عند سماع القرآن الكريم منك من قوة الحسد والبغض فيهلكوك ﴿وَيَقُولُونَ﴾ من حيرتهم في أمرك وعدم فهم الحقائق ﴿إِنَّهُ﴾ أي إن محمداً ﴿لَمَجْنُونٌ﴾ مختل العقل ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ أي وليس هذا القرآن الكريم الذي تقرأه إلا ذكراً للعالمين ليكون منوراً للقلوب وموجهاً لأهل العقل والإنصاف إلى العقائد السليمة والأحكام الحكيمة فكيف يكون الآتي بهذا الذكر الحكيم مجنوناً مع أن الحكمة معدنها العقل السليم والطبع المستقيم وذلك معلوم عند كل عليم.

❀ ❀ ❀

سورة الحاقة

مكيّة، وآياتها اثنتان وخمسون، نزلت بعد سورة الملك

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلۡحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ﴿٧﴾ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ﴿٨﴾ وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ﴿١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ﴿١﴾﴾ أي الساعة أو الحالة أو الحادثة التي حقت في علم الله وتحق في مستقبل الزمان ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٢﴾﴾ هذه الجملة مبتدأ وخبر وقعت خبراً للمبتدأ الأول، واستغنى عن الرابطة بتكرار المبتدأ نفسه ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ أي وما أعلمك وأخبرك ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٣﴾﴾ أي أنها حادثة لا يعلم حقيقتها وما يقع فيها إلا الله سبحانه، وقوله: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ﴿٤﴾﴾ وإن كان شروعاً في بيان تكذيب الأمم المتمردة بالحاقة إلا أنها وقعت في جواب سؤال الباري، فإنه لما قال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ أجاب عن ذلك السؤال بهذه أي إن الحاقة حادثة مهولة مهيبة مدهشة كذبت ثمود وعاد وسائر الأمم الطاغية بها، فالقارعة مثل الحاقة لقب للساعة، ووجودها في ذلك المحل إظهار في مقام الإضمار ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾ أي بالحادثة المتجاوزة عن الحد وهي الصّيحة المفزعة المهلكة، وهي صيحة جبريل عليه السلام بأمر صدر بها من الله ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ﴾ أي شديدة الصوت أو شديدة البرد ﴿عَاتِيَةٖ﴾ شديدة العصف أو العتوّ والظلم ﴿سَخَّرَهَا﴾

الله تعالى ﴿عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾ بدأ من صباح الأربعاء إلى مساء الأربعاء بعدُ، وقوله: ﴿حُسُومًا﴾ أي متتابعات ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا﴾ إن كنت حاضراً إذ ذاك ﴿صَرْعَىٰ﴾ أي هلكى أي واقعين ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ أي أصول نخل خاوية خالية الأجواف من المادة الخشبية أي أحرقت الريح والعياذ بالله بواطن الناس فوقعوا على الأرض أمواتاً ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم﴾ أي لقوم عاد ﴿مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ أي من بقية على الأرض تحكي لك ما جرى عليهم.

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ كقوم عاد وثمود ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ أي قرى قوم لوط المسميات بالمؤتفكات لانقلابها بحادثة التدمير ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ أي بالخطأ على أنه مصدر أو بالأفعال الخاطئة ذات الخطأ والفساد ﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ أي فعصت كل أمة رسولها ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ أي زائدة عالية في الشدة. ثم ذكر بعض أحوال الأمم السابقة، فقال: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ وتجاوز حده المعتاد ﴿حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ أي في السفينة الماشية على وجه الماء أو على سطحه ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ أي مذكرة لكم في التفكر، وعبرة لكم في التأثر، وطريقة لكم في تدبر عظمة الله كيف ألهم نوحاً صنع السفينة ووفقه على إكمالها وإعدادها لليوم المعين. وكيف دمر أعداءه بما قطع نسلهم عن أصلهم واستأصلهم وليعلموا أن جنود الله لا تحصى وبلاياه لا تستقصى، وأنه بالمرصاد للعباد ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ أي وتحفظ تلك الحادثة المدهشة العالمية أذن واعية حافظة للنصائح وراعية لها بعناية تامة، والقوم الذين كذبوا بالحاقة دمرناهم قوماً بعد قوم إلى أن يأتي ذلك اليوم.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً
﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ
أَرْجَآئِهَآ ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ
﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ
حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟
وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ
يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ
عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى

سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾ وذلك عبارة عن النفخة الأولى المغيرة لصورة العالم التي تكون من أسباب موت الحيوانات وانقلاع الجبال ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي زلزلت الأرض بحيث ترى كأنها منقلعة مرتفعة هي وما عليها من الجبال ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي فضربت المجموعتان أثر رفعهما بعضهما ببعض ضربة واحدة حتى تمزقتا ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾ أي حصلت الحاقة ووقعت الواقعة ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ تفطرت وتميز بعضها عن بعض ﴿فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ أي ضعيفة أيام القدرة ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾ أي أطرافها ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ﴾ أي فوق رؤوسهم ﴿يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ منهم وترتيب الحمل، وأسماء الحملة، وسرّ زيادة الحَمَلَة من الأربعة إلى الثمانية عند الله تعالى، آمنا به وخولنا علمه إليه ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ أي في ذلك الوقت تعرضون للحساب وتحاسبون، ولا تخفى منكم نفس خافية، لا يمكن أن تتستر أو تعرضون للحساب، لا تخفى خافية من أسراركم أبداً، فينقسم الناس قسمين لتناول دفاتر الأعمال.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ فيقال لهم ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾ ها اسم فعل الأمر بمعنى خذ، وفيها ثماني لغات، منها أن تلحق الألف كاف الخطاب الحرفية كما في ذلك وتصرفها: نحو هاك، هاكما، هاكم، هاك، هاكن. ومنها أن تلحقها بدل الكاف ميم وتصرفها: نحو هاء، هاؤما، هاؤم، هاء، هاؤنّ. ﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾ أي علمت أني أحاسب وألاقي يوم حسابي حسبما أخذته من ديني وأعتقده وكنت مؤمناً بيوم القيامة وما يجري فيه ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي مرضية ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾﴾ مرتفعة المكان ﴿قُطُوفُهَا﴾ أي ما يجتنى من ثمارها ﴿دَانِيَةٌ﴾ قريبة يتناول الرجل منها وهو قائم. وقال بعد يدركها القائم والقاعد والمضطجع، ويقال لهم من جانب خازن الجنة: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ أكلاً أو شرباً ﴿هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ أي بسبب ما قدمتم لكم من الأعمال الحسنة في الأيام السابقة ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ﴾ عند الاطلاع على أحواله وسوء أعماله: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ لاستيائه من إطلاعه ﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾! أي كانت الموتة

الأولى هي القاطعة لأمري ونهاية عسري ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْۜ ﴿٢٨﴾﴾ أي ما ثبت واستقر لي من أموال الدنيا. فما موصولة، ولي جارّ ومجرور، والهاء للوقف ﴿هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ أي ضاع مني حجتي وبرهاني على أماني. فيقال من جانب مأمور جهنم ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾﴾ أي شدوه بالأغلال ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾﴾ على باب الاشتغال ﴿ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾ أي فأدخلوه ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ أي ولا يحث على بذل الطعام للجياع المحتاجين ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ﴾ أي قريب يهتم به ويفيده ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ على وزن فعلين من الغسل، قالوا: إنه ماء ودم يخرج من الجراحات ﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾ أي أصحاب الخطايا الكثيرة من خطأ الرجل إذا تعمّد الذنب.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ نزل على ما قاله مقاتل في رد قول ثلاثة رجال: الوليد بن المغيرة، وقال: إن محمداً ﷺ ساحر، وأبي جهل وقال: إنه شاعر، وعُتْبَة وقال: إنه كاهن. فرد الله تعالى عليهم جميعاً، وقال: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ أي ما تبصرون من آثار قدرة الله وما لا تبصرون من أسرار قدرته. وقيل الخلق والخالق، وقيل الأجسام والأرواح، وقيل الإنس والجن والملائكة، وقيل: النعم الظاهرة والباطنة، وقيل: الدنيا والآخرة، أو ما تبصرون من المشاهدات وما لا تبصرون من المغيبات وهذا شامل للكل.

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ من الله إلى كافة الإنس والجن للإرشاد إلى سعادة الدارين ﴿كَرِيمٍ﴾ صاحب كرامة عند الله فحلاّه بالصفات الحسنة والغرائز المستحسنة، أي قول يجري على لسانه تلقاه من الملك الأمين المأمور بإنزاله، وقد

أخذه من اللوح بأمر من ربه، فنزل به على الرسول المبعوث رحمة للعالمين ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ أي ليس الكلام المنزل شعراً، ولا الشخص المنزل عليه شاعراً. أما أن المنزل ليس شعراً فلأنه يجب أن يكون خاضعاً للتوزينات والتقفيات والشروط المقررة أدباً وليس القرآن كذلك. وأما المنزل عليه فلأنه هو رجل لم يتعاط الأشعار، ولم تكن له فيه يد ولا اصطناع، ولم يكن له اختلاط بأهله، ومسلكه مسلك الإرشاد والاعتدال وعدم التحيز إلى جانب من الجوانب، وليس له علاقة اجتماعية بالناس من هذا الباب، لكنكم ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ أي في قليل من الأحوال والأوقات تؤمنون وتصدقون بالله وكلامه وسلبه وإيجابه والكلام معكم إنما هو وظيفة أهل الارشاد ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ لأن الكهانة موقوفة على أمور تبعد عن هذا الرسول الكريم بمقدار بعد الثرى عن الثريا، ثم الكهنة يبتغون من وراء الكهانة خروجهم من الفقر والمهانة والاستيلاء على أموال الناس. وأين ذلك ممن لا قيمة عنده للشمس والقمر إذا جعلا في كمّ قميصه في مقابل دعوته إلى ربه وتقديسه؟! بل هو ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ إلى رسوله الصادق الأمين، ولا شك أنه ليس سحراً، فإن السحر عمل باطل مبني على مقدمات مخالفة للحق باطلة، والسحر من المكسوبات الإنسانية المحرمة، وهذا بعيد من هذا السيد السعيد بكل معنىً. ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾﴾ أي ولو افترى علينا بعض الافتراءات لأنّ الأقاويل جمع الأقوال المفتراة ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ﴾ أي لأمسكناه وقوله ﴿بِالْيَمِينِ﴾ بيان بعد الإبهام كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾؟ فإن قوله ألم نشرح يفيد شرح شيء ما وقوله صدرك بيان لذلك المبهم. وعن الحسن أن المعنى لقطعنا يمينه، ثم لقطعنا وتينه عبرة ونكالاً، والباء زائدة. وعن ابن عباس بمعنى القوة. والمعنى أخذه بعنف وشدة. والوتين نياط القلب الذي إذا انقطع مات صاحبه. وعن محمد أنه الحبل الذي في الظهر وهو النخاع ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ أي فما من أحد منكم حاجزين عنه أي ما أمكن لأحد منكم أن يمنع انتقامنا عنه. ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي القرآن ﴿لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي وأنه مذكر المتقين بوجوب طاعة الله واستمرار على الدين ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾ فنجازيهم على تكذيبهم ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ عند مشاهدة ثواب العاملين به ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾﴾ أي وإنه لليقين الذي لا يقين فوقه، ومعنى كونه يقيناً أن إسناده إلى الله وكونه كلام الله حق بلا شبهة.

وذكر بعض المحققين أن أعلى مراتب العلم حق اليقين، ودونه عين اليقين، ودونه علم اليقين. فالأول كعلم العاقل بالموت عند ذوقه، والثاني كعلمه به عند معاينة ملائكة الموت، والثالث كعلمه به في سائر أوقاته أي قبل موته ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ أي فسبح الله تعالى بذكر اسمه العظيم.

❀ ❀ ❀

سورة المعارج

مكيّة، وآياتها أربع وأربعون، نزلت بعد سورة الحاقة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى
ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ
﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ
كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ
ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى
تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾
تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ
ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ
صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ
يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ
مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ
فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ
وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾﴾ أي دعا داع به، فالسؤال بمعنى الدعاء. والسائل هو النضر بن الحرث كما روى النسائي وجماعة وصححه الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما حيث قال إنكاراً واستهزاء: اللهمّ إن كان هذا هو الحق من

عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم. أي دعا وطلب داع كافر محقر مهين استهزاء وإنكاراً بعذاب واقع ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي والعذاب لا شك في وقوعه وقوله: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ أي ذي الدرجات صفة لله تعالى ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ أي جبريل لأخذ الأوامر والنواهي ﴿إِلَيْهِ﴾ أي إلى عرشه ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أي من سنواتكم الظاهرة المعدودة. واليوم بمعنى الوقت، والمراد به مقدار ما يقوم الناس فيه لرب العالمين إلى أن يستقر أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار من اليوم الآخر الذي لا نهاية له. ويشير إلى هذا ما أخرجه الإمام أحمد، وابن حبان، وأبو يعلى، وابن جرير، والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري ﷺ تعالى قال: سئل رسول الله ﷺ عن يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ما أطول هذا اليوم؟ فقال ﷺ: «**والذي نفسي بيده إنه ليخف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا**».

﴿فَٱصْبِرْ﴾ يا رسولي على هذا النوع من الدعاء والطلب والاستخفاف. بمواعيد الباري تعالى ﴿صَبْرًا جَمِيلًا﴾ لا شكوى فيه إلى أحد غير الله تعالى ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ أي إن الكفار يرون ذلك اليوم بعيداً ونحن نراه قريباً ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨﴾ كخلط الزيت أي تتلين إلى شمع مذاب ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩﴾ كالصوف المنفوش ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠﴾ أي قريب قريباً ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي يبصر الأحماء الأحماء فلا يخفون عليهم، وما يمنعهم عن التساؤل إلا انشغالهم بأمر أنفسهم، فإن لكل امرىء منهم يومئذ شأناً يغنيه ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ﴾ أي يوم إذ ابتلي بالعذاب ﴿بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾ أي وبعشيرته التي تؤويه إذا التجأ إليها ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي ويفتدي عن نفسه بمن في الأرض جميعاً ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ ۝١٤ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ أي النار الموعودة لأهلها لظى أي جهنم ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٦﴾ أي محرقة للأطراف من بدن الإنسان كاليد والرجل ﴿تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧﴾ أي تدعو الزبانية إلى نار جهنم من أدبر عن الحق وتولى عن الطاعة ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ۝١٨﴾ أي جمع المال فجعله في وعاء وكنزه، ولم يؤد حقه.

ثم استأنف لبيان طبيعة الإنسان وأحواله وغرائزه الطبيعية فقال: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩﴾ والهلع سرعة الجزع ولكن المعنى المراد هنا ما يستفاد مما بعده وهو قوله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠﴾ أي مُبالغاً في الجزع ﴿وَإِذَا مَسَّهُ

ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ أي مبالغاً في المنع. وتلك الغريزة تتقوى بترك العبادة من الصلاة وغيرها فإن المشتغل بعبادته وذكره ينمو فيه التوكل والاعتماد على الله، فلا يغلب فيه الهلع والمنع لا سيما الصلاة التي هي معراج المؤمن ولذلك قدمها وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ أي مواظبون على أدائها لا يخلون بها وبشؤونها ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ أي المكفوف عن السؤال. ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ أي خائفون ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ من الجواري ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ أي لم يكتف بالتمتع من زوجته وجاريته ﴿فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ أي المتجاوزون حدود الله ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾﴾ لا يخلون بشيء من الأمانات وحقوقها.

والأمانات أنواع كثيرة، ويدل على كثرتها ما رواه الكلبي كل أحد مؤتمن على ما افترض عليه من العقائد والأقوال والأحوال والأفعال، ومن الحقوق في الأموال وحقوق الأهل والعيال وسائر الأقارب والجار وسائر المسلمين، وقال السدي: إن حقوق الشرائع كلها أمانات قبلها المؤمن وضمن أداءها بقبول الإيمان. وقيل كل ما أعطاه الله تعالى للعبد من الأعضاء وغيرها أمانة عنده، فمن استعمل ذلك في غير ما أعطاه لأجله وأذن الله فيه فقد خان الأمانة، والخيانة فيها، وكذا الغدر بالعهد من الكبائر على ما نص عليه غير واحدٍ.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ أي مقيمون لها بالعدل ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ عند الله وملائكته وعباده الصالحين.

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾﴾ أي مسرعين نحوك مادي أعناقهم إليك مقبلين بأبصارهم عليك ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾﴾ جمع عزة أي

متفرقين أي جماعات متفرقة. روي أنه ﷺ كان يصلّي عند الكعبة ويقرأ القرآن، فكان المشركون يجتمعون حوله حِلَقاً حِلَقاً وفرقاً يستمعون ويستهزئون بتلاوته ﷺ، ويقولون: إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد ﷺ فلندخلها قبلهم ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾؟ أي بلا إيمان وأمان وعقل سليم ﴿كَلَّآ﴾ ردع لهم عما اقترحوه ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي من أجل ما يعلمون وهو تكميل النفس بالعلم والعمل لا للبطر والاستهزاء بالبشر ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي نهلكهم جميعاً ثم نأتي بدلهم بخلق آخرين ليسوا على صفتهم ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي بمغلوبين وعاجزين عن تنفيذ إرادتنا إذا شئنا ﴿فَذَرْهُمْ﴾ أي دعهم ﴿يَخُوضُوا۟﴾ في باطلهم الذي لا باطل فوقه ﴿وَيَلْعَبُوا۟﴾ كما يَهُون عليهم ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ وهو يوم البعث ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي من القبور ﴿سِرَاعًا﴾ أي مُسْرعين ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ أي كأنهم يسرعون إلى أحجار مرتبة منصوبة لهم للعبادة ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي تغشاهم ذلة شديدة ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾.

❀ ❀ ❀

سورة نوح

مكية، وآياتها ثمان وعشرون، نزلت بعد النحل

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
(١) قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ
لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ
تَعْلَمُونَ (٤) قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا (٦)
وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟
وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ
إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا
(١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا (١٢) مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ
لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤)﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ قيل: هم سكان جزيرة العرب لا كل الناس لأن الرسالة العامة خاصة من خواص سيدنا محمد ﷺ، والمشهور أنه كان يسكن أرض الكوفة ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾ أي أنذرهم من عذاب الله، واردعهم عن الإشراك، وادعهم إلى توحيد الله رب العالمين ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عاجل وهو ما حل بهم من الطوفان ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي اعبدوا الله على أن يكون أن للتفسير، أو على عبادة الله أي إذا عبدتموه ووحدتموه فأنتم الطلقاء، وإذا أنكرتموه أو عبدتموه وأشركتم به غيره فأنتم في شقاء ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ أي واتقوا مخالفته في الأوامر والنواهي ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أبلغكم منه فإن الرسل هداة سبيل الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال؟ فإذا وافقتم على ذلك

﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي بعض ذنوبكم وهو ما يتعلق بحقوق الله وحده، وأما حقوق العباد في المعاملات والأحوال الجنائية والشخصية فعائدة إلى أصحابها إن عفوا عفوا، وإن لم يعفوا وجب أداؤها لهم. ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو الأمد الأقصى الذي قدّره الله تعالى لهم بشرط الإيمان والطاعة وراءَ ما قدّره لهم على تقدير بقائهم على الكفر والعصيان كما يقتضيه التعليق بالإيمان والطاعة.

وهذه الآية تحسم مادة الشبهة لمن قال ليس هناك أسبابٌ تكون أسباباً لزيادة العمر أو نقصها؛ فإن تلك الشبهة اشتباه ناشِىءٌ من إهمال الأسباب والشرائط. والحاصل إن الله تعالى عين أسباباً لأمور تتحقّقُ المسببات على تقدير وجودها، وتنتفي عند انتفائها مع أن الأجل المعلوم عنده واحد لأنه تعالى عالم بأن الشخص الفلاني يأتي بالأسباب أو يُهملها وذلك مفهوم معلوم.

﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ فإن مجيء الأجل موقوف على تحقق الأسباب ومن أهمها تعلق إرادته تعالى بحصول المسبب عندها، فإذا قرر أن موت فلان موقوف على إهمال التداوي والصدقات والدعوات وقد أهملت فالأجل محتّم ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ لسارعتم إلى امتثال أوامره واجتناب نواهيه.

﴿قَالَ﴾ نوح: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ في الآية الكريمة إيجاز الحذف أي فامتثل نوح أمرَ ربّه، ودَعا قومَه، وأنذَرهم واجتهد في دعوته لهم، فلم يفد فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦﴾ أي ابتعاداً مما دعوتهم إليه، سواء بالذهاب إلى محل بعيد عنّي حتى لا يسمعوا كلامي، أو بسدّ الآذان عن الاستماع، أو بغيرهما كما قال ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ أي بالغوا واجتهدوا في التغطي بها حتى لا ينفذ الصوت إلى أسماعهم ﴿وَأَصَرُّوا۟﴾ أي على الكفر والمعاصي والتمرد ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ من إطاعتي ﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾ بالغاً عَن العادة ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ﴾ زيادة على ما كان ﴿جِهَارًا﴾ وأتيت بما يقنع المنصف لو كانوا يقتنعون ﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ﴾ في الأمّة كلها لا لجمع محدود أي قلت ما قلت، ثم قلت ألا فليبلغ الشاهد الغائب ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ﴾ لبعضِ مَن أظن فيه الإجابة والقبول ﴿إِسْرَارًا﴾ لطيفاً بصورة شريفة، وفهمتهم فوائد إجابة أمر الباري تعالى ومفاسد رفضه ﴿فَقُلْتُ﴾ لهم ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ أي كثير الدرّ والخير بإنبات النبات، وتنمية الأشجار، وفوران العيون،

وزيادة مياه الوديان ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ﴾ من الأنعام والمزارع والبساتين والمتاجر ﴿وَبَنِينَ﴾ لأن الإنسان المتمكن يتزوج حسب طاقته النفسية والاقتصادية فيولد له الأولاد إلى ما شاء الله ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ وتستغلونها في وجوه المنافع.

ثم لما أحسست فيهم الإباء والتمنع قلت لهم: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ﴾ الذي هو مبدأ الخيرات ﴿وَقَارًا﴾؟ أي وزناً وعظمة وهيبة واحتراماً ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ جمع طور بمعنى الحال، وقد وقعت حالاً من الضمير المنصوب مؤولة بالمشتق أي وقد خلقكم متنقلين من حال إلى حال من: المادّة العنصرية إلى كونها نطفة، ومنها إلى كونها علقة، ومنها إلى كونها مضغة.. وهكذا وحملها على الأحوال ذهب إليه جمع كما في روح المعاني، وقيل المراد بها: الأحوال المختلفة بعد الولادة إلى الموت من: الصبا، والشباب، والكهولة، والشيخوخة، والقوة، والضعف.. وقيل: من الألوان والهيئات والأخلاق والملل المختلفة. وقيل من الصحة والسقم أو الغنى والفقر وسائر العوارض. والحاصل استنكار لإنكار عاقل يرى هذه التطوراتِ على شخصه من الباري تعالى وجودَ ذلك الصانع الحكيم القدير أو وحدته في الخلق والتأثير.

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾؟ توجيه للعباد إلى

النظر في آثار قدرة الله تعالى وإبداعه لها الموجب للإيمان به وبوحدته، فيقول ألم تروا يا من يمكن منكم الرؤية والنظر كيف خلق الله سبع سماوات متطابقة بعضها على بعض ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ منوراً لمقدار من العالم عندما قابله والوقت بالنسبة إليه ليل ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ يزيل ظلمة الليل ويبصر كل بصير في ضوئها ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾﴾ أي أنشأكم من الأرض إنشاء ففيه تشبيه الإنشاء بالإنبات، والوجه متوفر والعالم متبصر ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ﴾ منها عند البعث ﴿إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ تتحركون عليها لكسب المعاش وتستريحون فيها لاستعادة القوة، وهكذا على الاستمرار إلى وقت الاستقرار، ولكن الله تعالى خص قسم كسب العيش بالذكر وقال: ﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ رعاية لما يهم الناس في حياتهم، أي لتسلكوا طرقاً واسعة منها. وليس المراد لسبل الفجاج أن تكون مادة أرض الطريق واسعة، وإنما أراد توسعة طرق المعيشة على الأرض لنيل الخير بالسكون أو بالسير.

وهذه الآيات البينات جمل جميلة وقعت في البين ثم عاد إلى نقل ما قاله عبده نوح مع ربّه يعني ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾﴾ أي عصوني ورموني بسهام سامة لأنه لم يعجبهم ترك الأصنام والتوجه إلى الله العلاّم واتبعوا رؤساءهم اللئام عبدة الأحجار لأنهم أصحاب أولاد كثيرة وأموال وفيرة، وكان الاعتماد إذ ذاك عليهما ومرجع الشرف إليهما مع أنهما لم يزيدا لأصحابها في الدنيا إلا جهلاً وغباوة واغتراراً وفي الآخرة إلا خزياً وعاراً وناراً. ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾ أي مكر قوم نوح أو رؤساؤهم المغترون بالأموال والأولاد لمنع الناس عن عبادة الله الواحد الأحد مكراً كبيراً للغاية، حيث احتالوا على الضعفاء والأوساط وعظّموا أصنامهم أمامهم ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ أي نهوهم عن ترك آلهتهم ولا سيما الكبار منها المُسميْنَ بالأسامي الخمسة ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ أي قد أضل الرؤساء في القوم كثيراً من الضعفاء في العقل أو في المال أو في الجاه أو في الكل فإن الإنسان ينقاد لمن يعينه في روحه أو رزقه أو فسقه، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ عطف على قوله رب إنهم عصوني على حكاية كلام نوح عليه السلام فازداد القوم في الضلال، وباشروا المعاصي بكل إقبال، وجاؤوا بخطايا متتالية على عادة أهل الضلال، وعلى ذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟﴾ أي من أجل خطاياهم

المتتابعة المتلاحقة أمرنا السماءَ بإضافة المياه والأرضَ بإخراجها حتى صار الطوفان فأغرقوا في أمواج طوفان الغضب ﴿فَأُدْخِلُوا﴾ بعد الإغراق والإهلاك ﴿نَارًا﴾ برزخية تجلب العجب ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾ يمنعونهم ماء ولا ناراً. وكل هذه البلايا أتتهم من عصيانهم عن أمر ربهم وإيذائهم لقلب نوح عليه السلام واستجابة لدعائه عليهم حيث قال تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ وهو من يسكن الدار ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا﴾ يكفر بربه ﴿كَفَّارًا﴾ بأنعمه ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ أي هلاكاً.

❁ ❁ ❁

سورة الجن

مكيّة وآياتها ثمان وعشرون نزلت بعد الأعراف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١)
يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ
صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن
تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ
فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (٧) وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ
فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن
يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (٩)﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ النفر ما بين الثلاثة إلى العشرة.

والجن أجسام لطيفة عاقلة خفية عن عيوننا عادة تغلب عليهم النارية أو الهوائية، وقادرة على التشكّل بأشكال مختلفة شريفة أو شريرة كثيفة، وتدل على وجودهم آياتٌ عديدة مثل قوله تعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ (٢٧)﴾ وقوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ وقوله: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ وقوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ وقوله: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا﴾. وكذلك يدل على أنهم مكلفون، وأن رسولنا محمداً ﷺ بُعثَ إليهم، آيات وأحاديث عديدة منها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا

سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ وقوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾ وقوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾.

وأما رؤيته ﷺ فقد دلت عليها أحاديث شريفة قال في آكام المرجان ما محصله: في الصحيحين عن حديث ابن عباس ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم، وإنما انطلق ﷺ بطائفة من الصحابة لسوق عكاظ، وقد حيل بين الجن والسماء بالشهب، فقالوا: ما ذاك إلا لشيء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فمَرَّ مَن ذَهَبَ لتهامَةَ منهم به ﷺ وهو يصلّي الفجر فلما استمعوا له قالوا: هذا الذي حالَ بيننا وبين السماء ورجعوا إلى قومهم (وقالوا يا قومنا) إلخ فأنزل الله عليه ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ ثم قال: ونفي ابن عباس رضي الله عنهما (أي لرؤيته ﷺ للجن) إنما هو في هذه القصة واستماعهم تلاوته في الفجر في هذه القصة لا مطلقاً. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ فإنها تدلّ على أنه كلمهم ودعاهم وجعلهم رسلاً لمن عداهم كما قاله البيهقي. وروى أبو داود عن علقمة عن ابن مسعود عن النبيّ ﷺ قال: «**أتاني داعي الجن، فذهبتُ معه، وقرأتُ عليهم القرآن**» قال: وانطلق بنا وأرانا آثارَهم وآثار نيرانهم. وقد دلت الأحاديث على أن وِفادَة الجنّ كانت ست مرات. وفي شرح البيهقي من طرقٍ شتّى عن ابن مسعود أن النبيّ ﷺ صلّى العشاء ثم انصرف فأخذ بيدي حتى أَتَيْنا مكان كذا فأجْلَسني وَخَطّ عَلَيَّ خطّاً، ثم قال: «لا تَبرح» فبينما أنا جالس إذ أتاني رجال منهم كأنهم الزّطّ. فذكر حديثاً طويلاً، وأنه ﷺ ما جاءه إلى السحر قال: وجعلت أسمَع الأصواتَ ثم جاء فقلتُ أين كنت يا رسول الله؟ فقال: «**أُرْسِلتُ إلى الجن**» فقلتُ: ما هذه الأصوات التي سمعت؟ قال: «**أصواتهم حين وَدَّعوني وسَلّموا عليَّ**».

فيقول الباري سبحانه ﴿قُلْ﴾ يا رسولي ﴿أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ القرآن الكريم ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ عند رجوعهم إلى قومهم ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى

﴿ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ أي بذلك القرآن ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ حسبما قام عندنا من دلائل التوحيد ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي تزايد عظمته تعالى والجد هو الحظ والنصيب، وهنا بمعنى العظمة والقدسية أي وأن الشأن والقصد تبارك وتعظم مقام ربنا وقدسيته ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ لأن الصاحبة للألفة الشخصية ومنع الوحشة والتناسل لحفظ النوع والتعاون في الأمور المهتم بها والله تعالى متعالٍ عن كل ذلك ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ أي السفيه الوحيد فينا وهو إبليس أي يقول الشخص السفيه الخفيف العقل من أفراد نوع الجن ﴿عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ أي يقول على الله تعالى قولاً ذا بعد عن الحق ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾﴾ لأن كل عاقل له إدراك بنفسه وبأنه أثر من آثار قدسه عارف بأن الله أعلى من كل وهم يحوم حوله، وعلى ذلك الأساس ظننا أن لا يتكلم الإنس أو الجن بشيء خلاف الواقع وينسبوه إلى الله تعالى كذباً.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ واستمرت عادة العرب أنه إذا أمسى في واد قفر خال من الأصحاب وخاف على نفسه نادى بأعلى صوته يا عزيز هذا الوادي أعوذ بك من السفهاء الذين في طاعتك من الجن يريد الجن وكبيرهم، فإذا سمعوا بذلك استكبروا وقالوا: سدنا الجن والإنس، كما قال تعالى: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي فزاد الإنس المستغيث في الوادي بعمله ذلك رهقاً وطغياناً للجن واعتبروا أنفسهم من ملوك العالم. ويروى بدل هذه الاستعاذة ما أخرجه أبو نصر السجزي في الإبانة من طريق مجاهد عن ابن عباس وقال: غريب جداً إنه ﷺ قال: «**إذا أصاب أحد منكم وحشة، أو نزل بأرض مَجَنَّة فليقل أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزها بَرّ ولا فاجر من شر ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، ومن فتن النهار ومن طوارق الليل، إلا طارقاً يطرق بخير**».

﴿وَأَنَّهُمْ﴾ أي الإنس ﴿ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ أيها الجن ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ أي طلبنا بلوغها لاستماع كلام أهلها، أو طلبنا غيرها ﴿فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ أي لسماع كلام السماء خالية عن الموانع ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ قال في شرح التسهيل: الآن معناه هنا القرب مجازاً فيصح مع الماضي والمستقبل، وفي البحر: أنه ظرف زمان للحال، ويستمع مستقبل فاتسع في الظرف، واستعمل للاستقبال كما قال: (سأسعى

الآن إذ بلغت أناها) فالمعنى فمن يقع منه استماع في الزمان الآتي يجد له شهاباً راصداً له ولأجله يصده عن الاستماع بالرجم، فرصدا صفة شهاباً، فإن كان مفرداً فالأمر ظاهر، وإن كان اسم جمع المراصد كحرس فوصف المفرد به لأنّ الشهاب لشدة منعه وإحراقِهِ جُعل كأنّه شُهُب. وفي الآية ردّ على من زعم أن الرجم حدث بعد مبعث رسول الله ﷺ وهو إحدى آياته عليه الصلاة والسلام حيث قيل فيها مُلِئَتْ، وهو ظاهر في أن الحادث هو المَلأ والكَثْرة، وكذا قوله سبحانه: ﴿نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ﴾ على ما في الكشاف، فكأنه قيل: كنا نجد فيها بعض المقاعد خاليةً عن الحرس والشهب والآن مُلِئت المقاعدُ كلها فَمَن يستمع الآية. ويدل على ذلك ما رواه علي بن الحسن عن ابن عباس رضي الله عنهما، بينا رسول الله ﷺ جالس في نفر من الأنصار إذ رمي بنجم فاستنار فقال: «**ما كنتم تقولون في مثل هذا في الجاهلية**»؟ قالوا: كنا نقول يموت عظيم، أو يولد عظيم. وروي عن معمر قلت للزهري أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية؟ قال: نعم، قال: أرأيت قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ فقال غلّظت وشدد أمرُها حين بعث النبيّ ﷺ، وكأنه أخذ ذلك من الآية أيضاً، وقال بعضهم: إن الرمي لم يكن أوّلاً ثم حدث للمنع عن بعض السماوات، ثم كثر ومنع به الشياطين عن جميعها يوم تنبأ رسول الله ﷺ وجوز أن تكون الشهب من قبلُ لحوادث كونية لا لمنع الشياطين أصلاً. والحادث بعد البعثة رمي الشياطين بها على معنى أنهم إذا عرجوا للاستماع رمُوا بها، فلا يلزم أيضاً أن يكون كل ما يحدث من الشهب اليوم للرمي، بل يجوز أن يكون لأمور أخرى بأسباب يعلمها الله تعالى. ويجاب بهذا عن حدوث الشهب في شهر رمضان مع ما جاء من أنه تصفد مردة الشياطين فيه. ولمن يقول إن الشهب لا تكون إلا للرمي جواب آخر مذكور في موضعه، وهو أن صفد الشياطين فيه إنما هو للإضرار بالصائمين والصائمات، وإلا فلهم أشغال أخرى وأنهم منظرون إلى يوم الوقت المعلوم والله سبحانه وتعالى أعلم بأسرار عالم الغيب والشهادة وهو العلاَّم للغيوب.

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا

يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ
تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى
ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا
صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ﴾ أي وأنا لا ندري من ملأ المقاعد من الحراس، ومنع الجن من استحقاق السمع، وتشديد الأمر على الحراس ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾؟ وخيراً. وحاصل الأمر أن هذا التغير الواقع في السماء لا شك أنه لأمر خطير عظيم ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ الموصوفون بصلاح الحال في شؤون أنفسهم ومعاملاتهم مع غيرهم ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي قوم دون ذلك المذكور ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ أي كنا ذوي طرائق ومسالك وآراء ومذاهب متعددة مختلفة ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني أينما كنا فتحت قبضة قدرته ﴿وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ أي هاربين، فأينما كنا على أبوابه كحارسين لثَرى أعتابِهِ ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي القرآن الذي هو وسيلة اهتداء الناس في العالم ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا﴾ أي خساراً في حقوقه المادية والمعنوية ﴿وَلَا رَهَقًا﴾ أي غشيان ذلّة عليه ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾ الجائرون على حقوق العباد ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ أي قصدوا خيراً عظيماً وقد صادفوه. ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ توقد بهم كما توقد بالناس والحجارة.

وقوله: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ معطوف قطعاً على قوله أنه استمع ﴿عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ أي على طريقة الحق وإطاعة الله ورسوله ﴿لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ أي ماء كثيراً، أي ما خليناهم يظمأون، والمراد به إما الماء للمزارع والبساتين، وإما كناية عن فتح أبواب الرزق من سائر الوجوه. وإنما كنا نسقيهم ذلك الماء الغدق ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي لنجعلهم في فتنة وابتلاء ومحنة، ورحم الله من قال: إن المنحة قلب المحنة ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ﴾ أي عن عبادة ربه، أو موعظة ربه، أو عن القرآن المنزل منه وهو فيه ذكر للّه تعالى: ﴿يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ أي يُدخِله في عذاب صاعِدٍ شديد.

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ﴾ معطوف على أنه استمع أي قل أوحي إلى أن المساجد لله أي مختصة بالله تعالى وشرع بناؤها لله أي لأداء طاعاته من الواجبات

والمندوبات ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ﴾ دعوة ﴿ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ أبداً ولا سيما في المساجد المبنية لله المختصة به تعالى.

وقيل: المعنى أفردوا المساجد بذكر الله تعالى، ولا تجعلوا لغير الله فيها نصيباً لما في الحديث «**من نشد الضالة في المسجد فلا ردها الله عليه فإن المساجد لم تبن لهذا**»، وفي الحديث: «**كان إذا دخل المسجد قدم رجله اليمنى وقال: إن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحداً، أللهمّ أنا عبدك وزائرك وعلى كل مزور حق وأنت خير مزور، فأسألك برحمتك أن تفك رقبتي من النار**» وإذا خرج من المسجد قدّم رجله اليسرى وقال: «**اللهمّ صُبَّ عَلَيَّ الخَيرَ صَبّاً، ولا تنزع عني صالِحَ ما أعطيتني أبداً، ولا تجعل معيشتي كداً، واجعل لي في الأرض جدّاً**» أي غِنىً.

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ معطوف على أنه استمع أي قل أوحي إلي أنه لما قام عبد الله أي الرسول محمد ﷺ يدعوه، أي يدعو ربه ويناجيه ويتضرع إليه وذلك عند قيامه ﷺ الفجر ببطن نخلة ﴿كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ كاد جمع الجن المستمعين إليه هناك ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ جمع لبدة بكسر اللام، أي كساء متلبدة من لفائف بعضها فوق بعض، وكان ذلك تعجباً من عبادته، وقراءته واقتداء أصحابه به في القيام والركوع والسجود.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾﴾ في العبادة، ولا أعبد غيره كما أني أعتقد أنه الخالق للعالم من الأعيان والأعراض ولا خالق غيره ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ

﴿ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾ أي ولا نفعاً فإن الضار والنافع هو الله العظيم ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ أي منحرفاً أنحرف إليه وقوله ﴿إِلَّا بَلَاغًا﴾ من الله استثناء من مفعول لا أملك أي لا أملك لكم شيئاً إلا بلاغاً ﴿مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾ أي التي أرسلني عزَّ وجلَّ بها فإذا اعتبرنا البلاغ بمعنى التبليغ، والرسالات جمع رسالة كان المستثنى شيئين متغايرين الأول فعل الرسول وهو تبليغ ما عنده إلى الناس، والثاني الرسالات وهي جُمَل متعددة من الآيات النازلة التي سلّمها للأصحاب كي يكتبوها، فالمعنى لا أملك لكم شيئاً من النفع إلا تبليغ أوامر الله ونواهيه وإلا هذه القطع من السور المنزّلة التي تصل إليكم ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ﴾ هذه وما بعدها جملة معترضة واقعة في البين وحتى ابتدائية يعني فـ﴿إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ وحتّى تفيد معنى الغاية، أي يستمر الكفار على الاستهزاء بكم وأنكم أضعف ناصراً وأقل عدداً حتى أن يروا عواقب الأمور في الآخرة ويفتهموا من الوضع إذ ذاك من أضعف وأقل.

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ أي من العذاب ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾؟ وزماناً بعيداً، وقوله: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف يي هو عالم الغيب المستور من غيره ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ أي فإن ذلك الرسول المرتضى يخصه ببعض الأشياء منها: أنه يطلعه على المغيبات المتعلقة برسالته، إما لكونه من مباديها بأن يكون معجزة، وإما لكونه من أركانها وأحكامها كعامة التكاليف الشرعية وكيفيات الأعمال ونحو ذلك. ومنها أنه يسلك أي يدخل من بين يديه ومن خلفه حراساً مترصّدين يحفظونه من اختطاف الشياطين له، ومن تعرضهم له ومسهم له بسوء ﴿لِّيَعْلَمَ﴾ الباري جل شأنه أي يتعلق علمه تعلقاً جديداً ﴿أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ﴾ محفوظين من التهم ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ أي لدى الرسل الكرام أو عند الرصد من المعلومات ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي وضبط كل شيء ﴿عَدَدًا﴾.

فائدة: استدل بعض الناس بقوله تعالى: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ على أن هذا العلم منحصر في الرسول ولا يتجاوز إلى الأولياء والصالحين، فكل ما ادعوه من المعارف الغيبية لا أصل لها، وبأنه ينافي ظاهر الآية علم المنجمين والحسّابين والكهنة ببعض المغيبات المستقبلية، فإنه قد

وجد في العالم كثير من الناس الذين أخبروا بأمور مستقبلية، وقد تحققت حسب أخبارهم بلا اشتباه فيه!.

والجواب: هو أن هذا الاعتراض ناشىء من اشتباه السلب الجزئي بالسلب الكلي. فإن الآية الكريمة سالبة جزئية ومفادها: أن الله تعالى لا يظهر على هذا الغيب الخاص، وهو علم الساعة، إلا من ارتضاه واختاره لعلمه من رسول، والدليل الحاسم عليه قوله: قل إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمداً. ولو فرضناه أنه سلب كلي فالمراد بهذا الإظهار هو غلبته على الغيبيات بأن يكون للإنسان دور واسع في علمها، وهذا الإظهار والغلبة لا يكون إلا لمن ارتضاه من الرسل لا لكل رسول ولا لكل نبيّ فضلاً عن الأولياء والصالحين. وقد يجاب بأن علم الغيب المختص بمن ارتضاه هو علم يقيني، وهو الذي لا اشتباه فيه لا مثل علم الأولياء والصالحين، فإنها وإن كانت واقعية وتحقق معلومها في الواقع لكنها علوم إلهامية ظنية حيث لم تصل إليهم بواسطة الوحي، وإنما هو كشف ناتج من الإلهام. وأما علوم المنجمين والحساب فصورتها صورة العلم وحقيقتها ظنون واهية قد يتحقق في الواقع وقد لا يتحقق ولا عبرة بأمثال تلك الظنون، على أنها علوم مكتسبة مبنية على مقدمات وشرائط، ومثلها مثل العلم بما في أرحام الأمهات من الجنين بواسطة الأجهزة الكشافة. وذلك خارج عن موضوعها وهو العلم الغيبي المأخوذ بدون تلك الأجهزة والأسباب، هذا ما عندنا في الموضوع والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

❁ ❁ ❁

سورة المزمل

وهي مكيّة إلا الآيات ١٠/و١١/و٢٠ فهي مدنيّة، وآياتها عشرون نزلت بعد سورة القلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ
زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ
أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ
إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾ عن سعد بن هشام قال: قلت لعائشة رضي الله عنها: أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ قالت: ألست تقرأ هذه السورة يا أيها المزمل؟ قلت: بلى، قالت: فإن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام رسول الله وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم وأمسك الله خاتمتها في السماء اثني عشر شهراً، ثم أنزل التخفيف في آخر هذه السورة، فصار قيام الليل تطوعاً من بعد فرضه، أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي. وأخرج ابن المنذر وابن جرير عن أبي عبد الرحمن السلمي قال لما نزلت: يا أيها المزمل قاموا حولاً حتى ورمت أقدامهم وسوقهم، حتى نزلت فاقرأوا ما تيسر من القرآن، فاستراح الناس.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾ المزمل بتشديد الزاء والميم لأن أصله المتزمل فقلبت التاء زاء وأدغمت الزاي في الزاء، والخطاب للنبيّ ﷺ واختلفت في معنى المزمل فقيل: المتلفف بثيابه، وقيل: المزمل بالنبوّة، والمدثر بالرسالة، وقيل: المزمل بالقرآن وقيل: معناه يا أيها الذي زمل هذا الأمر أي حمله، أخرج مسلم عن طريق سعد بن هشام عن عائشة قالت: إن الله قد افترض قيام الليل في

أول هذه السورة يعني يا أيها المزمل فقام نبيّ الله ﷺ وأصحابه حولاً حتى أنزل الله في آخر هذه السورة التخفيف فصار قيام الليل تطوعاً بعد فرضيته. وقد روى محمد ابن نصر في قيام الليل عن طريق سماك الحنفي عن ابن عباس شاهداً لحديث عائشة في أن بين الإيجاب والنسخ سنة. وكذا أخرجه عن أبي عبد الرحمن السلمي والحسن وعكرمة وقتادة بأسانيد صحيحة عنهم ومقتضى ذلك أن النسخ وقع بمكة لأن الإيجاب متقدم على فرض الخمس ليلة الإسراء. وكانت قبل الهجرة بأكثر من سنة على الصحيح. وحكى الشافعي عن بعض أهل العلم أن آخر السورة نسخ افتراض قيام الليل إلا ما تيسر منه لقوله: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ ثم نسخ فرض ذلك بالصلوات الخمس، هذا.

وما دام تقرر أن بين إيجاب صلاة الليل ونسخه سنة ونسخه كان بافتراض الصلوات الخمس ليلة الإسراء.. ظهر أن وجوب صلاة الليل لم يكن متصلاً بالبعث، بل مضت عليه مدة أقلها خمس سنوات. يعني أنه أوجبت صلاة الليل بعد السنة الخامسة من البعث وبعد سنة نسخ الإيجاب إلا ما تيسر، ثم نسخ وجوب هذا أيضاً بفرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء الواقع بثلاث سنين قبل الهجرة. فعنوان يا أيها المزمل على تقدير أخذه من تزمّله باللحاف بعد رجوعه من غار حراء ونزول صدر سورة العلق عليه ﷺ لا يعني أن فرض صلاة الليل عليه ﷺ وأصحابه ﷺ كان في أوائل نبوته مباشرة، بل كان في عام الستة والأربعين من عمره الشريف أي بعد ست سنين من البعث وهذا ظاهر إن شاء الله تعالى.

فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ①﴾ أي بالثياب أو بالنبوّة أو بالقرآن ﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾ أي قم للصلاة في الليل ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعني ﴿نِصْفَهُ﴾ أي قم الليل إلا نصفه ﴿أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ أي انقص من النصف المستثنى قليلاً، يعني نصف النصف ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ أي على النصف الباقي قليلاً أي قم الليل نصفه أو انقص منه قليلاً بأن يبقى لك ربع الليل ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ أي على النصف بأن يبقى لك ثلاثة أرباع الليل للطاعة وقيام الليل ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ﴾ في صلواتك بالليل أي في القيام لها ﴿تَرْتِيلًا﴾ أي اقرأه وتلفظ بالكلمات واضحة الحروف وحركاتها وشدها ومدها. من قولهم سن رتل أي مفلج. وعن علي كرم الله وجهه أن رسول الله ﷺ سئل عن هذه الآية فقال: «**بيّنه تبييناً، لا تنثره نثر الدقل. ولا تهذه هذّ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة**». ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا

ثَقِيلًا ﴿٥﴾﴾ وهو القرآن فإنه لما فيه من التكاليف الشاقة ثقيل على المكلفين سيما على الرسول ﷺ. وهذه الجملة المؤكدة معترضة بين الأمر بالقيام وتعليله الآتي لتسهيل ما كلفه ﷺ من القيام.

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أي إن النفس التي تنشأ من مضجعها بالليل إلى العبادة هي أشدّ وطأ، أي أقوى من حيث ثبات القدم وأقوم قيلاً أي أعدل وأحسن وأوضح قولاً. ومعنى الجملة تحسين قيام الليل في أنظار من له الميل إلى الطاعة أقوم مَيْلٍ ﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾﴾ أي تقلباً في مهماتك وكسب أسباب المعيشة والراحة البدنية والنفسية. ومعنى الآيتين تنسيب النهار للأعمال الدنيوية والليل للأعمال الروحية والطاعة المرضية ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ ودم على ذكره حسب المستطاع تسبيحاً وتهليلاً وتحميداً وتمجيداً وصلاةً ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ﴾ أي إلى الربّ المربي لك وللعالمين ﴿تَبْتِيلًا﴾ انقطاعاً مؤكداً ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ متوكلاً عليه ومرجوعاً إليه.

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي ما يقوله أولئك المتقولون الفاسدون المفسدون ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ واترك الألفة الروحية معهم تركاً حسناً موافقاً لحسن الإدارة ورعاية المجاملة الاعتيادية ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ﴾ والثروة والبطر والكبرياء ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي طعاماً يَنشُبُ في الحلق كالضريع والزقوم، ونوعاً آخر من العذاب مؤلماً جداً. وهذه الأمور الفظيعة تتحقق ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ من النفخة الأولى في الصّور ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ أي رملاً مجتمعاً ناعماً يصير هباءً ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ يا

أهل مكة ﴿رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولًا﴾ موسى عليه السلام ﴿فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ﴾ المعهود المرسل ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ﴾ أي فرعون العاصيَ ﴿أَخۡذًا وَبِيلًا﴾ أي أخذاً ثقيلاً قوياً.

وما دام الباري له الحكم الدائم الجاري ﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ﴾ عذابه وعقابه ﴿إِن كَفَرۡتُمۡ﴾ به وبرسوله ﴿يَوۡمًا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾ لكثرة أهواله وتفاقم شدائده، والحال إن ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ﴾ ومنشق ومتزلزل بذلك اليوم الصعب الضاغط على الكائنات، فإذا سألك سائل: هل ذلك اليوم يأتي؟ قل: لا شك فيه فإن الله قد وعد به و﴿كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا﴾ وتخلف المعلوم عن العلم والمراد عن الإرادة محال ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ الآيات المستوعبة لجهات الرهبة والشدة ﴿تَذۡكِرَةٞ﴾ للمتذكرين الفاهمين ﴿فَمَن شَآءَ﴾ الخلاص من العذاب والدخول في دار الثواب ﴿ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ مستقيماً لاعوج فيه ولا انحراف وهو سبيل الإيمان والإسلام والانصاف.

﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ﴾ تمهيد لنسخ وجوب صلاة الليل على الأمة، وتثمين وتقدير لطاعة رسوله الكريم وأمته المرحومة. أي إن ذلك معلوم لنا أي إن ربك يعلم ﴿أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ﴾ أي زماناً أقل منهما ﴿وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ بالنصب عطفاً على أدنى كأنه قال: يعلم إنك تقوم من الليل أقل من ثلثيه، وتقوم نصفه، وتقوم ثلثه ﴿وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ﴾ عطف على ضمير تقوم، وجاز من غير تأكيد للفصل وقيام طائفة كذلك للتأسي به. ومنهم من كان لا يدري كم صلّى من الليل وكم بقي منه، فكان يقوم الليل كله احتياطاً، فقاموا حتى انتفخت أقدامهم سنة أو أكثر فخفف عنهم ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ أي يحصيهما ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾ أن مخففة من الثقيلة، أي علم أنه لن تحصوه ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ ورجع بكم إلى التخفيف

﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ في الصلاة بأن تصلّوا ما تيسر ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ﴾ جمع مريض ﴿وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي يسافرون ﴿يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ من رزقه بالتجارة وغيرها ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ وكل من تلك الفرق الثلاثة يشق عليهم ما ذكر في قيام الليل فخفف عنهم بقيام ما تيسر منه، ثم نسخ ذلك بالصلوات الخمس، أي في حقّ الأمّة إتفاقاً. وأما الرسول ﷺ فقال مالك لم ينسخ في حقه ﷺ بل بقي وجوب التهجد عليه لكن في خصوص الحضر، وقال الشافعي نسخ في حقه أيضاً.

فإن قلت: وجوب الصلوات الخمس لا ينافي وجوب قيام الليل، ومن شرط الناسخ أن يكون حكمه منافياً للحكم المنسوخ. فالحق أن النسخ بالحديث وهو أنه ﷺ أخبر أعرابياً بأن الله افترض عليه خمس صلوات في كل يوم وليلة، فقال الأعرابي: هل علي غيرها يا رسول الله؟ قال ﷺ: «لا إلاّ أن تطوع» فقوله لا، نفي لوجوب أي صلاة كانت غير الخمس ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾ أي من القرآن من غير تحمل المشقة التي لا تطاق عادة ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ كذلك أي المفروضة. واستشكل بأن السورة من أوائل ما نزل بمكة ولم تفرض الصلوات الخمس إلا بعد الإسراء والزكاة إنما فرضت بالمدينة! وأجيب بأن الذاهب إلى ذلك يجعل هذه الآيات مدنية.

وفي فتح الباري ما نصه: نعم ذكر أبو جعفر النحاس أنها مكيّة إلا الآية الأخيرة، وقوّى محمد بن نصر هذا القول بما أخرجه من حديث جابر أن نسخ قيام الليل وقع لما توجهوا مع أبي عبيدة في جيش الخبط، وكان ذلك بعد الهجرة، لكن في إسناده علي بن يزيد بن جدعان وهو ضعيف. وأما ما رواه الطبري، عن طريق محمد بن طحلاء عن أبي سلمة عن عائشة قالت: احتجر رسول الله ﷺ حصيراً.. فذكر الحديث الذي تقدمت الإشارة إليه قبل خمسة أبواب، وفيه كلفوا من العمل ما تطيقون، فإن خير العمل أدومه وإن قل. ونزلت عليه يا أيها المزمل، فكتب عليهم قيام الليل، وأنزلت منزلة الفريضة حتى أن كان بعضهم ليربط الحبل فيتعلق به، فلما رأى الله تكلفهم ابتغاء رضاه وضع ذلك عنهم فردهم إلى الفريضة، ووضع عنهم قيام الليل بهم إلاّ ما تطوّعوا به، فإنه يقتضي أن السورة كلها مدنيّة، لكن فيه موسى ابن عبينة وهو شديد الضعف فلا حجة فيما تفرد به. إنتهى المقصود نقله، قلت: ظاهر الآية الكريمة، أي علم أن سيكون منكم مرضى.. يشعر بوضوح أن الآية

مدنيّة، ويؤيد ذلك ما سبق من حديث جابر أن نسخ قيام الليل وقع لما توجهوا مع أبي عبيدة في جيش الخبط، وكان ذلك بعد الهجرة. فالذي يطمئن إليه القلب أن السورة مكيّة إلا الآية الأخيرة. ولما تحققت الهجرة نسخت صلاة الليل بهذه الآية في حق الأمة وبقيت تطوعاً لها. ويؤيد ذلك ترك الرسول الخروج إلى القوم في الليلة الرابعة لصلاة التراويح.

﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ يريد الصدقات والإنفاقات في سبيل الله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ من الذي تؤخرونه للورثة على أمل الإنفاق منه في سبيل الله أو صرفه في أنفسهم وحاجاتهم، ومن الوصايا التي تهمل غالباً، وقلما تتنفذ شرعاً ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ خطاياكم الصغيرة والكبيرة لكن لا استغفاراً بارداً في الفم بل استغفاراً حاراً يفور من القلوب تطفىء نار جهنم، وذلك توبة من الحوبة، واعتراف بالذنوب نوبة بعد نوبة. ولا تيأسوا من قبوله ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ كثير المغفرة للذنوب ﴿رَّحِيمٌ﴾ كثير الستر للعيوب ستر الله عيوبنا وغفر ذنوبنا بمنه وفضله، إنه أرحم الراحمين.

❁ ❁ ❁

سورة المدثر

مكيّة، وآياتها ست وخمسون نزلت بعد سورة المزمل

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾﴾ أصله المتدثر فقلبت التاء دالاً وأدغمت في الدال. أخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعاماً، فلما أكلوا قال: ما تقولون في هذا الرجل؟ فاختلفوا، ثم اجتمع رأيهم على أنه سحر يؤثر. فبلغ ذلك النبيّ ﷺ فحزن وقنع رأسه وتدثر، أي كما يفعل المغموم. فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾، وقيل: المراد بالمدثر المتدثر بالنبوّة والرسالة والكمالات النفسية. أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وجماعة عن يحيى بن أبي كثير قال: سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾﴾ قلت: يقولون ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ فقال أبو سلمة: سألت جابراً بن عبد الله عن ذلك وقلت له مثل ما قلت، فقال جابر: لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ، قال: «**جاورت**

بحراء، فلما قضيت جواري هبطت، فنوديت، فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً، فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض. فجئثت منه رعباً، فرجعت فقلت: دثروني دثروني فدثروني، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾».

وفي رواية: «**فجئت أهلي فقلت: زملوني زملوني زملوني فأنزل الله تعالى**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ إلى قوله ﴿فَٱهۡجُرۡ﴾» فإن القصة واحدة، ولو كانت يا أيها المزمل هي النازلة قبل فيها لذكرت. نعم ظاهر هذا الخبر يقتضي أن يا أيها المدثر نزل قبل إقرأ باسم ربك والمروي في الصحيحين وغيرهما عن عائشة أن ذاك أول ما نزل من القرآن، وهو الذي ذهب إليه أكثر الأمة حتى قال بعضهم: هو الصحيح، ولصحة الخبرين احتاجوا للجواب فنقل في الإتقان خمسة أجوبة:

الأول: أن السؤال في حديث جابر كان عن نزول سورة كاملة، فبين أن سورة المدثر نزلت بكمالها قبل تمام سورة اقرأ فإن أول ما نزل صدرها.

الثاني: أن مراد جابر بالأولية أولية مخصوصة بما بعد فترة الوحي لا أولية مطلقة.

الثالث: أن المراد أولية مخصوصة بالأمر بالإنذار، وعبر بعضهم عن هذا بقوله: أول ما نزل للنبوّة إقرأ باسم ربك، وأول ما نزل للرسالة يا أيها المدثر.

الرابع: أن المراد أول ما نزل بسبب متقدم، وهو ما وقع من التدثر الناشىء عن الرعب، وأما إقرأ فنزلت ابتداء بغير سبب متقدم.

الخامس: أن جابراً استخرج ذلك باجتهاده، وليس هو من روايته، فيقدم عليه ما روت عائشة رضي الله عنها. ثم قال وأحسن هذه الأجوبة الأول والأخير، إنتهى، وفيه نظر فتأمل ولا تغفل.

فيقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١﴾ اللابسُ للدثار ﴿قُمۡ﴾ من مضجعك، أو قم قيام عزم وتصميم ﴿فَأَنذِرۡ﴾ الكافرين من عذاب الله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣﴾ واخصص ربك بالتكبير، وهو وصفه تعالى بالكبرياء، والعظمة لذاته المقدس، ويروى أنه لما نزل قال رسول الله ﷺ: «الله أكبر» فكبرت خديجة وفرحت وأيقنت

أنه الوحي وذلك لأن الشيطان لا يأمر بذلك ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾﴾ عن الأوساخ والأقذار الغير اللائق بأن تلبسها في الجامع مقدمة لتطهير نفسك عن كل ما يخالف كرامة قدسك ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾﴾ أصل الرجز العذاب، والمراد هنا ما يوجب العذاب، فكأنه قال: والمآثم والمخالفات الدينية اهجرها واتركها حتى تبقى روحك صافية، ولمقابلة الحق كافية صافية، وقيل: الرجز اسم لصنمين آساف ونائلة وعليه يكون تعريضاً بالمشركين المحبين لهما وإلا فهو ﷺ لم يمل ولم يتوجه إلى غير الله تعالى لمحة عين ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ أي ولا تعط المال لأحد حال كونك تطلب منه أكثر مما أعطيته. هذا على قراءة رفعه. وأما على قراءة جزمه فمعناه أن لا تمنن عند إحسانك على الذي أنعمت عليه تستكثر من الخيرات والصدقات والجزاء يوم القيامة. وأما على قراءة النصب فالمعنى ولا تمنن أي ولا تعط الناس لطلب تكثير مالك، أي حتى يعطوك مالاً فيزيد مالك بذلك.

ويحتمل أن يكون المعنى على قراءة الرفع ولا تمنن أي لا تعط الناس الأموال حال كونك تعدّ ما تعطيه كثيراً أي كلما أعطيت شيئاً اعتبره قليلاً، وبذلك ترغب في الإعطاء للفقراء كثيراً ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾﴾ أي ولأجل ابتغاء مرضاة ربك فاصبر على أذى الأعداء وكلامهم المهجور المنفور فإن شأن الرسل الصبر حتى ينالوا الغاية القصوى ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾﴾ أي نفخ في الصور وهو فاعول من النقر بمعنى التصويت ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ أي إذا نقر في الناقور عسر الأمر عليهم ويؤخذ منهم انتقام الأول والآخر.

ثم توجه الباري إلى تهديد أحد الكفرة الفجرة الذي أتى بما لا ينبغي ولا يليق، وهو وليد بن المغيرة فقال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ﴾ أي خلقته ﴿وَحِيدًا﴾ أي طريداً فريداً لا مال له ولا ولد ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾﴾ مبسوطاً فصار له الضرع والزرع والتجارة ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾﴾ أي وخلقت له بنين حضوراً معه بمكة يتمتع بلقائهم وينتفع ببقائهم ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾﴾ أي وبسطت له بساط الرئاسة على الناس والجاه حيث جعلنا له وقراً ومهابة في قلوبهم ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾﴾ على ما ذكرناه بالرغم من أنه لم يشكرنا على النعم بل كفر بأنعمنا بين الأمم. ﴿كَلَّا﴾ لا يمكن أن أزيد في نعمته ولا نزيد له أبداً ﴿إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾ معانداً غير موافق وغير راض وغير شاكر ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾ سأغشيه عذاباً صعوداً يصعد على جسده، أو محنة وعذاباً يستوعب جميع جهات تمتعه وصحته وراحته، ونسلبه

كل ما آتيناه، فإذا سأل سائل: لماذا قال: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾﴾ أي فكر لتحصيل مطاعن يطعن بها في الرسول أو في الكلام المنزل عليه وقدّر في نفسه أموراً لرمي الرسول بها، أو لرمي القرآن المنزل عليه ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ قلنا كرر الجملة لتكرار الحملة، لأن ذلك الشيطان وسوس إليه الشيطان الكبير بما يجعله مستحقاً لكل نقمة وعذاب، ثم نظر في أمر القرآن مرة بعد أخرى ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ على عادة أولي الأنانية من الأغنياء الأغبياء ﴿وَبَسَرَ﴾ جعل وجهه بُسراً، وهو من أتباع العباسة ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ عن الحق ﴿وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ﴾ أي ما هذا القرآن ﴿إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ يروى وينقل يعلم ويتعلم ﴿إِنَّ هَٰذَآ﴾ أي ما هذا ﴿إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ ولم يتفكر هذا الكفور الفكور أنه كلام الله ولا يشبه كلام البشر وليس على أسلوبه، وليس فيه مزايا كلام الناس من الميل إلى الباطل في تضاعيف البيان، ولا إلى الكذب ولا المبالغة الخارجة عن عادة الأدب. وفيه إخبار بالغيب وحكم وفوائد بلا ريب، ولا يحوم حوله النقص والعيب.

وما دام ذلك الإنسان الفاسد ألقى نفسه في المهالك ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾ أي سأدخله في سقر ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ﴾ أي لا تبقي على شيء يلقى فيه، ولا تذره كما كان بل ينضجه فيحرقه ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾﴾ أي ملوحة ومسودة لأعالي جلد الإنسان، أو لائحة ظاهرة للعيون وليست مستورة.

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ أي على السقر تسعة عشر صنفاً من الملائكة، أو تسعة عشر شخصاً منهم، روي عن ابن عباس أنه لما نزلت: عليها تسعة عشر قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم أسمع أن ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدهم، أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل

منهم؟ فقال له أبو الأشد بن الأسيّد بن كلدة الجمحي، وكان شديد البطش: أنا أكفيكم سبعة عشر فاكفوني أنتم اثنين! فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ فإنهم هم القادرون على التعذيب المستمر بدون فتور ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قال بعض المحققين: الجعل قوليّ، أي وما قلنا أن عدتهم تسعة عشر إلا ابتلاء للكافرين حتى يستقلّوه، وظاهر الحال أن الكفار استغلوا ذلك وقالوا: كيف يقدر رجال محدودون على تعذيب ملايين من البشر والجن؟ ولم يعلموا أن قوة الباري تظهر بالآثار في كل شيء و﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي ليكتسبوا اليقين بنبوته ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ أي يزداد إيمانهم كيفية بما رأوا من تسليم أهل الكتاب ولتصديقهم أنه كذلك ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ تأكيد لما قبله ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي شك أو نفاق ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ﴾ الجازمون في التكذيب: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾؟ أي ماذا أراد بهذا العدد المستغرب؟ ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ لأن كل ممكن من الممكنات يحتمل أن يجعله الله جندياً يستعمله في قهر أعدائه ﴿وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ أي وليس ذلك العدد إلا مذكراً للبشر بأن الله فاعل مختار يقدر أن يتصرف في كل ممكن ليكون من جنوده وأعوان دينه ﴿كَلَّا﴾ ردع للمنكرين أي أقسم بالقمر المنور الليل الذي يختلف أوضاعه بالنسبة إلى العالم ﴿وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ أي وأقسم بالليل إذا أدبر وبالنهار وأقسم بالصبح إذا أسفر أي أضاء ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾﴾ أي إن السقر لإحدى البلايا الكُبرِ ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾﴾ تمييز أي لإحدى الكبر إنذاراً ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾ فمن كان له قابلية التحوّل من الشر إلى الخير ومن الفساد إلى الصلاح فليعمل إرضاء لرب العالمين.

﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨﴾ قال أبو حيان: الرهينة مما غلبت الاسمية فيه على الوصفية كالنطيحة ولذلك ألحقت تاء التأنيث، وإلا فالفعيل بمعنى المفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث، ويستعمل للمؤنث بدونها كالمذكر، وقيل: إن الكلمة مصدر كالشتيمة والتاء للمصدرية، واختير المصدر لإفادة المبالغة في إفادة ارتهان النفس بمكاسبها، فكأنها هي الرهن. ويراد بما كسبت المكاسب المطلقة، وإلا فلو أريدت المكاسب الحسنة فلا مجال لارتهان النفوس بها، أو المكاسب السيئة فلا وجود لها في أصحاب اليمين، فالمعنى: إن كل نفس مرهونة بمكاسبها إلا أصحاب اليمين، فليسوا مرهونين بها لأن مكاسبهم كلها حسنة، ولا ارتهان للنفوس بالأعمال الحسنة. ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ۝٣٩﴾ والمراد بأصحاب اليمين المسلمون المخلصون المجردون عن الأعمال السيئة، ولا يناسب تفسيره بالملائكة لأنهم لا حساب عليهم ولا عقاب فلا رهن ولا فك بالنسبة إليهم، ولا بأطفال المشركين لأنهم غير مكلفين، ويدخلون الجنة على الصحيح لأن الجحيم دار العقاب للمكلفين على أعمالهم السيئة وهم لم يصلوا إلى درجة التكليف.

وقوله: ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ خبر لمبتدأ محذوف أي هم في جنات، وتكون الجملة جواباً لمن قال أين أولئك الناس؟ فأجيبوا بأنهم في جنات، وقوله: ﴿يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ بيان لبعض أحوال أصحاب اليمين أي لما اطمأنوا في مقرهم من الجنة يَرَوْنَ أصحاب الجحيم لا سيما المبتلين منهم بأشدّ العذاب، وهم أهل سقر فيسألونهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ۝٤٢﴾؟ أي ما العمل السقيم الذي أدخلكم في سـقـر؟ ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي يجيبون السائلين عن سبب الدخول في الجحيم، ولا سيما سقر بما مضى، وحاصله: فساد أعمالنا أما من حيث أداء الواجبات فكففنا أنفسنا عن أداء الصلاة التي هي صلة بين العبد وبين ربه. وأما من حيث خدمة المجتمع ورعاية الضعفاء فكففنا أنفسنا عن إطعام المساكين بما يسدّ رمقهم، وبخلنا بذلك عليهم، وأهملنا هذا الواجب الإسلامي الاجتماعي، فإن الغني يجب عليه إطعام الفقير الفاقد، غير أنه يجوز له إذا لم يتبرع بما ينفق عليه أن يشهد عدلين على أنه ينفق على هذا على اعتبار أخذ العوض منه عند الإمكان. وأما من ناحية الانتباه لإصلاح حالنا فتَرَكْنا ذلك وكنا نخوض أي نغوص في أعماق البطالة واللعب والجهالة مع الخائضين وأما من ناحية الاعتقاد والمعنويات فكنا كافرين،

وكنا نكذب بيوم الدين أي بيوم الجزاء، أي كنا نعتقد أن لا مسؤولية علينا ولا سؤال ولا جواب، واستمررنا على هذه الصفات اللازمة للفاسقين ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ أي الموت المحقق الذي لا شك فيه من العاقلين. أو حتى متنا وبعثنا وعلمنا بيوم الدين علم اليقين. وما داموا كذلك ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ لأن أولئك الكفار قرناء للشيطان اللعين.

ويستفاد من حرف الفاء ووقوع ما بعدها من تلك الصفات الذميمة بعدها أن غيرها من المؤمنين تنفعهم الشفاعة، ولو كانوا عاصين فاسقين.

ثم يستنكر الباري تعالى إعراضهم عن الحق حتى يبتلوا بهذه البلايا ويقول: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾ أي فأي نفع يحصل لهم حال كونهم معرضين عن التذكرة وهي القرآن الكريم، أو بحث سقر وسائر منازل العقاب في الآخرة، وإذا وجدوا الرسول يقرأ القرآن أو يذكرهم بالسقر والسعير ركضوا وابتعدوا عنه ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾﴾ أي كالحمر الوحشية التي تنفر وتعدو في الجبل ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾﴾ أي أسد لقينها فيه. وانظروا إلى بلاغة القرآن بحسن البيان وتشبيه الجهال الذين لا يريدون أن يفهموا الحقائق بأخس الحيوان، وتشبيه الرسول المسعود بأسد من الأسود. والقسورة الأسَدُ وقوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ أي أعرض عن استماعهم لوعظ الرسول وإرشاده وإطاعة الحق في أحكامه وخطابه، يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفاً مكتوبة واضحة منشورة يؤتى بها إليه معنونة من حضرة الباري جل جلاله إلى فلان بن فلان حتى يترفع في مقامه بأنه مخاطب من الله تعالى أو صديقه ويهدي إليه كتابه. روي أنهم قالوا لرسول الله ﷺ إن سرك أن نتابعك فأت كل واحد منا بكتب من السماء عنوانها من رب العالمين إلى فلان بن فلان، نؤمر فيها باتباعك! فنزلت الآية.

﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾﴾ فلذلك يعرضون عن التذكرة ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾﴾ أي إن القرآن تذكرة أو ذكر سقر تذكرة ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾﴾ وتلاه وتبعه وتفكر فيه ونال من الخير ما يبتغيه ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فإن الله علم في الأزل حال العباد المطيعين والعصاة المتمردين ومن الذي يتوجه إلى ذكره وأراد عند علمه بذلك تحقق المعلوم في المستقبل كما هنالك، فلما جاء وقت عمل العامل تتقدم بالذات إرادته التابعة لعلمه الحاكي عن المعلوم على إرادة العامل وعمله تشريفاً للخالق على المخلوق، فشاء الخالق وشاء العامل وتحقق المعلوم

على القَدَر المرسوم ﴿هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ يعني أن الله الأهل المستحق بالذات لأن يتقي مخالفته ويلتزم طاعته ﴿وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ لذنوب عباده المؤمنين به الراجين لرحمته.

ونسأله تعالى أن يرحمنا، ويغفر ذنوبنا، ويستر عيوبنا، ويكشف كروبنا، فإنه هو الغفور الرؤوف الرحيم.

❀ ❀ ❀

سورة القيامة

مكيّة، وآياتها أربعون أو تسع وثلاثون، نزل بعد القارعة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن
نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾
يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾
يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ
يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾﴾ أي أقسم بيوم القيامة، وحقيقته أقسم بالقادر المقتدر الذي يأتي بيوم القيامة الجامع لأنواع الأحوال المدهشة والتغيرات العجيبة في الكون والكائنات في الأرض والسماوات. وقالوا لتوجيه زيادة حرف النفي إن إدخال لا النافية على فعل القسم مستفيض وشائع بين الناس. والتحقيق الذي ارتضاه بعض المحققين أن كلمة لا في مقام القسم لم تكن ولا تكون زائدة أبداً، بل هي لإفادة غاية التأكيد والقوة في المقام، وذلك لأن القسم والحلف واليمين بمعنى القوة تذكر لتأكيد الجمل الخبرية، فإن الجمل الإنشائية لا تناسبها التأكيد. فإذا وردت الأيمان مثبتة فالأمر ظاهر، وإن كانت منفية نحو لا أحلف بالله إن الأمر الفلاني كذا، فمعناه أن المقسم عليه في غاية الوضوح والبداهة، وفي نهاية الجلاء فلا يناسبه التأكيد، ففي هذا يستفاد تأكيد فوق التأكيد بإيرادها على صورة النّفي.

ومعنى الكلام هنا لا أقسم بيوم القيامة ومحصلها العظيم. ولا أقسم بالنفس اللوامة التي تحير العاقل الحكيم أن البعث بعد الموت حق وجمع العظام الرميمة

بعد الفناء ثابت. بقي شيء هو أن الحلف بغير الله وصفاته مذموم، فكيف يقسم الباري بأشياء من مصنوعاته؟ والجواب أن أصل اليمين الواردة في محاورات الإنسان بعضهم مع بعض لتأكيد الكلام وإفادة قوته وتحققه على جريان العادة، فإذا كان شخص عزيزاً عند شخص أو محبوباً له كالولد عند الوالدين أو الصديق لصديقه فهو يؤكد بذكره مع إخباره بمطلوبه فيقول: وحياتك يا ولدي أو يا صديقي أو يا سيدي إن الأمر الفلاني كذا، سواء كان صادقاً في ذلك أو كاذباً، وذلك كان معتاداً منذ خلق البشر والمحاروات.

وأما النهي عن الحلف بغير الله تعالى سواء كان خلاف الأولى أو مكروهاً أو جريمة كبيرة أو كفراً على بعض الوجوه فهو عرف طارىء ورد مع ورود الشريعة. قال الشوكاني في الجزء الثامن من كتاب نيل الأوطار في شرح النهي عن الحلف بغير الله تعالى: قال العلماء: السر في النهي عن الحلف بغير الله تعالى أن الحلف بالشيء يقتضي تعظيمه، والعظمة في الحقيقة إنما هي للّه وحده، فلا يحلف إلا بالله وذاته وصفاته. وعلى ذلك اتفق الفقهاء، واختلف: هل الحلف بغير الله حرام أو مكروه؟ للمالكية والحنابلة قولان. ويحمل ما حكاه ابن عبد البر من الإجماع على عدم جواز الحلف بغير الله تعالى على أن مراده بنفي الجواز الكراهة أعم من التحريم والتنزيه. وقد صرح بذلك في موضع آخر. وجمهور الشافعية على أنه مكروه تنزيهاً. وجزم ابن حزم بالتحريم، وقال إمام الحرمين: المذهب القطع بالكراهة، وجزم غيره بالتفصيل: فإن اعتقد في المحلوف به ما يعتقد في الله تعالى كان بذلك الاعتقاد كافراً. ومذهب الهادوية أنه لا إثم في الحلف بغير الله ما لم يُسَوّ بينه وبين الله تعالى في التعظيم، أو كان الحلف متضمناً كفراً أو فسقاً، وسيأتي الكلام على من يكفر بحلفه إنتهى.

﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ تطلق النفس على معان، والمشهور منها معنيان:

الأول: القوة الجامحة للغضب والشهوة المشار إليها بالحديث الشريف **«أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك»**.

والثاني: اللطيفة التي يعبر عنها بالإنسان، فهي في ذاتها واحدة، ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها. فإذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس المطمئنة، قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ وإذا لم يتم سكونها ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية ومعارضة ومعترضة عليها سميت النفس اللوامة لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره في عبادة مولاه، قال الله تعالى: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾. وإن تركت الاعتراض وأذعنت لمقتضى الشهوات ودواعي الشيطان سميت النفس الأمارة، قال تعالى حكاية عن عبده يوسف عليه السلام: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ ويجوز أن يقال: المراد بالنفس الأمارة بالسوء هي النفس بالمعنى الأول فإن النفس بالمعنى الأول مذمومة غاية الذم، وبالمعنى الثاني محمودة لأنها نفس الإنسان أي ذاته وحقيقته العالمة بالله تعالى وسائر المعلومات.

ومنهم من يقول: إن النفس مطلقاً هي الروح الإنسانية لكنها لها أسام باعتبارات: فباعتبار انقيادها لله نفس مطمئنة، وباعتبار لومها لنفسها في الأعمال الفاسدة تسمى باللوامة وباعتبار أمرها بالسيئات تسمى بالنفس الأمارة.

فإقسامه تعالى بالنفس اللوامة على اعتبار الشرف للنفس الإنسانية المتأثرة بالوعظ والإرشاد، واللائمة لنفسها عند ارتكاب الفساد، وقال بعض المفسرين: إن المراد بالنفس اللوامة مطلق النفس الإنسانية الشاملة للتقية والفاجرة لما روي أنه ﷺ قال: «**ليس من نفس برة ولا فاجرة إلا وتلوم نفسها يوم القيامة؛ فإن عملت خيراً قالت: كيف لم أزد منه، وإن عملت شراً قالت: ليتني قصرت**» وضم هذا القسم إلى القسم بيوم القيامة لأن هذه التأثرات تظهر هناك. والمقسم عليه على كل حال هو أنّ الموتى يُبعثون يوم القيامة بعد جمع عظامه كيف كانت، والدليل عليه قوله العظيم ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾﴾؟ أي أيحسب أن الشأن لن نجمع عظامه المتمزقة البالية الصائرة تراباً ثابتاً أو غباراً طائراً أدراج الرياح؟ ﴿بَلَىٰ﴾ أي بلى كنا ﴿قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن﴾ نجمع عظامه ونكسوها لحماً ونزيد عليها الأعصاب وسائر مقومات شخصه بالمادة والصورة والهوية الشخصية التي بها يمتاز إنسان عن أخيه بل أحد التوأمين عن الآخر بأن ﴿نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ أي أطراف أصابعه بحيث لا يشارك إنسان إنساناً في خطوطها. ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾﴾ أي دع تعنيفه ولومه فإنه أبعد من ذلك وأنى يرتدع وهو يريد ليدوم على فجوره فيما أمامه من الأوقات وفيما يستقبله إلى الممات ﴿يَسْـَٔلُ﴾ استهزاء ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؟ أي متى تكون القيامة المقررة أن تكون بعد خراب هذا العالم؟ ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾﴾ أي طغى وتحير فزعاً ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾﴾ أي ذهب ضوؤه ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾﴾ أي في ذهاب الضوء أوالطلوع

من المغرب، أو اتحد مدارهما بأن يتغير الوضع ويتحد مدار منطقة البروج والمعدل ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ﴾ مستفهماً: ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾؟ يطلب مكاناً يفر إليه أو يطلب عن إمكان الفرار ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ⑪﴾ أي لا ملجأ يلتجىء إليه ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ⑫﴾ أي استقرار العباد أو محل فرارهم وقرارهم هل هو الجنة أو النار ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ﴾ من الأعمال الحسنة ﴿وَأَخَّرَ﴾ منها ولم يعملها ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ⑭﴾ أي إطلاع وعلم وخبرة مصدر حمل على الإنسان مبالغة، أو شاهدة بتقدير الموصوف أي نفس شاهدة وحجة واضحة ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ⑮﴾ أي طرحها أمام المحاسب، فلا قيمة لها لأن العيان مغن عن البيان.

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ⑯ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ⑰ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ⑱ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ⑲ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ⑳ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ㉑ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ㉒ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ㉓ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ㉔ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ㉕ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ㉖ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ㉗ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ㉘ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ㉙ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ㉚ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ㉛ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ㉜ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ㉝ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ㉞ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ㉟ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ㊱ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ㊲ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ㊳ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ㊴ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ㊵﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ⑯ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ⑰ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ⑱ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة، فكان يحرك به لسانه وشفتيه مخافة أن يتفلّت منه، يريد أن يحفظه، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ⑯ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ يقول إن علينا أن نجمعه في صدرك ثم تقرأه، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ يقول: فإذا أنزلناه عليك ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ يقول: فاستمع له وأنصت ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ⑲﴾ يقول أنْ نُبينهُ بلسانك فتقرأه، فكان رسول الله بعد ذلك إذا أتاه جبريل أطرق واستمع، فإذا ذهب جبريل قرأه كما أقرأه الله تعالى. أخرجه البخاري ومسلم. ﴿كَلَّا﴾ ردع للرسول ﷺ عن عادة العجلة أو عن الإنسان من الاغترار بالعاجل فيقول: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ أي

التمتعات الحاضرة في الدنيا ﴿وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾ وتتركون الآخرة ولا تهتمون بأمورها، مع أن الآخرة خير وأبقى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾ بهية مستبشرة متهللة ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ تراه مستغرقة في أنوار جماله غافلاً عن أحواله.

والجمهور يستدلون بهذه الآية الجميلة على وقوع رؤية الله في الآخرة بالعيون. ويكشف هذا المعنى قوله ﷺ: «**إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر**» وما عارضَنا به المخالفُ من الشواهد الدالة على امتناع رؤيته تؤوّل بامتناع رؤيته تعالى من الكافرين، أو في هذه الدنيا لا في الآخرة، أو مؤول برؤية استيعابيةٍ إلى أقصى درجة كشفية. على أن المخالف بنى خلافه على اعتبار شرائط الرؤية بيننا في هذه الدار معتبرة في رؤية الباري تعالى في تلك الدار، وليس ذلك أمراً معقولاً معتبراً، لأن ذلك مبني على قياس الغائب على الشاهد، وذلك غير مفيد قطعاً. فنحن جمهور المسلمين نؤمن برؤية الباري تعالى بأعيننا في الآخرة على استناد هذه الآية والحديث الشريف.

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾﴾ شديدة العبوس ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾ أي داهية تكسر عظام فقرة ظهره. وهي نائب فاعل يفعل أي إذا أراد أن ينظر إلى ربه تعالى أتته حالة فظيعة وداهية شديدة لا يمكنه معها رفع الرأس والنظر إلى الرئيس. وتلك قوة غضبية انتقامية من ربّه تعالى تمنعه من نيل هذا المقام لما تحمله في الدنيا من الكفر والآثام.

﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾﴾ أي إذا بلغت النفَس أعالي الصدر ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾﴾؟ أي من يرقيه مما به من المحنة ليخلص منها ﴿وَظَنَّ﴾ أي المحتضر ﴿أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ له في الدنيا وما فيها من الأولاد والأحباب والأموال ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾ أي والتوت ساقه بساقه بحيث لا يقدر أن يميز بينهما وقوله ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ أي سوقه دليل على جواب الشرط المحذوف، أي انكشف حينئذ للمرء جزاؤه وصفاؤه ومجازاته وجفاؤه لأنه يساق إلى الله تعالى فيحاسب وتتبين الأمور وحينئذ يحاسب الكافر ﴿فـ﴾ يظهر أنه ﴿لَا صَدَّقَ﴾ وما آمن بما يجب الإيمان به ﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾ في الأوقات المحدودة الفرائض المعددوة ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ﴾ برسول ربه فكذب بما يجب التصديق به ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ وأعرض عن أداء الواجب صلاة أو صياماً أو زكاة أو غيرها. ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾﴾ يتبختر ويتمشى مشي المتكبرين ﴿أَوْلَىٰ

لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ أي أولى لك الهلاك من النجاة فأولى لك هذا من ذاك، ثم أولى لك فأوْلى. عن سعيد بن جبير أنّه سأل ابن عباس عن قوله: أولى لك فأولى أشيء قاله رسول الله ﷺ لأبي جهل من قبل نفسه أم أمره الله به؟ قال: بل قاله من قِبَل نفسه ثم أنزله الله تعالى. أخرجه النسائي والحاكم وصححه، قيل: إن رسول الله ﷺ خرج من المسجد ذات ليلة فاستقبله أبو جهل على باب المسجد فأخذ رسول الله ﷺ بيد أبي جهل فهزه مرة أو مرتين ثم قال له: أولى لك فأولى، فقال له أبو جهل: أتهددني؟ فوالله إنيَ لأعَزّ أهل الوادي وأكرمه! ونزل على رسول الله ﷺ ما قاله النبيّ لأبي جهل، وهي كلمة وعيد.

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾؟ أي مهملاً لا يكلف ولا يجزي ولا يجازى. والسدى الخيوط الممتدة لصنع الثياب، واللحمة الخيوط التي تقابلها وترتبط بها ويحصل منهما الثياب ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ أي يمنيها الرجل ويصبّها في الرحم ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾ أي صار قطعة دم ﴿فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ أي فخلق منها اللحم والعظم والعروق والأعصاب فسواه إنساناً مستوياً على حسب إرادته ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ﴾ الصنفين من الآدميين ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؟ أي يعيد خلقهم وتصويرهم وإعادتهم رجالاً ونساء فيأخذ كل مقامه المناسب لأعماله وأحواله في مآله. بلى إنه على كل شيء قدير، وبإضافة الرحمة على عباده حري حقيق جدير. سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

❀ ❀ ❀

سورة الإنسان

مدنيّة وآياتها إحدى وثلاثون، نزلت بعد الرحمن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ① إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ② إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ③ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ④ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ⑤ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ⑥ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ⑦ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ⑧ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ⑨ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ⑩ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ⑪﴾.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ①﴾ قالوا إن أصل هل أهل والهمزة للاستفهام، وهل بمعنى قد وهي للتقريب ولما كثر استعمالها كذلك أفادت معناها ومعنى الهمزة، وصار بمعنى أهل، وقيل: هي نفسها للاستفهام ولا تقريب. والاستفهام للتقرير. أي جعل المخاطب مقراً بما ذكر بعدها حتى يقول المخاطب نعم قد أتى على الإنسان أي مادته الأصلية، حين لم يكن ذلك الإنسان شيئاً مذكوراً فيه، فإذا أقر المخاطب بذلك قلنا له: فكيف لا تقر بأن الخالق الذي خلقه بصنعه أساساً قادر على أن يُعيده ويبعثه بعد الموت للجزاء؟.

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ إذا كان المراد بالإنسان المذكور سابقاً آدم عليه السلام وجب اعتبار الاستخدام في ضمير خلقناه، فإن آدم لم يكن مخلوقاً من

النطفة، وإنما المخلوق منها نسله، وإن كان المراد غيره فالإضمار على العادة الثابتة، يقول الباري تعالى: إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج أي أخلاط، فإنه مخلوق من مجموع نطفتي الرجل والمرأة. فأمشاج جمع مشيج بمعنى خليط وقيل: إن أمشاج مفرد كأعشار. وقوله نبتليه جملة حالية أي حال كوننا نكلفه ونختبره ونمتحنه ليتبين هل يعمل عملاً نافعاً لنفسه ولغيره أو لا يعمل هكذا؟ ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ حتى تكون فيه قابلية الاختبار والابتلاء ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي أرشدناه سبيل الخير والشر بنصب الدلائل المستفادة من بعث الرسول ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ أي فهو بعد إرشاده إلى سبيل الخير والشر إما يكون شاكراً لأوامر الله تعالى ونواهيه بالتزامه لهما، وإما يكون كفوراً برفضه لهما.

ثم بين ما يترتب على الشكر أو الكفر فقال: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ أي سلاسل بها يقادون إلى جهنم، وأغلالاً بها يقيدون، وسعيراً فيها يدخلون ويحرقون. هذا حال الكفور، وقدّمه لأن الإنذار أهم من التبشير. وأما الشاكرون فقد بين أحوالهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾﴾ أي يشربون في الجنة من كأس من خمر لذة للشاربين، وما تمتزج به هو الكافور لبرده وعذوبته وطيب رائحته حال كون ذلك الكافور ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا﴾ أي منها ﴿عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ يُجرونها حيث شاؤوا إجراءً سهلاً ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ مما رزقوا منه ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ أي فاشياً منتشراً ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أي على حب الله، أو حب الطعام وذوقهم فيه ﴿مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ أسر من الكفار إذا كانوا عندنا قائلين ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ ورضاه ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ أي مقابلاً، أو شكراً فإن الخالص لله خالص له ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾ أي نخاف من عذاب يوم عبوس شديد العبوس والعسرة ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ أي ولما كان غايتهم ذلك فوقاهم الله شر ذلك اليوم العبوس ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ ولقاهم أي وأوصلهم نضرة وسروراً.

﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾؟.

قوله: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟﴾ أي جزاهم بما صبروا في الدنيا على قبول مشاق التكليف ﴿جَنَّةً﴾ يسكنونها ﴿وَحَرِيرًا﴾ يلبسونها ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ وهي جمع

أريكة وهي السرير في الحجلة ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ والمراد من ذلك أن هواءها معتدل لا حر شمسٍ يؤذي ولا برد هواء يؤذي.

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ﴾ حال معطوفة على الجملة الحالية وهي لا يرون، أي حال كونهم دانية أي متدلية قريبة ﴿عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا﴾ أي وذللت ثمارها ﴿تَذْلِيلًا﴾ أي جعلت سهلة التناول لآخذيها. ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ﴾ جمع إناء، ككساء ﴿مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾ جمع كوب عطف على آنية، أي ويطاف عليهم بأكواب ﴿كَانَتْ﴾ تلك الأكواب ﴿قَوَارِيرَا﴾ جمع قارورة وهي إناء رقيق من الزجاج تُصَبّ فيه الأشربة ﴿قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ﴾ بدل والكلام على التشبيه ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ أي قدروا تلك القوارير في أنفسهم فجاءت حسب ما قدروا بلا زيادة ونقص ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾﴾ أي مزاج تلك الكأس الخمرية كان زنجبيلاً حال كون ذلك ﴿عَيْنًا فِيهَا﴾ أي في الجنة ﴿تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ وكون الزنجبيل اسماً لعين في الجنة مروي عن قتادة والظاهر أنهم تارة يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً، وتارة من كأس كان مزاجها زنجبيلاً.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ للخدمة ﴿وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي دائمون على ما هم عليهم ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ لحسنهم وصفاء ألوانهم ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾ أي في الجنة ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ عظيم القدر من المواد المنورة والمفرحة والأنهار والأشجار. ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ قيل عاليهم ظرف بمعنى فوق على أنه خبر مقدم وثياب مبتدأ مؤخر، أي ثياب سندس خضر وإستبرق فوقهم، أي فوق أبدانهم أي يلبسونها. والسندسُ ما رَقّ من الديباج، والإستبرق الغليظ منها. ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ حلوا فعل ماض للجمع المذكر أصله حُلِّيوا من باب التفعيل، أي وزينوا

بحلي هي أساور مِن فِضّة لائقة بتلك الدار وذلك الدثار ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ قالوا هذا نوع آخر من الخمر غير ما مُزِج بالكافور وما مُزِج بالزنجبيل، ولذلك أتى بذكر هذا السقي بعد ذكر الكأسين السابقين. والمراد أن الشراب طاهر في ذاته وطهور يطهر قلوبهم، ويأتيهم النّداء من جانب الحق جل جلاله ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم﴾ في الدنيا ﴿مَّشْكُورًا﴾ مقبولاً.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي نزلناه منجماً مفرقاً مقسماً كل جملة منه على بعض الأوقات ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بتأخير نصرك على كفار مكة وغيرهم ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ أي كل واحد من مرتكب الإثم الداعي إليه ومرتكب الكفر الداعي إليه، فإن قلت: إن النهي عن إطاعة الآثم يكفي عن إطاعة الكفور لأن الآثم منهم كفور قلنا التقسيم باعتبار الدعوة ولا يلزم من الدعوة إلى الإثم الدعوة إلى الكفر ولا العكس، فكانوا منقسمين إلى قسمين، فمنهم من يدعو الناس إلى الكفر والإشراك، ومنهم من كان يدعو إلى الإثم وهو عدم إطاعته الرسول في الخير وعدم المبالاة به، فنهى الله تعالى رسوله عن إطاعة كل من القسمين.

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ وظاهر الآية ينادي إلى ذكر الله تعالى نحو الله الرحمن الرحيم وغيرها من الأسماء الحسنى فإن التلفظ بها تبركاً وإيقاظاً للقلب الغافل عن غفلته من المدلولات الأولية لمثل هذه الآية، ومثلها كثير في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ وقوله ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ وقوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ وقوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا﴾ [الأعراف: ٢٠٥] وقوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤] وقوله: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾﴾ وقوله: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا

﴿٢٥﴾ وقوله: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾ وقوله: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾ وقوله: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾.. وغيرها من الآيات الجليلة. فإنها كلها تعم لوجوه كثيرة من الذكر كذكره تعالى على سبيل تعداد المفردات المعدودة في التعبير نحو الله، الله، الله.. أو على سبيل النداء نحو يا الله، يا الله. أو مع كلمة التوحيد نحو لا إله إلا الله، لا إله إلا الله. أو مع التسبيح والتحميد والتكبير نحو سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم. ونحو سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله والله أكبر.. وغيرها من التعبيرات. وبيان معنى بعض الآيات بوجه خاص كالبسملة عند الذبح، أو التلبية عند الإحرام بالحج لا ينافي ولا يمنع شمولها لما ذكرنا، فإن العام الوارد على سبب خاص لا يختص به ويبقى على عمومه، وعدم اشتغال الرسول ﷺ وأصحابه بذلك النوع لأنه كان عندهم واجبات مهمة، وقد ورد النهي عن مطاوعة الغافلة عن ذكر الله تعالى، وقال: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ أو أن معناه الأمر بالدوام على صلاة الفجر والظهر والعصر.

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ﴾ أي وفي بعض أوقات الليل فاسجد، أي فصل له تعالى لكن التقيد بذكر ركن هو أفيد الأركان لأن أقرب أوقات الإنسان من الله وقت السجود له. ولعل المراد به صلاة المغرب وصلاة العشاء ﴿وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾ أي وتهجد له مقداراً طويلاً من الليل ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ وهي الدنيا ومتاعها ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾ تحمله لما فيه من العذاب والعقاب ﴿نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ﴾ أي وأحكمنا ارتباط مفاصلهم بعضها ببعض ﴿وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ أي هذه السورة ﴿تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾ أي طريقاً يفيد السير عليه الوصول إلى المأمول.

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ وبيان ذلك أن الله تعالى عالم أزلاً وأبداً بجميع المعلومات ولا يتخلف المعلوم عن علمه، ومريد لكل الموجودات ولا يتخلف المراد عن إرادته، ومنفرد بالقدرة فهو الخالق لكل مخلوق من المخلوقات. وقد علم أزلاً أنه يخلق العباد مع قوة الاستعداد، وأن فيهم رغبة إلى ما يحبون موافقاً للحق أولاً، ويريدون جلبه ولما كان هو المتفرد بالخلق التابع للإرادة التابعة لعلمه الحاكي عن أعمال العباد في المستقبل فإذا جاء وقت عمل العبد توجه إلى ما

علم أزلاً أنه يفعله باختياره وإرادته لو كان مستقلاً. . أراده إرادة متقدمة بالذات على إرادة العبد وخلق المراد لأن الله هو السابق في ميدان الخلق فلا إجبار منه على عباده، لأنه خلقهم سالمين عالمين عاملين مع الحواس السليمة والمشاعر المستقيمة، ولهم أسماع يسمعون بها وأبصار يبصرون بها، ودماغ يتخيلون به، وقلوب يتفكرون بها، ورغبات في مشتهيات، ورهبات عن مكروهات، والجذب والدفع موجودان، والجهاز مناسب للسلب والإيجاب وهو برغبته يحب ذاك، وبكراهته يكره ذلك، وقد علم الله تعالى أزلاً كيف يتصرف العبد وإلى أين يميل وعن أي طريق ينحرف. ولا خالقية للعباد لأنهم لو كانوا خالقين لخلق كل كاسب صنعته من أفضل الصنائع، فكان كرسي ذلك النجار أحسن الكراسي، وكتابة ذلك الكاتب أحسن الخطوط على القرطاس، وإنما هم كاسبون بتفويض الميل الجزئي إليهم ليكون سبباً لخلق الباري تعالى مرادهم على حسب إرادتهم وهذا هو حاصل تحقيق أهل العلم بالأصول فمن الله التوفيق على الخير وبه العون للوصول.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بأعمالنا ﴿حَكِيمًا﴾ في توديع القوى والمشاعر إلى عباده ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ حسب سعي العبد في تحسين نيته ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بإضاعة الميل إلى الخير ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾ أعاذنا الله منه بفضله ورحمته آمين.

❀ ❀ ❀

سورة المرسلات

مكيّة، إلا آية ٤٨ وآياتها خمسون. نزلت بعد الهمزة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ روي أن هذه السورة نزلت على النبيّ ﷺ ليلة الجن، قال ابن مسعود: ونحن معه نسير حتى وصلنا إلى غار مِنى فنزلت، فبينما نحن نتلقاها منه وفُوهُ رَطب بها إذ وثبَت حيّة فَوَثَبنا عليها لنقتلها، فذهبت، فقال النبيّ ﷺ: «**وقيتم شَرَّها كما وَقِيَتْ شَرَّكم**» والغار المذكور مشهور في منى يسمّى غار المرسلات.

وقد أقسم الباري سبحانه وتعالى بصفات خمسة موصوفها محذوف، فَقَدّره بعضُهم الرّياح في الكلّ. وبعضهم قدّره الملائكة في الكل. وبعضهم غاير فَجَعَله تارةً الرياحَ وتارةً الملائكة، ومن جعله الملائكة فقال: المُرْسَلات، والعاصفاتُ طوائف، والنّاشرات والفارقات والمُلقياتُ طوائف أخرى. فالأول طوائف رُسِلت بأمره تعالى وأمرن بإنفاذه أي تنفيذ الأمر فعَصَفْنَ بالمُضِيّ وأسْرَعن كما تعصِف الريح تَخَفُّفاً في امتثال الأمر وإيقاع العذاب بالكفرة إنقاذاً للأنبياء ونَصْرَةً لهم.

والثاني طوائف نَشَرن أجنحتهنّ في الجوّ عند نزولهن بالوحي فَفَرَّقْنَ بين الحَق والباطل فَأَلْقَيْنَ ذكراً إلى الأنبياء عليهم السلام.

والمعنى أُقسِمُ بالملائكة المُرْسلات بأمره تعالى عُرفاً أي متتابِعاً بعضُهم لبعض فَعَصَفْن وَأسْرعن بالحَرَكة إلى محلّهم المقصود. وأقْسم بالملائكة النّاشرات أجنحتَهن عند انحطاطهن بالوحي ففرّقنَ بينَ الحق والباطل فَأَلْقَين ذكراً للأنبياء عليهم السلام. ولعل من يلقى ذكراً لهم غير مختص بجبريل عليه السلام بل هو رئيسهم.

وقوله: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾﴾ أي للإعذار والإنذار وقوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾﴾ هو المُقْسَمُ عليه أي إن الذي توعدونه لواقع متحقق في الخارج إنْ عاجلاً أو آجلاً ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾﴾ أي مُحِي ضوؤها ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾﴾ أي شقّت ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾﴾ أي فُتِّتت وسيّرت ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾﴾ أي جمعت لوقت عند الباري تعالى ليشهدوا على عباد الله تعالى: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾﴾ الشهادة منهم على النّاس ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾﴾ بين الخلق ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي في ذلك اليوم الهائل، وويل في الأصل مصدر بمعنى الهلاك ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾﴾؟ كقوم نوح وعاد وثمود ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ أي كمشركي مكة وَمَن يحذو حذوهم ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ أي بكل مَن أجْرَم، فإن سنة الله لا تتبدل ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ بآيات الله ومعجزات المرسلين.

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾؟ أي ألم نخلقكم من نطفة قذرة مهينة ﴿فَجَعَلْنَاهُ﴾ أي ذلك الماء ﴿فِي قَرَارٍ﴾ أي ﴿مَّكِينٍ﴾ مستحكم وهو الرحم ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾﴾ أي مقدار من الزمان معين عند الله تعالى وهو زمان الحمل ﴿فَقَدَرْنَا﴾ أي ففرضنا ذلك الزمان لنمو النطفة فيه إلى أن يستعد للخروج ﴿فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ أي فنعم الفارضون المقدرون ذلك الزمان لبقاء النطفة مع تطوراتها في الرحم ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ بقدرتنا على ذلك ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾﴾؟ أي ضامّة لكم تضم

في كل وقت وزمان ﴿أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾﴾ فكما تضمكم في الحياة تضمكم في الممات أيضاً حيث أنتم مقبورون ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي وخلقنا في الأرض جبالاً عوالي ثوابت في الأرض ﴿شَٰمِخَٰتٍ﴾ مرتفعات على سطحها ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ أي ماء عذباً صافياً عن الملوحة والمرارة بأن خلقناه في أصولها وأظهرناه لكم من منابع وعيون فصارت أنهاراً ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ بأمثال هذه النعم المفيدة.

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

قوله ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ أي يقال لهم: إنطلقوا ﴿إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ من العذاب وشدته ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ﴾ يعني ظل دخان جهنم ﴿ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ يتشعب لكثرته وبُعْدِ أَقْطاره ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ ذلك الظل ﴿وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ أي ليس ذلك الظل كظل مفيد برودة ما يستريح تحته المقيمون هنا، ولا يغني الناس أي ولا يدفع عنهم شيئاً من اللهب وحره. وهذا تهكم بهم لأن ظل دخان جهنم لا ينتظر منه الخير والراحة مطلقاً، كيف وقد قال ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾﴾ أي إن نار جهنم ترمي بموجات من الشرارة كل شرارة منها كالقصر في عظم حجمها وقوله: ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ يبين لونها يعني إن تلك الموجات النارية لامتزاجها بالدخان وغلبة النارية فيها تشبه الجمل الكبير الأصفر ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ وجمالت جمع جمل والتاء لتأنيث الجمع، وصفر بضم الصاد جمع صفراء.

﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي وهذا الوقت أعني وقت دخولهم النار وقت لا ينطقون فيه لغلبة الدهشة عليهم بحيث بقوا مبهوتين ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أي

لا يؤذن لهم في الاعتذار حتى يعتذروا عما اقترفت أيديهم من السيئات ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٣٧ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ بين المحق والمبطل ﴿جَمَعْنَاكُمْ﴾ فيه ﴿وَالْأَوَّلِينَ﴾ أي من تقدمكم من الأمم حتى نحاسبهم على أعمالهم ونميز المحقين عن المبطلين ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ﴾ أي حيلة لطيفة تتخلصون بها من المحاسبة أو من عسرتها أو من إصابة عاقبتها ﴿فَكِيدُونِ﴾ أي فأتوا بذلك الكيد إلينا أو فافعلوها بغية استخلاصكم ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾ حيث يظهر لهم أن لا ملجأ لهم من الله إلا إليه.

ولما بين حال الكافرين أخذ في بيان أحوال المؤمنين وقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي عن الكفر والمعاصي ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ جمع ظل وهو فيء بساتين الجنة ﴿وَعُيُونٍ﴾ جارية من البساتين ﴿وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۝٤٢ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من الأعمال الصالحة الناشئة من النيّات الحسنة. ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝٨٠﴾ أي العاملين بإحسان ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾ الباقين في العذاب الذين يقال لهم في وقت تعذيبهم ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ۝٤٦﴾ وقد أجرمتم في الدنيا كما شئتم ونعذبكم اليوم كما نشاء. وتعبير كلوا وتمتعوا وارد على سبيل التهكم والتحقير، وكذلك قليلاً، ومعناه: إن هذا العذاب لشيء قليل لا يضركم ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا﴾ أي صلّوا ﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾ أي ما كانوا يركعون ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٩ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ﴾ أي بعد القرآن ﴿يُؤْمِنُونَ﴾؟ إذا لم يؤمنوا بذلك الكتاب الهادي إلى الصواب.

❀ ❀ ❀

الجزء الثلاثون
سورة النبأ

مكيّة، وآياتها أربعون، نزلت بعد سورة المعارج

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا
سَيَعۡلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ۝٥ أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ۝٦ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ۝٧
وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا ۝٨ وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا ۝٩ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ۝١٠ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ
مَعَاشٗا ۝١١ وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا ۝١٢ وَجَعَلۡنَا سِرَاجٗا وَهَّاجٗا ۝١٣ وَأَنزَلۡنَا مِنَ
ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ ثَجَّاجٗا ۝١٤ لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبّٗا وَنَبَاتٗا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا ۝١٦﴾.

قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١﴾ أصل عم عما بحرف الجر وأداة الاستفهام، فحذف ألفها على أصل مقرر كما يقول ابن مالك:

وما في الاستفهام إن جُرّت حُذف ألفها وَأولها الها إن تقف

ومعنى هذا الاستفهام تفخيم شأن ما يتساءلون عنه وهو البعث بعد الموت، وضمير الجمع في يتساءلون راجع إلى كفار قريش وإن لم يتقدم ذكرهم، لكنهم لما كانوا يبحثون عن هذا الأمر بالاستمرار فكانوا كالحاضرين في معرض السؤال عن الآخرة، وقوله: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢﴾ جواب للاستفهام، وبيان لشأن المسؤول عنه بإبهام أمره وتوصيف النبأ بالعظيم ﴿ٱلَّذِي هُمۡ﴾ أي كفار مكة الذين هم ﴿فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ﴾ سلباً وإيجاباً فمنهم من يعترف به ويقرره، ومنهم من ينحرف ولا يعترف به. ﴿كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ۝٤﴾ ردع وزجر وإبعاد لمن لا يقر به وينكره فيقول: كلا سيعلمون أي أولئك المتسائلون المستهزئون ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ۝٥﴾ ما يلاقونه من أنواع العذاب بعد الموت الذي ينكرونه، وكيف ينكرون البعث الذي هو بالنسبة إلى

صنع الكائنات كحلقة في فلاة ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ۝٦﴾؟ أي ألم نخلق الأرض وجعلناها فراشاً ممهداً مفروشاً تحت أقدام الماشين عليها ومقراً للقاعدين الساكنين عليها ﴿وَٱلْجِبَالَ﴾ الراسية النافذة في أعماقها ﴿أَوْتَادًا﴾ لتوازن أثقال الأرض وتوازنها في حركتها ودورانها.

﴿وَخَلَقْنَـٰكُمْ﴾ عليها حال كونكم ﴿أَزْوَٰجًا﴾ مؤلّفة من الذكر والأنثى لتتراحموا وتتآلفوا وتتزاوجوا ويستأنس كلّ بالآخر وتعاونوا في المعيشة براحة، وتتوالدوا لبقاء النسل على طبيعة الأصل ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ﴾ بعد العمل ﴿سُبَاتًا﴾ أي راحة لأبدانكم واستعادة لقواكم ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ﴾ لكم ﴿لِبَاسًا﴾ يستركم عن أعين الناس ويقيكم عن الأعداء، لأنه يستركم بظلامه عن هجمات الناس القاصدين لإبادتكم ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾ أي زمان كسب للمعيشة ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢﴾ من السماوات قوية الخلق محكمة لا يسقط بدون عمد يرى بل بجاذبة إلهية ربانية ﴿وَجَعَلْنَا﴾ فيها بل في الأولى منها ﴿سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ مشرقاً صافياً متلألئاً ليتنور فضاء الكائنات ليكتسب الكاسب ما أعِدَّ له من البركات ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾ أي من السحب التي هي ذات عصر من ضغط الرياح الهابة القوية التي لها ضغط على السحاب ﴿مَآءً﴾ مقطراً ﴿ثَجَّاجًا﴾ أي منصباً بكثرة ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ﴾ من أعماق الأرض ﴿حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ أي زراعة تكون ذات سنابل وفي كل سنبلة حبوب، أو ترتبط بها الحبات مباشرة ونباتاً مما يأكله الإنسان والأنعام، وسائر الطيور والحشرات والهوام، أو أشجاراً تعلو وتثمر مدة بقائها بحسب ما لها من القوام، وقوله: ﴿أَلْفَافًا﴾ جمع لفيف أي ملتفة يدخل بعضها في بعض يصح اعتبارها للنبات على اختلاف أنواعها وأصنافها وأشخاصها، فإنها إذا كثرت وازدحمت دخل بعضها في بعض.

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ۝١٧ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۝١٨
وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ۝١٩ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ
مِرْصَادًا ۝٢١ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ۝٢٢ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ۝٢٣ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا
۝٢٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۝٢٥ جَزَآءً وِفَاقًا ۝٢٦ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۝٢٧
وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ۝٢٨ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ۝٢٩ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا
عَذَابًا ۝٣٠﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ شروع في بيان سر تأخير ما يتساءلون عنه ويقول إن يوم الفصل كان في علمنا وتقديرنا ميقاتاً لجمع المكلفين كلهم وحساب أعمالهم وأخذ كل ما يستحقه، فلذلك تأخر إلى الوقت الموجود، وقوله: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ﴾ بدل من يوم الفصل أي إن يوم الفصل يوم ينفخ ﴿فِى ٱلصُّورِ﴾ النفخة الثانية لبعث الموتى وحشر الناس في المحشر ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ أي فإذا نفخ فيه أتيتم أفواجاً وجماعات متعددة ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ﴾ لكثرة الفتح فيها ﴿أَبْوَٰبًا﴾ والمراد بالفتح الشق، والمقصود أن عند النفخ لا تبقى السماء على ما كانت، ويختل نظامها فتصير كالنحاس المذاب، أو الدهن المحمي، كما قال فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ أي حركت وأزيلت من موضعها ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ أي فصارت من أثر هذا التسيير كالسراب.

ولما بعث الناس وحشروا في موضع وحوسبوا وتبينت الأعمال والعمال والجزاء والنكال كان الجزاء ما قاله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾﴾ موضع رصد وترقب للناس من الذي يدخل فيها ومن لا يدخل ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾ أي مآباً للطاغين على الله ورسوله وعلماء أمته ﴿لَّٰبِثِينَ﴾ أي حال كون الناس الداخلين فيها لابثين فيها ﴿أَحْقَابًا﴾ جمع حقب وهو زمان ممدود وغير محدود ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا﴾ أي ماء حاراً جداً ﴿وَغَسَّاقًا﴾ وهو صديد أهل النار فجزيناهم بذلك ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ لأعمالهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾ أي تكذيباً ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ من الحسنات والسيئات ﴿أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾ أي ضبطنا كل شيء ضبط كتابة بحيث لا يفوتنا علم بشيء ﴿فَذُوقُوا۟﴾ أيها المشتاقون لمتاع الهوى والدنيا الدنية شراب الحميم والغساق المستقذرة والمحمية ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ على عذاب وبلاء على بلية.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾
لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا
يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ
إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ
ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ شروع في بيان أحوال المؤمنين فيقول: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿مَفَازًا﴾ أي فوزاً وظفراً بالخيرات وسعادة لا سعادة فوقها في الأرض والسماوات، أو صحراء واسعة كلها صارت بساتين ورياحين لا تمدح ولا توصف من كثرة عطرها ونشرها فقوله: ﴿حَدَآئِقَ﴾ بدل من مفازاً بدل كل من الكل وقوله: ﴿وَأَعْنَٰبًا﴾ بتقدير المضاف أي حدائق وبساتين ذات أعناب ﴿وَكَوَاعِبَ﴾ أي حوراً ارتفعت ثدياها واستدارت حال كونهن ﴿أَتْرَابًا﴾ لدات على ولادة واحدة وعمر واحد ﴿وَكَأْسًا﴾ من الخمور الطاهرة ﴿دِهَاقًا﴾ مترعة مملوءة من الشراب ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ من الكلام لا فائدة فيه ﴿وَلَا كِذَّٰبًا﴾ أي تكذيباً من بعضهم لبعض وجوزوا بذلك ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ﴾ حال كونه ﴿عَطَآءً﴾ أي تفضلاً وإحساناً ﴿حِسَابًا﴾ أي كافياً لهم ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾﴾ والمراد نفي قدرتهم على أن يخاطبوه عزَّ وجلَّ بشيء من نقص العذاب أو زيادة الثواب من غير إذنه تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾.

في بيان المراد من الروح أقوال أرجحها أنه جبريل عليه السلام فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن جبريل لقائم يوم القيامة بين يدي الجبار ترعد فرائصه فرقاً من عذاب الله تعالى يقول: سبحانك لا إله إلا أنت ما عبدناك حق عبادتك، وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ بدل من ضمير لا يتكلمون وهو عائد إلى أهل السماوات والأرض الذين من جملتهم الروح والملائكة. وذكر قيامهم مصطفين لتحقيق عظمة سلطانه تعالى وكبرياء ربوبيته عزَّ وجلَّ، وتهويل البعث الذي عليه مدار الكلام من مطلع السورة الكريمة إلى مقطعها.

وهذه الآية الكريمة ليس فيها ما يدل على نفي الشفاعة من أي نبيّ أو ولي أو شهيد أو صالح من الصلحاء لأنها تنفي الكلام بدون إذن من الله. وأصحاب الشفاعة لا يتكلمون إلا بإذن من الله سبحانه وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي قيامهم على الوجه المذكور في ذلك اليوم حتى يعتني به ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ يعني فإذا كان الأمر على ما ذكره الله تعالى فمن شاء اتخذ إلى ربه وجواره ﴿مَـَٔابًا﴾ أي رجوعاً وإنابة إليه.

﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ هو عذاب الآخرة وقربه لتحقق إتيانه في ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ والمراد يوم يشاهد المكلف المؤمن والكافر ما قدمت يداه من

خير أو شر ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ ولا أتحول إلى المواد المأكولة ولا أنقلب نطفة إنسانية ولا أخلق كإنسان مكلف حتى لا أنهمك في شهوات نفسي، ولا أترك رعاية جانب القدس، ولا أرى يوم الحساب ولا أدخل في هذا العذاب، ولا ينفعه هذا التحسر والتأثر لأنه قضى وقته بالغرور وجاء وقت البعث والنشور.

وأما المؤمن فيرتاح في النعم ويتقلب في أمواج وأمواج من الإحساس والكرم، ويقول: الحمد لله الذي خلقني كإنسان، وهداني إلى طريق الخير والإحسان، فعشت ببركات، ومت على خيرات، وفزت بدرجات. فالحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافىء مزيد فضله، وسلام على جميع المرسلين وأتباعهم بإحسان إلى يوم الدين، والحمد لله ربّ العالمين.

❀ ❀ ❀

سورة النازعات

مكيّة، وآياتها ست وأربعون، نزلت بعد سورة سبأ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ۝٤ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ۝٩ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۝١١ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾ هذه الأوصاف إما صفات الملائكة المأمورين بقبض الأرواح فيقول أقسم بالملائكة اللآتي ينزعن الأرواح من الأجساد ﴿غَرْقًا﴾ أي نزعاً بإغراق أي بقوة ومبالغة في نزعهم لها منها. ﴿و﴾ أقسم بـ﴿ٱلنَّاشِطَاتِ﴾ أي بالملائكة التي تنشط الأرواح أي ينزعها بسهولة وسلامة مثل ما تأخذ شعرة من حليب ﴿و﴾ أقسم بالسابحات سبحاً أي بالملائكة التي تسبح في إخراج الأرواح سبح الغواص الذي يخرج الدر من أعماق البحار ﴿فـ﴾ أقسم بالملائكة ﴿ٱلسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ بالأرواح إلى مقارّها أينما كانت ﴿فـ﴾ أقسم بالملائكة ﴿ٱلْمُدَبِّرَاتِ﴾ التي تدبر أمر الأرواح بالتنعيم أو بالتعذيب في عالم البرزخ. أو المراد بالمدبرات سائر الملائكة المدبرات لأمور العالم حسب تلقي الأوامر من الله تعالى، فإن العالم كلها عالَمُ الأسباب المادية والمعنوية، وذلك ليس لعجز الباري تعالى عن إيجاد أيّ شيء أراده من تأثير ذاته فيه بذاته، فإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون. بل لتطبيق سنة سنيّة ربانية أجراها في الكائنات حتى بين الجمادات، فالنبات محتاج إلى الأرض والماء ونموّه إلى أشعّة الشمس في السماء، وبين الحيوانات المتزاوجة للتناسل وبقاء النوع سواء ذوات الولادة أو البيض، وبين الجن والملائكة

والإنسان، فجعل بعضاً من العارفين ليفيدوا مَنْ عداهم بالرَّوْح أو المادة على طريق التعاون في الأمور، وكل ذلك جائز وواقع وسليم بلا مانع، إلا فيما نهى عنه الشارع نهياً خاصاً أو عامّاً. ومع ذلك كله فهذه الأسباب ليس لها تأثير بالخلق والإيجاد والإبداع في مثقال ذرة في الأرض والسماوات وغيرها، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ والتأثير مختص به بذاته الجليل ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾.

والله سبحانه وتعالى أقسم بكل ذلك على أن مجيء البعث والحساب حق، وحذف المقسم عليه لأنه يدل عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾﴾ أي أن البعث سيتحقق يوم ترجف كل راجفة أي كل ما من شأنه أن يرجف كالأرض والجبال والأشجار والأحجار ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾﴾ أي وإذا رجفت الرواجف السفلية تتبعها الرادفة أي الأجرام العلوية. يعني أنه بعد زلزال الأرض كلها تتزلزل الأجرام السماوية أيضاً ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾﴾ أي شديدة الاضطراب والقلق ﴿أَبْصَٰرُهَا﴾ أي أبصار أصحابها ﴿خَٰشِعَةٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾؟ جملة مستأنفة حاكية لأقوالهم في إنكار البعث. يعني أنا أقسمنا بالأمور السابقة الواقعية على أن البعث الموعود سيتحقق فلا تنظروا إلى أولئك المشركين البسطاء السذَّج يقولون في حال الإنكار للبعث أئنا لمردودون في الحافرة أي في الأرض ذات الحفر أو في المحفورة ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾ أي بالية متفتتة ﴿قَالُوا۟﴾ أي أولئك المشركون ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ أي قالوا تلك الرجعة رجعة خاسرة أي ذات خسارة يعني إن صحت فإنا خاسرون حيث أهملنا واجبنا وكسبنا في سبيل نيل السعادة وأنكرناها حتى جاءنا اليوم بهذه الداهية العظمى ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ أي لا تستعصبوها فإنما هي صيحة واحدة ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ أي فإذا هم أحياء على وجه الأرض يمشون عليها فيعلمون أنه جاءهم الأمر الموعود وهو البعث من القبور للحساب والميزان ثم النشور.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠

رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾؟ أي أليس قد أتاك حديثه حتّى تتسلى به وتعلم أنه ما من إنسان له شأن في خدمة الحق وإرشاد الخلق إلا عارضته الموانع والمفاسد وأصحاب الضلال من الجاحد والحاسد؟ وحديثه وقع ﴿إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ﴾ من شعاب جبل طور، وهو المشهور المعروف بـ﴿طُوًى﴾ وقال له ربه: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ وتجاوز عن حد العبودية بادعاء الألوهية، ولا يفهم أن العبد ذليل أمام المقتدر الجليل ﴿فَقُلۡ﴾ له ﴿هَل لَّكَ﴾ الميل ﴿إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ وتتطهر من الأخلاق الدنية ﴿وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ بأداء الواجبات وترك المعاصي فطلب منه المعجزة ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ وهي قلب العصا الخشبية حية تسعى ﴿فَكَذَّبَ﴾ فرعون موسى ﴿وَعَصَىٰ﴾ ولم يهتم بالحية ولا العصا ﴿ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ﴾ لجمع الناس لتأييده على أنانية الشيطان ﴿فَحَشَرَ﴾ جميع السحرة الموجودين في بلاده ﴿فَنَادَىٰ﴾ فيهم وفي من اجتمعوا حولهم ﴿فَقَالَ﴾ أيها الناس ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ ولا رب سواي وكلكم تحت أمري وقوتي ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾ النكال بمعنى التنكيل كالسلام بمعنى التسليم وأخذ أيضاً فيه معنى النكال أي فنكل الله به وعاقبه نكال الآخرة والأولى أي عقاب كلمته هذه أعني قوله أنا ربكم الأعلى وكلمته الأولى ما علمت لكم من إله غيري أو بالعكس فأغرقه وشتت قومه ومزقه، وأغرق ركبه ثم أحرقه، وجعلهم مثلاً للعالمين ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الحادث المهم الخارج عن العادة الداخل في عقول أهل السعادة ﴿لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ﴾.

﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ خطاب مع الجمع المصدر بهم السورة، وبعد بيان آثار قدرته في دحر أشد أعداء الأنبياء والمرسلين، وهو فرعون فيقول لهم مذكراً ببيان بعض آثار قدرته: أأنتم أشد خلقاً أي أقوى وأحكم ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾؟ التي وردت عليها التصرفات الآتية ﴿بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ أي علاها إلى الفوق بقدر ما تعلقت به قدرته ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ أي جعلها مستوية كاملة حسب حكمته وتقديراته ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أي وأظلم ليلها ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ أي وأبرز نور نهارها، وخص الضحى لصفاء النور فيه وميله إلى التزايد ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ منصوب على الاشتغال أي دحا الأرض ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ أي بسطها ووسعها، فإن بناء أصل مادتها قبل السماء ودحوها قبل ذلك ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا﴾ بتفجير عيونها ﴿وَمَرْعَىٰهَا﴾ أي مواضع الرعي فيها بأن خص بعض المواضع بمزيد النبات والعشب التي ترعى وتعيش منها الحيوانات ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ أي وأرسى الجبال وأثبتها وأحكمها، وفعل ذلك ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ فإن من المأكولات ما هو مشترك بين الإنسان وغيره، ومنها ما يخص الأول، ومنها ما يخص الثاني، ومنشأ الكل عبارة عن الأرض.

والذي ذكرنا لكم متعلق بمعاشكم وانتعاشكم في الدنيا ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ أي الداهية التي هي أعظم الدواهي وهي الساعة، فإنها من طمّ بمعنى علا وفي المثل جَرَى الوادي فطَمَّ عى القُرى، وجاء السيلُ فَطم الرُّكى. وأبدل منها يوم في قوله: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ فهل عنده شيء ينفعه أولاً؟ ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ أي لمن يمكن منه الرؤية كائناً من كان. روي أنها تتكشف مدة من الزمان على أعين الناس حتى يراها كل راءٍ مزيداً في حسرة الكافرين على ما فرطوا، وفي شكر المؤمنين على أنعم الله تعالى عليهم حيث نجاهم من الجحيم وأوصلهم إلى جنان النعيم ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ وتجاوز عن حد الشرع ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أي عظمته وشأنه وهيبته أو أوامره ونواهيه والخزي بين عامة مشاهديه ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أي عن اتباعه والعمل على مقتضاه ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾؟ أي متى إرساؤها أي إقامتها وثبوتها ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾﴾؟ أي في أيّ شيء أنت من أن تذكُرَ لهم وقتَها، ولماذا تقبل سؤالهم لتجيب عنه؟ فإنهم لا يسألونك استرشاداً وإنما يسألون استنكاراً وعناداً. والجواب المسموح به هو أنه ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾ أي العلم بوقتها ونهاية الزمان السابق

على وجودها عائد إلى ربك ومخصوص به، وهذا من الغيب الذي لا يظهر عليه إلا من ارتضى من رسول ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا﴾ أي ما أنت برجل مكلف ببيان المغيبات للناس لا سيما الغيب الذي في بيانه هتك الأستار وكشف الأسرار، وإنما أنت مكلف بإنذار من يخشى مجيء الساعة والحساب والميزان فيه لعله يسترشد بكلامك ويتوجه إلى إطاعة ربه العزيز العلاّم. والساعة تأتيهم بغتة ومفاجأة ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾ أي ولَيْسَ الاهتمام للعاقل الهمام بقرب الساعة وبعدها فإن الساعة آتية لا ريب فيها، وإن زمان العمر، وإن طال جداً فهو لا قيمة له بالنسبة إلى من تأتيه حيث أنه لو بقي ألف سنة في الدنيا فإذا جاءته الساعة تحولت حالته إلى استقلال حياته الألفية وكأنه لم يلبث في الدنيا إلا ساعة من الزمان وكأنهم لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها.

❀ ❀ ❀

سورة عبس

مكيّة، وآياتها اثنتان وأربعون، نزلت بعد النجم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ﴿١٣﴾ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۢ ﴿١٤﴾ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ﴿١٥﴾ كِرَامِۢ بَرَرَةٖ ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾﴾ روي أن عبد الله ابن أم مكتوم وهو ابن خال خديجة رضي الله عنها، واسمه عمرو بن قيس، وأم مكتوم كنية أمّه، واسمها عاتكة بنت عبد الله المخزومية، وتكنيتها بأم مكتوم لكون ولدها عبد الله وُلد أعمى، وقد جاء إلى رسول الله وعنده صناديد قريش: عتبة، وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل، والعباس بن عبد المطلب، وأمية بن خلف، والوليد بن المغيرة، يناجيهم ويدعوهم إلى الإسلام رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم، فقال: يا رسول الله أقرئني وعلمني مما علمك الله تعالى، وكرر ذلك، ولم يعلم انشغاله بالقوم فكره رسول الله ﷺ قطعه لكلامه وعبس، وأعرض عنه. فنزلت، فكان رسول الله ﷺ يكرمه ويقول إذا رآه: «**مرحباً بمن عاتبني فيه ربي**» ويقول: «**هل لك من حاجة**»؟ واستخلفه ﷺ على المدينة فكان يصلّي بالناس ثلاث عشرة مرة كما رواه ابن عبد البر في الاستيعاب فنزل على واقعة سؤاله ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ أي من أن جاءه الأعمى وهو عبد الله ابن أم مكتوم يسأله الإقراء والتعليم ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾﴾ أي يتزكى من أوساخ الجهل ويتطهر بما يتلقن من الشرائع أو يذكر أي يتعظ ﴿فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾ أي ذكرك وموعظتك ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾﴾ عن الإيمان بالله ورسوله وسائر المعارف القدسية

﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦﴾ أي تتصدى وتتعرض بالإقبال عليه والاهتمام بإرشاده وتُتعبُ نفسك لإرشاده ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧﴾ أي ولا بأس عليك في أن لا يتزكى ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨﴾ أي حال كونه مُسْرِعاً طالباً لما عندك من أحكام الرشد وخصال الخير ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩﴾ أي يخاف الله تعالى: ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾ أي تتشاغل عنه وعن تفهيمه.

﴿كَلَّآ﴾ ردع عن معاودة مثل ذلك الإهمال ﴿إِنَّهَا﴾ أي القرآن، والتأنيث نظراً إلى الآيات ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ أي موعظة تذكر الإنسان أحكام الدين ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢﴾ أي القرآن العظيم وقوله: ﴿فِى صُحُفٍ﴾ متعلق بمضمر هو صفة لتذكرة أي مثبتة ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣﴾ عند الله مرفوعة أي مرفوعة القدر ﴿مُّطَهَّرَةٍۭ﴾ أي منزهة عن مساس أيدي الشياطين ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥﴾ أي كتبة للقرآن الكريم ﴿كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾ نعتان للسفرة، والمراد بهم إما الملائكة الكتاب للقرآن الكريم المستنسخون له من اللّوح المحفوظ، أو العلماء المستنسخون للقرآن الكريم بعد نزوله واستقراره في العالم الإسلامي، وهذا إخبار بالغيب لأن القرآن الكريم لم يكن مكتوباً في الصحف كذلك في صدر تاريخ الإسلام، وإنما حدثت كتابته بعدُ كما هو معلوم للمتتبع.

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝٢٢ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ۝٢٣ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٢ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ۝٤٢﴾.

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ دعاء على الإنسان المشرك اللدود الفاسد، يَقول قُتِلَ هذا الإنسان الفاسد ما أكْفَرَه صيغة التعجب أي ما الذي جعله كافراً بأنعم الله تعالى؟ لماذا لا ينظر إلى فرحه بإفاضة نعم الله تعالى عليه التي لا يمكن تعدادها؟

ولم لا ينظر إلى الحقائق؟ لم لا يتفكر أنه من أي شيء خلق ذلك الإنسان المشرك الداعي إلى الكفر والإشراك ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾ لا من غيرها ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ أي هيأه لما يصلح له من الأعمال والأحوال والكيفيات وغيرها ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾﴾ ثم يسر له سلوك سبيل الهدى والرشد بالعقل وإرسال الرسل وإنزال الكتب والأمر بمجاورة العاقلين وصحبة الصالحين الصادقين، ونهاه عن أضداد ذلك فعمل بما اختاره ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾﴾ بأن هيأ أناساً لحمله ودفنه في تربته ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ﴾ في المستقبل ﴿أَنشَرَهُۥ﴾ أي أحياه وبعثه بعد عروض التغيرات على جسده. ﴿كَلَّا﴾ ردع للإنسان عما هو عليه من كفران النعم الكثيرة من لدن خليقة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى يومنا ﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ لم ينجز ما أمره الله تعالى به إلا من شذ وفذ فإن لكل إنسان قصورا في الأعمال أو لم ينجز من أول رشده إلى وقت موته ما أمره الله به بل اشتغل بما يوافق هواه ويخالف هداه.

وإذا كانت النعم الكثيرة السابقة المتوالية على نوع الإنسان كثيرة لا تحصى أو خفية لا تدرك بسهولة ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾ الذي يطعمه لعله يعتبر به ويتذكر حقوق ربه ويتوجه إلى الله الذي رزقه به وقوله: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾﴾ بدل عن طعامه بدل اشتمال لأن أسباب الشيء لها به علاقة تامة وبيانه ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ﴾ من السماء ﴿صَبًّا﴾ مناسباً للإنبات والتنمية ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾﴾ بالنبات النامي من الماء ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ أي في الأرض ﴿حَبًّا﴾ أي زراعة ذات حبّ ﴿وَعِنَبًا﴾ أي وكرما يثمر عنباً ﴿وَقَضْبًا﴾ أي ونباتات رطبة تؤكل بالذات أو بعد المعالجات من جانب الإنسان أو غيره من الحيوان أو كليهما بعادة أهل الزمان ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ﴾ مشتملة على أصناف الأشجار ﴿غُلْبًا﴾ أي عِظاماً ﴿وَفَٰكِهَةً﴾ تؤخذ من الحدائق ﴿وَأَبًّا﴾ أي كلأ يؤخذ مِنَ المَراعي وقوله: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ مفعول له لفعل محذوف مستفاد من الكلام أي خلقنا ذلك متاعاً لكم ولأنعامكم وتعيشون على الأرض كذلك ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾﴾ أي الداهية العظيمة، من صَخَّ بمعنى أصاخَ أي استمع والمراد بها النفخة الثانية. وجواب إذا محذوف أي تبعثون ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾﴾ الملازم له في الحياة ﴿وَأُمِّهِۦ﴾ التي احتضنته في الصغر ﴿وَأَبِيهِ﴾ الذي سعى في إعاشته ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ التي تستريح نفساً بمجاورتها ﴿وَبَنِيهِ﴾ وقوله: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ أي أمر يشغله عن باقي الواجبات، وإذا أردت أن تعرف أحوالهم عند ذلك فاعلم أنه ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ أي مضيئة متهللة ﴿ضَاحِكَةٌ

مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾ أي مسرورة بما تشاهد من النعيم المقيم. ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾﴾ أي غبار وتراب ﴿تَرْهَقُهَا﴾ أي تتراكم عليها ﴿قَتَرَةٌ﴾ كدورة أو سواد وظلمة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الناس أي أصحاب الوجوه التي عليها الغبرة ﴿هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ أعاذنا الله ونجّانا وقَبل دُعاءَنا ورجاءنا.

❁ ❁ ❁

سورة التكوير

مكيّة، وآياتها تسع وعشرون، نزلت بعد المسد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣
وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا
ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ
نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣
عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ إذا ظرف للزمان المستقبل والعامل فيها وما بعدها من المتعاطفات جوابها أعني علمت نفس ما أحضرت. والشمس مرفوع بفعل يفسره كورت لأن إذا الشرطية تطلب الفعل، وكوّرت بصيغة مجهول ماضي باب التفعيل، يعني لُفّت وأديرت، لأن مادة الفعل للإدارة والجمع، والمقصود ذهابها لقيام الساعة ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾ أي انقضت وسقطت. ومنه انكدر البازي إذا نزل بسرعة على ما يأخذه. روي عن ابن عباس أنه قال لا يبقى يومئذ نجم إلا سقط في الأرض. وسرّ ذلك انحلال القوة الجاذبية التي فيها، فلا يبقى دورانها، إذا كانت من السيارات، ولا استمساكها لشخصها إذا كانت من الثوابت ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾ أي أزيلت عن أماكنها من الأرض بالرجفة الأرضية العامة القوية وسيرت في الفضاء بعد أن تمزقت وكانت كالعهن المنفوش. ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ﴾ جمع عشراء كنفاس جمع نفساء وهي الناقة التي أرسل عليها الفحل وأتى عليها عشرة أشهر وقاربت ولادها، وهي من أحب الحيوان إلى أصحابها مع أنها ﴿عُطِّلَتْ﴾ وأهمل أمرها لابتلاء الناس بزلزال الساعة ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ أي الحيوان البَريّ غير المستأنس بالإنسان، وعادتها إذا سمعت صيحة تجمعت مخافة

الإصابة بالأذى ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾ أي أحميت بتأثير البراكين والزلازل الناتجة من أعماق الأرض في كل جهة من جهاتها ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾ أي كل فرد مع من يناسبه وكل طبقة مع ما يوافقها، فالأنبياء مع الأنبياء والصلحاء مع الصلحاء، والأشقياء مع الأشقياء، ولكن هذا إنما هو في الموقف لا في أول الساعة. ومنهم من فسرها بتزويج النفوس مع الأبدان أي أعيدت إلى أبدانها وهذا إنما يكون في النفخة الثانية ويمكن التزامها لأن المقصود من الآيات انتهاء العالم والدنيا ومجيء عالم جديد يسمّى بعالم الآخرة وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾ وهي البنت التي تدفن في الحفرة وهي في حال الحياة سئلت ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾؟ وذلك كناية عن حلول موعد تعذيب الوائدين على ذلك العمل الفاسد ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ﴾ التي كتبت فيها أعمال المكلفين ﴿نُشِرَتْ﴾ لمحاسبتهم على ما فيها ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١﴾ وقلعت وأزيلت عن محلها أي أمحيت وتلاشت ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢﴾ أي أوقدت فالتهبت وطارت شراراتها ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣﴾ أي قربت من المتقين كما قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝٩٠﴾ وإزلافها بمعنى عرضها على المتقين، أو اقتراب وقت دخولها، وهو بعد نهاية حساب الأعمال وقوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾ جواب إذا على أن المراد بها زمان واحد ممتد يسع الأمور المذكورة كلها. أي عند ذلك الوقت علمت نفوس المكلفين بأجمعهن ما أُحْضِرت لهن من الحسنات والسيئات، أو من الجحيم والجنات، أو من الدرجات والدركات.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝٢٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝٢٥ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝٢٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾.

ولما ذكر الباري سبحانه وتعالى أموراً مهمة تحدث من بدء قيام الساعة إلى استقرار الفريقين في المكان المعدّ لهما، وفي ذلك قدرة وعظمة ظاهرة.. أضاف إليهما الإقسام بأوضاع سماوية عجيبة لا يقدر عليها إلا الله القادر المقتدر على الكائنات وجعل المقسم عليه صحة رسالة سيد الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ بإسناد

الكلام المنزل عليه إلى رسوله السفير بينه وبين حبيبه وقال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ وهذه الألفاظ جموع فالخنس جمع خانس بمعنى الراجع من نقطة إلى مبدأ حركته، والكنس بمعنى الكانس أي المختفي المتستر، والجواري جمع الجارية بمعنى المباشرة للحركة والسير.

وهذه الأوصاف، وإن احتملت لأشياء كثيرة لكنها اشتهرت في إسنادها إلى الكواكب الخمسة المشهورة أعني: زحل، وعطارد، والمريخ، والزهرة، والمشتري. فإنها تعرض لها بحسب ما رآها أهل الأرصاد السابقون أحوالاً ثلاثة: الأول سرعة السير، وتسمى في عرفهم بالاستقامة. والثاني الوقوف في بادىء النظر ويسمى بالإقامة. والثالث الرجوع يعني بينما يراها الرائي تتحرك نحو المغرب بتغير اتجاهها وتتحرك نحو المشرق ويسمى بالرجوع، فعبارة الخنس جمع خانس بمعنى الرواجع، وعبارة الكنس جمع كانس بمعنى الواقفات، وعبارة الجواري جمع الجارية بمعنى السائرات سيراً محسوساً ملحوظاً. وسر تلك الأحوال مذكور في علم الهيئة، ولا يفهمه إلا علماؤها وهو بالنسبة إليهم شيء بسيط. والمعنى المقصود هو أن الله تعالى يقول فلا أقسم بالكواكب الخنس الرواجع من اتجاه حركاتها في بعض الأوقات والجواري السريعة في بعض الأوقات، والكنس الواقفات بحيث يراها الناظر إليها بالرصد كالواقف.

﴿وَٱلَّيۡلِ﴾ أي ولا أقسم بالليل ﴿إِذَا عَسۡعَسَ﴾ أي أقبل بعد ضوء النهار واستولت ظلمته على سطح الكرة ﴿وَٱلصُّبۡحِ﴾ ولا أقسم بالصبح ﴿إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي ظهر منه نسيم كنفس له يستريح عنده الناس، والمقسم عليه قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي القرآن الكريم ﴿لَقَوۡلُ رَسُولٖ﴾ بين الله وبين عباده المرسلين ﴿كَرِيمٖ﴾ ذي كرامة عنده ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ بخلق الله كما وصفه بشديد القوى ﴿عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾ أي ذي مكانة واحترام عند صاحب العرش وهو الله تعالى، وإسناد القول إليه على وجه السفارة بين الله وبين الرسل وإلا فالقرآن كلام الله تعالى المكتوب في اللوح بنقوش كتابته الموجودة عند الله بالصورة العلمية الأزلية، لا علاقة ولا دخل فيه لغيره تعالى لا للملائكة ولا الجن والإنس، وكل نجم من نجومه نزل به جبريل الأمين، إما أخذه من بيت العزة بأمره تعالى، أو أخذه من اللوح، أو تلقاه روحياً من الله الكريم وقوله: ﴿مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ٢١﴾ صفتان لرسول معناه أن ذلك الرسول مطاع للملائكة بأمر الله وأمين على الوحي والتبليغات إلى الرسل ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ٢٢﴾ أي وكما أن القرآن قول

بلغه الرسول السفير وهو جبريل ليس صاحبكم الذي نزل عليه ذلك القرآن بمجنون أي بمختل العقل.

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾ أي ولقد رأى محمد صاحبكم ذلك الملك الكريم بالأفق الأعلى المبين الواضح ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي صاحبكم أي سيدنا محمد ﷺ ﴿عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ أي على بيان الوحي المنزل بالغيب ﴿بِضَنِينٍ﴾ بخيل يبلغ بعضه ويترك تبليغ بعضه، وإنما هو أمين عليه فيبلغه آية فآية وجملة فجملة. وقرأ بعضهم (بظنين) بالظاء المعجمة المشالة، أي وما هو على إلقاء القرآن في الغيب بظنين أي بمتهم، ولا يجوز أن يتهم، وليس بمقام التهمة ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ أي وما هو بقول واحد من الشياطين الأفاكين المتقوّلين المسترقين للسمع، ولا بقول شيطان رجيم أعني إبليس، فإنه إبليس المطرود من ميدان الرحمة والتقديس ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾؟ وأين استضلال لهم فإن كلام الشياطين يدعو للاعوجاج والانتهاج شرّ المنهاج وهذا القرآن يدعو إلى صراط الله العزيز الحميد.

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي وما هو أي القرآن الكريم ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي ذكر لله من العالمين يذكرون الله تعالى بتلاوته وبالعمل بما فيه من الأحكام، أو ما هو إلاّ ذكر وتذكّر وموعظة وعبرة وإرشادٌ للعالمين ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ على الصراط المستقيم ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ الاستقامة لسبب من الأسباب ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مشيئتكم وتقدم مشيئته تعالى على مشيئة المكلفين مبنيّ على ما قررنا في آخر سورة الإنسان وهو أن الله تعالى علم في الأزل أن عبده الفلاني يتوجه إلى الأعمال الصالحة ويختار ذلك ويشاؤه في المستقبل، فلما جاء وقت تحقق تلك المشيئة تقدمت مشيئة الله تعالى على مشيئته لأن الإنسان ليس بخالق وإنما هو كاسب بصرف الإرادة إلى أعماله المعلومة لله أزلاً فيبادر الباري بالمشيئة فيشاء هو فيتبعه تبعية ذاتية بتأخر ذاتي مشيئة العبد لعمله المحكي في علم الله الأزلي والله هو الموفق والمعين.

❀ ❀ ❀

سورة الانفطار

مكيّة وآياتها تسع عشرة، نزلت بعد سورة النازعات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣
وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ
ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨
كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا
تَفْعَلُونَ ۝١٢ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ
۝١٥ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ۝١٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ
ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝١٩﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١﴾ أي انشقت لنزول الملائكة كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ ويوم القيامة لا تبقى السماء ولا كواكبها ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢﴾ أي تساقطت متفرقة كالدراري المنتشرة ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣﴾ أي وإذ سجرت فغلت وفارَت وفاضت ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤﴾ أي قلب ترابها الذي سترته الأموات ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾ أي علمت كل نفس عند ذلك ما قدمته أو أخرته وتركته من الأعمال.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦﴾؟ أي ما الذي خدعك وجعلك مغروراً في مقابل أوامر ربك ونواهيه، فلا تهتم بها ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾ الرب الذي إذا تأملت قليلاً علمت أنه هو الذي خلقك من مادة حقيرة فطوّرها وجعلها أساساً لخلقك بهذه الصورة والسيرة ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾ بأن جعل أعضاءك سوية سليمة متناسبة قابلة لاستفادة ما خلق لها منها ﴿فَعَدَلَكَ﴾ أي فساوى برعاية النسبة بين أعضاء بدنك

ورجليك، وخديك، وشفتيك، وعينيك، وأذنيك.. وإلا لو جعل إحدى يديك أطول من الأخرى، وإحدى رجليك أقصر من الأخرى، وإحدى عينيك صغيرة كخرزة والأخرى كبيرة طافية كعنبة، أو إحدى أذنيك مساوية للرأس والأخرى عالية متدلية لرأيت منك أعجوبة يضحك منها والناس يفدون عليها للتفرج بالنظر إليها.

وقوله: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ أي وركبك في صورة إنسان ما لا على التعيين بحسب اقتضاء مشيئته وحكمته وإلا فلو جعلك على صورة شخص آخر بحيث لا تتمايزان لاختلفت الأفكار واختل الحساب والميزان.

﴿كَلَّا﴾ ردع من الاغترار أي ليس الأمر على الاغترار مع بقاء الإيمان بالجبار والقادر القهار ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ أي بجزاء الأعمال والعدالة في الموازين وسره التكذيب بوجود رب العالمين، أو بوجود نظام إلهي أرسلَه مع المرسلين.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾﴾ أي والحال أنه مع تكذيبكم بيوم الجزاء للأعمال قد قرر الله عليكم ملائكة حافظين وضابطين لأعمالكم ﴿كِرَامًا﴾ لدينا ﴿كَٰتِبِينَ﴾ لها ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ قليلاً كان أو كثيراً. وفي ذلك تجهيل وتسفيه المشركين حيث أنهم يكذبون بالجزاء وكتّاب أعمال الجزاء يلازمونهم. ثم إن هؤلاء الحافظين غير المعقبات في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ فمع الإنسان عدد من الملائكة. روي عن عثمان أنه سأل رسول الله ﷺ: كم من ملك على الإنسان؟ فذكر عليه الصلاة والسلام عشرين ملكاً.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ استئناف مسوق لبيان نيتجة الحفظ والكتابة. وخلاصة ذلك أن الأبرار أي المحسنين، وكذا المحسنات، لفي نعيم الجنة، وأن الفجار أي الخارجين من طريق الدين وكذا الخارجات لفي جحيم ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾﴾ أي يدخلون أولئك الفجار الجحيم يوم الدين أي يوم القيامة ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا﴾ أي عن الجحيم ﴿بِغَآئِبِينَ﴾ والمراد بذلك استمرارهم ودوامهم في تلك المحنة العظيمة ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾، بطريق القوة والنصر كما يدعيه الكفار المشركون من إسناد العفو القسري إلى أصنامهم ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ أي والحكم النافذ يومئذ لله لا لغيره قطعاً.

وليس في هذه الآية الكريمة نفي الفاعة ومنفعتها لأهل الاستحقاق فإنها تنفي

نفي الملك والسلطة لأي واحد على إيصال المنفعة لغيره والشفاعة ليست مبنية على استعمال السلطة والقوة في إنفاع الغير، وإنما هي دعاء واستغفار واستعفاء. وقد دلت الأحاديث الكثيرة على وجودها ومنفعتها في مواضع كثيرة، كما هو مذكور في فتح الباري وغيره من الكتب المعتمدة. ونسأله تعالى قبول شفاعة حبيبه سيدنا محمد ﷺ صاحب الكرم والجود والمقام المحمود وعلى آله وصحبه وأتباعه الصلاة والسلام.

❀ ❀ ❀

سورة المطففين

مكيّة، وآياتها ست وثلاثون
نزلت بعد العنكبوت وهي آخر سورة مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾﴾ الويل شدة الشر والهلاك وواد في جهنم، وهو مبتدأ وسوغ الابتداء بالنكرة وقوعها في موقع الدعاء، وللمطففين خبره. والمطففون هم ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ لأنفسهم ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ أي يأخذونه وافياً كاملاً ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾ أي كالوا لهم المكيل ﴿أَو وَّزَنُوهُمْ﴾ أي وزنوا لهم الموزون ﴿يُخْسِرُونَ﴾ أي يخسرونهم، أي يجعلونهم في خسارة، أي يعطونهم ناقصاً. فيزجرهم الباري تعالى عن هذا العمل الفاسد ويقول: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؟ لا يقادر قدر عظمه ويحاسبون على أعمالهم، فالظن بمجيء ذلك اليوم، وإن كان ضعيفاً كاف لردعهم عن هذا العمل السّخيف، فضلاً عن أن يكون ظناً صاعداً إلى اليقين، وذلك ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ الذي لا تخفى عليه خافية وهو شديد القوة وسريع الحساب.

وصح من رواية الحاكم والطبراني وغيرهما عن ابن عباس ﵄ وغيره مرفوعاً: «**خمسٌ بخمس» قيل: يا رسول الله وما خمسٌ بخمس؟ قال: «ما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوهم وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت. ولا طففوا الكيل إلا مُنِعوا النباتَ وأخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلا حُبس عنهم القطر**».

﴿كَلَّآ﴾ ردع عما كانوا عليه من التطفيف ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ في موضع التعليل للردع ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ وسجّين عَلَم لكتاب جامع وهو ديوان الشرّ دُوِّنَ فيه أعمال الفَجَرَة من الثقلين ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾ متجاوز عن حدود الله كثير الإثم. ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾ الناطقة بوجوب اتباع الحق ورعاية العدالة والشعور بمسؤولية العباد أمام الله ﴿قَالَ﴾ من فرط غباوته وشدة شقاوته: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي حكايات الأولين ولا يفهم أن الحق كيف كان يجب اتباعه في كل زمان ومكان فضلاً عن أن يبلغه رسول من خالق الكائنات مؤيد بالمعجزات.

﴿كَلَّآ﴾ ردع لذلك ولأمثاله عن القول بالباطل ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ أي ركبها وتراكم عليها كأوساخ ترسخت ﴿مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ ولا يزالون يكتسبون ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ لا يرون ربهم ولا يخلّون أن يَرَوه مع أنه حاضر ظاهر ويراه أهل الأبصار بالعيون والبصائر ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ﴾ علاوة على عذاب الحجب عن رؤية الربّ ﴿لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي لداخلون قسراً وقوة في الجحيم ليتشرفوا برؤية النار وإدراك العذاب للأشرار ﴿ثُمَّ يُقَالُ﴾ لهم ﴿هَٰذَا﴾ المحل هو ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ فذوقوا العذاب الدائم الأليم مع الغساق والحميم بما كنتم تكتسبون.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ

﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله: ﴿كَلَّآ﴾ تكرير للردع السابق حتى يبقى الاتعاظ به في قلب المسلم الصادق ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ أي المؤمنين المحسنين للأعمال ﴿لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ أي كتاب مكتوب فيه أعمال جميع المحسنين من الثقلين و﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي يحضر عند تثبيت أعمال المحسنين فيه الملائكة المقربون من الله تعالى. والظاهر من قوله ﷺ: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار**» أن أولئك الملائكة هم الكرام الكاتبون ويتعاقبون بالليل والنهار فجمع يأتون صباحاً يبقون عند العبد إلى المساء فتأتي ملائكة الليل وتصعد ملائكة النهار إلى المحل المعين فيقدمون كتاب الأعمال الحسنة إلى جمع من مقربي الملائكة فيثبتون تلك الأعمال في عليين وهو علم لديوان الخير الجامع للخيرات. وإذا كانت من السيئات سلمت إلى الملائكة المأمورين على السجين فأثبتوها فيه. وفي لفظ العليين آراء والظاهر أنه جمع للمذكر العاقل كالصديقين جمع للصديق، وكان وصفاً للمبالغة في علو جمع من الصلحاء ومفرده علّيّ بكسر العين وتشديد اللام والياء من العلو، كسر فاؤه، وضعف عينه، وقلب ياؤه واواً، وأدغم فيه على القاعدة وجمع بالواو والنون حسب الأصول، ثم أطلق على كتاب الأعمال الحسنة تسمية للكتاب باسم أصحابه.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ بيان لمحاسن أعمالهم فيقول: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ﴾ أي أصحاب البر والحسنة ﴿لَفِي نَعِيمٍ﴾ الجنة متمكنون فيه تمكن المظروف في ظرفه ويقعدون ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ جمع أريكة بمعنى الكرسي ﴿يَنظُرُونَ﴾ أي إلى ما يرغبون في منظره من الحور، أو باقي الرغائب حال كونهم ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ أي بهجة وحسناً وجمالاً يحدث من اللقاء بالنعيم ﴿يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ﴾ أي كأس خمر ﴿مَّخۡتُومٍ﴾ لم يَمَسّ شفاهَ الكأس غيره من الناس و﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞ﴾ أي والذي سدّ به أفواه الكؤوس من مادة المسك لتعطير الرحيق ﴿وَفِي ذَٰلِكَ﴾ أي وفي نيل ذلك والحصول عليه ﴿فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ لا في نيل المواد الدنيوية الدنية أعلاها تورث الرذيلة وتجعل النفوس مريضة عليلة ﴿وَمِزَاجُهُۥ﴾ أي والماء الذي يجعل مزيجاً لذلك الرحيق ﴿مِن تَسۡنِيمٍ﴾ حال كونه، أو أعني ﴿عَيۡنٗا﴾ في الجنة ﴿يَشۡرَبُ بِهَا﴾ أي منها ﴿ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ السابقون.

ثم يستعرض أحوال الكافرين في الدنيا حتى يبين جزاءهم في الآخرة بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ﴾ أي جاؤوا بالإجرام ومباشرة قبائح العمل من رؤوساء المشركين كأبي جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وأشياعهم ﴿كَانُواْ﴾ في الدنيا ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ﴾ استهزاء بهم ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ﴾ أي مر المؤمنون بالمجرمين ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ بينهم أي يغمز بعضهم بعضاً ويشيرون بأعينهم إليهم ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾﴾ أي متفكهين متلذذين باستخفافهم بالمؤمنين ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾﴾ طريق العيش السعيد ولا يفهمون الدنيا ومتاعها ﴿و﴾ الحال أنهم ﴿مَآ أُرْسِلُواْ﴾ أي المجرمون ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي على المؤمنين ﴿حَٰفِظِينَ﴾ عليهم أحوالهم ولا علاقة لهم بهم، فليس من حقهم أن يتكلموا بنقدِهم وفقدِهم ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ وهو يوم القيامة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ورسوله في الدنيا ﴿مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ أي يضحكون منهم ويسخرون بهم جزاء لما سخروا بهم في الدنيا ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ أي هم على الأرائك أو ﴿يَنظُرُونَ﴾ إلى المجرمين متفرجين على الأرائك وقوله: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾؟ إما كلام المؤمنين في شأن المجرمين، أو كلام الباري سبحانه، وعلى أيّ الحالين فالجواب: نعم ثوّب الكفار ما كانوا يفعلون. كما ثوب المؤمنون بالجنة والأرائك، والجواب ألذّ وأنعَم، والله أعدل وأحكم.

❀ ❀ ❀

سورة الانشقاق

مكيّة، وآياتها خمس وعشرون، نزلت بعد الأنفطار

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝١٥﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾ أي بالغمام ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ۝٢٥﴾. ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ أي استمعت لربها وأطاعت ﴿وَحُقَّتْ﴾ أي جعلت حقيقة بالاستماع والإطاعة ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣﴾ أي بُسطت وتَوَسَّعَت باندكاك الجبال عليها ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾ من الدفائن والكنوز، أو من سائر المواد الثقيلة، فإن الزلزال يحول باطن المتزلزل إلى ظاهره ﴿وَتَخَلَّتْ﴾ عنها ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢﴾ كررها للتأكيد، وجواب إذا محذوف يدل عليه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ أي ساع إلى ربك لنيل جزاء الأعمال فملاقيه أي فتلقى ربك سواء قصدت ذلك أو لم تقصد، فإن الله خلق الجنّ والإنس ليَعْبدوه، ولا بد أن يحشروا ليوم لا ريب فيه، فمن عمل بما خلق له من الطاعة أخذ أجر البضاعة ومن لم يعمل كما أمر أخذ وزر المخالفة والإضاعة كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ والحساب اليسير هو السهل الذي لا مناقشة فيه كما قيل، وفسره عليه الصلاة والسلام بالعرض وبالنظر في الكتاب مع التجاوز، فقد أخرج الشيخان والترمذي

وأبو داود عن عائشة أن النبيّ ﷺ قال: «**ليس أحد يحاسب إلا هلك**» فقلت: يا رسول الله جعلني الله فداك أليس الله تعالى يقول: فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً؟ قال: «**ذلك العرض يعرضون، ومن نوقش الحساب هلك**» وأخرج أحمد والحاكم وصححه عن عائشة ﵂ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في بعض صلاته: «**أللهمّ حاسبني حساباً يسيراً**» فلما انصرف عليه الصلاة والسلام قلت: يا رسول الله ما الحساب اليسير؟ قال: أن ينظر في كتابه فيتجاوز له عنه.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾﴾ أي يؤتاه بشماله من وراء ظهره، قيل: تغلّ يُمناه إلى عُنُقه، وتجعل شمال وراء ظهره، فيؤتى كتابه بشماله ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾﴾ ويقول: يا ثبوراه! وهو الهلاك ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ﴾ في الدنيا ﴿مَسْرُورًا﴾ بالمال والجاه كفراً وبطراً ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾ أي لن يرجع إلى الله تعالى بعد موته ﴿بَلَىٰٓ﴾ إيجاب لما بعد لن ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ عالماً بحركاته وسكناته وأعماله ونياته.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾﴾ الحمرة التي ترى في الأفق بعد غيبوبة الشمس، وعن أبي حنيفة ﵀ أنه البياض الذي يليها ﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾﴾ أي وما جمعه من الحشرات والدواب تدخل أكنافها ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾﴾ أجزاؤه وأطرافه وتم نوره، وهو فيما إذا كان بدراً ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾ أي حالاً بعد حال وشدة بعد شدة. والصيغة بضم الباء جمع للمذكر المخاطب، فإن كان المراد جماعة من الإنسان مطلقاً فالمراد مراتب من الشدة بعد المراتب وهي الموت وأهوال البرزخ والبعث والحشر والحساب والميزان والصراط، أو المراد تلك المراتب وما قبلها من الشدائد في الدنيا من المرض والفقر والذل والغربة والكربة والأذى. وإن قرىء بفتح الباء خطاباً للرسول ﷺ فالمراد إما شدائد نالها من الكفار والمعاندين من إيذاء نفسه وإيذاء أتباعه ثم إخراجه وعشيرته إلى شعب أبي طالب ثم هجرته وغيرها

مما أصابه ﷺ. ويجوز أن يراد بالطبق بعد الطبق المراتب العالية التي نالها في أيام نبوته ورسالته ككثرة الأتباع، وانتشار دينه في الآفاق، وفتحه لمكة وغيرها من الأماكن وبقاء دينه وعدم اجتماع أمته على الضلال ونزول القرآن عليه. والمقصود بالآية تقوية داعي الرسول ﷺ وتأييد معنوياته في خدمة الإسلام. يعني كلما مر عليك الزمان فأنت في حال أقوى من الحال السابق ﴿فَمَا لَهُمْ﴾ أي لهؤلاء الكفرة المشركين ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾؟ بالله ورسوله وبيوم القيامة الذي فيه الحساب ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ۩﴾ سجود التعظيم لله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي بيوم القيامة بل بالقرآن الذي فيه جميع المهمات ومنها يومها ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾ منهم ﴿بِمَا يُوعُونَ﴾ أي بما يضمرونه في صدورهم من الكفر بالله ورسوله ووضع العثرات في طريق وصوله. ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي قل لهم استهزاء: أبشروا بعذاب أليم يأتيكم من الله العليم ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾﴾ غير مقطوع والاستثناء منقطع.

❁ ❁ ❁

سورة البروج

مكيّة، وآياتها اثنتان وعشرون، نزلت بعد الشمس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ① وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ② وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ③ قُتِلَ أَصْحَابُ
الْأُخْدُودِ ④ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ⑤ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ⑥ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ
بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ⑦ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ⑧ الَّذِي لَهُ
مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ⑨ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ⑩ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ⑪﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ①﴾ أي أقسم بالسماء المحتوية للبروج الإثني عشر المعروفة للحساب، التي تحتوي على ثلاثمائة وخمس أو ست وستين يَوْماً بميزان السنة الشمسية البادئة من الربيع: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت. ﴿وَ﴾ أقسم بـ﴿الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ وهو يومُ القيامة اليوم المستمر الذي لا ليل فيه، والأرض تشرق بنور الله وتستمر بإرادة الله، ويوم قيام الساعة، ويوم البعث، ويوم الحشر، ويوم الحساب والميزان، ويوم استقرار أهل الإيمان في الجنان، ويوم دخول أهل العذاب في النيران. كل ذلك بعض من الأوقات وداخل في اليوم الموعود، ويسمّى بيوم القيامة، لأنه يوم قيام المكلفين إلى نيل الجزاء ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ③﴾ فسر الشاهد بمن يحضر في ذلك اليوم، والمشهود بما يقع فيه من الأحوال والأهوال والإذلال والإجلال والإدبار والإقبال. ويفسر الشاهد بالرسول الشاهد على أمته بالإطاعة والعصيان، وبرسولنا محمد ﷺ الشاهد على الصدق لأولئك الشهداء الشرفاء قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ

وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أو الشاهد على صدق أمة نفسه في الشهادة على الأمم كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ وفي قوله الكريم: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾ ويجوز أن يراد بالشاهد كل من يرى ربه يوم القيامة، وبالمشهود ذاته الكريم.

وقوله: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ۝٤﴾ بتقدير ﴿لَقَدۡ﴾ جواب القسم أي لقد قتل أصحاب الأخدود، أو الجواب محذوف أي لقد قتل المشركون المعاندون لك كما قتل أصحاب الأخدود، فقد قتل صناديد الإشراك في بدر الكبرى كما قتلوا في وقت إهلاكهم، والأخدود جمع خد بمعنى الشق.

روي مرفوعاً أن ملكاً كان له ساحر فلما شاب ضم إليه غلاماً ليعلمه السحر مخافة أن يموت ولا يبقى الساحر في بلده، وكان في طريق الغلام راهب، فمال إليه قلبه، وآمن بالله العظيم على توجيهاته. فرأى في طريقه يوماً حية قد حبست الناس عن المرور، فأخذ الغلام حجراً وقال: اللهم إن كان الراهب أحب إليك من الساحر فاقتلها فقتلها. وكان الغلام بعد يبرىء الأكمه والأبرص بإذن الله. وعمي جليس الملك فدعا له وشفاه الله ورد عليه بصره، فسأله الملك عمن أبرأه فقال: ربي. فغضب الملك فعذبه، فدل على الغلام، فعذبه فدل على الرّاهب، فقده بالمنشار! وأرسل الغلام إلى جبل ليطرح من ذروته فدعا، فرجف بالقوم فهلكوا ونجا، وأجلسه في سفينة ليغرق، فدعا فانكفأت السفينة بمن معه فغرقوا ونجا، فقال للملك: لست بقاتلي حتى تجمع الناس وتصلبني، وتأخذ سهماً من كنانتي، وتقول: بسم الله رب الغلام ثم ترميني به، فرماه فوقع في صدغه فمات، فآمن الناس برب الغلام. فأمر بأخاديد أوقدت فيها النيران، فمن لم يرجع منهم طرحه فيها، حتى جاءت امرأة معها صبي، فتقاعست فقال الصبي: يا أماه اصبري فإنك على الحق! فاقتحمت.

وقوله: ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ۝٥﴾ بدل من الأخدود بدل الاشتمال، والوقود هو الحطب الموقد به النار ﴿إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ۝٦﴾ قاعدون ﴿وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ۝٧﴾ يشهد بعضهم لبعض عند الملك بأنهم لم يقصروا فيما أمروا به، أو يشهدون على ما يفعلون يوم القيامة ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ أي وما أنكروا منهم ﴿وَهُمۡ عَلَىٰ

مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾ أي العذاب الزائد في الإحراق بفتنتهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾ لأن الدنيا حقيرة بالنسبة إليها.

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ البطش الأخذ بالصولة، أي إن أخذ ربك لشخص أو صنف أو نوع لشديد لا يستهان به ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ جملة استئنافية ويستفاد منها التعليل للجملة الأولى، أي ووجه كون بطشه شديداً أن الله هو المبدىء للموجودات والمعيد لها بعد إماتتها، وكل من كان له قدرة كذلك فإذا أراد الأخذ والانتقام كان أخذه وانتقامه شديداً جداً ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ أي لمن يشاء ﴿الْوَدُودُ﴾ المحب كثيراً لمن أطاعه ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾ العظيم في ذاته عزَّ وجلَّ وصفاته ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ لا يتخلف عن إرادته أي مراد ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾؟ أي الجنود الذين أخذناهم بذنوبهم ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾﴾ أي جنود فرعون وقوم ثمود، فإن جنود الطرفين كانت كثيرة مع أنه لما أراد إهلاكهم أهلكهم ولم تفدهم الجنود ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من قومك ﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾ لك ولما جئت به ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴿٢٠﴾﴾، رد لتأثير كفرهم وعنادهم فيقول إن الله محيط بهم من أمامهم وخلفهم ولا ينفلتون من قدرته أبداً ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ أي أعرض عن ردهم وتكذيبهم فأولئك لا قيمة لهم فإن القرآن المنزل عليك قرآن مجيد شريف عظيم القدر وهو ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾ ذلك اللوح عن تعرض أي مفسد له هناك، والآيات المنزلة منه أيضاً محفوظة، إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون.

❀ ❀ ❀

سورة الطارق

مكيّة، وآياتها سبع عشرة، نزلت بعد سورة البلد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝١١ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ۝١٢ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ۝١٤ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ۝١٧﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾ المراد به معلوم، وقيل: المراد هو المطر ﴿وَٱلطَّارِقِ﴾ أي الكواكب البادية بالليل ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾ أي هو النجم الخارق بضوئهِ حجاب الظّلام، وجواب القسم قوله: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤﴾ يعني إن الخالق الذي قدر أن يخلق سماوات متعددة أثيرية ويخص كلاً منها بصفات وآثار، ويزين السماء الدنيا منها بكواكب لامعة وأنجم ثاقبة تخرق حجاب الظلمة في الجو وتجعل في جو السماء الأثيرية شهباً ونيازك نارية مستطيلة بحيث تكون كحجر العثرة في طريق الصواريخ والصواعد العلوية، ولا تجتاز طريقها إلا بسلطان وقوة فوق تلك القوى قادر على أن يخلق لكل نفس منفوسة حافظاً لها يحفظها ويحرسها، وإلا فالإنسان النائم في محل خالٍ يمكن دخول الحشرات والهوام في منافذ رأسه من الأذنين والفم والأنف ويبتلى بكثير من الآلام والأسقام.

وكلمة ﴿إِن﴾ في صدر الآية الكريمة نافية، و﴿لَمَّا﴾ بمعنى إلا أي ما كل نفس إلاّ عليها حافظ. أو مخففة من الثقيلة، ولام لما للتأكيد، وما زائدة أي أن كل نفس لعليها حافظ، أو ما موصولة وعليها صلتها، وحافظ خبر أي إنه كل نفس

للذي يراقب وحارس عليها حافظ له من الأذى إلى وقت مقدر معلوم، وهذا الحافظ يحفظها كما في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ وكما في الحديث المروي عن أبي أمامة عن النبيّ ﷺ قال: «**وكل بالمؤمن مائة وستون ملكاً يذبون عنه كما يذب عن قصعة العسل الذباب**» وبعض الناس فسره بالحافظ لأعماله أي من الكرام الكاتبين الذين يكتبون ما يعلمه وهذا أو ذاك مبني على جريان سنة الله في الكون بقاعدة الأسباب وإلاّ فالله عالم بكل شيء ولا يحتاج إلى الكرام الكاتبين لضبط أعمال العباد، وقادر على صيانة كل شيء فلا يحتاج إلى إرصاد الحراس والحفاظ لأيّ حيّ. وما دام الله سبحانه ترحم على عباده بإرسال الحفاظ الحراس إليه فليتق الإنسان ربّه ولا يغتر بنفسه وبسلامة بدنه وكثرة ماله أو جاهه أو أولاده، وليتفكر في مبدئه ومعاده.

﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦﴾ أي ماء المني الذي هو ذو دفق وذو حركة في الخروج من محله، أو مدفوق منه ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ﴾ أي من بين أجزاء صلب كل رجل ﴿وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ أي ومن بين ترائب كل امرأة أي عظام صدرها، وهي جمع تريبة، وتوجد لكل امرأة تريبة واحدة لكن جمعت باعتبار ما حولها منها. ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ۝٨﴾ أي كما أنه خلقه من ماء كذلك ورباه وأعاشه مدة من الزمان وأماته كذلك على رجعه وإحيائه بعد الموت وبعثه من القبر لقادر وذلك الرجع ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ أي يتعرف ويتصفح السرائر أي ما أسر في القلوب من العقائد والنيات وما أخفي من الناس من الأعمال وما لا يعلمه إلا الله ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ۝١٠﴾ أي فما لذلك الإنسان الراجع عن رجوعه وحساب أعماله ووقوعه في تهلكة العقاب والعذاب من قوة يمتنع بها ولا ناصر خارج ينصره وينتصر به ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ۝١١﴾ أي المطر أو النبات الراجع في المواسم على عروقها ﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ۝١٢﴾ والانشقاق لنبات النوابت، أو لانفجار العيون والأنهار، أو لإبراز المعادن السيالة. أي أقسم بخالق تلك المخلوقات على تلك الأوصاف ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي القرآن المنزل عليك ﴿لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ﴾ أي فاصل بين الحق والباطل. أو قول مفصول مقطوع به ليس محل الشكوك والأوهام، وما هو بالهزل أي بما يتكلم به في اللهو، وإنما هو جد وبيان من الله وشفاء لما في الصدور ﴿إِنَّهُمۡ﴾ أي إن كفار مكة ﴿يَكِيدُونَ كَيۡدٗا﴾ أي يعملون المكائد لإطفاء نور الإسلام بكل اهتمام ﴿وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ۝١٦﴾ أي وأنا أقابلهم بكيد وكيدي متين. ونسبة الكيد إلى

الباري للمشاكلة، وإلا بالكيد لا ينسب إليه بالحقيقة، فإن الكيد عمل دقيق خفي المدرك يباشر للوصول إلى الظفر بالعدو، والله تعالى قادر على كل شيء في كل لمحة وأوان ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ولا تشتغل بالانتقام منهم حتى تعلم كيف أكسرهم من الفقرات وأنصرك عليهم في الكائنات. ولما كان الأمر مطلقاً ولم يقيد بزمان قريب، وذلك مما لا يطاق الصبر له أوضحه بقوله: ﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ أي أمهلهم إمهالاً قريباً قليلاً فلم يلبث ﷺ كثيراً حتى وجد الله تعالى نصيراً ورأى يومها على الأعداء عسيراً.

❁ ❁ ❁

سورة الأعلى

مكيّة، وآياتها تسع عشرة، نزلت بعد سورة التكوير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣
وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ
إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ
مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا
وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ
ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ
وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾.

قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ أي نزه اسم ربك الأعلى أي اسم كان عما لا يليق به فلا تؤول مما ورد منها شيئاً من غير مقتض، ولا تطلقه على غيره سبحانه وتعالى إذا كان من الأسماء المختصة، ولا تستعمله في مقام يغتاظ الناس من استعماله، ولا تحلف به إذا كان في صدق حلفك شبهة. ولا تحمله معك إذا دخلت الخلاء، ولا تستعمله في الدعاء بالشر على من لا يستحقه ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾ أي خلق ما خلقه من العلويات أو السفليات فسوى خلقه وأبرزه كما تقتضيه الحكمة. والموصول مع صلته صفة ثانية للرب، كما أن الأعلى صفة أولى له ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ أي جعل الأشياء على مقادير مخصوصة فهدى أي فوجه كلاً منها إلى ما يناسبه فهدى الإنسان إلى معرفة الخالق والمخلوق وعيش إنساني محترم والحيوان إلى طريق العيش ورعاية الشؤون اللازمة لنفسه ولأولاده وهدى النبات إلى طريق استفادة الرطوبة لعروقه والرياح لأغصانه ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤﴾

أي النبات الذي هو محل الرعي للحيوانات ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾ أي فجعله حشائش يابسة لا قوة لها ولونه بالسواد أو لون يضرب إلى السواد، وقال بعض أسمر، ومن جزئيات ما هدى الإنسان بل أشرف نوع الإنسان إليه ما أفاده بقوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾ أي سنقرئك ما يوحى إليك الآن أو في المستقبل على لسان الملك جبريل فلا تنسى ما تأخذه منه وكرره وراعه حق الرعاية لفظاً وتلاوة وتطبيق أحكام، فإن الألفاظ للمعاني والمعاني لنيل المقاصد ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن تنساه من سهو البشر أو بسبب نسخ جاء على تلاوته ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ من أمورك وغيرها ويعلم ما يوافق الحكمة من التذكر والنسيان.

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨﴾ أي ونوفقك توفيقاً مستمراً للطريقة اليسرى في كل باب من أبواب الدين علماً وعملاً وتعليماً وهداية واهتداء. وكان عليه الصلاة والسلام يختار من الأمور أيسرها ويقول: «**أنا وأمتي براء من التكلف**» ﴿فَذَكِّرْ﴾ الناس بالواجبات والمحرمات وسائر الأحكام ونيل الجزاء عند اللقاء يوم القيامة ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ وأما إذا صادفت كافراً عنوداً أو إنساناً فاسداً حسوداً، أو جاهلاً عدواً لدوداً فلا تذكره لأنه كلما ذكرت استدبر وكلما عظمت أيام الله استصغر. والإنسان قسمان سعيد يخشى ربّه ولا يترك دربه، وشقي ينسى ربه ولا يخشى ضربه. ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠﴾ ويتعظ بوعظك وإرشادك ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أي الشديدة الالتهاب وهي الدرجة السفلى ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ ليخلص ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ ليستأنس فيبقى في النار المسعرة الملتهبة حسبما شاء الله ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤﴾ أي تطهر عن أوساخ الكفر والشرك ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ﴾ بلسانه وأدى العبادة بإحسانه ﴿فَصَلَّىٰ﴾ الصلوات الخمس على مقتضى الشرع وبيانه ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦﴾ إلتفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧﴾ فطوبى لمن اهتدى إلى الصواب ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي ما ذكر من أول سورة الأعلى إلى هنا ﴿لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ والأنبياء إخوة أشقاء في أصول الدين فما عندهم فهو عندك، وما عندك فهو عندهم بلا تفاوت.

❀ ❀ ❀

سورة الغاشية

مكيّة وآياتها ست وعشرون، نزلت بعد سورة الذاريات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ
﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ
﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى
جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾
وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾.

قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾﴾؟ المختار أن هل للإستفهام، لكن الاستفهام هنا في معنى التعجب مما بعده. أي هل أتاك حديث المحنة التي تغشى العباد بشدائدها وأهوالها وأحوالها؟ والمراد يوم القيامة ونفخ الصور مرتين؛ مرة لإماتة الأحياء وزلزلة الأرض وقلع الجبال وسائر الأمور الأخرى، ومرة لبعث الموتى وإحيائهم وسوقهم إلى المحشر، والناس عند ذلك نوعان: أحدهما من الكفار المخلدين في النار. وأحدهما من الفائزين بالجنة والنعيم في دار القرار. وعبر عن النوعين بالوجوه لأن الحزن والفرح يظهران على الوجوه فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾﴾ أي خائفة ذليلة حقيرة عليلة ﴿عَامِلَةٌ﴾ بجر السلاسل والأغلال ﴿نَّاصِبَةٌ﴾ أي ذات نصب وتعب فيما يشق عليها من الأعمال ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾﴾ أي تدخل ناراً قوية الحرارة ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾﴾ حارة جداً قطاعة للأمعاء ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾﴾ شجرة شائكة ترعاه الإبل ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾﴾ يعني إن طعامهم ليس من نوع طعام الإنس الذي يطعم للإغناء عن الجوع وتسمين البدن، فلا يفيد شيئاً منهما. ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ ذات بهجة وحسن تدرك فيها نضرة النعيم ﴿لِّسَعْيِهَا﴾ في الدنيا وكسبها الخير فيها ﴿رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ

﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١٠﴾﴾ مصدر بمعنى اللغو أي لا تسمع فيها كلاماً لغواً لا فائدة فيه ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ قيل: تجري دائماً بلا انقطاع ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾﴾ رفيعة السمك أوالمقدار ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾﴾ بين أيديهم ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾﴾ أي وسائد ضم بعضها إلى بعض ﴿وَزَرَابِيُّ﴾ أي بسط فاخرة ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾ معناه أن عند بني آدم أشياء معلومة لو نظر فيها كانت تدلهم على الإيمان بالله تعالى وحده لا شريك له فيقول: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾؟ خلقاً دالاً على حكمة خالقها ومدبر أمرها حيث خلقها لحمل الأثقال إلى البلاد النائية فجعلها باركة للحمل، صابرة على الأحمال الثقيلة مع العطش، قانعة بالأشواك والنوى، نافعة بالحليب والنسل والوبر واللحم إلى غير ذلك من المنافع المعلومة ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾﴾؟ بلا عماد ولا استمساك وتتبلور فيها الكواكب اللامعة كالشموع في مجالس الجموع ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾﴾ وجعلت كأوتاد الأرض في الطول والعرض، وجعلت حاجزة عن طغيان الناس في مجاري العادات وجعلت منابع للمعادن وأنواع الأشجار والنبات ونبعت منها عيون متفجرات، وأنهار وشلالات، وإلى الأرض الكروية كيف سطحت بحيث يرى كأرض مسطحة بالاستدارة ومن النيرين في استنارة ﴿فَذَكِّرْ﴾ عباد الله المتبصرين ليتذكروا ويتفكروا ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ أي بمستول غالب بالمادة حسب العادة ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾﴾ أي لكن كل من تولّى عن الحق وكفر به وبحقوقه ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾ بالنسبة إلى كل عذاب في الدنيا، فإن الآخرة خير وأبقى ومن شقي فيها فهو أشقى ومن سعد فيها فهو أسعد وأعلى وأرقى. ولا تهتم بأحوال المعاندين ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ أي رجوعهم ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ فانظر أيها العاقل إلى التخصيصات والتأكيدات ترى لهم أسفل الدركات وللمسلمين أعالي الدرجات، والحمد للّه على كل الهبات.

❁ ❁ ❁

سورة الفجر

مكيّة، وآياتها ثلاثون، نزلت بعد سورة الليل

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلۡفَجۡرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ۝٢ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ۝٤ هَلۡ فِي
ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ۝٥ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي
لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ۝٩ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ
۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ
عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ۝١٤﴾.

يقال تعالى: ﴿وَٱلۡفَجۡرِ ۝١﴾ أقسم سبحانه وتعالى بالفجر الذي هو مطلع نور الصباح وانشراح الأرواح وانتباه الناس إلى كسب المعاش ووسائل خير المعاد بالطاعة والعبادة للرب سبحانه وتعالى كما أقسم به في قوله: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٨] ﴿وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ۝٢﴾ الليالي جمع الليل أصله ليالي على صيغة منتهى الجموع فأعل إعلال قاض، والمراد بها العشر الأول من ذي الحجة الحرام. أخرج أحمد والبخاري عن ابن عباس مرفوعاً: «**ما من أيام العمل فيهن أَحَبُّ إلى الله عزَّ وجلّ وأفضل من أيام العشر**»، قيل: يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله قال: «**ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل جاهد في سبيل الله بنفسه وماله ولم يرجع من ذلك بشيء**».

وروي أنهن العشر الأواخر من رمضان وأيدوا ذلك بالحديث، المتفق على صحته قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر تعني العشر الأخير من رمضان شدّ مئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله. وعن جماعة أنهن العشر الأول من رمضان، ويؤيد بأنّ الإنسان يصعب عليه المبادرة بما خالف عادته في أوائل

المباشرة حتى يألف به ويتعوّده. وعن جماعة أنهن العشر الأول من المحرّم وفيها يوم عاشوراء، وقد ورد في فضله ما ورد. أخرج الشيخان وغيرهما قال: قدم النبيّ ﷺ المدينة واليهودُ تصوم يوم عاشوراء. فقال عليه الصلاة والسلام: ما هذا اليوم الذي تصومونه؟ قالوا: هذا يوم عظيم أنجى الله تعالى فيه موسى، وأغرق آل فرعون فيه فصامه موسى عليه السلام شكراً. فقال رسول الله ﷺ: «**فنحن أحق بموسى منكم**» فصامه ﷺ وأمر بصيامه. وصح في الصحيحين أنه ﷺ أرسل غداة عاشوراء إلى قرى الأنصار التي حول المدينة «**من كان أصبح صائماً فليتم يومه، ومن كان أصبح مفطراً فليصم بقية يومه**» فكان الصحابة بعد ذلك يَصُومُونَه، ويُصَوِّمونه صبيانهم الصغار، ويذهبون بهم إلى المسجد ويجعلون لهم اللعبة من العهن؛ فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطوه إياها حتى يكون الإفطار.

وأخرج أحمد وغيره عن الحبر قال: قال رسول الله ﷺ: «**صوموا يوم عاشوراء وخالِفوا فيه اليهود وصوموا قبله يوماً وبعده يوماً**». ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣﴾ هما يوم النحر ويوم عرفة، وقالت جماعة: إن خلق الله هو الشفع أي الذكر والأنثى، والله هو الوتر ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤﴾ أقسم بالليل إذا يسري بما فيه من الظلام أو من طاعة العباد من الأنام. أو ليلة النحر يسري فيها الحجاج من عرفات إلى مزدلفة أو الليل الذي سرى فيه الحبيب إلى المسجد الأقصى، ثم عرج به إلى ما شاء الله من الدرجات ﴿هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ۝٥﴾؟ أي هل في الإقسام بما ذكر وما يحتويه من آثار قدرة الباري عزّ وجلّ قسم وتأكيد للمقسم عليه لذي حجر أي عقل يحجره ويمنعه عن السوء والمقسم عليه لنهلكن الطغاة بقرينة قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦﴾ وقوله: ﴿إِرَمَ﴾ عطف بيان للإشعار بأن المراد بعاد عاد الأولى وقوله: ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ فسر بذات القامة الطويلة، كما يقال رجل عمدان إذا كان طويل القامة. أو المراد ذات الأعمدة الطوال في المخيمات، لأنها كانت سيارة ولها خيام يسكنونها ﴿ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨﴾ صفة أخرى لعاد أي القبيلة التي لم يخلق مثلها من جهة الهيكل وطول القامة واليدين والصدر والهامة.

ومن المحققين من قال: إن إرم اسم مدينة لهم بين عمان وحضرموت، وهي أرض رمال وأحقاف فأحكموا بناءها بالعمدان القوية الطويلة الغائصة في الأرض جداً حتى لا تتزلزل بالرياح والعواصف، وكانت مدينة ذات أبنية رفيعة، وقلاع منيعة وأعمدة طويلة، وقصور جميلة وحدائق ذات بهجة جميلة. فلم يكن لها مثيل

في تلك العصور السابقة في جزيرة العرب. ويروى أنه كان لعاد ولدان هما شديد، وشداد. ومات الشديد وصفا الجو لشداد، وملك واستولى على العباد والبلاد، وبنى تلك المدينة في بعض صحارى عدن في مدة طويلة من الزمن، ولما أكملها وأراد أن يدخلها دمرها الله وإياهم برجفة هائلة مخيفة، وخسف بالجميع الأرض وبقي الملك لله الواحد القهار، قهرهم لطغيانهم وتمردهم على الله تعالى ورسوله هود عليه السلام.

وقوله: ﴿وَثَمُودَ﴾ عطف على عاد يعني ألم تر كيف فعل ربك بثمود ﴿ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ﴾ أي قطعوا الصحر في الجبال ونحتوها وصنعوا فيها بيوتاً حصينة منيعة، وقوله: ﴿بِٱلْوَادِ﴾ أي وادي القرى في مملكة الأردن. وبقوا مالكين مدة حتى أرسل الله إليهم صالحاً، فأهلك الله ديارهم بالرجفة والزلزال ﴿وَفِرْعَوْنَ﴾ عطف على ثمود أو على عاد ونعت بـ﴿ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ لأنها شعار ظلمه المشؤوم، فكان إذا عاقب شخصاً شد يديه ورجليه بأربعة أوتاد حتى لا يقدر على الحركة فيحرقه، أو يكويه حتى يموّته.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾﴾ نعت للمذكورين المشهورين بالطغيان فقرره عليهم بالموصول وصلته المعهودة لأصحاب التواريخ المعدودة ﴿فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾ بإضلال العباد وتحريفهم عن عبادة الله وتوحيده وبإذلال من عصاهم وبإشباع نفوسهم الأمارة من هواهم. فكان ذلك عقباهم ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾ دمرهم في الدنيا بالعذاب، وقرر لهم في الآخرة أشد العقاب، والله سريعُ الحِساب. والسَّوط في الأصل مصدر ساط يسوط بمعنى الخلط، وشاع عرفاً في الجلد المضفور الذي يضرب به لكونه مخلوطاً من طاقات عديدة، لتكون آلة للتعذيب شديدة. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ تعليل لما قبله وإشعار بأن كفار مكة أيضاً لما كانوا يمشون مشية السابقين الفاسقين يقربون من ورود مثل ذلك العذاب عليهم، لأن سنة الله تعالى دائمة ونافذة في اللاحقين كما نفذت في السابقين. والمرصاد في أصل اللغة اسم لآلة الرصد والمراقبة، والمقصود أنه سبحانه وتعالى ينظر إلى الناس كيف يعملون كالرصدي لما يترصده، فلا يفوتُه الذين يظلمون.

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ

إِذَا مَا ٱبْتَلَـٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾
وَلَا تَحَـٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾
وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ
وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ
ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا
يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾
فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ له اتصال بما بعده فكأنه تعالى يقول: إنا لبالمرصاد للعباد حتى يعملوا للمعاش ويعملوا للمعاد، ولكنهم على الأغلب يغلبون الأولى على الآخرة ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَـٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي عامله معاملة المختبر وأكرمه ونعّمه، وهناك يحصل الاختيار له هل يشكر على النعم أو لا؟ ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ بحذف الياء أي أكرمني وسكت عند ذلك ولم يذكر من فضله ورحمته فكأنه يدعي أنه هو المستحق لذلك بالذات لا من فضل خالق البريات ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَـٰهُ﴾ أي عامله معاملة الممتحن ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ أي فقلله عليه ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ﴾ أي حقرني ورذلني وليس كذلك لأنه ربما يكون في فقر الإنسان حكم ومصالح كثيرة لا يعلمها إلا الله فليس الإغناء إكراماً وإجلالاً، ولا الإفقار تحقيراً وإذلالاً وذلك ظن الجاهلين. ﴿كَلَّا﴾ ردع للإنسان عن قوليه كليهما، فإن ذينك القولين من الأقوال الفاسدة كما أن بعض أعمالكم من الأعمال الفاسدة وأبرزها بقوله الكريم: ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ لقساوة القلب اللئيم ﴿وَلَا تَحَـٰٓضُّونَ﴾ أي ولا يحض بعضكم بعضاً ﴿عَلَىٰ﴾ إطعام ﴿طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾ الواصل إليكم من الموروثين بدون تقسيم صحيح ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ أي أكلاً ذا لمّ وجمع للحرام والحلال ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ أي كثيراً ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾﴾ ردع للناس عن الأقوال الفاسدة والأعمال الباطلة، والغفلة بالعاجلة عن الآجلة. ويقول إذا دكت الأرض دكّا على دك أي دكاً متتابعاً من انشقاقها وانقلاع الجبال عليها وخروج ما فيها من الأثقال والأحمال ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ أي ظهر ذاته الحي القيوم لمحاسبة العباد ﴿وَ﴾ جاء ﴿ٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ مصطفين صفاً تلو صف ﴿وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ أي وبرزت وعرضت لأهل الحساب طراً أجمعين فرأوها ونارها

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ﴾ أعماله الفاسدة العاطلة وآماله الهوائية الباطلة بعد أن خاب الأمل وضاع العمل ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾؟ أي ومن أين تكون له الذكرى النافعة؟ ﴿يَقُولُ﴾ إذ ذاك من تيقن خسرانه هناك ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ أي قدمت الأعمال الصالحة وقت حياتي الدنيا أو في وقتها أو لأجل حياتي الطيبة بعد البعث ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ﴾ أي مثل عذاب الله ﴿أَحَدٌ (٢٥) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ﴾ أي ولا يشد مثل شد وثاقه ﴿أَحَدٌ﴾ ومعنى الكلام أن الله تعالى يتولى تعذيب أولئك الكافرين بعد شدّ وثاقهم بالسلاسل والأغلال، ولا يتولى عمليات التعذيب والتوثيق أحدٌ مثلَه، بل هو أشد المعذبين وأقوى الموثقين. ومن الذي يعمل عملاً مثل رب العالمين؟ فهذه أحوال أصحاب النفوس الأمارة بالسوء.

وأما أحوال أصحاب النفوس المطمئنة فهو ما يستفاد من قوله الكريم: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ أي بذكر الله وباستمرار الحضور ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ أي إلى محل عناية ربك وإفاضة أنواره ﴿رَاضِيَةً﴾ من الله و﴿مَّرْضِيَّةً (٢٨)﴾ عنده ﴿فَادْخُلِي فِي﴾ زمرة ﴿عِبَادِي﴾ المقبولين ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠)﴾.

❁ ❁ ❁

سورة البلد

مكيّة، وآياتها عشرون، نزلت بعد (ق)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾﴾ أي لا أقسم بهذا البلد الذي جعلته أول بيت وضع للناس، وحرماً آمناً للصيانة من الجنة والناس، ولا سيما أنت حال وثابت بهذا البلد تضيء الأطراف والأكناف كالنبراس ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾﴾ أي ولا أقسم بوالد شريف نشر التوحيد في العالم وهو إبراهيم خليل الرحمن وإسماعيل ومحمد سيد بني عدنان وإسحاق ويعقوب والأسباط الذين دعوا الناس إلى طاعة الدّيان، والمقسم عليه ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾ أي خلقنا الإنسان المعهود المشار إليه بأنامل السعود في كبد ونكد ومحن ضاربة للقلب والجسد، فالإنسان من واجبه طاعة الرحمن ونشر الأمان والإيمان، وكل من هو كذلك اعترضت دونه عداوة الإنسان الفاسد والعدو المعاند والجاهل الحاسد والكافر الجاحد، وكل منهم يرمونه بما عندهم من السهام، ولو كان سهماً واحداً كان يتقى فلا مجال إلا الصّبر والعزم.

ومنهم من فسر الكبد بظلمة الرحم والمشيمة وبطن الأم والآلام التي ترد عليها بعد الانفصال.

وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ﴾ الإنسان ﴿أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾؟ يعني بَعد أنْ بينا شرفكم التالد ووضعكم مع أهل المكايد أيحسب الإنسان المغرور الذي يؤذيك أن لن يقدر عليه أحد حتى ينتقم منه؟ مع أنه أخف شيء تحت قدرتنا، ولا قيمة له تحت صولتنا، ويتوعّد ويهدد، ويغتر بما عنده من الإمكانية والمعونة في سبيل الكفر والإشراك. و﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦﴾ في سبيل جمع الناس والمكالمة معهم في معارضة الرسول ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾ عند وقوفه بين الناس وتكلمه بما ألقي إليه من شيطان الوسواس؟ ألا يخاف ذلك الجاهل ربه المنعم عليه بالنعم الكثيرة؟ ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨﴾ يبصر بهما ما يحتاج إلى الإبصار ﴿وَلِسَانًا﴾ يتكلم به عند الحاجة إلى بيان ما في ضميره ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ يستر بهما فاه ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ أي نجد حجاز ونجد تهامة، أي طريقي الخير والشر، أو ثديي أمّه فهل يناسب مقابلة هذه النعم الجليلة بكفران الرب وإنكار رسوله ومنع الناس عن سلوك سبيله؟ ومع ذلك كله فذلك الإنسان اللدود ليس له قيمة واقعية اجتماعية ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١﴾ لحد الآن ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ أي عتق عبد ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤﴾ أي ذي مجاعة ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ أي فقر وقوله ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ عطف على المنفي المذكور أي فلا اقتحم العقبة ﴿وَ﴾ لا كان من الذين آمنوا بالله الواحد العظيم، ولا كان من الذين ﴿وَتَوَاصَوْا۟﴾ أي أوصى بعضهم بعضاً ﴿بِٱلصَّبْرِ﴾ على الإيمان والثبات عليه ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ أي ولا كان من الذين تواصوا بالمرحمة أي بالرحمة على عباد الله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الإيجابيات الحسنة ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ أي جهة اليمين التي هي شعار السعداء ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ والشؤم والخسارة في دار القرار ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾ أي غلبت عليهم نار مطبقة أبوابها لا تفتح كما قدره الله تعالى أبد الآبدين.

❀ ❀ ❀

سورة الشمس

مكيّة، وآياتها خمس عشرة، نزلت بعد القدر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾﴾ أي أقسم بالشمس هذا الكوكب النهاري المنور لأزيد من نصف كرة الأرض منذ خلقت وما أودع فيها من الأجزاء الشعاعية التي انبهرت العقول في تحقيق حقيقتها، ومن جملة ما أودع فيها ضوؤها والضوء هو الذاتي للمضيء، والنور هو العرضي المستفاد من الغير ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾﴾ أي تبعها في الطلوع إذا طلع في الأفق الشرعي بعد طلوعها، أو تبعها أي خلفها فإذا غربت هي طلع هذا، أو تبعها أي كان فرعاً لها، فإن ضياء الشمس ذاتي والقمر عرضي وتبعي ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾﴾ أي أظهرها، فإن طلوع الشمس علة لوجود، ووجود النهار علة للعلم بطلوع الشمس ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾﴾ أي إذا يستر نورها وضياءها وهذا الإسناد مجازي ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ أي والسماء وبنائها إذا كانت ما مصدرية. وأما إذا كانت موصولة فهي مستعملة للباري سبحانه لانبهام حقيقته ﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾﴾ أي وطحوها وبسطها من كل جانب ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾﴾ أي وتسويتها أي إنشائها مستوية مستعدة للأعمال التي أودعها ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾﴾ أي وأفهمها فجورها وتقواها ببعث الرسل، وبيان السبل وتمييز الرشد من الغي، أو جعلها مستعدة ومتمكنة من فهم الزيغ والفجور وفهم التقوى والأجور ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾ أي أقسم بكل ما أقسمت به أنه قد أفلح وفاز بالفلاح وسعادة الدارين من جعل نفسه زكية بأن تطهر من دنس الهوى

واتبع هدى الرسول وفتح باب الوصول، وقد خاب وخسر من دساها أي أخفاها أي لم يعالجها ولم يظهرها حتى غمست في دنس المعاصي وخفيت فيها. وقد ظهر ظهور الشمس في رابعة النهار من هذه الآيات الكريمة أن تزكية النفس عن الرذائل والأمراض الباطنية واجب من الواجبات، بل أهمها لأن النفس مدار التصور والتصديق والإخلاص والتوجه الصادق، فيجب عليه اتباع الشرع الشريف خالصاً لوجه الله، فإن تنور وتزكى فذلك خير وبركة، وإلا وجب عليه السعي في حصول صديق رفيق يستأنس به ويستفيد منه، فإذا وجده وجب أن يستمر معه لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ﴿١١﴾﴾ أي بسبب طغيانها وتمردها عن إرشاد أخيها الصالح صالح عليه السلام، وقوله: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ﴾ ظرف للمصدر السابق والطغيان كان عند انبعاث أشقى قوم ثمود وهو قدار بن سالف فتهيأ واستعد لعقرها ﴿فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ صالح عليه السلام: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا﴾ أي ذروا ناقة الله وسقياها ولا تمسوها بسوء ولا تمنعوها شربها وإلا حل بكم عذاب الله ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ في هذا التحذير ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أي فقطعوا قوائمها فمات ﴿فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم﴾ أي فأطبق عليهم ربهم العذاب وجعلهم في عذاب عام شامل ﴿بِذَنۢبِهِمۡ﴾ الكبير ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ أي فسوى الدمدمة وطبق عليهم ما أراد من العذاب ﴿وَلَا يَخَافُ﴾ الباري جل شأنه عاقبة هذه الدمدمة وسوء نتيجتها، فإن الله لا يخاف لا من الإرسال ولا من الإيقاف.

❁ ❁ ❁

سورة الليل

مكيّة وآياتها إحدى وعشرون نزلت بعد الأعلى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١﴾ أي أقسم بالليل إذا يَغشى ضوءَ النهار وفي الإسناد ما سبق ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ أي ظهر بزوال ظلمة الليل لطلوع الشمس ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣﴾ أي والقادر العظيم الذي خلق صنفي الذكر والأنثى أُقسِمُ بذلك كله ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾ أي على وجوه عديدة متفرقة ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي أعطى ماله للناس المستحقين سواء كان البذل واجباً أو مستحباً واتقى محارم الله أو اتقى عقابه فأخلص نيته في بذل ماله ﴿وَصَدَّقَ﴾ بالكلمة ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وهي لا إله إلا الله أو أن الدين عند الله الإسلام أو كل كلمة موافقة للحق ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ﴾ أي نهيئه ونعده ﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾ أي للخصلة التي تؤديه إلى يسر وراحة ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ﴾ بصرف المال وما أنفق المال الذي يجب إنفاقه في حقوق الله أو حقوق الناس ولا تصدّق منه في سبيل الله ﴿وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ بما عنده من الحطام عن المثوبة الحسنى عند الملك العلاّم أو استغنى بشهوات النفس والهوى في الدنيا وترك حظه في الآخرة ﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩﴾ أي بالخصلة الحسنى المعهودة المذكورة ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ﴾ ونهيئه ﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾ أي للخصلة العسرى العسيرة جداً، وهي عذاب النار في دار القرار ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ﴾ الذي ادخره لنفسه ﴿إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ أي هلك واستحق العذاب وتردى في نار جهنم إذ ليس الوقت وقت الفداء.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾ أي إن علينا بموجب قضائنا المبنيّ على الحكمة الهدى والإرشاد لكم إلى الحق وتمييز طريق الخير والشر ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ أي وإن داري الدنيا والآخرة لنا نتصرف فيهما كيف نشاء، لكن قررنا أن نعمة الدنيا وهي الدار الأولى قد تكون لأهل الكفر كما قد تكون لأهل الإيمان، وأما نعمة الدار الآخرة فلا يمكن إعطاؤها إلا للعباد المخلصين ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ أي تتلظى وتتلهّب بقوة وشدة ﴿لَا يَصْلَاهَا﴾ أي خالداً ﴿إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ﴾ بالحق ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عنه ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ﴾ للمستحقين حال كونه ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ عن حب الدنيا ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾﴾ حتى يتوهم أن صرف المال له في مقابل تلك النعمة ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ أي لكن يبتغي ويطلب وجه ربه الأعلى ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ بما يعطيه ربه.

وقوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾﴾ الآية نزلت في أبي بكر رضي الله عنه لما اشترى بلال ابن رباح من سيده، وهو أمية بن خلف، وكان الصديق رضي الله عنه يبتاع الضعفة فيعتقهم، فقال له أبوه: أي بُنَي لو كنت تبتاع من يمنع ظهرك؟ فقال: منعَ ظهري أزيد، فنزلت الآية.

وبلال ابن رباح الحبشي واسم أمه حمامة، كان صادق الإسلام، طاهر القلب، وكان أمية بن خلف يخرجه إذا حميت الشمس فيطرحه على ظهره ببطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد! فيقول وهو في تلك الحال: أَحَدٌ أَحَدٌ! فمر النبيّ ﷺ به فقال: «**أحد ينجيك**» يعني الله تعالى ثم قال النبيّ ﷺ لأبي بكر: «**إن بلالاً يعذب في الله**» فعرف أبو بكر الذي يريده رسول الله ﷺ فانصرف إلى منزله، فأخذ رطلاً من ذهب ومضى إلى أمية بن خلف فقال له: ألا تتقي الله في هذا المسكين؟ قال: أنت أفْسَدْتَه فأنقذه بما ترى. ففي رواية أنه فداه برطل من ذهب، وفي رواية أنه قال

له: عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى، وهو على دينك فأعطاه، وأخذ بلالاً فأعتقه. وكان قد أعتق قبله ست رقاب، وهم: عامر بن فُهَيرة شهد بدراً وأحداً وقتل يوم بئر معونة شهيداً. وأعتق أم عميس زهرة فأصيب بصرها حين أعتقها فقالت قريش: ما أذهبَ بصرها إلا اللاّت والعزى، فقالت: كذبوا وبيت الله ما تضر اللاّت والعزى وما ينفعان فرد الله تعالى عليها بصرها. وأعتق الفهيرية وبنتها وكانتا لامرأة لنبي عبد الدار فمر بهما قود بعثتهما سيدتهما تحتطبان لها وهي تقول لهما: والله لا أعتقكما أبداً، فقال أبو بكر: كلاّ يا أم فلان، فقالت: كلا أنت أفسدتهما، قال: فبكم؟ قالت: بكذا وكذا، قال: قد أخذتهما وهما حرّتان. ومرّ بجارية من بني المرسل وهي تعذب فابتاعها فأعتقها. ولما أعتق أبو بكر بلالاً قال الكفار: إنما فعل ذلك ليد كانت له عنده. فنزل ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾ بما يُعطى من الثواب فتبين من المقام أن المراد بالأتقى أبو بكر ﷺ كما أن المراد بالأشقى أمية بن خلف.

واستشكلت هذه الآية في مقابل الآية السابقة ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ فإن مفهوم الأولى لا يدخل النار الشقي كافراً أو مسلماً، ومفهوم الثانية أنه لا يجنبها التقي غير الأتقى وهو التقي والشقي وهما متعارضان! وأجيب عنه بأجوبة.

الأول: أن الصلي هو الدخول في أتعس الدركات في النار فتلك مختصة بالأشقى الذي كذب وتولّى، ثم قال: وسيجنبها أي يبعَدُ من صَليها الأتقى. وأما التقي والشقي فيجوز أن يعذبا في غير تلك الدركة سواء خرج منها بعد، وذلك إذا كان مسلماً، أو لم يخرج، وذلك إذا كان كافراً.

الثاني: أن المراد بالصليّ الصليّ المخلد كما قيدناه به بقرينة الآية الكريمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ وأمثالها من الآيات.

الجواب الثالث: أن من لم يعتبر مفهوم الكلام فلا إشكال عليه، وأما من اعتبره فقد اشترط أن لا يكون الوصف أو القيد لموافقة الواقع كما في قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ فإن الآية نزلت في قوم والوا اليهود

دون المؤمنين، وإلا فمن اتخذهم أولياء مع المؤمنين أيضاً كذلك، أي إن عمله حرام. وهنا واقع الحال أن أبا بكر وهو الأتقى اشترى العبد وأعتقه وسيجنب النار في دار القرار، ومقابله وهو الأشقى أي أمية بن خلف يصلاها في أشد عذاب بالنار. ولا يعتبر هنا حكمُ الشقي بعد الأشقى ولا حكم التقي مع الأتقى. وهذا ظاهر الحال واندفع الإشكال، ولله الحمد في كل مقام وحال.

❀ ❀ ❀

سورة الضحى

مكيّة، وآياتها إحدى عشرة، نزلت بعد الفجر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾ ولما نزلت كبر ﷺ آخرها وروي الأمر بها خاتمتها وخاتمة كل سورة بعدها وهي الله أكبر. وفي رواية لا إله إلا الله والله أكبر. وفي رواية ثالثة لا إله إلا الله والله أكبر ولله الحمد وعليها العمل.

والضحى الوقت بعد الإشراق إلى الزوال. أقسم الباري سبحانه وتعالى بالضحى والوقت المعتدل المبارك الذي فيه ينشط كل عامل لعمله، وهووقت كسب زاد المعاش وزاد المعاد ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ أي غطى بظلامه ضوء النهار. وفي مجيء ذلك الوقت أسرار كراحة العباد بعد العمل طول النهار، وفراغ الإنسان للطاعة والعبادة والابتهال إلى ربه الغفار، والاستتار من الأعداء والأشرار.. إلى غير ذلك فأقسم بالأمرين أنه ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ أي ما تركك ترك تعسف ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ أي ما أبغضك بغضاً خارجاً عن التلطف.

واختلف في سبب نزول هذه الآية على أربعة أقوال:

الأول: ما روي من أنه ﷺ اشتكى ليلتين أو ثلاثاً فجاءت أم جميل امرأة أبي لهب وقالت: يا محمد إني لأرجو أن يكون قرينك تركك! لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاث فنزلت.

الثاني: أنه أبطأ الوحي حتى شق عليه، فجاءه وهو واضع جبهته على الكعبة يدعو وأنزل عليه الآية.

الثالث: ما روي من أن خولة كانت تخدم النبيّ ﷺ قالت: إن جرواً دخل البيت، فدخل تحت السرير فمات، فمكث النبيّ ﷺ أياماً لا ينزل عليه الوحي فقال ﷺ: يا خولة هل حدث في بيتي؟ إن جبريل لا يأتيني، قالت خولة: فكنست فأهويت بالمكنسة تحت السرير، فإذا جرو ميت فأخذته فألقيته خلف الجدار فجاء نبيّ الله ﷺ ترعد لحياه، وكان إذا نزل الوحي استقبلته الرعدة فقال: أما علمتَ أنّا لا ندخل بيتاً فيه كلبٌ ولا صورة؟.

الرابع: ما روي من أن اليهود سألوا النبيّ ﷺ عن الروح، وذي القرنين، وأصحاب الكهف فقال ﷺ: سأخبركم غداً، ولم يقل إن شاء الله، فاحتبس منه الوحي إلى أن نزل جبريل ﵇ بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ ثم أخبره بما سأل عنه ونزلت.

والصحيح أن هذه الحادثة أي فتور الوحي حدثت مرتين مرة بعد نزول الوحي ﵇ في غار حراء حيث توقف نزول الوحي عنه مدة واختلف الناس في حسابها فمنهم من قال: ثلاثة أيام بلياليها ومنهم من قال: كانت خمسة عشر يوماً. ومنهم من قال خمساً وعشرين يوماً ومنهم من قال أربعين يوماً وهذه المرة كانت في مكة المكرمة. ومرة انقطع الوحي عنه بعد سؤال اليهود عنه عن الروح وأصحاب الكهف وذي القرنين. وهذه المرة كانت في المدينة بعد الهجرة وكانت المدة مدة وجيزة.

وقوله: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي إن آخر مدة نبوتك خير لك من أول مدتها، حيث يتم فيها النصر المبين وانتشار الدين. أو إن الآخرة خير لك من الأولى لأنها تصفو لارتقاء الروح، والفوز بالفتوح، والوصول إلى كل ما وعد الله به عباده المؤمنين، وتحصل لك رتبة الشفاعة ومقام الوسيلة والفضيلة والمقام المحمود ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾ الآخرة ودرجاتها وبركاتها من لقاء الله تعالى ورؤية وجهه الكريم وإذن الشفاعة الكبرى لجميع الأمم في الخلاص من وقوف الموقف والشفاعة لبعض العصاة المستحقين للعذاب بالعفو، وللمستحقين لرفع الدرجات إلى غير ذلك من اللطائف. ويجوز تفسير العطاء بما قلنا وبما خصه به في

الدنيا من هجرته واستقراره في دار الهجرة، وما ناله من العز والنصرة، وإلقاء الرعب في قلوب أعدائه من مسيرة شهر، ووفور الصلاح والتقوى، ومزيد العلم واكتساب الكمالات في أمته المرحومة.

وقد أخرج مسلم، كما في الدر المنثور، عن ابن عمر أنه ﷺ تلا قول الله تعالى في إبراهيم عليه السلام ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ وقوله تعالى في عيسى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾. . الآية فرفع رسول الله ﷺ يديه، وقال: «اللهمّ أمتي أمتي» وبكى فقال الله تعالى: يا جبريل اذهب إلى محمد ﷺ فقل له إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك. ثم أشار الباري إلى الاستدلال على شمول النعمة عليه في المستقبل بشمولها له في الماضي فقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾؟ أي ألم يجدك يتيماً بفقد الأب قبل ولادتك فآواك وأرجعك إلى من تكفل تربيتك من جدك عبد المطلب ثم عمك أبي طالب على توصية جدك فكنت تعيش فارغ البال واسع الحال ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ أي خالياً عن الشريعة والأصول الاعتقادية والعملية ﴿فَهَدَىٰ﴾ ك إليها هداية بالتوفيق والعناية والرعاية؟. وليس المراد عن الحق إلى الباطل، وحاشاه فإنه ولد نظيفاً شريفاً متوجهاً إلى ربه، ولم يسجد لصنم قط، ولم يعتمد على غير الباري تعالى، لكن لم تكن له شريعة إلى أن بعثه الله تعالى وأنزل عليه القرآن الهادي للطريق الأقوم، فالمراد من الضلال الابتعاد عن الشرع والخلو عنه إلى أن صار ينبوع الفضل والعلم والحكمة ومنبع الخير والكرم والرحمة، ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا﴾ أي عديم الثروة والمال على ضنك من الفقر وقلة ذات اليد فأغنى أي فأوسع لك الثروة وما تحتاج إليه وذلك قبل بعثته ﷺ بما حصله من أرباح التجارة، وبعده بما صار له من الفيء الواصل إليه، كما هو مقرر في الدين. فلما أدركت تلك الأحوال مباشرة ووصلت إلى مقابلها من فيضان رحمة الحق سبحانه ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾ اليتيم منصوب بالفعل بعده أي فلا تقهر اليتيم أي اصنع مع يتامى عبادي كما صنعت معك ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾ والسائل منصوب بما بعد، أي ولا تنهر السائل ولا تزجره. والمعنى إما أن تطعمه أو ترده برفق ولطف ولين كلام ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ أي ومتى نظرت إلى نعمة ربك الواصلة إليك منه تعالى: ﴿فَحَدِّثْ﴾ بها بياناً لفضله وكرمه وفيض نعمه ولا تسترها، فإن التحدث بها كذلك من جملة شكرها، كما أن صرفها فيما يناسبها من شكرها.

عن جابر بن عبد الله مرفوعاً من أعطي عطاء فوجد فليجز به، فإن لم يجد

فليثن به، فمن أثنى به فقد شكره، ومن كتمه فقد كفره، ومن تحلى بما لم يعط كان كلابس ثوبي زور.

ونسأل الله تعالى أن يحفظنا عن لبس ثوبي الزور وأن يلبسنا لباس الأدب والتقوى والنور بمنه وفضله آمين.

❀ ❀ ❀

سورة الشرح

مكيّة، وآياتها ثمان، نزلت بعد الضحى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾؟ الشرح في الأصل بسط اللحم ونحوه، يقال: شرحت اللحم أي بسطته وشققته. وشاع استعماله في الإيضاح. ومنه شرحت الكتاب، وشرحت المقصود، أي أوضحته. والمراد هنا توسعة صدره ﷺ بالأنوار الإلهية، وإفاضة العلوم اللدنية عليه، وإكمال قوته المعنوية، ليكون قابلاً للصبر على المكروهات، والثبات عند مزيد الهبات، والتمكن من مقابلة المهمات، وقابليته لمناجاة الحق سبحانه، ومداراة الخلق ليقبلوا شرحه وبيانه. وهذه المعاني تدور على شرح الصدر غيباً فالمعنى: ألم نفسح صدرك حتى عالمي الغيب والشهادة؟ وجمع بين ملكتي الاستفادة والإفادة، فما منعك العلائق الجسمانية عن اقتباس أنوار الملكات الروحانية، وما عاقك العلاقة بمصالح الخلق عن الاستغراق في شؤون الحق.

وفسره بعض بشق صدره الشريف شقا غيبياً ملكياً. فقد روي أن جبريل عليه السلام أتاه وهو عند مرضعته حليمة، وهو ابن ثلاث سنين أو أربع، فشق صدره وأخرج قلبه وغسله ونقاه، وملأه علماً وإيماناً، ثم رده في صدره. وحكمة ذلك لينشأ على أكمل حال، وشق أيضاً بعد بلوغه عشر سنين ليأتي عليه البلوغ ودور المراهقة، وهو على حالة جميلة فائقة. وشق أيضاً عند البعثة ليتحمل القرآن الشريف بقلب لطيف نظيف، وليلة الإسراء ليتهيأ له مناجاة الحق سبحانه وتعالى وهو على أطيب

الأحوال وكل ذلك مذكور في كتب السير المفصلة، كالمواهب اللدنية وغيرها ومن أراد الاطلاع على رواية ذلك فليطالع تلك الكتب.

وسر دوران الأمر على الصدر هو أن الصدر كرسي القلب أي من جوانب القلب، وليس الكلام في القلب وهو لحم صنوبري، بل الكلام فيما أودع فيه من أسرار الحق وأنواره، وكيف جعل مظهراً لآثار الروح الإنسانية فإن الإنسان ممتاز عن أنواع الحيوان بالروح الإنسانية المعبر عنها بالنفس الناطقة. وهذه الروح الإنسانية مميزة بإدراك الكليات والجزئيات المجردة والمادية وعليه مدار السعادة، وهذا الإدراك علم وصفة نفسانية من أهم أسبابها القوة العاقلة، والقوة العاقلة صفة للروح الإنسانية وآثار الروح تظهر في القلب ومحله الصدر، ولذلك كرر في القرآن الكريم الصدر وينوه بشأنه بآيات مثل قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؟ ومثل قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾ [طه: ٢٥ ـ ٢٦] وقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ وقوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ فشرح الصدر أساس لكل عز روحي وفخر إنساني وعلاقة ربانية وقد شرح الله صدر حبيبه محمد ﷺ للنبوّة والرسالة، وكفى بشرح صدره لتحمل أعباء الرسالة بين أولئك المشركين المعاندين وتحمل أذاهم في كل وقت وحين، واستمراره مع ذلك على دعوة العباد إلى الله ونشر حقائق الدين.

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ الوضع إذا تعدى بعن فهو للإزالة، كما أنه إذا تعدى بعلى فهو للتقرير. والوزر الشيء الثقيل، والإنقاض التصويت، فإن الإنسان إذا حمل شيئاً ثقيلاً على كتفه فالكتف يحصل منها نوع تعب عند اعتماد ذلك الشيء الثقيل عليها. وهذا الوزر كان عبارة عن كلفة مواجهة المشركين ودعوتهم إلى توحيد الله وصعوبة مقاومته لكلامهم البذيء في الرد عليه والصبر على ما يسمعه من أقوالهم الباطلة، وخوف إبادة أتباعه الفقراء من الغيظ والعداء، وكلفة حمل أقاربه الأقربين من بني عبد المطلب لهجمات سائر المشركين، وضيق صدره من قلة أعوانه في ابتداء الدعوة. وقد رفع الله تعالى كل ذلك عنه، فسهلت عليه مواجهة الكفار، والكلام معهم والنصح لهم، وسهلت مقاومته لهم، وحصل له الصبر الكامل على ما يسمعه منهم، ولم يبق عنده خوف إبادة أتباعه المؤمنين، وتحمل أقاربه كلفة الذهاب إلى شعب أبي طالب، وصارت له سعة الصدر في مقابل الناس كيفما كانوا. وهذا الأمر وهذه المرونة حصل له بعد إسلام حمزة

عمه، وعمر بن الخطاب، وعدد من رجال قريش وأشخاصهم قبل الهجرة. والحقيقة أن وضع الوزر عنه ﷺ وإن كان موجوداً في أول عصر النبوة لكنه تحقق بعد الهجرة ولذلك أيد بعض العلماء ما روي عن ابن عباس ﷺ أن هذه السورة مدنية، وحاصل المعنى: أزلنا عنك تلك الكلف والمخاوف وضيق الصدر الموجود أول البعثة بما يسرناه لك من أسباب الفوز والنجاح.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ أي ألم نرفع لك ذكرك بأن سماك الله بالرحمة للعالمين وخاتم النبيين، وقرن اسمك مع اسمه في كلمتي الشهادة، وفي الأذان والإقامة يومياً خمس مرات افتراضاً أو استحباباً، وفي كل تشهد في الصلوات المفروضة والمندوبة، وفي الخطب المنبرية وغيرها، وفي الصلوات المشروعة للكسوف والخسوف والعيدين، وفي الأمر بإطاعة الله ورسوله وإرجاع بعض الأمور إلى الله ورسوله، وفي صحف الأنبياء والرسل السابقين، وفي تاريخ أعيان البشر، وفي كثير من الآيات القرآنية؟ وكفى بجعلك صاحب المقام المحمود والشفاعة الكبرى للأنام رفعاً للذكر.

وما دام خصك الله بهذا المقام الرفيع اللائق بالنبيّ الشفيع فلا تنزعج من أذاهم وهواهم أبداً، فإنها أشياء مؤقتة تزول ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ قالوا: قد تقرر أن إعادة الشيء المعرف لتوحيد الثاني مع الأول، فعليه يلزم أن يكون كل عسر محفوفاً بيسر قبله ويسر بعده، مع أنه لا يطرد فإن كثيراً من المسلمين وقعوا في عسر وشدة واستمروا فيها إلى أن ماتوا متحسرين! وأجيب عنه بأجوبة منها: أن الاستغراق الموجود في الآية عرفي، أي غالب من وقع في العسر أتاه اليسر بعد مدة وجيزة. ومنها أن هذا الحكم مقيد بمشيئة الله تعالى نظير سائر الأمور المطلقة، أي إن شاء ذلك كان كذلك. ومنها أن التنوين في يسراً للتنويع، ومعناه أن مع كل عسر يسراً ما، فإنه سبحانه لا يسد أبواب الخير على المبتلى، فإذا ابتلاه بعسر أنعم عليه بيسر كيفما كان، وقوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾ أي إذا فرغت من الصلاة فانصب واتعب في العبادة ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ﴾ لا إلى غيره ﴿فَٱرْغَب﴾ أو إذا فرغت من تبليغ الدين وجهاد الكافرين فانصب واتعب في العبادة وإلى ربك فارغب.

❀ ❀ ❀

سورة التين

مكيّة، وآياتها ثمان، نزلت بعد سورة البروج

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ① وَطُورِ سِينِينَ ② وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ③ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ④ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ⑤ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ⑥ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ⑦ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ⑧﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ①﴾ في المراد بهما أقوال كثيرة للمفسرين أنسبها بسبب المقارنة مع طور سينين والبلد الأمين أنهما اسمان لجبلين. في تفسير الفخر الرازي رحمه الله تعالى قال ابن عباس رضي الله عنهما: هما جبلان من الأرض المقدسة يقال لهما بالسريانية: طور تينا وطور زينا، لأنهما منبتا التين والزيتون، فكأنه تعالى أقسم بمنابت الأنبياء فالجبل المختص بالتين لعيسى عليه السلام، والبلد المختص بالزيتون الشام مبعث أكثر أنبياء بني إسرائيل. والطور مبعث موسى عليه السلام، والبلد الأمين مبعث محمد ﷺ فيكون المراد من القسم في الحقيقة تعظيم الأنبياء وإعلاء درجاتهم، إنتهى.

يعني أن الله تعالى أقسم بالأماكن التي ولد وظهر فيها الأنبياء الكرام المعهودون وحقيقته ترجع إلى الإقسام بذاته الجليلة أي أقسم بذاتي الذي بعث عيسى بلا أبٍ من طورتيناء، وبعث كثيراً من أنبياء بني إسرائيل من طورزينا، وبعث موسى من طورسينا، وبعث محمداً من البلد الأمين مكة المكرمة أنه خلق الإنسان في أحسن تقويم.

القول الثاني: أنهما اسمان للشجرتين المعروفتين، أو ثمرهما ووجه الإقسام بهما احتواء الثمرتين لمنافع مهمة.

أما التين فلأنه فاكهة لطيفة سريعة الهضم لا تمكث في المعدة كثيراً، وتلين الطبع، وتقلل البلغم، وتطهر الكليتين، وتزيل ما في المثانة من الرمل وهو مرض يستولي على مقر البول فيحجز الماء عن الخروج بأجزاء دقيقة كالرمل يعسر معه البول ويتأذى به الإنسان، فإذا زاد صار حصاة، وتفتح سدد الكبد والطحال؛ وتسمن البدن، وتقطع البواسير، وتطول الشعر. . إلى آخر ما قاله المجربون حسب تجاربهم.

وأما الزيتون فهو من شجرة مباركة فيه إدام ودهن يؤكل ويستصبح. والمقسم عليه قوله الكريم: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ أي في أحسن تعديل لصورته وسيرته، أما صورته وهيكله فأحسنيته معروفة من مقايسته بسائر الأنواع من الزحافات والمشاة على أرجل كثيرة، أو على أربع، أو على رجلين من الطيور. وأما تعديل سيرته فهو أنه لو خلي وطبعه وترك وخليقته اقتضى عقله أن يعترف بربه ويطيع أوامره ويجتنب منهياته. وإذا ألقيت إليه التعليمات الدينية القويمة تقبلها وعمل بها ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾﴾ أي إلى سيرة هي أسفل سير السافلين بواسطة تبعيته للقوى النفسية المخلوقة فيها من الطمع والشهوة والغضب الداعية إلى الانحراف عن السبيل القويم ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله حق الإيمان ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بإخلاص وإتقان ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي غير مقطوع ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾﴾؟ أي بعد أن علمت أن الإنسان مخلوق بقدرة الله على أحسن تقويم صورة وسيرة وأعطاك الله قابلية للخير والشر وهداك ببعث الرسول وبالقرآن المنزل عليه إلى ما فيه سعادة الدين فأي شيء يدعوك إلى أن تكذب بالدين وتزعم أو تقول أنه لا جزاء في الآخرة، على معنى أنه لا تأتي الآخرة حتى يتسلم كل عامل حقه أو تأتي، ولكن غرورهم يجعلهم بحيث يدعون أنهم لا جزاء عليهم ولا تمسهم النار مطلقاً أو إلا أياماً معدودات ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾؟ أي أليس الخالق الذي فعل كل ما ذكر وظهرت قدرته على كل ما أراد فعله بأحكم الحاكمين؟ ولا مجال في الجواب إلا بكلمة بلى، وإلا فنعم يجلب أشد البلاء أعاذنا الله منه.

❁ ❁ ❁

سورة العلق

مكيّة، وآياتها تسع عشرة وهي أول ما نزل من القرآن

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ هذه السورة التي تسمى سورة اقرأ، وسورة العلق هي أول ما نزل من القرآن ثم بعده ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾ ثم ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ ثم ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ وهكذا قال الخازن، ولكن المشهور عن غيره إن أول ما نزل بعد اقرأ سورة المدثر. وهذه السورة صدرها إلى ما لم يعلم أول ما نزل من القرآن، وذلك بغار حراء رواه البخاري وعبارته عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصّالحة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصباح، ثم حُبِّبَ إليه الخلاء فكان يخلو بحراء ويتحنّث فيه الليالي ذواتَ العَدد، ثم يرجع إلى خديجة ويتزوّد لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء؛ فجاءه الملك فقال له: ﴿ٱقْرَأْ﴾ قال: ما أنا بقارىءٍ فأخذني فغطّني حتّى بلغ مني الجهدَ ثم أرسلني فقال: إقرأ، قلتُ: ما أنا بقارىء فغطّني الثانية حتى بلغ منّي الجهد، ثم أرسلني فقال: إقرأ فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾. فرجع بها ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: زمّلوني، زمّلوني، فزملوه حتى ذهب الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيتُ على نفسي، فقالت له: كلاّ أبشر فوالله لا يُخزيك

الله أبداً؛ إنك لتَصل الرَّحِم، ولتَصْدُقُ الحَديث، وتحمِلُ الكَلّ، وتُكسِبُ المُعْدِمَ، وتقري الضَّيفَ، وتُعين على نوائِبِ الحق.

فانطلقتُ به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي وهو ابن عم خديجة، وكان ممن تنصّر في الجاهلية، وكان يكتُب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي فقالت له خديجة: يا ابن العم اسمع من ابن أخيك، فقال له: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره ﷺ خَبرَ ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال له رسول الله ﷺ: أَوَ مُخْرجيَّ هُمْ؟ قال: نعم لم يجيء رجل قط بمثل ما جئت به إلاّ عُودِيَ، وإنْ يدركني يومُك حيّاً أنصرك نصراً مؤزَّراً. ثم لم يلبث ورقة أن تُوفي وفتر الوحي فترة حتى حزن النبيّ ﷺ، فيما بلغنا، حزناً شديداً غدا منه مِراراً إلى أن يتردّى من رؤوس شواهق الجبال فكلما أوفى بذروة جبل لكي يُلقيَ نفسَه منه تبدّى له جبريلُ فقال: يا محمد إنك رسول الله حقاً، فيسكن لذلك جأشُه، وتَقرّ عينُه، فيرجع فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة الجبل ليُلقي نفسه منه تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك. ومعنى قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ إقرأ مبتدئاً باسم ربك الذي خلق الخلائق كلها.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ أي ربك القادر المقتدر الذي خلق الإنسان وهو أشرف مخلوق ممتاز بالعقل والعلم من عَلق أي دم جامد، فإن النطفة تبقى في الرحم على حالها أربعين يوماً، لكن مع تحول تدريجي حتى تصير في آخر المدة دماً، ويبقى دماً إلى أربعين يوماً. والدم دم ماكث جامد ليس بسائل لأنّه في صدد التحول إلى مضغة وهي قطعة لحم. والمراد بالإنسان النوع، وذلك النوع مخلوق من علق وإن كان أبو النوع وهو فرد منه خلق من تراب لا من علق. ومن الناس من قال إن المراد بالإنسان آدم، والمراد بالعلق الطين يتعلق به اليد فيتصرف فيه ويصوره حسبما أراد، ولكن تفسيره به مما يخفى على العقول. واستدل المثبتون للبسملة جزءً من السور بهذه الآية الكريمة حيث قال إقرأ باسم ربك أي إقرأ مفتتحاً باسم ربك، وقل بسم الله ثم اقرأ وهو ظاهر في أنه لو افتتح بغير اسمه عزّ وجلّ لم يكن ممتثلاً. وقد أخرج الواحدي عن عكرمة والحسن أنهما قالا: أول ما نزل من القرآن بسم الله الرحمن الرحيم، وأول سورة نزلت اقرأ، وكذلك أخرج جرير عن

طريق الضحاك عن ابن عباس ﷺ أنه قال: أول ما نزل جبريل على النبيّ ﷺ قال يا محمد استعذ ثم قل بسم الله الرحمن الرحيم. وَقَد عَدّ القول بأنها أول ما نزل أحد الأقوال في تعيين أول منزل من القرآن.

﴿ٱقْرَأْ﴾ كرره للتأكيد ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ الزائد في الكرم وحده على الحقيقة ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾﴾ أي علم الخط والكتابة باستعمال القلم ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ بالوحي إلى الأنبياء وإلهامهم وإلهام الأولياء، وتوفيق المتفكرين الأذكياء وتنوير الصالحين الأتقياء، وبالتجاريب العديدة في الأمور العالمية في الدنيا، وبزيادة قوة الاستنباط واستخراج المفاهيم الدقيقة الخفية من النصوص السماوية والدساتير المقررة، فهذه الأمور كلها كما ذكرنا من أسباب تعليم الإنسان وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، ولما ذكر تلك النعمة العظيمة وهي نعمة التعليم التي عليها أساس الترقي والفوز بسعادة الدارين، أو معرفة وجوه الطاعات والعبادات، وكان الواجب على الإنسان العاقل الخضوع والتذلل مع أنهم عاملوا على خلاف ذلك، وكانوا يعادون الرسول ﷺ على الصلاة التي هي أشرف العبادات البدنية.. ردعهم الباري وزجرهم بقوله: ﴿كَلَّآ﴾ ردع لمن كفر من نوع الإنسان لا سيما المشركين الموجودين في مكة وقت النزول ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ أي ليتجاوز الحد في المعصية ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ من أجل أن رأى نفسه استغنى بقوته، أو ثروته، أو عشيرته، أو أولاده، أو جاهه، أو وظيفته، أو جهالته.. ونسي ضعفه وحاجته إلى ربه ولا حق له في ذلك الطغيان فإن الأحوال سجال، والدنيا دولة، والآخرة دار الجزاء ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾﴾ أي رجوعه ورجوع غيره إلى الباري فينال جزاء شره وخيره، وينتقم منه على سوء سلوكه وفساد سيره.

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾.

ثم ذكر بعض آثار الطغيان المتحقق في بعض بني الإنسان وقال: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾؟ والعبد المصلّي هو الرسول سيدنا محمد ﷺ، والناهي هو الكافر أبو جهل. أخرج أحمد ومسلم والنسائي وغيرهم عن أبي هريرة ﷺ أن أبا

جهل حلف باللات والعزى: لئن رأى رسول الله ﷺ يُصلّي لَيَطأن على رقبته، وليعفّرن وجهه! فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلّي ليفعل، فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه! فقيل له: مالك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ: «**لو دنا منّي لاختطفته الملائكة عضواً عضواً**» فنزلت الآية ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ إلى آخر السورة ﴿عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾؟ أي أخبرني لو كان المنهي عن الصلاة ثابتاً على الهدى ومتمكناً فيه أو أمر الناس بتقوى الله وطاعته أو كان على خلاف ذلك وكذب بالحق وتولى واستدبره ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ كل ظاهر من الأحوال وباطن من طبيعة الإنسان؟ فأي علاقة له بذلك الإنسان وربه يراقبه كيف كان؟ فلم يزجره عن الصلاة والعبادة؟ ﴿كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾﴾ أي لنأخذن بناصيته ولنسحبنه إلى النار يوم القيامة، والسفع الجذب بقوة وشدّة. ﴿نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ﴿١٦﴾﴾ بدل من الناصية السابقة ﴿فَلۡيَدۡعُ﴾ ذلك الكافر الناهي المعاند ﴿نَادِيَهُۥ﴾ أي أهل ناديه لنصره ومعونته ﴿سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ أي ملائكة العذاب ليجروه إلى النار، وهو في الأصل الشرط أي أعوان الولاة، وهي جمع لا واحد له من لفظه كعباديد، وقيل: مفرده زبنية كعفرية، أو زبني كأنه نسب إلى الزبن وهو الدفع ﴿كَلَّا﴾ ردع للناهي الغريق في المناهي ﴿لَا تُطِعۡهُ﴾ ودم على ما أنت عليه من مخالفته ﴿وَٱسۡجُدۡ﴾ وواظب غير مكترث به على أداء الصلوات لربك ﴿وَٱقۡتَرِب﴾ وتقرب بذلك إلى ربك.

❁ ❁ ❁

سورة القدر

مكيّة وآياتها خمس نزلت بعد عبس

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ۝٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ۝٥﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ أي القرآن الكريم وهو وإن لم يسبق ذكره قريباً لكن شهرة أمره وعظم قدره جعله كأنه مذكور وحاضر ومسطور. والإنزال متعلق به باعتبار إنزال الملك الموكل به وهو جبريل، أو أن الإنزال بمعنى الإيحاء. ونوقش بأنه لم ينزل كله مرة واحدة فكيف قال أنزلناه؟ والجواب: أنه مبني على إنزال كله مرة واحدة من اللوح إلى بيت العزة في السماء الدنيا، أو المراد ابتدأنا إنزاله والشيء المتتابع اللامنقطع بعضه عن بعض إذا نزل بعض منه فكأنه نزل كله ﴿فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ إما بمعنى ليلة الشرف والعظمة، أو بمعنى ليلة تقدير الأمور المستقبلية، فإنها تقدر المتعلق بكل سنة من السنين في هذه الليلة، وما يقال من أنها قدرت في ليلة النصف من شعبان، فجوابه أنها قدرت في نصف شعبان، ولكن نفذت من ليلة القدر في رمضان. روي أنه ذكر عند رسول الله ﷺ رجل من بني إسرائيل حمل السلاح على عاتقه في سبيل الله عزّ وجلّ ألف شهر تعجب رسول الله ﷺ لذلك وتمنى لأمته فقال: «**يا رب جعلت أمتي أقصر الأمم أعماراً، وأقلها أعمالاً**» فأعطاه الله ليلة القدر فهي من خصائص هذه وهي باقية على الصحيح، والعبادة فيها خير من العبادة في ألف شهر وهي ثلاث وثمانون سنة.

وإنزاله كان في ليلة القدر إلى بيت العزة مرة واحدة، ثم نزل على النبيّ ﷺ نجوماً متفرقة في مدة في ما بين البعث ووفاته ﷺ. ومعنى إنزاله من اللوح إلى بيت

العزة أن جبريل أملاه على ملائكة السماء الدنيا فكتبوه في صحف، وكانت تلك الصحف في محل من تلك السماء يقال له بيت العزة، فإن قلت: إن البعثة كانت على رأس الأربعين وميلاده ﷺ كان في ربيع الأول؟ فكيف يكون مبدأ الوحي في رمضان في ليلة القدر؟ أجيب بأن مبدأ الوحي كان بالرؤيا في ستة أشهر، وبدأ بربيع الأول وانتهى بأوائل رمضان، ثم نزل الوحي عليه ﷺ في رمضان.

والذي يظهر من الأحاديث الشريفة أن ليلة القدر ليلة شريفة خير من ألف شهر، وتكون في رمضان المبارك، وتنتقل أي قد تكون الليلة الأولى وقد تكون غيرها من الليالي. والظاهر من أقوال المحققين في الحديث الشريف أنها في العشر الأواخر من رمضان، فقد أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي عن عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: «**تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من شهر رمضان**». وحكمة انبهام عينها أن يرغب الناس في إحياء ليال كثيرة من هذا الشهر المبارك. وإذا أمكن لشخص أن يحيي ليالي رمضان كلها فذلك بركة لا يساويها بركة أخرى من إحياء الليالي بالطاعة.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣﴾ وهـذه الآيـة بيان إجمالي لشأنها وشرفها عند الله تعالى، ودرجات الأجور لأهل الأحياء فضلٌ من الله تتبع درجات نياتهم، ومن أحوالها أنه ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ۝٤﴾ الملائكة: وإن كان اسماً للنوع لكن المراد جمع مخصوص مأمورون بالنزول في تلك الليلة، والروح: هو جبريل ﵇، ونزولهم يكون بأمر صادر من ربهم سبحانه وتعالى، وقوله: من كل أمر أي من أجل كل أمر يتعلق به التقدير وقوله: ﴿سَلَٰمٌ﴾ خبر لقوله هي أي سلام مبالغة في تعظيم الليلة كأنها عين السلامة، لكثرة البركات النازلة إلى أهل الأرض وقوله: ﴿حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ غاية تبين تعميم السلامة فيها لكل من أسلم الله.

ونقل الطحاوي عليه الرحمة في حواشي الدر المختار عن بعض الشافعية أن أفضل الليالي ليلة مولده عليه الصلاة والسلام، ثم ليلة القدر، ثم ليلة الإسراء والمعراج، ثم ليلة عرفة، ثم ليلة الجمعة، ثم ليلة النصف من شعبان، ثم ليلة العيد. هذا هو المنقول فإذا ثبت هذا الترتيب بدليل فعليه التعويل. وإلا فأحي الليالي الفاضلة وتوكل في ثوابها على الله الجليل.

وبعض المحققين شبهوا الأزمنة والأمكنة الشريفة باللباس الناعم الجميل، ونية العامل هي لابس الألبسة فإذا كان اللابس حسن الصورة والسيرة فنعم اللابس والملبوس، وإلا فلا قيمة له حسب ما تحقق من الأدلة الشرعية. جعلنا الله تعالى من أصحاب النيات الحسنة وأفاض علينا من هباته برحمته إنه أرحم الراحمين.

۞ ۞ ۞

سورة البينة

مدنيّة وآياتها ثمان، نزلت بعد الطلاق

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.. الآية نقل وبيان لما زعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى وأهل الإشراك من أنهم أناس طيبون ولهم نوايا حسنة، وأنهم عندما بعث الرسول الموعود في جزيرة العرب وأتاهم بالبينة من الله أسلموا ودخلوا في الإسلام مع أنه لما أتاهم ذلك النبيّ الموعود المسعود كفروا به وعاندوا فقال تعالى: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ اليهود والنصارى ﴿وَ﴾ من ﴿ٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ﴾ عن دينهم الأساسي وعن تقاليدهم السابقة المتوارثة ﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ أي الحجة الواضحة والبرهان القاطع، وقوله: ﴿رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ عطف بيان للبينة أو بدل منه، وقوله: ﴿يَتۡلُواْ﴾ نعت له، أي يتلو على الناس ﴿صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ﴾ من إلقاء شياطين الجن والإنس ﴿فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ ﴿٣﴾﴾ أي فيها فرائض محكمة وعزائم ثابتة، أو فيها أحكام مكتوبة على صحف أمته قيمة مستقيمة ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي ما تفرقوا عن الإيمان حيث آمن قليل منهم وكفر كثيرون ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ المعهودة المسعودة، مع أنّه ما كلّفهم بما لا يطاق، وما أمرهم بشيء خارج عن الأدب والأخلاق كما قال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وحده لا شريك له ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ بدون شوب شائبة أخرى.

﴿حُنَفَآءَ﴾ مائلين من الكفر إلى الإيمان، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن

العصيان إلى الطاعة والإحسان ﴿وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي ويؤدوا الصلوات المفروضة ﴿وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المفروضة ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ﴾ الملة ﴿ٱلْقَيِّمَةِ﴾ المستقيمة وهو دين الإسلام الذي ارتضاه للعالمين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ استئناف لبيان خلود أهل الكفر في النار سواء كانوا من أهل الكتاب أو المشركين ومن الموجودين في عصر النزول أو اللاحقين، لأنّ أساس الاستحقاق هو الكفر وقد تحقق، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾﴾ أي شر الخليقة. وما دام أهل الكفر المنقسم إلى ما سبق مستحقين لذلك فأهل الإيمان والأعمال الصالحة يستحقون النعيم الخالد وقد قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ وأفضل من هذا الجزاء ما يستفاد من قوله: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ فلم يبق عنده سخط عليهم ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ أي ولم يبق عند الله تعالى ملل عنهم. وليس ذلك مختصاً بقوم مخصوصين بل ﴿ذَٰلِكَ لِـ﴾ كل ﴿مَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ لأن الخشية ملاك الأمر.

❀ ❀ ❀

سورة الزلزلة

مدنيّة وآياتها ثمان، نزلت بعد سورة النساء

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾.

قوله ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾﴾ أي إذا حركت الأرض تحريكاً عنيفاً مشتداً متكرراً، وزلزلت ذلك الزلزال الذي يليق بها عند نفخ الصور في المرة الأولى المدمرة للكائنات بأرضها وسمائها ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾﴾ أي الأثقال المكنوزة فيها، أو المدفونة فتشمل الموتى والمعادن والكنوز التي دفنت فيها ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي كل فرد من الموجودين إذ ذاك: ﴿مَا لَهَا﴾؟ تزلزلت هذه الدرجة من الزلزال وأي سبب حدث لها ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذ كان ذلك ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ الأرض بإنطاق الباري لها أو الملائكة المأمورة عليها أو بلسان الحال مجيبة عن الاستفهام السابق ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ﴾ أيها الإنسان السائل ما لها ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أي أمَرَها أو سخرها لذلك ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ جمع شتيت بمعنى أفواجاً متفرقة أي يخرجون من قبورهم أفواجاً وجماعات متفرقين ﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي ليحاسبوا عليها وليُبْصَروا جزاء أعمالهم، فإن كانت الزلزلة ناشئة من النفخة الثانية فالأمر واضح، وإن كانت من نفخ الصور في المرة الأولى ففيه مسامحة، لأن صدور الناس من المقابر لا يتصل بالنفخة الأولى بل بالثانية، لكن لما كان الفصل قليلاً كان كَأَنّه متصل بها ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ والذرة نملة صغيرة حمراء دقيقة جداً. ويجوز أن يراد بها المعنى المشهور وهو الجزء الذي لا يتجزأ. وهذه الآية أبلغ ما يقال في المحاسبة مع أي شخص، لأن الذرة بأحد المعنيين لا يقبلها الميزان حتى يدخل في الحساب والله أعلم بالصواب.

❀ ❀ ❀

سورة العاديات

مكيّة، وآياتها إحدى عشر، نزلت بعد سورة العصر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ۝١١﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾.. الآية قال ابن عباس ﵄: بعث رسول الله ﷺ سرية إلى أناس من بني كنانة فأبطأ عليه خبرها، واستمرت شهراً لا يعلم عنها شيئاً، ولم يأته منها خبر، وكان استعمل عليهم المنذر بن عمرو الأنصاري، فقال المنافقون: إنهم قتلوا. فنزلت هذه السورة إخباراً للنبيّ ﷺ بسلامة السرية وبشارة له بإغارتها على القوم الذين بعث إليهم، أخرجه البزار والدارقطني.

أقسم الباري سبحانه بالخيل تعدو في ميدان الحرب وتضبح ضبحاً أي تصوت أجوافها إذا عَدَتْ وَركضت بقوّة؛ فالعاديات هي الأفراس العادية ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢﴾ وأقسم بالخيول التي تضرب بنعالها الأحجار النارية فتوري النار فالموريات المشعلاتُ ناراً حين تقدح قدحاً ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣﴾ وأقسم بالخيول التي تغير على العدو عند الصباح ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾ أي فهيّجن في مكان عدوهن غباراً، والنقع الغبار ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥﴾ أي فوقعن مع ملابسة الغبار والعجاج وسط الأعداء بدون مبالاة بأيّ بلاء، وعطف الفعل على الأوصاف لأن اللام عليها موصول فهي في معنى الموصول، وصلة من جملة فعلية أقسم بها متلبسة بقيودها على مقسم عليه وبينه بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾ أي إن نوع الإنسان لكفور بالرب الذي خلقه وجحود لنعمته حيث أنعم عليه ورزقه ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي الإنسان على ذلك الكنود

والجحود الثابت له ﴿لَشَهِيدٌ﴾ يشهد على نفسه ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾ أي المال والثروة ﴿ٱلشَّدِيدَ﴾ أي قوي العزم ثم يزجره على ذلك ويقول: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ﴾ أي بعث وأخرج ما في القبور من الموتى وأحياهم الله تعالى للحساب ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾﴾؟ وأظهر وأخرج وأوضح ما في الصدور من الكفر والجحود وشدة حب الخير ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ﴾ أي بأحوالهم ﴿يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ ويجازيهم جزاء وفاقاً.

❀ ❀ ❀

سورة القارعة

مكيّة، وآياتها إحدى عشرة، نزلت بعد سورة قريش

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾﴾ هي في الأصل الصوت الشديد ويراد بها هنا حادثة مجيء يوم القيامة بالنفخ في الصور، لأنها تقرع القلوب والأجساد الكبيرة بالفزع، فإنها تؤثر في السماوات بالانشقاق، وفي الأرض بالتبديل، وفي الجبال بالدك والتفرق والتلاشي، والكواكب بالانتشار، وفي الشمس والقمر بالتكوير، والقارعة مبتدأ، وما استفهامية للتعجب والتهويل مبتدأ ثان، والقارعة خبره، والجملة خبر للمبتدأ الأول. واستغنى عن الضمير بتكرار نفس المبتدأ ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ﴾ يوم ظرف لمضمر دلت عليه القارعة أي تقرع يوم، أو لتأتي مقدراً أي القارعة تأتي وتتحقق يوم يكون الناس كالفراش ﴿ٱلْمَبْثُوثِ﴾ المنتشر في الأرض، والفراش جمع فراشة وهي التي تطير وتتهافت في النار وقيل هو طير رقيق يقصد النار ولا يزال يقتحم على المصباح ونحوه حتى يحترق. وقيل هو الجراد المنتشر في الأرض ويركب بعضه بعضاً. والمقصود أن الإنسان في ذلك الوقت يحتار ويضطرب من الدهشة والخوف ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾ كالصوف المندوف في خفة سيرها حتى تستوي مع الأرض، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾﴾ بيان لأحوال المكلفين في ذلك اليوم، وفيه إيجاز

الحذف، أي فيموت المكلفون وغير المكلفين ثم يبعث الجميع ويحاسب المكلف منهم، فأما من ثقلت موازينه أي موازين حسناته ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾ أي راض صاحبها بها ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ ۝٨﴾ أي موازين حسناته ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾ أي فمسكنه هاوية وتؤويه كالأم الحنون لولدها ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ﴾؟ أي الهاوية ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾ والهاوية في الأصل البقعة النازلة السافلة، والمراد هنا درك من دركات الجحيم أسفل الدركات، وهي ملأى من النار فجعلها نفس النار تسمية للحال باسم المحل، أعاذنا الله منها بكرمه وإحسانه آمين.

❀ ❀ ❀

سورة التكاثر

مكيّة، وآياتها ثمان، نزلت بعد سورة الكوثر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾.

قوله: ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ ألهى من باب الإفعال، والضمير مفعوله. والتكاثر فاعل ألهى، والمعنى شغلكم التباهي بكثرة الأنفس والإفراد عن الله تعالى والإيمان به وبرسوله وتوحيده وتحميده ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ أي توسلتم إلى التكاثر بالأموات المدفونين في المقابر، فزيارة المقابر كناية عن التفكر في عدد الأموات وتعدادهم للحصول على الغلبة على المقابل في كثرة.

روي أن بني عبد مناف وبني سهم تفاخروا أيهم أكثر عدداً فكثرتهم بنو عبد مناف، فقالت بنو سهم: إن البغي أهلكنا في الجاهلية، فعادّونا بالأحياء والأموات، فكثرتهم بنو سهم. ومنهم من فسر الآية بأنه أغفلكم عن الطاعة لله والإيمان به وبرسوله التكاثر بالأموال والأولاد والأمور الدنيوية حتى متم وزرتم المقابر. وفيه إشارة إلى التهكم بهم والسخرية بعقولهم، حتى صرتم كالموتى ووصل بكم الناس إلى المقابر للدفن.

﴿كَلَّآ﴾ ردع عن الاستمرار في الغفلة عن الحق ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما أمامكم من الحساب والميزان، ومن العذاب والعقاب ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ ذلك، وكرره للتأكيد في التوبيخ ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ﴾ الأمر ﴿ٱلْيَقِينِ﴾ المتيقن الغير المشوب، أو علماً يتحقق في ضمن القسم الكامل وهو اليقين أي الاعتقاد الجازم

الثابت المطابق للواقع في أحوال الآخرة وأهوالها وحالها ومآلها ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦﴾ أي لصرتم إلى حالة نفسانية وتحولتم إلى حالة إنسانية كأنكم ترون الجحيم بعيون أبصار فتكون الرؤية رؤية البصر، أو أدركتم وعلمتم بأحوالكم في الآخرة علم اليقين لأن العلم بالنتيجة تابع للعلم بالمقدمات، فلو تفكرتم بالنظر الصحيح في صدق الرسول في كلامه وأحكامه لوصلتم إلى العلم بالنتيجة وصولاً فعلياً بدون اشتباه، وقوله: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾ جملة مستأنفة معناها أنكم تفكرتم أو لا أو غفلتم عن الآخرة أو لا ستأتي القيامة وترون الجحيم ﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ لأن الإبصار بالعين يُزيل الاشتباه في البين.

قالوا: إن الإنسان يمتاز عن غيره بالعقل والعقل أساس العلم، والعلم إما بديهي لا يحتاج إلى الدليل، أو نظري يحتاج إليه، وما حصل بالنظر الصحيح القطعي يسمى علم اليقين، وما لم يحصل به يبقى في مقام النظر إلى وقت التّبيين. وأما العلم البديهي فإما يحصل بالحواس السليمة من العين أو السمع أو غيرهما فتسمى حسيات وقد تسمى عين اليقين بتغليب العين على غيرها من الحواس فالصوت الذي تسمعه من عين اليقين، كما أن العلم بالشيء الذي تبصره يسمى عين اليقين. وإن لم يكتسب من الحواس فإما يستغنى عما عدا تصورات الأطراف والنسبة فهو موسوم بالعلم الأوّلي والكل عنوانه الأوليات، وغيرها فطريات ووجدانيات، وتجريبيات، ومتواترات وحدسيات. والأوّليّ إذا لم يغب عن الذهن إلا في فترات فهو علم أوّلي ضروري ويسمى حق اليقين كعلمك بوجود نفسك، وعلى هذا المنوال استعمال كلمة حق اليقين وعين اليقين وعلم اليقين.

ثم إني جعلت قوله تعالى ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ جواباً لكلمة لَوْ وحملته على ما في الدنيا على معنى لو تعلمون علم اليقين صدق الرسول فيما جاء به من الله تعالى لترون الجحيم ولتعلمنَّ بوجودها في هذا العالم قبل الموت علم اليقين أو تكوننَّ كمَن يَرَوْنها عين اليقين فكونوا على البصيرة من هذا البيان.

وأصل تَرَوُنَّ ترأيون كتعلمون نقلنا حركة الهمزة إلى ما قبلها وحذفناها للتخفيف وقلبنا الياء ألفاً، وحذفناها لدفع إلتقاء الساكنين، ثم أكدناه بالنون الثقيلة فحصل التقاء الساكنين بين النون الأولى وواو الجمع فضممنا الواو لدفعه ولم نحذفها لعدم وجود دليل قبلها فاحفظه.

﴿ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ﴾ أي والله لتسئلن كلكم يومَ إذ جاء العِلمُ بعد الخبر ﴿عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ الذي تنعمتم به في الدنيا، لأن الكائنات مخلوقة لله، وما خلقها عبثاً وإنّما خلقها للعبودية له لا من جهة الاحتياج بل لاستحقاق الكامل المطلق للعبادة المطلق للعبادة المطلقة، فمن أوْفى بما خُلق له أو قارب فهو في أمان من عذاب الرحمن، ومن لم يوف فيوفى حسابه حسبما يقتضيه كتابه، نسأل الله أن يحاسبنا حساباً يسيراً بمنه ورحمته آمين.

❀ ❀ ❀

سورة العصر

مكيّة، وآياتها ثلاث نزلت بعد الشرح

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْعَصْرِ ① إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ② إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ③﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ①﴾ هذه السورة جمعت من العلوم ما جمعت فقد روي عن الإمام الشافعي رضي الله عنه لو لم ينزل غير هذه السورة لكفت الناس، لأنها شملت جميع علوم القرآن. وروى البيهقي في الشعب عن أبي حذيفة وكانت له صحبة قال: كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر ثم يسلّم أحدهما على الآخر. والمراد بالعصر صلاة العصر لفضلها لأنها الصلاة الوسطى عند الجمهور لقوله ﷺ: «**شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر شغلهم الله تعالى**» وفي الحديث: «**من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهلَه ومالَه**» وقيل: المراد به عصر النبوّة، وكأنه عني به وقت حياته ﷺ، وقيل: المراد الوقت الباقي من الدنيا لأمة سيدنا محمد ﷺ ويؤذن بذلك ما رواه البخاري عن سالم بن عبد الله عن أبيه أنه سمع النبيّ ﷺ: «**يقول إنما بقاؤكم فيمن سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس**» وقيل: المراد به العصر والزمان لكثرة الحوادث والتقلبات فيه بإذن الله تعالى والمقسم عليه ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ②﴾ أي في متاجرهم ومساعيهم وصرف أعمارهم في مطالبهم التي لا ينتفعون بها في الآخرة بل ربما تضرّهم ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ سواء كانت من الإيجابيات كأداء الواجبات والمندوبات أو السلبيات كترك المحرمات والمكروهات، فإنهم في تجارة تأتيهم وتعود عليهم بالخير في المساء والصباح. وهاتان المتعاطفتان تشملان كل خير اعتقادي أو عملي

فعلاً أو تركا. ولكنه لما كان التواصي بالحق والصبر من أهم الأمور تعرضلهما بالخصوص وقال ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾ أي وصى بعضهم بعضاً باتباع الحق في نفسه وفي كل ما يمكنه تنفيذه قولاً أو عملاً ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ أي وصى بعضهم بعضاً بملازمة الصبر عند فعل كل ما يشق فعله، وترك كل ما يشق تركه، وليس المراد بالصبر حبس النفس عما تشتاق إليه من فعل أو ترك وإنما المراد به السعي في تحويل نفسه إلى مقام الرضا بكل ما يأتي عليه من الله.

❀ ❀ ❀

سورة الهمزة

مكيّة، وآياتها تسع، نزلت بعد القيامة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾ عن ابن إسحاق قال: كان أمية بن خلف إذا رأى رسول الله ﷺ همزه ولمزه، فأنزل الله فيه هذه السورة أخرجه ابن المنذر وفي بعض الآثار: إن هذه السورة نزلت في أمية بن خلف وفي بعضها في الأخنس بن شريق. وفي بعضها في جميل بن عامر الجمحي وعلى كل فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وهمزة صيغة مبالغة في اتصاف صاحبه. والهمز الكسر كالهزم، واللمز الطعن كاللهز، شاعا في الكسر من أعراض الناس، والغض منهم واغتيابهم، والطعن فيهم ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾﴾ الموصول بدل من كل همزة بدل كل من الكل ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾﴾ وكان أحد من روي أن السورة نزلت فيه وهو أخنس بن شريق عنده عشرة آلاف، ومعنى قوله: ﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾ أنه عدّه مرة بعد أخرى حباً له وشغفاً به ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا﴾ ردع له عن ذلك الحسبان ﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ أي في النار التي شأنها أن تحطم كل من يلقى فيها ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾﴾ بإذن الله عزّ وجلّ ﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ أي تعلو أواسط القلوب وتغشاها. وفي الحديث أنها تأكل جزء من الجسد حتى تنتهي إلى فؤاده، فإذا بلغت فؤاده ابتدأ خلقه ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾﴾ أي إن

تلك النار مطبقة عليهم حال كونهم ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةِۭ ۝٩﴾ وحاصل المعنى أن المعذبين موثقون في عمد طوال حتى لا يخلصوا، والنار مستولية مطبقة عليهم بأمر الله تعالى.

۞ ۞ ۞

سورة الفيل

مكيّة، وآياتها خمس، نزلت بعد الكافرون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ۝١ أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ فِي تَضۡلِيلٖ ۝٢ وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ۝٤ فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ ۝٥﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ أو لكل من تمكن منه الرؤية، وليست الرؤية رؤية معاينة، بل علم حصل للناس من الروايات الكثيرة التي وصلت حد التواتر فصار كالمعاينة ﴿كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ﴾ المعنى أنه فعل بالفيل واسمه محمود، وبصاحبه وهو أبرهة ملك اليمن من جهة أصحمة النجاشي وبجيشه وهذه الحادثة كانت من تباشير طلوع شمس طلعة الرسول المختار من أفق العالم، وقد ولد ﷺ في تلك السنة.

والقصة أنّ أبرهة بن الصباح الأشرم ملك اليمن من قبل أصحمة النجاشي بنى كنيسة بصنعاء وسماها القُلَّيْسَ وأراد أن يصرف الحاج إليها، فخرج رجل من كنانة فقعد فيها ليلاً، فأغضبه ذلك فحلف لَيَهْدِمَنَّ الكعبة! فخرج بجيشه ومعه فيل قوي اسمه محمود، وفيلة أخرى. فلما تهيأ للدخول وعبأ جيشه، قَدَّمَ الفيل، وكان كلما وجّهوه إلى الحرم برك ولم يبرح. وإذا وجهوه إلى اليمن أو إلى جهة أخرى هرول، فأرسل الله طيراً كل واحد في منقاره حجر، وفي رجليه حجران أكبر من العدسة وأصغر من الحمصة فترميهم فيقع الحجر في رأس الرجل فيخرج من دبره فهلكوا جميعاً ﴿أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ﴾ في تضييع الكعبة وتخريبها ﴿فِي تَضۡلِيلٖ﴾ وإبطال ﴿وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ۝٣﴾ أي جماعات جمع إبّالة وهي الحزمة الكبيرة ﴿تَرۡمِيهِم﴾ من السماء ﴿بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ﴾ أي من طين متحجّر ﴿فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ ۝٥﴾ أي

كورق زرع وقع فيه الأكال وهو أن يأكله الدود أو أكل حبه فبقي صفراً منه، أو كتبن أكلته الدواب وراثته. وبذلك الجيش السماوي أهلك ذلك الجيش الأرضيّ بدون أن يتصوره أحد، ومعنى ذلك أن الله إذا أراد صيانة شيء حفظه، وهو على الله سهل يسير.

❁ ❁ ❁

سورة قريش

مكيّة، وآياتها أربع، نزلت بعد التين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾.

قوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾ جعل بعض المفسرين هذه اللام متعلقة بقوله تعالى فجعلهم أي فجعلهم كعصف مأكول لايلاف قريش ﴿إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢﴾ يعني جعلهم كذلك لبقاء ألفة قريش بتجارتهم ورحلتيهم السنويتين: رحلة إلى الشام في وقت الصيف، ورحلة إلى اليمن في الشتاء. فإنه لو لم يهلك جيش أبرهة لاستولوا على الحجاز وما والاها، وجعلوا أعزة أهلها أذلة وأفسدوا فلم تبق تجارة، ولا جلب عيش لهم، ولا أمان من الظالمين ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟﴾ أي وما دام الأمر كذلك ووجب عليهم الشكر فليعبدوا ﴿رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ من أصحاب الفيل، أو من أهل الإفساد والسوء من أي قبيلة وجيل.

❀ ❀ ❀

سورة الماعون

مكيّة، إلا ثلاث آيات الأولى منها وهي سبع آيات نزلت بعد التكاثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَرَءَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۝٧﴾.

قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝١﴾ نزلت في العاص بن وائل، أو الوليد بن المغيرة، وصدر الكلام استفهام معناه التعجب ورأيت إما بصرية متعدية لمفعول واحد هو الموصول أو إخبارية متعدية إلى مفعولين الأول الموصول، والثاني محذوف. أي من هو؟ والذين يراد به الجزاء في الآخرة أو الحساب. أي هل عرفت ذلك المفصول الموصول فإن لم تعرفه ﴿فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝٢﴾ أي يدفعه دفعاً عنيفاً إذا جاءه ويطلبه حاجة ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝٣﴾ أي يمنع نفسه وغيره عن إطعام المسكين، مع أنه يجب على الأغنياء إطعامه إما تبرعاً وهو الأحسن، أو بنية الرجوع عليه بالبدل إذا أمكن، وعليه فليشهد ذوي عدل لأداء الشهادة في وقتها، وقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤﴾ لفظ ويل مبتدأ وللمصلّين خبر، فإذا أريد به الموصول السابق فالمراد به من يجب عليه الصلاة وكلف بها وإن كان كافراً ولم يؤمن حتى يصلّي بناء على أن الكافر مكلف بالفروع. وإن أراد به غيره من المصلّين الكسالى كما يدل عليه قوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ فالأمر سهل، والمعنى فويل للكافرين الذين تجب عليهم الصلاة ولم يؤدوها إلا إذا إذا وقعوا في مجتمع وصلّوا رياء، أو الويل للمؤمنين ﴿الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ﴾ أي عن فعلها ﴿سَاهُونَ﴾ أي غافلون، أي معرضون عنها وتاركون لها إلا ما ندر مما وقع

وصادف لهم في جماعة: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ في الصلاة، وكالصلاة غيرها من العبادات التي يرائي فيها صاحبها فيسقط ثوابها، كلاً عند بعض، وبعضاً بمقدار ما قصده من الرياء عند آخرين.

وقوله: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾ جاء الماعون بمعنى المال وبمعنى المعونة وبمعنى القصعة التي فيها الطعام وبمعنى الزكاة وبمعنى الظروف والأدوات البيتية التي يعتاد الناس أخذها من الجار لاستعمالها في أوقات مخصوصة ثم ردها إلى أهلها. وليس المراد بها الأواني النفيسة التي يصعب على أصحابها استعمالها عندهم فضلاً عن غيرهم أبداً. والكلام من قوله فويل إلى آخر السورة ترقى الباري تعالى من المعرف إلى معرف أقوى أي إذا كان دع اليتيم وعدم الحض بتلك المثابة فما بال المصلّي الذي هو ساه عن صلاته التي هي عماد الدين والفارق بين الإيمان والكفر؟ ومرتكب للرياء في أعماله الذي هو شعبة من الشرك، ومانع الزكاة التي هي شقيقة الصلاة وقنطرة الإسلام، ومانع لإعارة الشيء الذي تعارف الناس إعادته فضلاً عن إخراج الزكاة من ماله فذلك العَلَم الأوضح الأوفى على التكذيب الذي قد يخفى، والغرض التغليظ في أمر هذه الرذائل التي ابتلي بها الكثير من الناس، وأنها لما كانت من سيما المكذب بالدين كان على المؤمن المعتقد المخلص أن يبعد عنها بمراحل، ويظهر أن أم كل معصية التكذيب بالدين، والمراد بالمكذب على هذا الجنسُ، والإشارة لا تمنع منه كما لا يخفى، وإن ورد في موارد معينة كما روي أن المورد عاص بن وائل أو وليد بن المغيرة أو أبو جهل، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وفقنا الله للوفاء بالدين وحقوقه المميزة للمسلمين آمين.

❁ ❁ ❁

سورة الكوثر

مكيّة، وآياتها ثلاث، نزلت بعد العاديات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

وسبب نزولها أن العاص بن وائل السهمي تلاقى مع رسول الله ﷺ في المسجد عند باب بني سهم فتحدثا، وناسٌ من صناديد قريش جلوس في المسجد، فلما دخل العاص قالوا له: من الذي كنت تتحدث معه؟ فقال: ذلك الأبتر، يعني به النبيّ ﷺ. وكان قد توفي ولده القاسم فنزل ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ أي أنا بجلالنا وعظمتنا ولتشريفك في العالم أعطيناك الكوثر وهو نهر في الجنة، أو حوضه المشهور بالحوض المورود يرد عليه المؤمنون قبل الدخول فيها، أو الكوثر الخير الكثير من النبوّة والرسالة، والقرآن الكريم، والخلق العظيم، وانتشار دينه في الآفاق، ووقوع الرعب منه في قلوب الأعداء مسيرة شهر، وأن أمته خير الأمم، وإجماعهم حجة على مر الزمان، وأنهم لا يجتمعون على ضلالة ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ أي فما دمت أنتَ وربك يهتم بشؤونك أينما كُنتَ فصل لربك صلاة عيد النحر وسائر الصلوات المفروضة وانحر الإبل في الأضحية، وهذا يؤيد أن السّورة مدنية لأن الصلاة المفروضة كانت ليلة الإسراء قبيل الهجرة وكذلك صلاة العيدين والنحر في عيد الأضحى، وإذا كانت مكيّة فمعنى الآية صلِ وانحر إذا فرضنا عليك، وهذه بشارة قدّمت إليك من إحسانه ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ أي مبغضك الذي يبغضه العالِمُ في العالَم ﴿هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ المنقطع عن كل خير لا أنت وأنت ينبوع الحكمة ورسول الرحمة، وترد عليك من الله النعمة تلو النعمة وستستمر المواهب من فياض الخير، وتنزل عليك وعلى كل من تبعك بإحسان إلى يوم الدين والحمد لله.

سورة الكافرون

مكيّة وآياتها ست، نزلت بعض الماعون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ هذه السورة نزلت عندما قال رهط من المشركين لرسول الله ﷺ: تعبدُ آلهتنا سنة، ونَعبُدُ إلهَك سنة. وورد في فضلها أحايث منها أن رجلاً قال للنبيّ ﷺ أوصني فقال: «**اقرأ عند منامك قل يا أيها الكافرون، فإنها براءة من الشرك**» ومنها قول ابن عباس رضي الله عنهما: ليس في القرآن أشدّ غيظاً منها لأنها توحيد وبراءة من الشرك وإنما زاد الإخلاص في الثواب عنها لأنها مشتملة على صفات الله تعالى صريحاً مع دلالتها على الإخلاص في التوحيد. والكافرون الذين ناداهم ﷺ جماعة مخصوصون من الكفار علم الله تعالى عدم إيمانهم أصلاً. والجملتان المكررتان بالعطف تكرارهما للتأكيد والمبالغة في المتاركة والمباعدة، وأن الفريقين متباينان في العقيدة والإيمان إلى أن ختم السورة بقوله المبين: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ أي لكم اعتقادكم وأعمالكم والجزاء المترتب عليهما ولنا اعتقادنا وأعمالنا والجزاء المرتب عليهما. فتكون السورة للمنابذة والمعاندة والمفارقة الأبدية. ثم نسخت بالإذن في الحرب والقتال بعد أن هاجر ﷺ ومضت مدّة، وإن كانت الجملتان المكررتان على اعتبارات مختلفة كما قالوا: إن النفي الأول في قوله الكريم: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ محمول على الحال، والثاني على الاستقبال أي لا أعبد في الحال ما تعبدونه من الأصنام ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ﴾ أيضاً في الحال ﴿مَآ أَعْبُدُ﴾ وهو الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم

﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ﴾ في المستقبل أبداً ﴿مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ فيه من الآلهة ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ﴾ فيه ﴿مَآ أَعۡبُدُ﴾. إذ ذاك فإنهم كانوا قوماً علم الله حرمانهم من الإيمان والأمان. ولذلك وقعت هذه المنابذة بينهما فـ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦﴾ والحكم لله رب العالمين.

❀ ❀ ❀

سورة النصر

نزلت في منى في حجة الوداع، فهي مدنيّة باعتبار أن ما نزل بعد الهجرة مدنيّة، وآياتها ثلاث نزلت بعد التوبة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾.

هذه السورة مدنية بالإجماع على ما ذكرنا، وتسمى سورة التوديع لما فيها من الدلالة على توديع الدنيا. واتفقت الصحابة على أن هذه السورة دلّت على نعي رسول الله ﷺ، وذلك لأمور منها: أنه ﷺ خطب وقال إن عبداً خيّره الله تعالى بين الدنيا ولقائه فاختار لقاء الله تعالى، فقال أبو بكر: فديناك بأنفسنا وأموالنا وآبائنا وأبنائنا. ومنها أنه لما ذكر حصول النصر والفتح ودخول الناس في دين الله أفواجاً دل على حصول الكمالات، وآنَ الأوانُ للّقاء ونيل البركات.

فيقول: ﴿إِذَا جَآءَ﴾ أي تحقق فعلاً وتقرر بإذن الله ﴿نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ لك على أعدائك في الدين فأيدكم بالعون والعزيمة وأبادهم بالهون والهزيمة ﴿و﴾ جاء ﴿ٱلْفَتْحُ﴾ أي فتح مكة المكرمة التي كانت عاصمة الحجاز وصارت مسلمة مؤمنة مطمئنة بذكر الله ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ أي في ملة الإسلام وقبول القرآن الكريم وبيانك قولاً وفعلاً وتقريراً للأحكام ﴿أَفْوَاجًا﴾ أي جماعات بعد فرادى متفرقات ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي فسبّح ربك متبركاً بحمده معه، وقل: سبحان الله والحمد للّه ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ وقل أستغفر الله ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ أي إن الله كان تواباً رجاعا إلى عباده بالستر والعفو والقبول وفتح باب الوصول، وذلك آخر محصول، متعنا الله والمسلمين بهذه الكرامات برحمته إنه أرحم الراحمين.

وكان فتح مكة في رمضان سنة ثمان من الهجرة وتوفي ﷺ في ربيع الأول سنة عشر منها. وعن ابن عمر ﵄ نزلت هذه السورة بمنى في حجة الوداع ثم نزل ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ فعاش النبيّ ﷺ بعدها ثمانين يوماً، ثم نزلت آية الكلالة فعاش بعدها خمسين يوماً، ثم نزل ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١﴾ فعاش بعدها واحداً وعشرين يوماً، وقيل سبعة أيام، ثم توفي ولقي الرفيق الأعلى.

❀ ❀ ❀

سورة المسد

مكيّة، وآياتها خمس، نزلت بعد الفاتحة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢
سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن
مَّسَدٍۭ ۝٥﴾.

روي أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ دعا ﷺ قومه ولا سيّما الأقربين فأنذرهم وقال لهم: «**إني نذير لكم بين يَدَيْ عذاب شديد**» فقال أبو لهب: تباً لك ألهذا دَعَوْتَنا؟ وأخذ حجراً ليرميه به فنزلت هذه السورة. فلما سمعت امرأته ما نزل في زوجها وفيها من القرآن أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر رضي الله عنه تعالى وفي يدها فهر من حجارة، فلما وقفت عليه أخذ الله بصرها عن رسول الله فلم تر إلا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر إن صاحبك قد بلغني أنه يهجوني، والله لو ووجدته لضربت بهذا الفهر فاه، والله إني لقائلة:

مذمّماً عَصَينا، وأمرَه أبَينا، ودينَه قلينا. ثم انصرفتْ فقال أبو بكر: يا رسول الله أما تراها رأتك؟ قال: ما رأتني، لقد أخذ الله بصرها مني، وكانت قريش تسمي رسول الله مذمماً ثم يسبونه أي ذو ذمة وعهد صادق.

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ أي خسرت وهو كناية عن هلاكه بالجملة، ونسبة التباب إلى يديه لأنهما من أقوى مظاهر العمل في الأخذ والدفع وغيرهما. وقد أخذ الحجر بيده ليرميه بها إليه ﷺ ﴿وَتَبَّ﴾ أي خسر هو وهذا إخبار بحصول التباب الذي دعا به عليه. ولما خوفه النبيّ ﷺ بالعذاب قال: إن كان الذي يقوله ابن أخي حقاً فإني أفتدي منه بمالي وولدي فنزل: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا

كَسَبَ ﴿٢﴾ والمراد مكسوبه من النتائج والأرباح والوجاهة والأتباع أو ولده عتبة، وقد افترسه أسد في طريق الشام، ومات أبو لهب بعد واقعة بدر بأيام معدودات بالعدسة، وهي قرحة. فمات وترك ثلاثة أيام حتى أنتن، فاستأجروا بعض الناس حتى دفنوه ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾﴾ أي ذات اشتعال ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾ عطف على الضمير المستتر في سيصلى لوجود الفصل بينهما، وهي أم جميل أخت أبي سفيان. وقوله: ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ منصوب على الذم أي اشتم، أو أعني والمراد بحملها الحطب التفتين بين الناس أو إثارة المشركين على الرسول ﷺ، أو أنها كانت تحمل حزمة من الأشواك بحبل من الليف لتضعها في طريقه ﷺ كي يتأذى بها، وقوله: ﴿فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾﴾ أي من الليف كالنص في هذا الأخير لولا رواية أنها تؤمر في جهنم لحمل الأحطاب بحبل في عنقها لتلقيها في جهنم كوقود هناك، والله المتعال أعلم بحقيقة الحال.

❀ ❀ ❀

سورة الإخلاص

مكيّة، وآياتها أربع، نزلت بعد سورة الناس

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣
وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ۝٤﴾.

روي أن قريشاً قالوا: يا محمد صِف لنا ربك الذي تدعونا إليه. فنزلت أي إن الذي أدعوكم إلى عبادته وتوحيده ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾ أي الذات الواجب الوجود الموصوف بالكمال، والمنزه عن النقص، وهو ضمير الشأن كما في هو زيد عالم، ومرجعه مضمون الجملة الواقعة بعده. والتركيب مغتفر وإن كان فيه الإضمار قبل الذكر لفظاً ورتبة لنكتة احتواء المقام على الإجمال والتفصيل، ويقع مبتدأ، والله مبتدأ ثان، وأحد خبره. والجملة خبر للمبتدأ الأول واستغنت عن الضمير لكونها عينه في المعنى. ولفظ ﴿أَحَدٌ﴾ يدل على مجامع الصفات الجلالية السلبية كما يدل لفظ الجلالة على الصفات الذاتية الكمالية، وذلك لأن الواحد الحقيقي لا بد أن يكون منزهاً عن التركيب والتعدد والاحتياج إلى الغير ومماثلة شيء مما سواه، وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ مبتدأ وخبر وبيان لكونه مرجعاً لحوائج ما سواه لأن الصمد هو السيد الذي ليس فوقه أحد ويصمد الناس إليه في قضاء الحوائج.

وما عدا الجملة الأولى كالبيان لها لأنه لما كان لفظ الجلالة رمزاً لاحتواء الصفات الذاتية الإيجابية ولفظ أحد رمزاً للصفات السلبية كانت الجملة الأولى مستوعبة لكل ما يناسب مقام الذات الواجب الوجود لأن صفاته تعالى عشرون صفة: الأولى هي الصفة النفسية وهي الوجود. والثانية إلى الثامنة صفات المعاني وهي الصفات الكمالية التي يعبر عنها بالحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام، والتاسعة إلى الخامسة عشرة هي الصفات المعنوية

ككونه تعالى: حياً، عليماً، قديراً، مريداً، سميعاً، بصيراً، متكلماً، وتستفاد من الصفات الكمالية التي تسمى بصفات المعاني. والسادسة عشرة إلى العشرين هي الصفات الخمس السلبية أعني القدم، والوحدة، والبقاء، والقيام بنفسه، ومخالفة الحوادث، والكل مستفاد من مفهوم أَحَدٌ.

والجُمَل الباقية كالبيان لما سبق فإن الله الأحد لا بد أن يكون صمداً ومرجعاً لجميع ما سواه ومن لوازم حقيقة ذلك الذات أنه ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ لأنه لا يحتاج إلى فرد من نوعه يحفظ به ذلك النوع إذ هو فرد مطلق مجرد عن التركيب، وأنه ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ لأن المولودية معناه الحدوث بعد العدم وسبق مرجع له يعود إليه وهو تعالى واجب الوجود وقديم ذاتا وزماناً وأنه ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا﴾ أي مكافئاً مماثلاً ﴿أَحَدٌ﴾ لأن مماثلة الحوادث مسلوبة عنه تعالى وفي الحقيقة أن الدين يسر وآيات الكلام المجيد نزلت على مقاربة فهم الناس ومناسبتهم ليستفيد الناس منها ما يحتاجون إليه من العقائد والأعمال، ولذلك صرح بتلك الجمل الأربع بعد جملة ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وإلا فهذه الجملة كافية في فهم صفاته تعالى مطلقاً.

وبالجملة إن هذه السورة العظيمة جامعة لصفات الباري تعالى الثبوتية والسلبية، وحقيقتها ترجع إلى ما يستفاد من لفظ الجلالة بالذات ولذلك اعتبرت لا إله إلا الله شعار التوحيد والله أعلم.

❁ ❁ ❁

سورة الفلق

مكيّة أو مدنيّة، وآياتها خمس، نزلت بعد الفيل

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ نزلت هذه السورة والتي بعدها لما سَحَر اليهوديُّ النبيَّ ﷺ، وذلك بإجماع الصحابة.

وحاصل الموضوع أنه لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية في ذي الحجة، ودخل المحرم سنَة سبع، وفرغ من واقعة خيبر جاءت رؤساء اليهود إلى لبيد بن الأعصم، وكان حليفاً في بني زريق، وكان ساحراً، فقالوا له: أنتَ أسحَرُنا، أي أعلَمُنا بالسحر، وقد سَحَرْنا محمداً فلم يؤثر فيه سحرنا شيئاً، ونحن نجعل لك جعلاً على أن تسحَرَه لنا سحراً يؤثر فيه. فجعلوا له ثلاثة دنانير. فأتى غلاماً يهودياً كان يخدِم النبيّ ﷺ، فلم يَزَل به حتى أخَذ مشاطة رأس النبيّ ﷺ، وعدة أسنان من مشطه، وأعطاه له، فسحره بها. وكان من جملة السحر صورة من شمع على صورة رأس رسول الله ﷺ. وقد جعلوا في تلك الصورة أبراً مغروزة إحدى عشرة، ووتراً فيها إحدى عشرة عقدة.

وكان النبيّ ﷺ كلما قرأ آية انحلّت عقدة، وكلما نزع إبرة وجد لها ألماً في بدنه، ثم يجد بعدها راحة، وكانت مدة سحره ﷺ أربعين يوماً.

إن قلت: كيف يؤثر السحر فيه ﷺ مع أنه معصوم بنص قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾؟ أجيب بأن المعصوم منه ما أدى لخبل في عقله، أو لضياع

شرعه، أو لموته. وأما ما عدا ذلك فهو من الأعراض البشرية الجائزة في حقه كما أن جرحه وكسر رباعيته لا يقدح في عصمته، إنتهى المقصود، وقد روى الواقعة في البخاري.

فيقول الباري آمراً حبيبه محمداً ﷺ ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ۝١﴾ والفلق الصبح، وقيل: الرحم لانفلاقه عن الولد، وقيل: كل ما انفلق عن جميع ما خلق من الحيوان والحب والنوى وكل نبات. وقيل غير ذلك، وقوله: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ أي من شر ما خلقه من حيوان مكلف وغير مكلف، وجماد كالسم وغير ذلك ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ﴾ أي من شر الليل ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ أي اشتد ظلامه، أو القمر إذا غاب ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ۝٤﴾ أي ومن شر النفوس السواحر التي تنفث في العقد التي تعقدها في الخيط وتنفخ فيها بشيء تقوله من غير ريق ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ أي ومن شر حاسد أي من له قوة الحسد، وهو حب زوال النعمة عن المحسود إذا أظهر الحسد، وأما إذا أهمله فلا يضر أحداً لكنه يحترق بناره في قعر داره أعاذنا الله تعالى منه ومن كل داء.

❀ ❀ ❀

سورة الناس

مكيّة، أو مدنيّة وآياتها ست، نزلت بعد الفلق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ هذه السورة قال بعض إنها مكيّة ولكن الصحيح أنها مدنية، وكذلك سورة الفلق لأنّ سبب نزولهما واقعة السحر، وهي كانت بالمدينة المنوّرة بعد واقعة الحديبيّة سنَةَ سبع.

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ وإن كان هو ربّ الخلائق كلهم لأن الناس بالمعنى المشهور أي الإنس هم أشرف المكلفين، وهم الذين وقعوا في معرض الهلاك من دسائس النفس ووساوس الشياطين والملائكة لهم أمان من ذلك لعصمتهم. والأنبياء، وإن كانوا معصومين لكن لهم النفس ومخافة الخطر من الظفر ولذلك قال سيدنا يوسف عليه السلام ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ والرب هو المربي والمُدَرِّجُ من طور إلى طور، والحافظ لما يربّيه، والناس إما من النوسِ بمعنى التحرك لأن البشر يتحرك على الأرض وصار متحركاً في الجو، أو من الأنس ضدّ الوحشة، وهو مختص بالبشر، خلافاً لمن قال إنه يطلق على الجن أيضاً، فيقال كما نقل عن بعض أهل اللغة: ناس من الجن كما يقال نفر ورجال منهم إذ المعروف عند الناس خلاف ذلك، ثم كرر الناس في السورة باعتباراتٍ مختلفة؛ فالناس في قوله: ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ يراد به الكل لأن الكل في أشد الحاجة إلى التربية والتنمية والإيصال إلى الحد المناسب حسب الحكمة الفائقة الربانية. وفي ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾ يجوز النظر إلى اعتبار القوة والغلبة فيهم عند الشباب

والاستواء الداعية إلى الحاجة الملحة إلى ملك مهيمن مسيطر عليهم وفي ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ ينظر إلى اعتبار الكهولة وما فوقها المناسبة للعبادة والإنابة والطاعة، وفي قوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ إلى قسم خاص من الناس المفسدين الموسوسين في قلوب البشر الدافعين لهم إلى الخطر، وبتلك الاعتبارات حسن التكرار.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ أي خالقهم ومربيهم ومالك أمورهم ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾ المصيطر على كل قوي إذ لا قوة في مقابلة الله القوي العزيز ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ ومعبودهم الذي يليق بالمعبودية لكونه خالقاً رازقاً مُعيناً مُوفقاً ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ أي الوسوسة كالزلزال بالفتح بمعنى الزلزلة والمراد به الموسوس الملقي لها إلى القلوب ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ أي الموسوس الذي عادته أن يخنس ويتأخر إذا عارضه شيء، فالشيطان الموسوس يتأخر عند مدافعة نور القلب له سواء حصل من الذكر أو الفكر، والإنسان الموسوس يتأخر إذا صادف عقلاً سليماً وفكراً مستقيماً يدقق ما ألقي إليه حتى لا يقع في المهالك ﴿ٱلَّذِى﴾ نعت للوسواس بمعنى الموسوس ﴿يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ وقوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ بيان للوسواس. والجنة اسم جنس جمعي يفرق بينه وبين واحده بالياء، فيقال جن وجني كما يقال زنج وزنجي. والتاء لتأنيث الجماعة، وظاهر الآية الشريفة أن الوسواس كما يوجد في الجن فهو موجود في الإنس، وغالب ذلك يحصل من المجاورة والمحاورة. فعلى المسلم أن يختار أهل الصدق لصحبته بقدر الإمكان قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١١٩﴾. جعلنا الله تعالى معهم في الدنيا والآخرة مع سلامة البصيرة وصحة الباصرة.

هذا آخر ما يسر الله تعالى، ووفقني عليه من تفسير كتابه الكريم آخذاً من تفاسير المفسرين، وتقارير الأساتذة المتفكرين، جزاهم الله تعالى بالخير يوم الدين.

وقد صادف الختام ضحوة يوم الخميس السابع والعشرين من رجب سنة ألف وأربعمائة وأربع هجرية الموافق لسنة ألف وتسعمائة وخمس وثمانين ميلادية، في بلدة بغداد التي كانت عاصمة الخلفاء والأئمة المجتهدين والأولياء العرفاء، وكنت مدرساً في مدرسة حضرة سيدنا القطب الرباني الشيخ عبد القادر الحسني الحسيني الگيلاني، نور الله ضريحه، وروّح روحه، ونفعنا ببركاته ونفحاته وأنواره القدسية آمين.

وأنا الخادم للعلم والدين عبد الكريم بن محمد بن فتاح بن سليمان بن مصطفى بن محمد الشهرزوري من عشيرة القاضي القاطنين في ناحية سيد صادق ﷺ. وأحمد الله الكريم على أن وفقني لطبعه ونشره، كما وفقني على جمعه وتأليفه في مدة سنتين. والله على كل شيء قدير وبإجابة دعاء المضطرين جدير. سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد للّٰه رب العالمين. وقد عاصرت زمان نقابة النقيب الجليل السيد يوسف عبد الله الگيلاني والسد أحمد مظفر الگيلاني حفظهما الله تعالى بفضله وإحسانه آمين.

❀ ❀ ❀

فهرس المحتويات

إن هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم ٥
سورة غافر ٧
سورة فصلت ٢٥
سورة الشورى ٣٨
سورة الزخرف ٥٣
سورة الدخان ٦٨
سورة الجاثية ٧٦
الجزء السادس والعشرون سورة الأحقاف ٨٥
سورة محمد ٩٦
سورة الفتح ١٠٦
سورة الحجرات ١٢٠
سوق ق ١٢٩
الجزء السابع والعشرون سورة الذاريات ١٣٦
سورة الطور ١٤٣
سورة النجم ١٥٠
سورة القمر ١٦٠
سورة الرحمن ١٦٧
سورة الواقعة ١٧٦
سورة الحديد ١٨٧
الجزء الثامن والعشرون سورة المجادلة ٢٠٠
سورة الحشر ٢٠٨
سورة الممتحنة ٢١٨
سورة الصف ٢٢٦

سورة الجمعة ٢٣٢
سورة المنافقون ٢٤٠
سورة التغابن ٢٤٤
سورة الطلاق ٢٤٩
سورة التحريم ٢٥٧
الجزء التاسع والعشرون سورة الملك ٢٦٣
سورة القلم ٢٦٩
سورة الحاقة ٢٧٦
سورة المعارج ٢٨٢
سورة نوح ٢٨٦
سورة الجن ٢٩١
سورة المزمل ٢٩٩
سورة المدثر ٣٠٥
سورة القيامة ٣١٣
سورة الإنسان ٣١٩
سورة المرسلات ٣٢٥
الجزء الثلاثون سورة النبأ ٣٢٩
سورة النازعات ٣٣٤
سورة عبس ٣٣٩
سورة التكوير ٣٤٣
سورة الانفطار ٣٤٧
سورة المطففين ٣٥٠
سورة الانشقاق ٣٥٤
سورة البروج ٣٥٧
سورة الطارق ٣٦٠
سورة الأعلى ٣٦٣
سورة الغاشية ٣٦٥

سورة الفجر ٣٦٧
سورة البلد ٣٧٢
سورة الشمس ٣٧٤
سورة الليل ٣٧٦
سورة الضحى ٣٨٠
سورة الشرح ٣٨٤
سورة التين ٣٨٧
سورة العلق ٣٨٩
سورة القدر ٣٩٣
سورة البينة ٣٩٦
سورة الزلزلة ٣٩٨
سورة العاديات ٤٠٠
سورة القارعة ٤٠٢
سورة التكاثر ٤٠٤
سورة العصر ٤٠٧
سورة الهمزة ٤٠٩
سورة الفيل ٤١١
سورة قريش ٤١٣
سورة الماعون ٤١٤
سورة الكوثر ٤١٦
سورة الكافرون ٤١٧
سورة النصر ٤١٩
سورة المسد ٤٢١
سورة الإخلاص ٤٢٣
سورة الفلق ٤٢٥
سورة الناس ٤٢٧